شرح مَتْنُ المختارات العِمَادِيَّة في (الأجزاء الحديثية) صَحِيحِ وضَعِيفِ الأَذْكَارِ الصَّبَاحِيَّة والمسَائِيَّة

مِنْ أَسْبَابِ الوِقَايَةِ والفَلَاح

شَرْحُ صَحِيحِ أَذْكَارِ المَسَاءِ والصَّبَاح

جَمَعَهُ ورَتَّبَهُ

خَادِمُ القرآنِ والسُّنَّةِ / عِمَادُ الدِّين أَبُو النَّجَا

عَفَا اللهُ عَنْهُ وَعَنْ وَالِدَيْهِ وَأَهْلِهِ وَمَشَايِخِهِ وطُلَّابِهِ وَلِمَنْ دَعَا لَهُم وَلِلمُسْلِمِين

حقوق الطبع لكل مسلم

بسم الله الرحمن الرحيم

شُكـــــر

انطلاقًا من قوله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللَّهَ " (صحيح التِّرْمِذِيّ / ١٩٥٥) فإنني أشكره سبحانه – ؛ استجابة لأمره إذ قال – تعالى – : (أَنِ اشْكُرْ لِي) (لقمان / ١٤) كما أشكره – سبحانه – أن هدانا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ .

وبعد شكره – سبحانه – فإنني أشكر رسولَه – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – الذي علّمني وعلّم الأمة بأسرها فكان المعلِّم الأول للأمة . كيف لا وقد تولّى ربُّه تعليمه ، قال – سبحانه وتعالى – مخاطبًا إياه :

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا) (النساء / ١١٣) ، فكان – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أعلم العلماء وأحكم الحكماء ، ولمّا علّمه ربُّه أمره بالبلاغ فقَالَ تَعَالَى : (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ) (المائدة / ٦٧) ، قال الشيخ السعدي – يرحمه الله تعالى – عند تفسير هذه الآية : " هذا أمر من الله لرسوله محمد – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بأعظم الأوامر وأجلها ، وهو : التبليغ لما أنزل الله إليه ، ويدخل في هذا كل أمر تلقته الأمة عنه – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – من العقائد والأعمال والأقوال ، والأحكام الشرعية والمطالب الإلهية إنما كان بتبليغه – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – إياه فبلَّغ أكمل تبليغ ، ودعا وأنذر ، وبشَّر ويسَّر ، وعلَّم الجهال الأمّيين حتى صاروا من العلماء الربانيين ، وبلَّغ بقوله وفعله وكتبه ورسله . فلم يبق خير إلا دلَّ أمته عليه ورغبها فيه ، ولا شر إلا ونهى الأمة عنه وحذرها منه ، وشهد له بالتبليغ أفاضل الأمة من الصحابة ، فمن بعدهم من أئمة الدين ورجال المسلمين ، ومن هنا يجب الإيمان بأن الرسول – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بلَّغ الرسالة ، وأدَّى الأمانة ، ونصح للأمة " .

وبعد شكر الله – عزّ وجلّ – وشكر رسوله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فإنني :

أولًا : أشكر الصحابة – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم – أجمعين ، الذين نقلوا لنا هذا الدين ، وبذلوا من أجله كلَّ غالٍ وثمين ، بعد أن نهلوا من معين رسولنا الأمين ، فعَلِموا وعَمِلوا وبَلَّغوا خير دين ، جمعنا الله وإيَّاهم مع سيِّدِ وَلَدِ آدم أجمعين .

ثانيًا : أشكر علمائنا ومشايخنا الذين لهم الفضل بعد الله في تعليمنا وتأديبنا .

ثالثًا : أشكر والداي ففضائلهما عليَّ تترا قال – تعالى – : (أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ) (لقمان / ١٤) .

رابعًا : أشكر كل من ضحَّى أو تنازل عن حق من حقوقه من أجل إتاحة الوقت لي لإنجاز هذا العمل من زوجة وأولاد ومَن لهم حق عليَّ .

خامسًا : أشكر إخواني وتلامذتي وكل من ساهم في خروج هذا العمل من كتابة وطباعة وتنسيق وكذا نصح وتوجيه .

سادسًا : القراء وكل من سيقدِّم لي نقدًا بناءً ونصيحة لله أو توجيهًا أو إرشادًا أو تصويب أخطاء أو أيَّ شئ من شأنه إخراج هذا العمل في أفضل صورة ليعمَّ النفع به كل الناس .

مقـــدمـــــة

إنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَ نَسْتَعِينُهُ ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ) (آل عمران / ١٠٢) .

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللَّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١)) (النساء) .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١)) (الأحزاب) .

أما بعـــــــــــــد

– أحبتي ، الذِّكر ، ما الذِّكر ؟ وما أدراكم ما الذِّكر ؟

لا يوجد عمل أشرح للصدر ، وأعظم للأجر ، كالذكر (فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ) (البقرة / ١٥٢)

ليس العجب من فقير يلجأ إلى غني ، ليس العجب من ضعيف يلجأ إلى قوي ، ليس العجب من قوله – عز وجل – : (فَاذْكُرُونِي) ؛ إنما العجب من قوله : (أَذْكُرْكُمْ) .

مَنْ نحن حتى يذكرنا الله – سبحانه وتعالى – إن ذكرناه ؟!!

قَالَ رَسُولُ اللهِ – صلى الله عليه وسلم – : " قَالَ الله : يَا ابْنَ آدَمَ إِنْ ذَكَرْتَنِي فِي نَفْسِكَ ؛ ذَكَرْتُكَ فِي نَفْسِي ، وَإِن ذَكَرْتَنِي فِي مَلإٍ ذَكَرْتُكَ فِي مَلإٍ خَيرٍ مِنْهُمْ ، وَإِنْ دَنَوْتَ مِنِّي شِبْرًا دنَوْتُ مِنْكَ ذِرَاعًا ، وَإِنْ دَنَوْتَ مِنِّي ذِرَاعًا دَنَوْتُ مِنْكَ بَاعًا ، وَإِنْ أَتَيتَنِي تَمْشِي أَتَيتُكَ أُهَرْوِلُ "

رواهُ أحمدُ ، تحقيق الألباني : (صحيح) انظر حديث رقم : ٤٣٣٧ في صحيح الجامع .

قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : قَالَ اللهُ تَعَالَى : " عَبْدِي إِذَا ذَكَرْتَنِي خَالِيًا ، ذَكَرْتُكَ خَالِيًا ، وَإِنْ ذَكَرْتَنِي فِي مَلَأٍ ذَكَرْتُكَ فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ ، وَأَكْبرَ " رواهُ البَيهَقِيُّ ، تحقيق الألباني (صحيح) انظر حديث رقم : ٤٣٢٤ في صحيح الجامع . وصححه الألباني في الصحيحة / ٢٠١١) .

وَالذِّكْرُ الْخَفِيُّ ضَرْبَانِ ، أَحَدُهُمَا الذِّكْرُ فِي النَّفْسِ ، وَقَدْ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ :

(وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً) (الأعراف / ٢٠٥) وَالْآخَرُ مَا دَارَ بِهِ اللِّسَانُ وَلَمْ يَسْمَعْهُ إِلَّا صَاحِبُهُ .

الله .. جل جلاله .. يجعل ذكره لهؤلاء العبيد مكافأة لذكرهم له ، إن العبيد حين يذكرون ربهم ، يذكرونه في هذه الأرض الصغيرة ، وهم أصغر من أرضهم الصغيرة ، والله حين يذكرهم ، يذكرهم في هذا الكون الكبير ، وهو الله العلي الكبير ، أيُّ تفضل وأيُّ كرم !! وأيُّ فيض في السماحة والجود !! إنه الفضل الذي لا يفيضه إلا الله ، الذي لا خازن لخزائنه ، ولا حاسب لعطاياه ، الفضل الفائض من ذاته بلا سبب ، ولا موجب إلا أنه هكذا ، هو – سبحانه وتعالى – فياض العطاء . إنه ذلك الفضل الذي لا يصفه لفظ ، ولا يعبر عن شكره إلا سجود القلب .

– وقد سرت في عرض مادة هذا البحث وَفْقَ المنهج الآتي :

أولًا : صحيحي البخاري ومسلم ، وقد رمزت للبخاري بـ (خ) ، ولمسلم بـ (م) .

ثانيًا : صحيح السنن (أبو داود و النَّسائي و التِّرمذي و ابن ماجه) للشيخ الألباني ، وكذا

أولًا : صحيحي البخاري ومسلم ، وقد رمزت للبخاري بـ (خ) ، ولمسلم بـ (م) .

ثانيًا : صحيح السنن (أبو داود و النَّسائي و التِّرمذي و ابن ماجه) للشيخ الألباني ، وكذا

(صحيح الترغيب والترهيب) و(صحيح الجامع الصغير) و (صحيح الأدب المفرد) و (كتاب الجنائز) .

وكلها للشيخ الألباني – يرحمه الله تعالى – ، و كنت في كل هذا أذكر الحديثَ ورقمَه في صحيحي البخاري ومسلم أو رقمه في كتب الشيخ الألباني ثم أُتبعُ ذلك بحُكْمِهِ عليه ، وهذه الطَّبعةُ اقتصرت فيها على متنِ الحديثِ فقط ، وسيتبعها – إن شاء الله – طبعةٌ أخرى مشروحة . هذا ، ولا أدَّعي كمالَ عَمَلِي هذا ولا خُلُوِّه من الخطأ ، وهذا شأن أي عمل بشريّ فما من كتاب أو مؤلَّفٍ إلا ويبدؤه مؤلِّفُه بالمعذرة إذا وُجد خطأ ، إلا كتابَ اللهِ الذي بدأَهُ الله – تعالى – بقوله : (الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ) (البقرة) فسبحان من حَفِظَ كِتابَه وعَصَمَهُ من الخطأِ أو التفريطِ فقال : (مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ) (الأنعام / ٣٨) فمهما أتقن الإنسانُ عَمَلَه ، فإنَّه لا يصلُ إلى رتبة الكمالِ المطلقِ ، ومهما بالغَ في تنقيحِ كتبِه ومصنفاتِه ، فإنَّه سيبقى فيها بعضُ الخللِ والاعتراضات ، وفي هذا دليلٌ واضحٌ على استيلاء النقصِ على الجنسِ البشري الضعيف ، وفيه أيضًا تأكيدٌ لكون القرآنِ آيةٌ من عند الله أيَّدَ بها رسولَه الأمين ، و تحدَّى بها العالمين ، وقد وصفه تعالى بقوله :

(لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) (فصلت / ٤٢) .

وإنِّي إذ أحمدُ اللهَ سبحانه على توفيقهِ لي في الشُّروعِ في كتابةِ هذا الكتاب ، كُلِّي أملٌ أن يقع عَملي هذا موقع الرِّضَا والقَبُولِ عند الله . وقد بذلتُ فيه ما وَسِعني من جُهدٍ ، فإن أصبتُ فمن اللهِ سبحانه ، وأسألُهُ أن يجعَلَ عملي هذا خالصًا لوجهه الكريم ، ومُدَّخرًا لي في صالحِ العمل ، أَزْدَلِفُ به إليه يوم الحشرِ الأكبر ، وإنْ كنتُ أخطأتُ أو أسأتُ في عَمَلي ، فأستغفرُ اللهَ العظيم منه ، وأُذكِّرُ كلَّ مَن يقفُ على شيءٍ من ذلك بقولِ الإمام الخَطَّابي – يرحمه الله – :

(وكلُّ مَن عَثَرَ منه على حرفٍ أو معنًى يجبُ تغييرُهُ فنحنُ نناشدُهُ اللهَ في إصلاحه وأداءِ حقِّ النَّصيحة فيه ، فإنَّ الإنسانَ ضعيفٌ لا يَسْلَمُ من الخطأ إلَّا أنْ يعصِمَهُ الله بتوفيقه ، ونحنُ نسألُ الله ذلك ، ونَرْغَبُ إليه في دَرَكِهِ ، إنَّه جَوَادٌ وَهَّابٌ) .

والشُّكرُ موصولٌ إلى كلِّ مَن يقفُ على خطأٍ فيه فيُرشدُني إليه ، ورَحِمَ الله امرءًا أهدى إليَّ عيوبي . والرجاء موصولٌ لكلِّ مَن ينظُرُ فيه أن يهدِيَني دعوةً صالحةً بظهر الغيب .

كَتَبْتُهُ مُجْتَهِدًا ... وَلَيْسَ يَخْلُو مِنْ غَلَطْ

فَقُلْ لِمَنْ قَدْ لَامَنِي ... مَنْ ذَا الذِي مَا سَاءَ قَطْ

وآخِرُ دعوانا أنِ الحمدُ لله ربِّ العالمين ، وصلِّ اللهم على سيِّدنا محمّد وعلى آلهِ وصحبِه وسَلِّمَ تسليمًا كثيرًا .

كتبه

أبو حمزة

عمادُ الدين بنُ عبدِه بنِ أحمدَ بنِ أبي النَّجا

مصر – بورسعيد

وقد شرح الله صدري لكتابة :

(مِنْ أَسْبَابِ الوِقَايَةِ والفَلَاح شَرْحُ صَحِيحِ أَذْكَارِ المَسَاءِ والصَّبَاح) .

وقد أكرمني الله بكتابة بعض الأربعينات مثل :

(مَتْنُ الأَرْبَعِينَ العِمَادِيَّة فِي فَضَائِلِ العُلُومِ الشَّرْعِيَّة مِنْ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّة) .

(الأَرْبَعُونَ العِمَادِيَّة فِي فَضَائِلِ لَا إِلَهَ إِلَّا الله مِن السُّنَّةِ النَّبَوِيَّة) .

(الأَرْبَعُونَ العِمَادِيَّة فِي الفَضَائِلِ الأَخْلَاقِيَّة) .

(الأَرْبَعُونَ العِمَادِيَّة فِي المَسَاوِئِ الأَخْلَاقِيَّة) .

(الأَرْبَعُونَ العِمَادِيَّة فِي المَحَاسِنِ الأَخْلَاقِيَّة) .

(الأَرْبَعُونَ العِمَادِيَّة فِي تَقْوَى رَبِّ البَرِيَّة) .

(الأَرْبَعُونَ العِمَادِيَّة فِي الذِينَ يُحِبُّهُم رَبُّ البَرِيَّة) .

(الأَرْبَعُونَ العِمَادِيَّة فِي المَشْهُودِ لَهُمْ بِالخَيرِيَّة) .

(الأَرْبَعُونَ العِمَادِيَّة فِي المَوْعُودِينَ بِالمَغْفِرَةِ مِنْ كَلَامِ خَيرِ البَرِيَّة) .

(الأَرْبَعُونَ العِمَادِيَّة فِيمَا تَعَوَّذَ مِنْه خَيرُ البَرِيَّة) .

(الْأَرْبَعِون الْعِمَادِيَّة فِي الفَضائِلِ القُرْآنِيَّة) .

(الأَرْبَعُونَ العِمَادِيَّة فِيمن لُعِن فِي شَرِيعَتِنا الإسلامية) .

(الأَرْبَعُونَ العِمَادِيَّة فيمَنْ قِيلَ عَنْهُ (لَيسَ مِنَّا) فِي السُّنَّةِ النَّبَوِيَّة) .

(الأَرْبَعُونَ العِمَادِيَّة فِي الحُقُوقِ الزَّوْجِيَّة) .

(الأَرْبَعُونَ العِمَادِيَّة فِيما يرفع الدرجات مِنْ السنة النبوية) .

(الأَرْبَعُونَ العِمَادِيَّة فِيما يحُطُّ الخطِيئات مِنْ السُّنَّة النَّبَوِيَّة) .

(مَتْنُ الأَرْبَعِينَ العِمَادِيَّة فِيما يُكفِّر السَّيئات ويمحو الخطيئات مِن السُّنَّة النَّبوِيَّة) .

(مَتْنُ الأَرْبَعِينَ العِمَادِيَّة فِي الأَذْكارِ المسَائِيَّة والنَّومِ والصَّبَاحِيَّة) .

– وقد شرح الله صدري لكتابة سلسلة المئين ومنها :

(مَتْنُ المِئَوِيَّةُ العِمَادِيَّة في المَسَاوِئ الأَخْلَاقِيَّة) .

(مَتْنُ المِئَوِيَّةُ العِمَادِيَّة في المَحَاسِنِ الأَخْلَاقِيَّة) .

(مَتْنُ المِئَوِيَّةُ العِمَادِيَّة فِي مختارات من الكنوز القولية) .

(المتوعدون بالنار من مقبول حديث خير الأبرار) .

(الموعُودُونَ بِالجَنَّة مِنْ مَقْبُولِ السُّنَّة) .

– وقد شرح الله صدري لكتابة بعض الرسائل والشروحات ومنها :

(تَعَرَّف عَلَى اللهِ فِي عَليائه بِمَعْرِفَةِ مَعَانِي أَسْمَائِه) .

(الكَلِمَاتُ النَّاصِحَة فِي التَّحْذِيرِ مِنْ (مِائة) ١٠٠ خَطَأ فِي قِرَاءَةِ الفَاتِحَة) .

(شَرْحُ الثَّلَاثَةِ الأُصُول فِي سُؤَالٍ وَجَوَاب) .

(هَدِيَّةٌ مِنَ الأَحْيَاءِ لِلأَمْوَات ومَعْرِفَةُ مَا يَنْفَعُ الأَمْوَات) .

(خُطُوَاتٌ عَمَلِيَّة لِنُصْرَةِ خَيْرِ البَرِيَّة) .

(أَدْعِيَةٌ وَأَذْكَار مُنْذُ الخُرُوج لِلْعُمْرَة وحَتَّى يَأْذَنَ اللهُ بِالْعَوْدة) .

(العُمْرَة خُطْوَة خُطْوَة مِنْ بَيتك حَتَّى العَوْدَة) .

(تَلْخِيصُ العُمْرَةِ النَّبَوِيَّة كَمَا فِي السُّنَّةِ المَرْوِيَّة) .

(مِنْ أَسْبَابِ الوِقَايَةِ والفَلَاح شَرْحُ صَحِيحِ أَذْكَارِ المَسَاءِ والصَّبَاح) .

(التجويد الكافي شَرْحُ مَنْظُومَةِ السَّلْسَبِيلِ الشَّافِي فِي سُؤَالٍ وَجَوَابٍ وَافِي) (تحت الإعداد) .

(شُعَاع مِنَ الضُّوء حَولَ الكَلامِ عَنِ الوُضُوء) .

(هَل اسْتَجَبْنَا لِأَمْرِ خَيرِ البَرِيَّات " أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ ") .

– سلسلة (تَوضِيحُ السُّنَّةِ لِعَامَّةِ الأُمَّةِ و تَبيينُ مُعْتَقَد أَهْلِ السُّنَّةِ) :

أولًا : (الشَّرْحُ المُعين لِحِفْظِ وفَهْمِ الأَرْبَعِين و تَتِمَّة الخَمْسِين) مع الأسئلة والأجوبة التدبرية .

سلسلة الأجزاء الحديثية (١) :

مَتْنُ المختارات العِمَادِيَّة في (الأجزاء الحديثية) صَحِيحِ وضَعِيفِ الأَذْكَارِ الصَّبَاحِيَّة والمسَائِيَّة .

سلسلة الأجزاء الحديثية (٢) :

مَتْنُ المختارات العِمَادِيَّة في (الأجزاء الحديثية) الحياة البرزخية .

سلسلة الأجزاء الحديثية (٣) :

مَتْنُ المختارات العِمَادِيَّة في (الأجزاء الحديثية)

فِيما حُكِمَ بِكُفْرِهِ أو شِرْكِه أو نِفَاقِهِ أو نَفْيِ إيمانه أو بَرِيءَ مِنْهُ اللهُ وخَيرُ البَرِيَّة .

سلسلة الأجزاء الحديثية (٤) :

(مَتْنُ المختارات العِمَادِيَّة في (الأجزاء الحديثية) فِي ضَحِكِ الله وضَحِكِ خَيرِ البَرِيَّة).

سلسلة الأجزاء الحديثية (٥) :

(مَتْنُ المختارات العِمَادِيَّة فِيمَا جَاء أَنَّهُ بَرَكَة في السُّنَّةِ النَّبَوِيَّة) .

سلسلة الأجزاء الحديثية (٦) :

(مَتْنُ المختارات العِمَادِيَّة فِي أَفْعَال وأَقْوَال غَيْرِ بَشَرِيَّة في السُّنَّةِ النَّبَوِيَّة) .

– هذا وأسأل الله أن يجعل أعمالي وأعمالكم خالصةً لوجهِهِ الكريم ، وأن ينفع بها جميعَ المسلمين .

أذْكَار الْمَساء وَالصَّبَاح ، وأسباب الحفظ والفلاح

– آية الكرسي (اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ)

١– عَنْ أُبَيِّ بنِ كَعْبٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – أَنَّهُ كَانَ لَهُ جُرْنٌ مِنْ تَمْرٍ ، فَكَانَ يَنْقُصُ ، فَحَرَسَهُ ذَاتَ لَيْلَةٍ ، فَإِذَا هُوَ بِدَابَّةٍ شِبْهِ الْغُلامِ الْمُحْتَلِمِ ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ ، فَرَدَّ عَلَيْهِ السَّلامَ ، فَقَالَ : مَا أَنْتَ ، جِنِّيٌّ أَمْ إِنْسِيٌّ ؟ ، قَالَ : لا بَلْ جِنِّيٌّ ، قَالَ : فَنَاوِلْنِي يَدَكَ ، فَنَاوَلَهُ يَدَهُ ، فَإِذَا يَدُهُ يَدُ كَلْبٍ ، وَشَعْرُهُ شَعْرُ كَلْبٍ ، قَالَ : هَكَذَا خَلْقُ الْجِنِّ ، قَالَ : قَدْ عَلِمَتِ الْجِنُّ أَنَّ مَا فِيهِمْ رَجُلٌ أَشَدُّ مِنِّي ، قَالَ : فَمَا جَاءَ بِكَ ؟ قَالَ : بَلَغَنَا أَنَّكَ تُحِبُّ الصَّدَقَةَ ، فَجِئْنَا نُصِيبُ مِنْ طَعَامِكَ ، قَالَ : فَمَا يُنْجِينَا مِنْكُمْ ؟ قَالَ : هَذِهِ الآيَةُ الَّتِي فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ : (اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ) (البقرة / ٢٥٥) مَنْ قَالَهَا حِينَ يُمْسِي أُجِيرَ مِنَّا حَتَّى يُصْبِحَ ، وَمَنْ قَالَهَا حِينَ يُصْبِحُ أُجِيرَ مِنَّا حَتَّى يُمْسِيَ ، فَلَمَّا أَصْبَحَ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ ، فَقَالَ : " صَدَقَ الْخَبِيثُ "

(رواهُ الطَّبرانِيُّ ، صحيح الترغيب / ٦٢٢) .

– المُعَوِّذات (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ) (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ)

٢– عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ خُبَيْبٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – أَنَّهُ قَالَ : خَرَجْنَا فِي لَيْلَةِ مَطَرٍ وَظُلْمَةٍ شَدِيدَةٍ نَطْلُبُ رَسُولَ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لِيُصَلِّيَ لَنَا فَأَدْرَكْنَاهُ فَقَالَ : " أَصَلَّيْتُمْ " ؟ فَلَمْ أَقُلْ شَيْئًا ، فَقَالَ " قُلْ " .
فَلَمْ أَقُلْ شَيْئًا ، ثُمَّ قَالَ : " قُلْ " . فَلَمْ أَقُلْ شَيْئًا ، ثُمَّ قَالَ " قُلْ " . فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَقُولُ ؟ قَالَ : " (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) وَالْمُعَوِّذَتَيْنِ حِينَ تُمْسِي وَحِينَ تُصْبِحُ ثَلاثَ مَرَّاتٍ تَكْفِيكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ "

(رواهُ أبو داود واللفظ له / ٥٠٨٢ والتِّرْمِذِيُّ / ٣٥٧٥) .

– سَيِّدُ الاِسْتِغْفَارِ

٣– عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – عَنِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ :
" سَيِّدُ الاِسْتِغْفَارِ أَنْ تَقُولَ : اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ ، وَأَبُوءُ بِذَنْبِي ، اغْفِرْ لِي فَإِنَّهُ لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ ، قَالَ ، وَمَنْ قَالَهَا مِنَ النَّهَارِ مُوقِنًا بِهَا فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُمْسِيَ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، وَمَنْ قَالَهَا مِنَ اللَّيْلِ وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ " (خ / ٦٣٠٦) .

٤– عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – إِذَا أَمْسَى قَالَ :
" أَمْسَيْنَا وَأَمْسَى الْمُلْكُ لِلَّهِ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، اللَّهُمَّ أَسْأَلُكَ خَيْرَ هَذِهِ اللَّيْلَةِ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ هَذِهِ اللَّيْلَةِ وَشَرِّ مَا بَعْدَهَا ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكَسَلِ وَسُوءِ الْكِبَرِ ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابٍ فِي النَّارِ وَعَذَابٍ فِي الْقَبْرِ "
وَإِذَا أَصْبَحَ قَالَ ذَلِكَ أَيْضًا : " أَصْبَحْنَا وَأَصْبَحَ الْمُلْكُ لِلَّهِ " (م / ٢٧٢٣) .

٥- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يُعَلِّمُ أَصْحَابَهُ يَقُولُ : " إِذَا أَصْبَحَ أَحَدُكُمْ فَلْيَقُلْ : اللَّهُمَّ بِكَ أَصْبَحْنَا ، وَبِكَ أَمْسَيْنَا ، وَبِكَ نَحْيَا ، وَبِكَ نَمُوتُ ، وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ، وَإِذَا أَمْسَى فَلْيَقُلْ : اللَّهُمَّ بِكَ أَمْسَيْنَا ، وَبِكَ أَصْبَحْنَا ، وَبِكَ نَحْيَا ، وَبِكَ نَمُوتُ ، وَإِلَيْكَ النُّشُورُ "
(صحيح التِّرْمِذِيّ واللفظ له / ٣٣٩١ ، وابن ماجة / ٣٨٦٨ ، وأبو داود / ٥٠٦٨) .

٦- عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ عَلِّمْنِي مَا أَقُولُ إِذَا أَصْبَحْتُ وَإِذَا أَمْسَيْتُ ، فَقَالَ : " يَا أَبَا بَكْرٍ قُلْ : اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، عَالِمَ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ، لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ رَبَّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكَهُ ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي ، وَمِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ وَشِرْكِهِ ، وَأَنْ أَقْتَرِفَ عَلَى نَفْسِي سُوءًا أَوْ أَجُرَّهُ إِلَى مُسْلِمٍ "
(صحيح التِّرْمِذِيّ / ٣٥٢٩ ، واللفظ له ، أبو داود / ٥٠٦٧) .

٧- عَنْ ابْنِ عُمَرَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما – قَالَ : لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يَدَعُ هَؤُلَاءِ الدَّعَوَاتِ حِينَ يُمْسِي ، وَحِينَ يُصْبِحُ : " اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، اللَّهُمَّ أَسْأَلُكَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي دِينِي وَدُنْيَايَ وَأَهْلِي وَمَالِي ، اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِي ، وَآمِنْ رَوْعَاتِي ، وَاحْفَظْنِي مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ ، وَمِنْ خَلْفِي ، وَعَنْ يَمِينِي ، وَعَنْ شِمَالِي ، وَمِنْ فَوْقِي ، وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي "
(صحيح ابن ماجه / ٣٨٧١ واللفظ له ، صحيح أبي داود / ٥٠٧٤) .

٨- عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لِفَاطِمَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا – : " مَا يَمْنَعُكِ أَنْ تَسْمَعِي مَا أُوصِيكِ بِهِ ، أَنْ تَقُولِي إِذَا أَصْبَحْتِ وَإِذَا أَمْسَيْتِ : يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ ، أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ ، وَلا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ "
(أخرجه النَّسائِيُّ في السنن الكبرى واللفظ له ، والحَاكِمُ ، السلسلة الصحيحة / ٢٢٧) .

٩- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – :
" مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، بَعْدَمَا يُصَلِّي الْغَدَاةَ ، كُتِبَ لَهُ عَشْرُ حَسَنَاتٍ ، وَكُنَّ لَهُ عِتْقَ رَقَبَتَيْنِ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَكُنَّ لَهُ حِجَابًا مِنَ النَّارِ ، وَكُنَّ لَهُ حِرْزًا مِنَ الشَّيْطَانِ حَتَّى يُمْسِيَ ، وَمَنْ قَالَهَا حِينَ يُمْسِي ، كَانَ لَهُ مِثْلُ ذَلِكَ ، وَكُنَّ لَهُ حِجَابًا مِنَ الشَّيْطَانِ حَتَّى يُصْبِحَ "
(رواهُ الحسنُ بنُ عرفة في جزئه (٥ / ١) ، الصحيحة / ١١٣) .

١٠- عَنْ أَبِي عَيَّاشٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم- قَالَ :
" مَنْ قَالَ إِذَا أَصْبَحَ ، لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، كَانَ لَهُ عِدْلُ رَقَبَةٍ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ ، وَكُتِبَ لَهُ عَشْرُ حَسَنَاتٍ ، وَحُطَّ عَنْهُ عَشْرُ سَيِّئَاتٍ ، وَرُفِعَ لَهُ عَشْرُ دَرَجَاتٍ ، وَكَانَ فِي حِرْزٍ مِنَ الشَّيْطَانِ حَتَّى يُمْسِيَ ، وَإِنْ قَالَهَا إِذَا أَمْسَى كَانَ لَهُ مِثْلُ ذَلِكَ حَتَّى يُصْبِحَ "
(صحيح أبي داود / ٥٠٧٩ ، وابن ماجة / ٣٨٦٨) .

أذكار تقال عِدَّة مرات

١١- عَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - :
" مَا مِنْ عَبْدٍ يَقُولُ فِي صَبَاحِ كُلِّ يَوْمٍ وَمَسَاءِ كُلِّ لَيْلَةٍ : بِسْمِ اللَّهِ الَّذِي لَا يَضُرُّ مَعَ اسْمِهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ، وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، فَيَضُرَّهُ شَيْءٌ "
(صحيح التِّرْمِذِيّ / ٣٣٨٨ واللفظ له ، أبو داود / ٥٠٨٨ صحيح ابن ماجه / ٣٨٩٦) .

١٢- عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ أَنَّهُ قَالَ لأَبِيهِ : يَا أَبَةِ إِنِّي أَسْمَعُكَ تَدْعُو كُلَّ غَدَاةٍ " اللَّهُمَّ عَافِنِي فِي بَدَنِي ، اللَّهُمَّ عَافِنِي فِي سَمْعِي ، اللَّهُمَّ عَافِنِي فِي بَصَرِي ، لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ، تُعِيدُهَا ثَلاَثًا حِينَ تُصْبِحُ ، وَثَلاَثًا حِينَ تُمْسِي .
فَقَالَ إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَدْعُو بِهِنَّ فَأَنَا أُحِبُّ أَنْ أَسْتَنَّ بِسُنَّتِهِ "
(صحيح أبي داود / ٥٠٩٠ وقال حسن الإسناد ، وصحيح الأدب المفرد) .

١٣- عَنْ أَبِي أَيُّوبَ الأَنْصَارِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهُ قَالَ :
" مَنْ قَالَ حِينَ يُصْبِحُ : لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ، يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، عَشْرَ مَرَّاتٍ ، كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِكُلِّ وَاحِدَةٍ قَالَهَا عَشْرَ حَسَنَاتٍ ، وَحَطَّ اللَّهُ عَنْهُ بِهَا عَشْرَ سَيِّئَاتٍ ، وَرَفَعَهُ اللَّهُ بِهَا عَشْرَ دَرَجَاتٍ ، وَكُنَّ لَهُ كَعَشْرِ رِقَابٍ ، وَكُنَّ لَهُ مَسْلَحَةً مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ إِلَى آخِرِهِ ، وَلَمْ يَعْمَلْ يَوْمَئِذٍ عَمَلًا يَقْهَرُهُنَّ ، فَإِنْ قَالَ حِينَ يُمْسِي ، فَمِثْلُ ذَلِكَ " (رواهُ أحمدُ ، صحيح الترغيب / ٦٦٠) .

١٤- عَنْ أَبِي أَيُّوبَ الأَنْصَارِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّهُ قَالَ وَهُوَ فِي أَرْضِ الرُّومِ : إِنَّ رَسُولَ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ : " مَنْ قَالَ غُدْوَةً : لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، عَشْرَ مَرَّاتٍ ، كَتَبَ اللهُ لَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ ، وَمَحَا عَنْهُ عَشْرَ سَيِّئَاتٍ ، وَكُنَّ لَهُ بِقَدْرِ عَشْرِ رِقَابٍ ، وَأَجَارَهُ اللهُ مِنَ الشَّيْطَانِ ، وَمَنْ قَالَهَا عَشِيَّةً كَانَ لَهُ مِثْلُ ذَلِكَ "
(أخرجه النَّسائيُّ في السنن الكبرى وفي عمل اليوم والليلة ، صحيح الترغيب / ٦٦٠) .

١٥- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – :
" مَنْ قَالَ : حِينَ يُصْبِحُ وَحِينَ يُمْسِي : سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ ، مِائَةَ مَرَّةٍ ، لَمْ يَأْتِ أَحَدٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ ، إِلَّا أَحَدٌ قَالَ مِثْلَ مَا قَالَ أَوْ زَادَ عَلَيْهِ " (م / ٢٦٩٢) .

١٦ – عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – :
" مَنْ قَالَ حِينَ يُصْبِحُ سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ ، وَبِحَمْدِهِ ، مِائَةَ مَرَّةٍ ، وَإِذَا أَمْسَى كَذَلِكَ ، لَمْ يُوَافِ أَحَدٌ مِنَ الْخَلَائِقِ بِمِثْلِ مَا وَافَى " (صحيح أبي داود / ٥٠٩١) .

١٧- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – أَنَّ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ :
" مَنْ قَالَ : لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، فِي يَوْمٍ مِئَةَ مَرَّةٍ ، كَانَتْ لَهُ عَدْلَ عَشْرِ رِقَابٍ ، وَكُتِبَتْ لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ ، وَمُحِيَتْ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ ، وَكَانَتْ لَهُ حِرْزًا مِنَ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمْسِيَ ، وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ إِلَّا أَحَدٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ " (خ / ٣٢٩٣ ، م / ٢٦٩١) .

١٨- عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا – قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – :
" مَنْ قَالَ : سُبْحَانَ اللهِ مِائَةَ مَرَّةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا كَانَ أَفْضَلَ مِنْ مِائَةِ بَدَنَةٍ ، وَمَنْ قَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ مِائَةَ مَرَّةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ ، وَقَبْلَ غُرُوبِهَا كَانَ أَفْضَلَ مِنْ مِائَةِ فَرَسٍ يُحْمَلُ عَلَيْهَا ، وَمَنْ قَالَ : اللَّهُ أَكْبَرُ مِائَةَ مَرَّةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ، كَانَ أَفْضَلَ مِنْ عِتْقِ مِائَةِ رَقَبَةٍ ، وَمَنْ قَالَ : لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ مِائَةَ مَرَّةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ، لَمْ يَجِئْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَدٌ بِعَمَلٍ أَفْضَلَ مِنْ عَمَلِهِ إِلَّا مَنْ قَالَ قَوْلَهُ أَوْ زَادَ " (أخرجه النَّسائيُّ في السنن الكبرى ، صحيح الترغيب / ٦٥٨) .

١٩- عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا – عَنِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ :
" مَنْ قَالَ : لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، مِائَتَيْ مَرَّةٍ لَمْ يُدْرِكْهُ أَحَدٌ بَعْدَهُ ، إِلَّا مَنْ قَالَ مِثْلَ مَا قَالَ أَوْ أَفْضَلَ " وفي رواية : " مِائَةَ مَرَّةٍ إِذَا أَصْبَحَ ، وَمِائَةَ إِذَا أَمْسَى "
(أخرجه النَّسائيُّ في عمل اليوم و الليلة وفي السنن الكبرى واللفظ له ، وأحمد ، السلسلة الصحيحة / ٢٧٦٢) .

مُقيَّد بالصَّباح

٢٠- عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبْزَى – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – إِذَا أَصْبَحَ ، قَالَ :
" أَصْبَحْنَا عَلَى فِطْرَةِ الْإِسْلَامِ ، وَكَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ ، وَدِينِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، وَمِلَّةِ أَبِينَا إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا مُسْلِمًا ، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ "
(أخرجه النَّسائيُّ في عمل اليوم و الليلة ، وأحمد ، السلسلة الصحيحة / ٢٩٨٩) .

٢١- عَنْ أَبِي مُوسَى - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ :
" مَا أَصْبَحْتُ غَدَاةً قَطُّ إِلَّا اسْتَغْفَرْتُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ مِئَةَ مَرَّةٍ "
(رواهُ الطَّبرانِيُّ) ، قال الشيخ الألبانيُّ : (صحيح) انظر حديث رقم : ٥٥٣٤ في صحيح الجامع .
٢٢- عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما - عَنْ جُوَيْرِيَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - خَرَجَ مِنْ عِنْدِهَا بُكْرَةً حِينَ صَلَّى الصُّبْحَ ، وَهِيَ فِي مَسْجِدِهَا ، ثُمَّ رَجَعَ بَعْدَ أَنْ أَضْحَى ، وَهِيَ جَالِسَةٌ ، فَقَالَ :
" مَا زِلْتِ عَلَى الْحَالِ الَّتِي فَارَقْتُكِ عَلَيْهَا ؟ " قَالَتْ : نَعَمْ ، قَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - :
" لَقَدْ قُلْتُ بَعْدَكِ أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، لَوْ وُزِنَتْ بِمَا قُلْتِ مُنْذُ الْيَوْمِ لَوَزَنَتْهُنَّ :
سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ ، عَدَدَ خَلْقِهِ ، وَرِضَا نَفْسِهِ ، وَزِنَةَ عَرْشِهِ ، وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ " (م / ٢٧٢٦) .
٢٣- عَنِ الْمُنَيْذِرِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - صَاحِبِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَكَانَ يَكُونُ بِإِفْرِيقِيَّةَ ، قَالَ :
سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ :
" مَنْ قَالَ إِذَا أَصْبَحَ : رَضِيتُ بِاللَّهِ رَبًّا ، وَبِالإِسْلامِ دِينًا ، وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا ، فَأَنَا الزَّعِيمُ لآخُذَ بِيَدِهِ حَتَّى أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ "
(رواهُ الطَّبرانِيُّ في الكبير ، السلسلة الصحيحة / ٢٦٨٦ قال الألباني في صحيح الترغيب / ٦٥٧ : حسن لغيره) .
٢٤ - عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ عَطَاءٍ ، قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِسَوْدَةَ :
" سَبِّحِي اللَّهَ كُلَّ غَدَاةٍ عَشْرًا ، وَكَبِّرِي عَشْرًا ، وَاحْمَدِي عَشْرًا ، وَقُولِي : اغْفِرْ لِي عَشْرًا ،
فَإِنَّهُ يَقُولُ : قَدْ فَعَلْتُ قَدْ فَعَلْتُ "
(أخرجه ابن أبي شَيْبَة في المصَنّف ، السلسلة الصحيحة شاهدًا لحديث / ٣٣٣٨ ، قال الألباني : صحيح مُرْسَل) .

مُقيَّد بالمساء أو الليل

٢٥- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّهُ قَالَ : جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَ :
يَا رَسُولَ اللهِ مَا لَقِيتُ مِنْ عَقْرَبٍ لَدَغَتْنِي الْبَارِحَةَ ، قَالَ :
" أَمَا لَوْ قُلْتَ ، حِينَ أَمْسَيْتَ : أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ، لَمْ تَضُرَّكَ " (م / ٢٧٠٩) .
٢٦- عَنْ سُهَيْلِ بْنِ أَبِي صَالِحٍ ، عَنْ أَبِيهِ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ :
" مَنْ قَالَ حِينَ يُمْسِي ثَلاثَ مَرَّاتٍ : أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ، لَمْ يَضُرَّهُ حُمَةٌ تِلْكَ اللَّيْلَةَ "
(صحيح التِّرْمِذِيّ / ٣٦٠٤) .
قَالَ سُهَيْلٌ : فَكَانَ أَهْلُنَا تَعَلَّمُوهَا فَكَانُوا يَقُولُونَهَا كُلَّ لَيْلَةٍ فَلُدِغَتْ جَارِيَةٌ مِنْهُمْ فَلَمْ تَجِدْ لَهَا وَجَعًا .
٢٧- عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - :
" مَنْ قَرَأَ بِالآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ " (خ / ٥٠٠٩) .

- تنبيه مهم جدًا : لئلا يَظُن ظان أن هناك أحاديث أو أذكار لم تُذكر ؛ فقد ذكرت الأذكار والأحاديث الغير مقبولة في آخر هذا الكتاب بعد الانتهاء من شرح الأحاديث المقبولة .

آية الكرسي (اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ)

١- عَنْ أُبَيّ بنِ كَعْبٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – أَنَّهُ كَانَ لَهُ جُرْنٌ [١] مِنْ تَمْرٍ ، فَكَانَ يَنْقُصُ ، فَحَرَسَهُ ذَاتَ لَيْلَةٍ ، فَإِذَا هُوَ بِدَابَّةٍ شِبْهِ الْغُلامِ الْمُحْتَلِمِ [٢] ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ ، فَرَدَّ عَلَيْهِ السَّلامَ ، فَقَالَ : مَا أَنْتَ ، جِنِّيٌّ أَمْ إِنْسِيٌّ ؟ ، قَالَ : لا بَلْ جِنِّيٌّ ، قَالَ : فَنَاوِلْنِي يَدَكَ ، فَنَاوَلَهُ يَدَهُ ، فَإِذَا يَدُهُ يَدُ كَلْبٍ ، وَشَعْرُهُ شَعْرُ كَلْبٍ ، قَالَ : هَكَذَا خَلْقُ الْجِنِّ ، قَالَ : قَدْ عَلِمَتِ الْجِنُّ أَنَّ مَا فِيهِمْ رَجُلٌ أَشَدُّ مِنِّي ، قَالَ : فَمَا جَاءَ بِكَ ؟ قَالَ : بَلَغَنَا أَنَّكَ تُحِبُّ الصَّدَقَةَ ، فَجِئْنَا نُصِيبُ مِنْ طَعَامِكَ [٣] ، قَالَ : فَمَا يُنْجِينَا مِنْكُمْ ؟ قَالَ : هَذِهِ الآيَةُ الَّتِي فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ : (اللَّهُ [٤] لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ [٥] الْحَيُّ [٦] الْقَيُّومُ [٧] لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ [٨] وَلَا نَوْمٌ [٩] لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ [١٠] عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ [١١] السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا [١٢] وَهُوَ الْعَلِيُّ [١٣] الْعَظِيمُ [١٤]) [١٥] (البقرة / ٢٥٥) مَنْ قَالَهَا حِينَ يُمْسِي [١٦] أُجِيرَ [١٧] مِنَّا حَتَّى يُصْبِحَ [١٨] ، وَمَنْ قَالَهَا حِينَ يُصْبِحُ أُجِيرَ مِنَّا حَتَّى يُمْسِيَ ، فَلَمَّا أَصْبَحَ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ ، فَقَالَ : " صَدَقَ الْخَبِيثُ [١٩] "

(رواهُ الطَّبرانِيُّ ، صحيح الترغيب / ٦٢٢) .

---

(١) ومجيئ الشيطان قد تكررت قصته مع بعض الصحابة غير أُبَيّ بنِ كَعْبٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – ، ومن ذلك :

١ – عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قَالَ وَكَّلَنِي رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بِحِفْظِ زَكَاةِ رَمَضَانَ فَأَتَانِي آتٍ فَجَعَلَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ فَأَخَذْتُهُ وَقُلْتُ وَاللَّهِ لأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ : إِنِّي مُحْتَاجٌ وَعَلَيَّ عِيَالٌ وَلِي حَاجَةٌ شَدِيدَةٌ قَالَ فَخَلَّيْتُ عَنْهُ فَأَصْبَحْتُ فَقَالَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " يَا أَبَا هُرَيْرَةَ مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ ؟ " ، قَالَ : قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ شَكَا حَاجَةً شَدِيدَةً وَعِيَالًا فَرَحِمْتُهُ فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ ، قَالَ : " أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ " فَعَرَفْتُ أَنَّهُ سَيَعُودُ لِقَوْلِ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – إِنَّهُ سَيَعُودُ فَرَصَدْتُهُ فَجَاءَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ فَأَخَذْتُهُ فَقُلْتُ لأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ : دَعْنِي فَإِنِّي مُحْتَاجٌ وَعَلَيَّ عِيَالٌ لا أَعُودُ فَرَحِمْتُهُ فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ فَأَصْبَحْتُ فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " يَا أَبَا هُرَيْرَةَ مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ ؟ " قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ شَكَا حَاجَةً شَدِيدَةً وَعِيَالًا فَرَحِمْتُهُ فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ ، قَالَ : " أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ " فَرَصَدْتُهُ الثَّالِثَةَ فَجَاءَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ فَأَخَذْتُهُ فَقُلْتُ لأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَهَذَا آخِرُ ثَلاثِ مَرَّاتٍ أَنَّكَ تَزْعُمُ لا تَعُودُ ثُمَّ تَعُودُ ، قَالَ دَعْنِي أُعَلِّمْكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللَّهُ بِهَا قُلْتُ مَا هُوَ قَالَ إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ (اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ) حَتَّى تَخْتِمَ الآيَةَ فَإِنَّكَ لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللهِ حَافِظٌ ، وَلا يَقْرَبَنَّكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ فَأَصْبَحْتُ فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ زَعَمَ أَنَّهُ يُعَلِّمُنِي كَلِمَاتٍ يَنْفَعُنِي اللَّهُ بِهَا فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ قَالَ مَا هِيَ قُلْتُ قَالَ لِي إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ مِنْ أَوَّلِهَا حَتَّى تَخْتِمَ (اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ) وَقَالَ لِي لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللهِ حَافِظٌ ، وَلا يَقْرَبَكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ ، وَكَانُوا أَحْرَصَ شَيْءٍ عَلَى الْخَيْرِ ، فَقَالَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " أَمَا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ ، تَعْلَمُ مَنْ تُخَاطِبُ مُنْذُ ثَلاثِ لَيَالٍ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ ؟ " قَالَ : لا ، قَالَ : " ذَاكَ شَيْطَانٌ " (خ / ٢٣١١)

٢ – عَنْ أَبِي أَيُّوبَ الأَنْصَارِيِّ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – أَنَّهُ كَانَتْ لَهُ سَهْوَةٌ فِيهَا تَمْرٌ ، فَكَانَتْ تَجِيءُ الغُولُ فَتَأْخُذُ مِنْهُ قَالَ : فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ : " فَاذْهَبْ فَإِذَا رَأَيْتَهَا فَقُلْ : بِسْمِ اللهِ أَجِيبِي رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – " قَالَ : فَأَخَذَهَا فَحَلَفَتْ أَنْ لا تَعُودَ فَأَرْسَلَهَا ، فَجَاءَ إِلَى رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَقَالَ : " مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ ؟ " قَالَ : حَلَفَتْ أَنْ لا تَعُودَ : فَقَالَ : " كَذَبَتْ ، وَهِيَ مُعَاوِدَةٌ لِلْكَذِبِ " ، قَالَ : فَأَخَذَهَا مَرَّةً أُخْرَى فَحَلَفَتْ أَنْ لا تَعُودَ فَأَرْسَلَهَا ، فَجَاءَ إِلَى النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَقَالَ : " مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ ؟ " قَالَ : حَلَفَتْ أَنْ لا تَعُودَ . فَقَالَ : " كَذَبَتْ وَهِيَ مُعَاوِدَةٌ لِلْكَذِبِ " ، فَأَخَذَهَا . فَقَالَ : مَا أَنَا بِتَارِكِكِ حَتَّى أَذْهَبَ بِكِ إِلَى النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : فَقَالَتْ : إِنِّي ذَاكِرَةٌ لَكَ شَيْئًا آيَةَ الْكُرْسِيِّ اقْرَأْهَا فِي بَيْتِكَ فَلا يَقْرَبُكَ شَيْطَانٌ وَلا غَيْرُهُ ، قَالَ : فَجَاءَ إِلَى النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَقَالَ : " مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ ؟ " قَالَ : فَأَخْبَرَهُ بِمَا قَالَتْ ، قَالَ : " صَدَقَتْ وَهِيَ كَذُوبٌ " (صحيح التِّرْمِذِيّ / ٢٨٨٠) . ويروى عن أبي بريدة ومعاذ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما – قصة مشابهة .

المعنى الإجمالي

أخبرنا الصحابيُّ أُبَيُّ بنُ كَعْبٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – عن بعض أوصاف خَلْقِ الجِن ، وأنهم يعيشون معنا ، ويعْلَمون أحوالنا ، ومن حرصه – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – على معرفة الخير ، ومعرفة طُرُق النجاة من الشياطين ، فقد سأل الجني عما ينجينا من الجن ؛ فأجابه الجنيُّ بأن قراءة آية الكرسي تكون سببًا في حفظ ووقاية الإنس من الجن ، وقد صدَّق النبيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – هذا .

معاني الكلمات

– قد وَقع مثل حَدِيث أُبيّ بن كَعْب ، لأبي هُرَيْرَة ومعَاذ بن جبل ، وَأبي أَيُّوب الْأنْصَارِيّ وَأبي أسيد الْأنْصَارِيّ ، وَزيد بن ثَابت ، – رَضِي الله تَعَالَى عَنْهُم – (تُراجع في عمدة القاري) .

(١) جُرْنٌ : الجُرْنُ : مكان تُجَفَّفُ فيه الثمار .

(٢) بِدَابَّةٍ شِبْهِ الْغُلامِ الْمُحْتَلِمِ : الْمُحْتَلِمِ : أي : البالغ ؛ والمعنى : أنه رأى مخلوقًا حجمه كحجم الغلام البالغ .

(٣) نُصِيبُ مِنْ طَعَامِكَ : أَصَابَ الشيئ : جَنَى ، كَسَبَ ، حَقَّقَ ، فَجِئْنَا نُصِيبُ مِنْ طَعَامِكَ : أي : نأخذ .

(٤) اللَّهُ : اسم الجلالة : هُوَ اسْمٌ لَمْ يُسَمَّ بِهِ غَيْرُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ؛ والله : اسم علم على الإله المعبود بحق ، أصله إله ، دخلت عليه أل ، فصار الإله ، ثم حذفت همزته وأدغم اللامان فصار (الله) ، رب العالمين ، وهو علم مختص به لا يمكن أن يكون لغيره ، وهذا العلم يكون دائمًا متبوعًا لا تابعًا ، بمعنى أنه هو الذي يتبع بالأسماء وليس بتابع ؛ فمثلا قال الله تعالى : (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) (الفاتحة / ٢) قال : (لله) ، ثم قال (رب العالمين) ، ولم يقل (الحمد لرب العالمين الله) وقال : بسم الله الرحمن الرحيم ، ولم يقل : بسم الرحمن الرحيم الله ، فدائمًا هو الذي تتبعه الأسماء وتلحق به . وهو الاسم الذي تتبعه جميع الأسماء حتى إنه في قوله تعالى :

(كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ) (ابراهيم / ١،٢) لا نقول إن لفظ الجلالة (الله) صفة بل نقول هي عطف بيان لئلا يكون لفظ الجلالة تابعًا تبعية النعت للمنعوت، ولهذا قال العلماء أعرف المعارف لفظ (الله) لأنه لا يدل على أحد سوى الله – عز وجل – .

واسم الله عَلَمٌ على الذات المقدّسة ، لا يُسمّى به غير الرّب سبحانه وتعالى ، لميسمّ أحد بهذا الاسم أبدًا ، حتى الجبابرة ، حتى الطواغيت والكفرة ، ما أحد منهم سمّى نفسه (اللهِ) أبدًا ، فرعون قال : (أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى) ما قال : أنا الله ، مع كفره لم يجرؤ أن يسمّي نفسه هذا الاسم ، وإنما هذا خاص بالله سبحانه وتعالى .

و(الله) معناه : ذو الألوهية ، والألوهية معناها : العبادة ، يقال : أَلَهَ يألَهُ : بمعنى : عبَد يعبُد ، فالألوهية معناها : العبادة ، فـ (اللهِ) معناه : ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين .

(٥) لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ : إجمالًا فمعنى لا إله إلا الله : أي لا معبود حقٌّ إلا الله ، ولا يلجأ العباد ويضرعون ويفزعون في كل ما ينوبهم إلا إلى الله ؛كلمة التوحيد ، جمعت الإيمان واحتوته ، وهذه الكلمة عنوان الإسلام وأساسه ، ولأهميتها سأتكلم عنها بشئ من التفصيل من عدَّة جهات مثل (فضلها وأهميتها ، معناها ، أركانها ، شروطها ، نواقضها ، وغير ذلك) في كتابي (هل حقًا استجبنا لأمر الله ، فاعلم أنه لا إله إلا الله) فراجعه إن شئت .

– قلت : (والقائل / عماد) : تنبيه مهم : اشتهرت عبارة (لَا مَعْبُودَ بِحَقٍ فِي الْوُجُودِ إِلَّا اللَّهُ) والعبارة التي ذكرتها (لَا مَعْبُودَ حقٌ فِي الْوُجُودِ إِلَّا اللَّهُ) فهل يوجد فرق بين العبارتين ؟ قال الشيخ العثيمين : الفرق بينهما أنك إذا قلت " لا معبود حق إلا الله " صار هذا أوفق للقرآن ، (ذلك بأن الله هو الحق) (الحج / ٦٢) ، وأنه لا يحتاج إلى تقدير ، لأنك إذا قلت " لا معبود بحق " فالجار والمجرور خبر متعلق بمحذوف ... تقديره

" لا معبود كائن بحق " ، أما إذا قلت " لا معبود حق " فإن الخبر هو الموجود ولا نحتاج إلى تقدير .

(والإله) : هو المألوه ، لا إله يعني : لا مألوه ، ولا أحد يستحق أن يؤله ، أي : تألهه القلوب وتوده وتحبه وتعظمه وتقرّ له بالعبودية ، غير الله تعالى .

(٦) الْحَيَّ : اسم من أسماء الله الحسنى ، لغة : الحياة ضد الموت ، والحي ضد الميت .

معناه في حق الله : الذي لم يزل موجودًا وبالحياة موصوفًا ، لم تحدث له الحياة بعد الموت .

ولا يعترضه الموت بعد الحياة . قال تعالى : (اللّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ) (البقرة/٢٥٦) .

(٧) الْقَيُّومَ : اسم من أسماء الله الحسنى ، لغة : من قام يقوم الذي بمعنى : دام ، لا القيام المعروف الذي هو نقيض الجلوس ، ومنه قوله تعالى : (إلا ما دمت عليه قائمًا) أي دائمًا .

معناه في حق الله :

١ – القائم الدائم بلا زوال ، من القيام وهو نعت المبالغة في القيامة على الشئ .

٢ – القيم بحفظ كل شئ ورزقه ، وتصريفه فيما شاء وأحب من تغيير وتبديل ، وزيادة ونقص .

(٨) لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ : السِّنة أصلها من الفعل وَسَن يسن ، حذفت الفاء من المضارع ومن المصدر كما يقال : عِدة بكسر العين ، والسِّنَة : النُّعاس ، والنُّعاس ما يتقدم النوم من الفتور وانطباق العين فإذا صار في القلب صار نومًا .

(٩) وَلَا نَوْمٌ : أما النوم فقيل هو : " حال يعرض للحيوان من استرخاء أعصاب الدماغ من رطوبات الأبخرة المتصاعدة بحيث تقف الحواس الظاهرة عن الإحساس رأسًا " ، وقيل هو" فتور يعترى أعصاب الدماغ من تعب أعمال الأعصاب ومن تصاعد الأبخرة البدنية الناشئة عن الهضم والعمل العصبي فيشتد عند مغيب الشمس ومجيء الظلمة ، فيطلب الدماغ و الجهاز العصبي الذي يديره الدماغ استراحة طبيعية فيغيب الحس شيئًا فشيئًا وتثقل حركة الأعضاء ، ثم يغيب الحس إلى أن تسترجع الأعصاب نشاطها فتكون اليقظة " وقيل هو الغشية الثقيلة التى تهجم على القلب فتقطعه عن معرفة الأمور .

وفي الميزان للطباطبائي : " النوم هو الركود الذى يأخذ الحيوان لعوامل طبيعية تحدث في بدنه " .

(١٠) مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ : والسؤال ما الشفاعة ؟

قلت : (والقائل / عماد) : فائدة في الشفاعة :

الشفاعة لغة : اسم من شفع يشفع ، إذا جعل الشيء اثنين ، مأخوذة من الشفع وهو ضم واحد لآخر وضم صوت لصوت وهو الزوج ضد الفرد ؛ لأنَّ الدّاعي أو المُتَوَسِّطْ صار زَوْجًا للسائل بعد أن كان السائل فرْدًا ، فَسُمِّيَ شَفِيعًا ؛ يعني سُمِّيَ شَفِيعًا لأنه شفع ؛ يعني صار زوجًا له ؛ يعني صار ثانيًا معه ، وهو ما كان أكثر من واحد ، فالواحد يقال له : وتر ، والاثنان يقال لهما : شفع ، قال تعالى : (وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ) (الفجر / ٣) ،

وطلب الشفاعة : أي سؤال الشافع للمشفوع له في حاجةٍ ما وطلب ذلك ؛ فَرَجَعَتْ في اللغة إلى معنى السؤال والدعاء ، فمن قال لأحد اشفع لي عند فلان ؛ يعني اسأل لي واطلب لي ، تَوسّط لي ونحو ذلك . هذا من حيث اللغة العربية والمراد بها في القرآن الوسيلة التي يتحصل بها المقصود وهي ما تسمى بالواسطة .

الشفاعة اصطلاحًا : هي طلب الخير للغير . يراد بها الوساطة للمحتاج في قضاء حاجته عند من يملكها ؛ لأن طالب الحاجة واحد ، فإذا انضم إليه واسطة صار شفعًا بعد أن كان واحدًا ؛ لذلك سميت الشفاعة ، وبعضهم يقول : الشفاعة : التوسط للغير بجلب منفعة أو دفع مضرة ، مثال جلب المنفعة : شفاعة النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لأهل الجنة بدخولها ، وشفاعة سورة تبارك . مثال دفع المضرة : شفاعة النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لمن استحق النار أن لا يدخلها .

والشفاعة تنقسم إلى قسمين : ١– شفاعة منفية . ٢– شفاعة مثبتة (صحيحة) .

فالشفاعة المنفية : هي التي تطلب من غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله .

وسميت منفية لأنه جاء نفيها في القرآن . وهذه الشفاعة باطلة ، كما قال تعالى : (فما تنفعهم شفاعة الشافعين) .

وأما الشفاعة الصحيحة :

هي التي أثبتها الله تعالى في كتابه ، أو أثبتها رسول الله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ولا تكون إلا لأهل التوحيد والإخلاص ، وهذه الشفاعة لها شروط ثلاث :

١– رضا الله عن الشافع . ٢– رضا الله عن المشفوع . ٣– إذن الله للشافع أن يشفع .

وقول الله عز وجل : (وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع لعلهم يتقون) (الأنعام / ٥١) .

والشفاعة على قسمين : ١– شفاعة عند الله . ٢– وشفاعة عند الخلق .

والشفاعة عند الخلق تنقسم إلى قسمين : أ – شفاعة حسنة . ب – وشفاعة سيئة .

قال تعالى (مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا) (النساء / ٨٥) ، فإذا كانت الشفاعة في تحصيل شيء مباح وشيء نافع فهي حسنة ؛ كما لو شفعت بجاهك عند السلطان أو عند ولي الأمر في قضاء حاجة أخيك ، فتشفع لإخوانك في تحصيل مطالبهم المباحة ومصالحهم النافعة ، فهذه شفاعة حسنة ؛ لأنها من التعاون على البر والتقوى ، " والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه " ، وقد قال – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " اشْفَعُوا تُؤْجَرُوا وَيَقْضِي اللَّهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مَا شَاءَ "

(خ / ١٤٣٢) ، فقوله : "اشفعوا تؤجروا " فيه بيان أن الشفاعة الحسنة فيها أجر ؛ لما فيها من النفع للمحتاجين .

وأما الشفاعة السيئة : فهي الشفاعة في أمر محرم ، كأن تشفع في إسقاط حد من حدود الله لمن وجب عليه أن لا يقام عليه الحد ، فهذه شفاعة محرمة ، فالشفاعة السيئة هي ما كانت في شيء محرم .

أما الشفاعة عند الله – جل وعلا – فهي ثابتة في القرآن وفي السنة ، وذلك بأن الله يكرم بعض عباده بأن يدعو لأخيه بما يخلصه من العقاب يوم القيامة ، تكريمًا للشافع ورحمة بالمشفوع ، فهذه هي الشفاعة عند الله ، وهي :

أن يأذن الله – جل وعلا – لبعض أوليائه في أن يدعو الله بأن يتجاوز عمن استوجب العقوبة ويعفو عنه ، وهذه ثابتة في القرآن ، ولكن بشرطين :

الشرط الأول : أن تطلب الشفاعة من الله – جل وعلا – ويأذن الله بها ، فلا أحد يشفع عند الله إلا بإذنه ، بخلاف المخلوقين ، فقد يشفع الشفعاء عندهم ولو لم يأذنوا ، بل ربما يكرهون ذلك ، أما الله – جل وعلا – فإنه لا يشفع عند أحد إلا بإذنه ، (مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ) .

الشرط الثاني : أن يكون المشفوع فيه من أهل الإيمان ، ولكن عنده ما يوجب عليه العذاب لكبيرة من كبائر الذنوب ارتكبها ، فهو من أهل الإيمان من أصحاب الجرائم التي دون الشرك ، وأما المشرك فإن الله لا يرضى أن يشفع فيه ، ولا تقبل فيه شفاعة ، قال تعالى : (مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ) (غافر / ١٨) ، وقال تعالى : (وَلَا يَشْفَعُونَ) يعني : الملائكة (إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى) ارتضى الله قوله وعمله وهو المؤمن ، أما الكافر فإن الله لا يرتضيه ، فلا تنفعه الشفاعة ، قال تعالى : (فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ) (المدثر / ٤٨) .

فإذا توفر الشرطان : إذن الله للشافع أن يشفع ، ورضاه عن المشفوع فيه ، فالشفاعة حق ، وإذا اختل شرط فهي شفاعة مردودة ، قال تعالى : (وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ) ، هذا الشرط الأول ، (وَيَرْضَى) (النجم / ٢٦) ، هذا الشرط الثاني ، فهذه هي الشفاعة عند الله ، تجوز بشرطين ، فإذا توفر الشرطان فالشفاعة صحيحة ومقبولة عند الله جل وعلا ، وإذا اختل شرط فهي مردودة ولا تقبل .

والناس انقسموا في أمر الشفاعة إلى ثلاثة أقسام : طرفان ووسط :

الطرف الأول : الذي نفوا الشفاعة وهم الخوارج والمعتزلة ، وقالوا : إن من استوجب النار لا بد أن يدخلها ، بناء – عندهم – على أنه لا يستوجب النار إلا كافر ؛ لأنهم يكفرون أصحاب الكبائر من هذه الأمة ، فيقولون : لا تنفعهم الشفاعة ، فمن استوجب النار لا بد أن يدخلها ، ومن دخلها فإنه لا يخرج منها . هذا مذهبهم ، فينفون الشفاعة التي ثبتت وتواترت بها الأدلة .

الطرف الثاني : الذين غلوا في إثبات الشفاعة ، وهم القبوريون والخرافيون الذين يتعلقون بالأموات ، ويطلبون منهم الشفاعة ، ويدعونهم ، ويذبحون لهم ، وينذرون لهم ، وإذا قيل لهم : هذا شرك ، قالوا : هذا طلب للشفاعة ؛ كما قال المشركون الأولون : (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ) (يونس / ١٨) ، فهم غلوا في إثبات الشفاعة حتى طلبوها من غير الله ، طلبوها من الموتى والمقبورين ، وطلبوها أيضًا لمن لا يستحقها وهم أهل الشرك والكفر بالله عز وجل .

الوسط : أهل السنة والجماعة توسطوا ، كما هي عادتهم : الوسطية في كل الأمور – ولله الحمد – فلم ينفوا الشفاعة مطلقًا كما نفتها الخوارج والمعتزلة ، ولم يثبتوها مطلقًا كما غلا في إثباتها القبوريون والخرافيون . هذا مذهب أهل السنة والجماعة في هذه المسألة .

أسباب الشفاعة :

أولًا / القرآن الكريم .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، عَنِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ : " إِنَّ سُورَةً فِي الْقُرْآنِ ثَلَاثُونَ آيَةً شَفَعَتْ لِصَاحِبِهَا حَتَّى غُفِرَ لَهُ : تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ " (صحيح ابن ماجة / ٣٧٨٦) .

عن النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ – : " اقْرَءُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ ، اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ الْبَقَرَةَ ، وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ ، فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ ، أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ ، أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ ، تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا ، اقْرَءُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ ، فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ ، وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ ، وَلَا تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ " (م / ٨٠٤) .

ثانيًا / الصلاة على النبي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وطلب الوسيلة له .

قَالَ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ ، فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ ، فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا ، ثُمَّ سَلُوا اللهَ لِيَ الْوَسِيلَةَ ، فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ ، لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللهِ ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ ، فَمَنْ سَأَلَ لِي الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ " (م / ٣٨٤) .

قَالَ رسول الله – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ النِّدَاءَ اللَّهُمَّ رَبَّ هَذِهِ الدَّعْوَةِ التَّامَّةِ وَالصَّلَاةِ الْقَائِمَةِ آتِ مُحَمَّدًا الْوَسِيلَةَ وَالْفَضِيلَةَ وَابْعَثْهُ مَقَامًا مَحْمُودًا الَّذِي وَعَدْتَهُ حَلَّتْ لَهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ "

(خ / ٦١٤) .

ثالثًا / سُكنَى المدينة والموت بها .

قَالَ رسول الله – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " لَا يَصْبِرُ عَلَى لَأْوَائِهَا وَشِدَّتِهَا أَحَدٌ ، إِلَّا كُنْتُ لَهُ شَهِيدًا أَوْ شَفِيعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ " (م / ١٣٧٧) .

قَالَ رسول الله – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " مَنِ اسْتَطَاعَ أَنْ يَمُوتَ بِالْمَدِينَةِ فَلْيَمُتْ بِهَا فَإِنِّي أَشْفَعُ لِمَنْ يَمُوتُ بِهَا " (صحيح الترمذي / ٣٩١٧) .

– المسلم الذي لا تُقبَل شفاعته :قَالَ رسول الله – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " إِنَّ اللَّعَّانِينَ لَا يَكُونُونَ شُهَدَاءَ ، وَلَا شُفَعَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ " (م / ٢٥٩٨) .

(١١) وَسِعَ كُرْسِيُّهُ : الكُرسِيّ : موضع القدمين ، وقد صح عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا – موقوفًا قَالَ : (الْكُرْسِيُّ مَوْضِعُ الْقَدَمَيْنِ) ، وأمَّا عن حجمه ؛ ففي الحديث : " مَا السَّماواتُ السَّبْعُ فِي الْكُرْسِيِّ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مُلْقَاةٍ بِأَرْضٍ فَلاةٍ ، وَفَضْلُ الْعَرْشِ عَلَى الْكُرْسِيِّ كفضل تلك الْفَلاةِ عَلَى تلك الْحَلْقَةِ " (السلسلة الصحيحة / ١٠٩) .

(١٢) وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا : وَلا يَشُقُّ عَلَيْهِ ، ولا يَثْقُلُ عَلَيْهِ حِفْظُهُمَا .

(١٣) وَهُوَ الْعَلِيُّ : لغة : العلي : الرفيع الشريف . معناه في حق الله : ذو العلو والارتفاع وله العلو المطلق .
وَالْعَلِيُّ : ذُو الْعُلُوِّ وَالاِرْتِفَاعِ عَلَى خَلْقِهِ بِقُدْرَتِهِ ، ويشمل أنواع العلو الثلاثة :
١ – علو القهر . ٢ – علو القدر . ٣ – علو الذات .

(١٤) الْعَظِيمُ : لغة : التعظيم : التبجيل ، والعظمة : الكبرياء .
معناه في حق الله : ذو العظمة والجلال في ملكه وسلطانه ، الذي جاوز قدره عز وجل حدود العقول ، حتى لا تتصور الإحاطة بكنهه وحقيقته .
وَ(الْعَظِيمُ) ذُو الْعَظَمَةِ ، الَّذِي كُلُّ شَيْءٍ دُونَهُ ، فَلاَ شَيْءَ أَعْظَمُ مِنْهُ .

(١٥) هذه الآية تسمى آية الكرسي ، وهي سيّدة آي القرآن الكريم ، وهي أعظم آية في كتاب الله عزّ وجلّ ، لماذا صارت أعظم آية في كتاب الله ؟ ، لأنها اشتملت على النفي والإثبات : نفي النقائص عن الله تعالى ، وإثبات الكمال لله عزّ وجلّ ، بدأت الآية بالتوحيد ونفي الشرك وهو المطلب الأول للعقيدة عن طريق الإخبار عن الله .
بدأ الإخبار عن الذات الإلهية ونلاحظ أن كل جملة في هذه الآية تصح أن تكون خبرًا للمبتدأ (الله) لآن كل جملة فيها ضمير يعود إلى الله سبحانه وتعالى : الله لا تأخذه سنة ولا نوم ، الله له ما في السموات وما في الأرض ، الله من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ، الله يعلم مابين أيديهم وما خلفهم ، الله لا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ، الله وسع كرسيّه السموات والأرض ، الله لا يؤده حفظهما وهو العلي العظيم .

(١٦) حِينَ يُمْسِي : أَيْ يَدْخُلَ اللَّيْلُ ؛ لِأَنَّ الْإِمْسَاءَ ضِدُّ الْإِصْبَاحِ ، كَمَا أَنَّ الْمَسَاءَ ضِدُّ الصَّبَاحِ عَلَى مَا فِي الْقَامُوسِ وَالصِّحَاحِ . والمَساء بعد الظهر إلى صلاة المغرب وقال بعضهم إلى نصف الليل .

(١٧) أُجِيرَ : أي : حُفِظَ ووُقِي .

(١٨) حَتَّى يُصْبِحَ : الصَّباح : الفَجْرُ أو أَوَّلُ النَّهارِ ، وَالصَّبَاحُ أَيْضًا خِلَافُ الْمَسَاءِ قَالَ ابْنُ الْجَوَالِيقِيّ : الصَّبَاحُ عِنْدَ الْعَرَبِ مِنْ نِصْفِ اللَّيْلِ الْآخِرِ إلَى الزَّوَالِ ، ثُمَّ الْمَسَاءُ إلَى آخِرِ نِصْفِ اللَّيْلِ الْأَوَّلِ ، هَكَذَا رُوِيَ عَنْ ثَعْلَبٍ .
ويدخل الصباح من طلوع الفجر وينتهي بارتفاع الشمس ضُحًا .

(١٩) صَدَقَ الْخَبِيثُ : الكثير الخَبَث (صيغة مبالغة) ، والمقصود : الشيطان ، ويؤيد ذلك حديث :
كَانَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – إِذَا دَخَلَ الْخَلاَءَ قَالَ : " اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْخُبُثِ وَالْخَبَائِثِ "
(خ / ١٤٢ ، م / ٣٧٥) الْخُبُثِ : بِضَمَّتَيْنِ جَمْع خَبِيث وَالْمُرَاد الشَّيَاطِين .

ما يُستَفَادُ مِن الحَدِيث

(عَنْ أُبَيّ بنِ كَعْبٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – أَنَّهُ كَانَ لَهُ جُرْنٌ مِنْ تَمْرٍ)

– فضل الصحابي أُبَيّ بنِ كَعْبٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – .

– مِن الصحابة مَن يمتلك مالًا أو تجارة ، ولا ينافي ذلك الزهد ولا أن الدنيا تُؤثِّر في قلوبهم .

(فَكَانَ يَنْقُصُ)

– مَنْ كان عنده مال فعليه أن يتعاهده .

– حِفْظِهِ لمالِه وعدم إهمالِه لَمَّا لاحظ أنه ينقص .

(فَحَرَسَهُ ذَاتَ لَيْلَةٍ)

– تواضعه – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – إذ قام بحراسة مالِه بنفسه ولم يُكلِّف أحدًا بذلك .

(فَإِذَا هُوَ بِدَابَّةٍ شِبْهِ الْغُلامِ الْمُحْتَلِمِ ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ فَرَدَّ عَلَيْهِ السَّلامَ ، فَقَالَ : مَا أَنْتَ ، جِنِّيٌّ أَمْ إِنْسِيٌّ ؟ ، قَالَ : لا بَلْ جِنِّيٌّ)

– شجاعته – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – إذ تكلَّم مع دابَّةٍ غريبة الخَلْق .

– إقامة سُنَّة البدء بالسلام .

(قَالَ : فَنَاوِلْنِي يَدَكَ ، فَنَاوَلَهُ يَدَهُ)

– قوة إيمانِهِ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – ، ورَبَاطَة جأشِه إذ طلب من الجني أن يناوله يده .

– أن الجن قد يظهرون للبشر في حالاتٍ خاصَّة ، وقد يتحدثون إليهم .

(فَإِذَا يَدُهُ يَدُ كَلْبٍ ، وَشَعْرُهُ شَعْرُ كَلْبٍ ، قَالَ : هَكَذَا خَلْقُ الْجِنِّ)

– معرفة بعض أوصاف الجن . قال (هَكَذَا خَلْقُ الْجِنِّ) .

(قَدْ عَلِمَتِ الْجِنُّ أَنَّ مَا فِيهِمْ رَجُلٌ أَشَدُّ مِنِّي)

– قَدْ عَلِمَتِ الْجِنُّ أَنَّ مَا فِيهِمْ رَجُلٌ أَشَدُّ مِنِّي : ليس معنى وصفه بـ (رجل) أنها تزكية له فقد يذكر الكفار بوصف الرجال وليس في ذلك تزكية ، قال تَعَالَى : (وَأَنَّهُ كَانَ رِجالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجالٍ مِنَ الْجِنِّ) (الْجِنِّ / ٦) .

– الجن تتفاوت صفاتهم فليسوا على هيئة واحدة ؛ فبعضهم أشد من بعض .

(بَلَغَنَا أَنَّكَ تُحِبُّ الصَّدَقَةَ)

– الجن يعيشون معنا ويعلمون أحوال الإنس .

– فضل الصحابي أُبَيّ بنِ كَعْبٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – وحُبِّه للصدقة ، وشهادة الجن بذلك .

(فَجِئْنَا نُصِيبُ مِنْ طَعَامِكَ)

– بعض الجن قد يسرقون شيئًا من طعام الإنس .

(قَالَ : فَمَا يُنْجِينَا مِنْكُمْ قَالَ : هَذِهِ الآيَةُ الَّتِي فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ : (اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ...)

– حرصه – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – على معرفة الخير ، ومعرفة طُرُق النَّجاة من الشياطين ، فقد سأل الجني عما يُنجينا

من الجن ؛ فأجابه الجني بأن آية الكرسي تكون سببًا في حفظ ووقاية الإنس من الجن .

– فضل آية الكرسي ، وأنها الحافظة والمنجية من الجن .

– فضل الصحابي أُبَيّ بنِ كَعْبٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– على الأُمَّة ؛ إذ بسبب سؤاله ، عَرَفَت الأُمَّة ما ينجيها من الجن .

(مَنْ قَالَهَا حِينَ يُمْسِي أُجِيرَ مِنَّا حَتَّى يُصْبِحَ)

– ختم اليوم بذكر الله .

– فضل وأهمية أذكار المساء .

– حرص النَّبيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على الطاعة .

– مداومة النَّبيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على الأذكار .

– التأكيد على عبادة الوقت ، وهي أن كل عبادة في وقتها هي الأفضل .

– الحثّ على مداومة الذِّكر .

– أهمية أن يكون ختام اليوم بذكر الله .

(وَمَنْ قَالَهَا حِينَ يُصْبِحُ أُجِيرَ مِنَّا حَتَّى يُمْسِيَ)

– فضل المحافظة والمداومة على أذكار المساء والصباح ، وأنها من أسباب الوقاية والفلاح .

– استفتاح اليوم بذكر الله .

– فضل وأهمية أذكار الصباح .

– حرص النَّبيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على الطاعة .

– مداومة النَّبيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على الأذكار .

– التأكيد على عبادة الوقت ، وهي أن كل عبادة في وقتها هي الأفضل .

– الحثّ على مداومة الذِّكر .

– أهمية أن يكون بداية اليوم بذكر الله .

– التأكيد على الذِّكر بها صباحًا .

(فَلَمَّا أَصْبَحَ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ)

– أهمية توثيق المعلومة من مصادرها الأصيلة .

– أهمية الرجوع إلى أهل العلم والفضل .

(فَقَالَ : " صَدَقَ الْخَبِيثُ)

– النبيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – صدَّق هذا ، وفيه توثيق للصحابي أُبَيّ بنِ كَعْبٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – .

– قد يصدق الكذوب .

– جواز إطلاق (الخبيث) على الشيطان وقد ورد الاستعاذة منه بهذا كما في حديث : كَانَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – إِذَا دَخَلَ الْخَلاَءَ قَالَ : " اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْخُبُثِ وَالْخَبَائِثِ " (خ / ١٤٢ ، م / ٣٧٥) .

قِرَاءَة (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ) (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ)

٢- عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ خُبَيْبٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّهُ قَالَ : خَرَجْنَا فِي لَيْلَةِ مَطَرٍ [١] وَظُلْمَةٍ شَدِيدَةٍ نَطْلُبُ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِيُصَلِّيَ لَنَا فَأَدْرَكْنَاهُ [٢] فَقَالَ : " أَصَلَّيْتُمْ " ؟ فَلَمْ أَقُلْ شَيْئًا ، فَقَالَ " قُلْ " . فَلَمْ أَقُلْ شَيْئًا ، ثُمَّ قَالَ : " قُلْ " . فَلَمْ أَقُلْ شَيْئًا ، ثُمَّ قَالَ " قُلْ " . فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَقُولُ ؟ قَالَ : " (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) [٣] وَالْمُعَوِّذَتَيْنِ [٤] حِينَ تُمْسِي [٥] وَحِينَ تُصْبِحُ [٦] ثَلاَثَ مَرَّاتٍ [٧] تَكْفِيكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ [٨] "

(رواهُ أبو داود واللفظ له / ٥٠٨٢ والتِّرْمِذِيُّ / ٣٥٧٥) .

المعنى الإجمالي

النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يُعَلِّمُ أُمَّتَهُ أن مَنْ يقرأ : (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) وَالْمُعَوِّذَتَيْنِ وقت المساء ، ووقت الصباح ثَلاَثَ مَرَّاتٍ تَكْفِيهم مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ؛ يُخشى منه كائنًا ما كان . أي تدفع عنه كل شيء . ويحتمل أن يكون معناه تُغنيه عما سواها ، أو تكفي عن غيرها ، وقيل : إنها تكفي من كل شر .

معاني الكلمات

(١) لَيْلَةِ مَطَرٍ : ليلة مطيرة أو ذات مطر ، أي : نزل فيها المطر .

(٢) فَأَدْرَكْنَاهُ : لحقنا به ، (دركه) طلبه حتى أدركه أي لحق به .

(٣) (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) : سورة الإخلاص ، التي أخلصها الله تعالى لنفسه فلم يذكر فيها شيئًا إلا يتعلق بنفسه جل وعلا ما فيها ذكر لأحكام الطهارة أو الصلاة أو البيع أو غير ذلك كلها مخلصة لله عز وجل ثم الذي يقرأها يكمل إخلاصه لله تعالى فهي مخلَصة ومخلِصة تخلص قارئها من الشرك .

وهي : (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ)

ولأهميتها أتكلم عن شيئ من معناها :

(*) الأَحَدُ : اسم من أسماء الله الحسنى ، معناه في حق الله : الذي لا شبيه له ولا نظير ، و قيل : (أحدٌ) : اسم بمعنى وَاحِدٍ . وَأَصْلُ هَمْزَتِهِ الْوَاوُ ، فَيُقَالُ : وَحَدٌ كَمَا يُقَالُ : أَحَدٌ ، قُلِبَتِ الْوَاوُ هَمْزَةً عَلَى غَيْرِ قِيَاسٍ لِأَنَّهَا مَفْتُوحَةٌ وَمَعْنَاهُ مُنْفَرِدٌ ، وَهُوَ صِفَةٌ مُشَبَّهَةٌ مِثْلَ حَسَنٍ ، يُقَالُ : وَحُدَ مِثْلَ كَرُمَ ، وَوَحِدَ مِثْلَ فَرِحَ .

فَ (وَاحِدٌ) وأَحَدٌ وَصْفَانِ مَصُوغَانِ بِالتَّصْرِيفِ لِمَادَّةٍ مُتَّحِدَةٍ وَهِيَ مَادَّةُ الْوَحْدَةِ يَعْنِي التَّفَرُّدَ .

فَوَصْفُ اللَّهِ بِأَنَّهُ أَحَدٌ مَعْنَاهُ : أَنَّهُ مُنْفَرِدٌ بِالْحَقِيقَةِ الَّتِي لُوحِظَتْ فِي اسْمِهِ الْعَلَمِ وَهِيَ الْإِلَهِيَّةُ الْمَعْرُوفَةُ ، فَإِذَا قِيلَ : اللَّهُ أَحَدٌ فَالْمُرَادُ أَنَّهُ مُنْفَرِدٌ بِالْإِلَهِيَّةِ ، وَإِذَا قِيلَ : اللَّهُ وَاحِدٌ ، فَالْمُرَادُ أَنَّهُ وَاحِدٌ لَا مُتَعَدِّدٌ فَمَنْ دُونَهُ لَيْسَ بِإِلَهٍ .

وَمَآلُ الْوَصْفَيْنِ إِلَى مَعْنَى نَفْيِ الشَّرِيكِ لَهُ تَعَالَى فِي إِلَهِيَّتِهِ .

فَلَمَّا أُرِيدَ فِي صَدْرِ الْبَعْثَةِ إِثْبَاتُ الْوَحْدَةِ الْكَامِلَةِ لِلَّهِ تَعْلِيمًا لِلنَّاسِ كُلِّهِمْ ، وَإِبْطَالًا لِعَقِيدَةِ الشِّرْكِ وُصِفَ اللَّهُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ بِـ (أَحَدٌ) وَلَمْ يُوصَفْ بِـ (وَاحِدٍ) لِأَنَّ الصِّفَةَ الْمُشَبَّهَةَ نِهَايَةُ مَا يُمْكِنُ بِهِ تَقْرِيبُ مَعْنَى وَحْدَةِ اللَّهِ تَعَالَى إِلَى عُقُولِ أَهْلِ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ الْمُبِينِ .

وَالْمَعْنَى : أَنَّ اللَّهَ مُنْفَرِدٌ بِالْإِلَهِيَّةِ لَا يُشَارِكُهُ فِيهَا شَيْءٌ مِنَ الْمَوْجُودَاتِ . وَهَذَا إِبْطَالٌ لِلشِّرْكِ الَّذِي يَدِينُ بِهِ أَهْلُ الشِّرْكِ ، وَلِلتَّثْلِيثِ الَّذِي أَحْدَثَهُ النَّصَارَى الْمَلْكَانِيَّةُ وَلِلثَّانَوِيَّةِ عِنْد الْمَجُوس ، وللعدد الَّذِي لَا يُحْصَى عِنْدَ الْبَرَاهِمَةِ .

فَقَوْلُهُ : اللَّهُ أَحَدٌ نَظِيرُ قَوْلِهِ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى : (إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ واحِدٌ) (النِّسَاء / ١٧١) .وَهَذَا هُوَ الْمَعْنَى الَّذِي يُدْرِكهُ المخاطبون بِهَذِهِ الْآيَةِ السَّائِلُونَ عَنْ نِسْبَةِ اللَّهِ ، أَيْ حَقِيقَتُهُ فَابْتُدِئَ لَهُمْ بِأَنَّهُ وَاحِدٌ لِيَعْلَمُوا أَنَّ الْأَصْنَامَ لَيْسَتْ مِنَ الْإِلَهِيَّةِ فِي شَيْءٍ .

ثُمَّ إِنَّ الْأَحَدِيَّةَ تَقْتَضِي الْوُجُودَ لَا مَحَالَةَ فَبَطَلَ قَوْلُ الْمُعَطِّلَةِ وَالدَّهْرِيِّينَ .

– قلت : (والقائل / عماد) : فائدة في الفرق بين (الواحد) و (الأَحد) :

(الواحد) : هو اسم من أسماء الله تعالى على وزن (فاعل) ، وقد ورد في القرآن الكريم ست مرات مثاله في قوله تعالى : (أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) (يوسف / ٣٩) ، وقد ورد موصوفًا به الإله ثلاث عشرة مرة ، في مثل قوله تعالى : (وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ) (البقرة / ١٦٣) . و (الأحد) اسم من أسماء الله تعالى على وزن (فَعَل) . وقد ورد في القرآن الكريم مرة واحدة ، في قوله تعالى : (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) (الإخلاص / ١) .

وقيل : إن الفرق بين الواحد وأحد : أن الواحد يفيد وحدة الذات فقط ، والأحد : يفيده بالذات والمعاني .

قيل : وهمزة أحد بدل من الواو وأصله وحد ، وقال أبو البقاء : همزة أحد أصل بنفسها غير مقلوبة ، وذكر أن (أحد) يفيد العموم دون (واحد) .

ومما يفيد الفرق بين (أحد) و (واحد) ما قاله الأزهري : أنه لا يوصف بالأحدية غير الله تعالى ، فلا يقال رجل أحد ، ولا درهم أحد ، بل يقال : رجل واحد ، ودرهم واحد . وقيل : الأحد الذي لا نظير له ، ولا وزير له ، ولا نديد له ، ولا شبيه ، ولا عديل ، ولا يطلق هذا اللفظ إلا على الله عز وجل ، لأنه الكامل في جميع صفاته وأفعاله .

وقيل (أحد) : أي انحصرت فيه تعالى الأحدية ، فهو الأحد المنفرد بالكمال الذي به الأسماء الحسنى ، والصفات الكاملة العليا . الذي لا نظير له ، ولا مثيل . وقيل الواحد الأحد : هو الذي توحَّد بجميع الكمالات بحيث لا يشاركه فيها مشارك ، ويجب على العبيد توحيده عقدًا ، وقولا ، وعملا بأن يعترفوا بكماله المطلق . ويفردوه بالوحدانية . ويفردوه بأنواع العبادة . وقال أبو سليمان الخطابي : الواحد : هو المنفرد بالذات ، فلا يضاهيه أحد .

والأحد : هو المنفرد بالمعنى ، لا يشاركه فيه أحد .

والفرق بين أحد وواحد من جهة اللفظ وحكمه ومن جهة المعنى . أما الفارق اللفظي فإن لفظ واحد قد فرقوا فيه بين المذكر والمؤنث ، قالوا : واحد وواحدة فألحقوا مؤنثه الهاء ، وجمعوه فقالوا : وحدان . وأما أحد فلم يلحقوه علامة تأنيث ولا جمعوه .

وفرق آخر وهو أن واحدًا يقع تابعًا في أكثر موارده ، وهو الوجه فيه ، لأنه يجري صفة وإن كان الوصف به عارضًا كما في الأعداد ، فهذه فروق (ثلاثة) من جهة حكم اللفظ .

وأما الفرق من جهة المعنى فإن واحدًا يقع على كل مفرد كان ، مما يتصف بالعقل والعلم أو لا يتصف ، تقول : رجل واحد وجمل واحد ، وهذا خلاف حكم أحد فإنه لا يقع إلا لأولي العلم والعقل من الملائكة والإنس والجن .

وفرق ثان ، وهو أنك تقول : ما جاءني رجل (واحد) فيحتمل ذلك ثلاث معان : أحدها أن تريد ما جاءني (رجل واحد بل جاءني أكثر) ، والثاني أن تريد ما جاء رجل عناء وقوة بل جاء الضعفاء ، والثالث أن تريد النفي العام أي ما جاءني رجل واحد ولا أكثر ولا قوي ولا ضعيف . والثالث أن تريد النفي العام أي ما جاءني رجل واحد ولا أكثر ولا قوي ولا ضعيف . فإذا قلت ما جاءني أحد لم يحتمل غير معنى واحد وهو النفي العام وهذا أوضح فارق بين لفظ واحد (وأحد) . فإن قلت : قد تقرر فرق (ما) بين لفظ واحد وأحد (فما الحاصل المعتمد في معنى أحد) ومقتضاه ؟ قلت : معناه وحدة لا غيرية معها ولا أثنينية ، وإليه يشير ما فسره به أهل اللغة ، قال صاحب العين : الوحد المنفرد وهو أوحد في هذا الأمر أي منفرد . وقد استشعر الفرق بين المفسرين من قال : أحد بمعنى واحد فرد من جميع جهات الوحدانية : (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) (الشورى / ١١) وهو قول بعض جلة المفسرين وقد أحسن .

أما اقتصاد الزمخشري على تزاكيه في البيان وتوفر حظه من علم اللسان على أن قال : أحد بمعنى واحد وأصله وحد ولم يزد على هذا فغير مناسب لمسلكه . وقيل واحد اسم لمفتاح العدد ومن جنسه ، وأحد لنفي ما يذكر معه من العدد ، وقيل أحد يدل على محض الوحدة ، ألا ترى أنه ناف لما يرد معه يريد في نحو قولك : ما أتانى أحد لانتفاء الواحد وما سواه ، بخلاف قولك : ما أتانى واحد إذ قد يحتمل أن يراد أنه أتاك أكثر من واحد ، وقد تقدم هذا ،

ولا يحتمل ذلك قولك : ما أتانى أحد .

وإذ وضحت العلة تبين وجه وروده في السورة الكريمة ، ولم يحتج إلى ادعاء اشتراك ولا تأويل ، والله أعلم .

(*) الصَّمَدُ : أجمع ما قيل في معناه : أنه الكامل في صفاته ، الذي افتقرت إليه جميع مخلوقاته . فقد روي عن ابن عباس أن الصمد هو الكامل في علمه ، الكامل في حلمه ، الكامل في عزته ، الكامل في قدرته ، إلى آخر ما ذكر في الأثر . وهذا يعني أنه مستغنٍ عن جميع المخلوقات لأنه كامل ، وورد أيضًا في تفسيرها أن الصمد هو الذي تصمد إليه الخلائق في حوائجها ، وهذا يعني أن جميع المخلوقات مفتقرة إليه ، والصَّمَدُ : السَّيِّدُ الَّذِي لَا يُسْتَغْنَى عَنْهُ فِي الْمُهِمَّاتِ ، وَهُوَ سَيِّدُ الْقَوْمِ الْمُطَاعُ فِيهِمْ . قَالَ فِي (الْكَشَّافِ) : وَهُوَ فَعَلٌ بِمَعْنَى مَفْعُولٍ مِنْ : صَمَدَ إِلَيْهِ ، إِذَا قَصَدَهُ ، فَالصَّمَدُ الْمَصْمُودُ فِي الْحَوَائِجِ . قُلْتُ : وَنَظِيرُهُ السَّنَدُ الَّذِي تُسْنَدُ إِلَيْهِ الْأُمُورُ الْمُهِمَّةُ .

والصَّمَدُ : مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ هُوَ الصَّمَدُ الْحَقُّ الْكَامِلُ الصَّمَدِيَّةِ عَلَى وَجْهِ الْعُمُومِ . فَالصَّمَدُ مِنَ الْأَسْمَاءِ التِّسْعَةِ وَالتِّسْعِينَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ عِنْدَ التِّرْمِذِيِّ . وَمَعْنَاهُ : الْمُفْتَقِرُ إِلَيْهِ كُلُّ مَا عَدَاهُ ، فَالْمَعْدُومُ مُفْتَقِرٌ وُجُودُهُ إِلَيْهِ وَالْمَوْجُودُ مفتقر فِي شؤونه إِلَيْهِ .

وَقَدْ كَثُرَتْ عِبَارَاتُ الْمُفَسِّرِينَ مِنَ السَّلَفِ فِي مَعْنَى الصَّمَدِ ، وَكُلُّهَا مُنْدَرِجَةٌ تَحْتَ هَذَا الْمَعْنَى الْجَامِعِ ، وَقَدْ أَنْهَاهَا فَخْرُ الدِّينِ إِلَى ثَمَانِيَةَ عَشَرَ قَوْلًا . وَيَشْمَلُ هَذَا الِاسْمُ صِفَاتِ اللَّهِ الْمَعْنَوِيَّةَ الْإِضَافِيَّةَ وَهِيَ كَوْنُهُ تَعَالَى حَيًّا ، عَالِمًا ، مُرِيدًا ، قَادِرًا ، مُتَكَلِّمًا ، سَمِيعًا ، بَصِيرًا ، لِأَنَّهُ لَوِ انْتَفَى عَنْهُ أَحَدُ هَذِهِ الصِّفَاتِ لَمْ يَكُنْ مَصْمُودًا إِلَيْهِ .

وَصِيغَةُ اللَّهُ الصَّمَدُ صِيغَةُ قَصْرٍ بِسَبَبِ تَعْرِيفِ الْمُسْنَدِ فَتُفِيدُ قَصْرَ صِفَةِ الصَّمَدِيَّةِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى ، وَهُوَ قَصْرُ قَلْبٍ لِإِبْطَالِ مَا تَعَوَّدَهُ أَهْلُ الشِّرْكِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مِنْ دُعَائِهِمْ أَصْنَامَهُمْ فِي حَوَائِجِهِمْ وَالْفَزَعِ إِلَيْهَا فِي نَوَائِبِهِمْ حَتَّى نَسُوا اللَّهَ .

وقال قتادة : هو الذي يحكم ما يريد ، ويفعل ما يشاء ، لا معقّب لحكمه ، ولا رادّ لقضائه .

وعن أبي وائل (الصَّمَدُ) : هو السيد الذي انتهى سُؤدده .

وقيل : تفسيره ما بعده ، وهو قوله (الذي لم يلد ، ولم يولد) .

قال ابن الجوزي : وفي الصمد أربعة أقوال :

أحدها : أنه السيِّد الذي يُصْمَدُ إليه في الحوائج ، رواه ابن عباس .

وروي عن ابن عباس قال : الصَّمَدُ : السّيّد الذي كمل في سؤدده . وقال أبو عبيدة : هو السيد الذي ليس فوقه أحد . والعرب تسمي أشرافها : الصَّمد .

قال الأسدي :

لَقَدْ بَكَّرَ النَّاعي بِخَيْرَيْ بَني أَسَدْ ... بعمرو بن مَسْعودٍ وبالسَّيدِ الصَّمَدْ

وقال الزجَّاج : هو الذي ينتهي إليه السُّؤدُد ، فقد صمد له كلّ شيء أي قصد قصده .

وتأويل صمود كل شيء له : أن في كل شيء أثر صُنْعه .

وقال ابن الأنباري : لا خلاف بين أهل اللغة أن الصمد : السيد الذي ليس فوقه أحد تصمد إليه الناس في أمورهم وحوائجهم .

والثاني : أنه الذي لا جوف له ، قاله ابن عباس ، والحسن ، ومجاهد ، وابن جبير ، وعكرمة ، والضحاك ، وقتادة ، والسّدّيّ . وقال ابن قتيبة : وكان الدال من هذا التفسير مبدلة من تاء ، والمصمت من هذا .

والثالث : أنه الدائم .

والرابع : الباقي بعد فناء الخلق ، حكاهما الخطابي وقال : أصح الوجوه الأول ، لأن الاشتقاق يشهد له ، فإن أصل الصمد : القصد . يقال : اصْمُد صَمْد فلان ، أي اقصد قصده .

فالصمد : السيد الذي يُصمد إليه في الأمور ، ويقصد في الحوائج .

(*) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ : لأنه ليس شيء يولد إلا يموت ، وليس شيء يموت إلا يورث ، والله لا يموت ولا يورث ، قال مقاتل : لم يلد فيورَّث وَلَمْ يُولَدْ فيشارَك ، وذلك أن مشركي العرب قالوا : الملائكة بناتُ الرحمن . وقالت اليهود : عزير ابن الله ، وقالت النصارى : المسيح ابن الله ، فبرأ الله نفسه من ذلك . (لم يلد) لأنه جل وعلا لا مثيل له ، والولد مشتق من والده وجزء منه كما قال النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – في فاطمة : " إنها بَضْعَةٌ مني " ، والله جل وعلا لا مثيل له ، ثم إن الولد إنما يكون للحاجة إليه إما في المعونة على مكابدة الدنيا ، وإما في الحاجة إلى بقاء النسل . والله عز وجل مستغنٍ عن ذلك . فلهذا لم يلد لأنه لا مثيل له ؛ ولأنه مستغنٍ عن كل أحد عز وجل .

وقد أشار الله عز وجل إلى امتناع ولادته أيضًا في قوله تعالى : (أنَّ يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم) (الأنعام / ١٠١) . فالولد يحتاج إلى صاحبة تلده ، وكذلك هو خالق كل شيء ، فإذا كان خالق كل شيء فكل شيء منفصل عنه بائن منه . وفي قوله : (لم يلد) رد على ثلاث طوائف منحرفة من بني آدم ، وهم : المشركون ، واليهود ، والنصارى ، لأن المشركين جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثًا ، وقالوا : إن الملائكة بنات الله . واليهود قالوا : عزير ابن الله . والنصارى قالوا : المسيح ابن الله . فكذبهم الله بقوله : (لم يلد ولم يولد) لأنه عز وجل هو الأول الذي ليس قبله شيء ، فكيف يكون مولودًا ؟!

و لِأَنَّ مَنْ يُصْمَدُ إِلَيْهِ لَا يَكُونُ مِنْ حَالِهِ أَنْ يَلِدَ لِأَنَّ طَلَبَ الْوَلَدِ لِقَصْدِ الِاسْتِعَانَةِ بِهِ فِي إِقَامَةِ شؤون الْوَالِدِ وَتَدَارُكِ عَجْزِهِ ، وَلِذَلِكَ اسْتُدِلَّ عَلَى إِبْطَالِ قَوْلِهِمْ : اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا بِإِثْبَاتِ أَنَّهُ الْغَنِيُّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (قالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ) (يُونُس / ٦٨) فَبَعْدَ أَنْ أَبْطَلَتِ الْآيَةُ الْأَوْلَى مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ تَعَدُّدَ الْإِلَهِ بِالْأَصَالَةِ وَالِاسْتِقْلَالِ ، أَبْطَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ تَعَدُّدَ الْإِلَهِ بِطَرِيقِ تَوَلُّدِ إِلَهٍ عَنْ إِلَهٍ ، لِأَنَّ الْمُتَوَلِّدَ مُسَاوٍ لِمَا تَوَلَّدَ عَنْهُ .

وأُرْدِفَ نَفْيُ الْوَلَدِ بِنَفْيِ الْوَالِدِ . وَإِنَّمَا قُدِّمَ نَفْيُ الْوَلَدِ لِأَنَّهُ أَهَمُّ إِذْ قَدْ نَسَبَ أَهْلُ الضَّلَالَةِ الْوَلَدَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَلَمْ يَنْسُبُوا إِلَى اللَّهِ وَالِدًا .

وَفِيهِ الْإِيمَاءُ إِلَى أَنَّ مَنْ يَكُونُ مَوْلُودًا مِثْلَ عِيسَى لَا يَكُونُ إِلَهًا لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ الْإِلَهُ مَوْلُودًا لَكَانَ وُجُودُهُ مَسْبُوقًا بِعَدَمٍ لَا مَحَالَةَ ، وَذَلِكَ مُحَالٌ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ مَسْبُوقًا بِعَدَمٍ لَكَانَ مُفْتَقِرًا إِلَى مَنْ يُخَصِّصُهُ بِالْوُجُودِ بَعْدَ الْعَدَمِ ، فَحَصَلَ مِنْ مَجْمُوعِ جُمْلَةِ : لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ، إِبْطَالُ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَالِدًا لِمَوْلُودٍ ، أَوْ مَوْلُودًا مِنْ وَالِدٍ بِالصَّرَاحَةِ . وَبَطَلَتْ إِلَهِيَّةُ كُلِّ مَوْلُودٍ بِطَرِيقِ الْكِنَايَةِ فَبَطَلَتِ الْعَقَائِدُ الْمَبْنِيَّةُ عَلَى تَوَلُّدِ الْإِلَهِ مِثْلَ عَقِيدَةِ (زَرَادِشْتَ) الثَّانَوِيَّةِ الْقَائِلَةِ بِوُجُودِ إِلَهَيْنِ : إِلَهِ الْخَيْرِ وَهُوَ الْأَصْلُ ، وَإِلَهِ الشَّرِّ وَهُوَ مُتَوَلَّدٌ عَنْ إِلَهِ الْخَيْرِ ، لِأَنَّ إِلَهَ الْخَيْرِ وَهُوَ الْمُسَمَّى عِنْدَهُمْ (يَزْدَانَ) فَكَّرَ فِكْرَةَ سُوءٍ فَتَوَلَّدَ مِنْهُ إِلَهُ الشَّرِّ الْمُسَمَّى عِنْدَهُمْ (أَهْرُمُنْ) ، وَقَدْ أَشَارَ إِلَى مَذْهَبِهِمْ أَبُو الْعَلَاءِ بِقَوْلِهِ :

قَالَ أُنَاسٌ بَاطِلٌ زَعْمُهُمْ ... فَرَاقِبُوا اللَّهَ وَلَا تَزْعُمُنْ

فَكَّرَ (يَزْدَانُ) عَلَى غِرَّةٍ ... فَصِيغَ مِنْ تَفْكِيرِهِ (أَهْرُمُنْ)

وَبَطَلَتْ عَقِيدَةُ النَّصَارَى بِإِلَهِيَّةِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِتَوَهُّمِهِمْ أَنَّهُ ابْنُ اللَّهِ وَأَنَّ ابْن الْإِلَه لَا يَكُونُ إِلَّا إِلَهًا بِأَنَّ الْإِلَهَ يَسْتَحِيلُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ فَلَيْسَ عِيسَى بِابْن لله ، وَبِأَنَّ الْإِلَهَ يَسْتَحِيلُ أَنْ يَكُونَ مَوْلُودًا بَعْدَ عَدَمٍ . فَالْمَوْلُودُ الْمُتَّفَقُ عَلَى أَنَّهُ مَوْلُودٌ يَسْتَحِيلُ أَنْ يَكُونَ إِلَهًا فَبَطَلَ أَنْ يَكُونَ عِيسَى إِلَهًا .

فَلَمَّا أَبْطَلَتِ الْجُمْلَةُ الْأُولَى إِلَهِيَّةَ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ بِالْأَصَالَةِ ، وَأَبْطَلَتِ الْجُمْلَةُ الثَّانِيَةُ إِلَهِيَّةَ غَيْرِ اللَّهِ بِالِاسْتِحْقَاقِ ، أَبْطَلَتْ هَذِهِ الْجُمْلَةُ إِلَهِيَّةَ غَيْرِ اللَّهِ بِالْفَرْعِيَّةِ وَالتَّوَلُّدِ بِطَرِيقِ الْكِنَايَةِ .

وَإِنَّمَا نَفْيُ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَالِدًا وَأَنْ يَكُونَ مَوْلُودًا فِي الزَّمَنِ الْمَاضِي ، لِأَنَّ عَقِيدَةَ التَّوَلُّدِ ادَّعَتْ وُقُوعَ ذَلِكَ فِي زَمَنٍ مَضَى ، وَلَمْ يَدَّعِ أَحَدٌ أَنَّ اللَّهَ سَيَتَّخِذُ وَلَدًا فِي الْمُسْتَقْبل .

(*) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ : (كُفُوًا) : مَعْنَاهُ : الْمُسَاوِي والمماثل فِي الصِّفَاتِ .

و(أَحَدٌ) هُنَا بِمَعْنَى إِنْسَانٍ أَوْ مَوْجُودٍ ، وَهُوَ مِنَ الْأَسْمَاءِ النَّكِرَاتِ الْمُلَازِمَةِ لِلْوُقُوعِ فِي حَيِّزِ النَّفْيِ .

وَحَصَلَ بِهَذَا جِنَاسٌ تَامٌّ مَعَ قَوْلِهِ : قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ وَتَقْدِيمُ خَبَرِ (كَانَ) عَلَى اسْمِهَا لِلرِّعَايَةِ عَلَى الْفَاصِلَةِ وَلِلِاهْتِمَامِ بِذِكْرِ الْكُفُوِّ عَقِبَ الْفِعْلِ الْمَنْفِيِّ لِيَكُونَ أَسْبَقَ إِلَى السَّمْعِ . وَتَقْدِيمُ الْمَجْرُورِ بِقَوْلِهِ : (لَهُ) عَلَى متعلّقه وَهُوَ (كُفُوًا) لِلِاهْتِمَامِ بِاسْتِحْقَاقِ اللَّهِ نَفْيَ كَفَاءَةِ أَحَدٍ لَهُ ، فَكَانَ هَذَا الِاهْتِمَامُ مُرَجِّحًا تَقْدِيمَ الْمَجْرُورِ عَلَى مُتَعَلِّقِهِ .

وفيه التوسل بأسماء الله تعالى الحسنى ، وصفاته العليا .

(٤) وَالْمُعَوِّذَتَيْنِ : أي سورتي (الفلق ، الناس) لأن كلتا السورتين مفتتحة بـ (قل أعوذ) ، ولعظم أهميتهما أتكلم عن شيئ من معانيها : أولًا سورة الفلق (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ * وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ * وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ)

يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : قُلْ يَا رسولَنا :
أَسْتَجِيرُ بِرَبِّ الْفَلَقِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ مِنَ الْخَلْقِ .

(*) أَعُوذُ : أَعتصم وأتحصَّن وألجأ ، والاستعاذة : من العوذ وهي طلب العوذ ، العوذ : الالتجاء والتحصن : أي : طلب ما يَحمِي من المكروه ، (الاستعاذة : طلب الإعاذة ، والإعاذة الحماية من مكروه فالمستعيذ محتمٍ بمن استعاذ به ومعتصم به) .

والْعَوْذُ : اللَّجْأُ إِلَى شَيْءٍ يَقِي مَنْ يَلْجَأُ إِلَيْهِ مَا يَخَافُهُ ، يُقَالُ : عَاذَ بِفُلَانٍ ، وَعَاذَ بِحِصْنٍ ، وَيُقَالُ : اسْتَعَاذَ ، إِذَا سَأَلَ غَيْرَهُ أَنْ يُعِيذَهُ قَالَ تَعَالَى : (فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) (الْأَعْرَاف / ٢٠٠) .

وَعَاذَ مِنْ كَذَا ، إِذَا صَارَ إِلَى مَا يُعِيذُهُ مِنْهُ قَالَ تَعَالَى : (فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ) (النَّحْل / ٩٨) .

– قلت : (والقائل / عماد) : فائدة في الاستعاذة :

س : ما أنواع الاستعاذة ؟ مع بيان الجائز منها وغير الجائز ؟

ج : قال الشيخ محمد بن صالح العثيمين في (شرحه / ٥٩) : (الاستعاذة أنواع : الأول : الاستعاذة بالله تعالى وهي المتضمنة لكمال الافتقار إليه والاعتصام به واعتقاد كفايته وتمام حمايته من كل شيء حاضر أو مستقبل ، صغير أو كبير ، بشر أو غير بشر ودليلها قوله تعالى : (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِن شَرِّ مَا خَلَقَ) (الفلق) إلى آخر السورة وقوله تعالى : (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاس (١)) (الناس) إلى آخر السورة .

الثاني : الاستعاذة بصفة ، ككلام الله وعظمته وعزته ونحو ذلك ودليل ذلك قوله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ " (م / ٧٠٥٣) وقوله : " أَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي " (صحيح أبي داود / ٥٠٧٤) وقوله : في دعاء الألم " أَعُوذُ بِعِزَّةِ اللهِ وَقُدْرَتِهِ ، مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَاذِرُ " (صحيح ابن ماجة / ٣٥٢٢) ، وقوله : " أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ " (م / ١١١٨) ، وقوله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – حين نزل قوله تعالى : (قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ) (الأنعام / ٦٥) فقال : " أَعُوذُ بِوَجْهِكَ " (خ / ٤٦٢٨) .

الثالث : الاستعاذة بالأموات أو الأحياء غير الحاضرين القادرين على العوذ فهذا شرك ، ومنه قوله تعالى : (وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا) (الجن / ٦) .

الرابع : الاستعاذة بما يمكن العوذ به من المخلوقين من البشر أو الأماكن أو غيرها فهذا جائز ودليله قوله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – في ذكر الفتن : " مَنْ تَشَرَّفَ لَهَا تَسْتَشْرِفْهُ فَمَنْ وَجَدَ فِيهَا مَلْجَأً ، أَوْ مَعَاذًا فَلْيَعُذْ بِهِ " (خ / ٧٠٨١ ، م / ٧٤٢٩) وقد بيَّن – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – هذا الملجأ والمعاذ بقوله : " فَمَنْ كَانَ لَهُ إِبِلٌ فَلْيَلْحَقْ بِإِبِلِهِ " (م / ٧٤٣٢) ، وفي صحيحه أيضًا عن جابر – رَضِيَ اللَّهُ عَنْه – " أَنَّ امْرَأَةً مِنْ بَنِي مَخْزُومٍ سَرَقَتْ فَأُتِيَ بِهَا النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَعَاذَتْ بِأُمِّ سَلَمَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ " (م / ٤٥٠٨) الحديث ، وفي صحيحه أيضًا عن أُمِّ سَلَمَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا – عن النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قال : " يَعُوذُ عَائِذٌ بِالْبَيْتِ فَيُبْعَثُ إِلَيْهِ بَعْثٌ " (م / ٧٤٢١) الحديث . ولكن إن استعاذ من شر ظالم وجب إيواؤه وإعاذته بقدر الإمكان ، وإن استعاذ ليتوصل إلى فعل محظور

أو الهرب من واجب حرم إيواؤه .

ويمكن تلخيص حكمها إلى :

١ – شركية : كأن يستعيذ بغير الله مما لا يقدر عليه إلا الله .

٢ – غير شركية : ما دون الشركية ، وهي مراتب منها أن يستعيذ بذي سلطان وغيره .

(*) بِرَبِّ : فائدة في معانى الرب ، ما معانى الرب ؟

– لها أكثر من معنى منها : (التربية) فيقال : رَبَّى فلانٌ ابنَه ، إذا صنع معه التربية الحسنة .

قلت : (والقائل / عماد) : فائدة في معنى الرب : يأتي على عدة معاني منها :

١– السيِّد والمولى مثاله : قال يوسف عليه السّلام : (اُذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ) (يوسف / ٤٢) ، وقال : (اِرْجِعْ إِلى رَبِّكَ) (يوسف / ٥٠) أى سيدك .

٢– الصاحب والمالك : مثاله : (رب الدار) أي صاحب أو مالك الدار .

٣– القائد والذي يسوس الناس : مثاله : قال صفوان بن أمية لأبي سُفيان بن حرب يوم حُنين : (لأن يرُبَّني رجلٌ من قُرَيش أحبُّ إليَّ أن يَربَّني رجلٌ من هَوَازِن)

٤– المُصلِح أو المُرَبِي : مثاله : (أَلَك نِعْمَةٌ ترُبُّها) أي تَحْفَظُها وتُراعيها وتُرَبّيها كما يُرَبِّي الرجل ولده .

يقال : رَبَّ فُلانٌ ولدَه يَرُبُّهُ رَبًّا ورَبَّتَه ورَبَّاه كلُّه بمعنى واحِد ، وكذلك (الربانيون) قيل سموا بذلك لأنهم يربون الناس بصغار العلم قبل كباره وفيه إصلاحهم ، وقيل لما مات ابن عباس – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما – قال محمد ابن الحنفية : " مات رباني هذه الأمة " ، وإذا أطلق الرب فالمراد به هو الله تعالى ، ولا يطلق على غيره إلا مقيدًا : فيقال : رب الدار .

(*) والْفَلَقِ : الصُّبْحُ ، وَهُوَ فَعَلٌ بِمَعْنَى مَفْعُولٍ مِثْلَ الصَّمَدِ لِأَنَّ اللَّيْلَ شُبِّهَ بِشَيْءٍ مُغْلَقٍ يَنْفَلِقُ عَنِ الصُّبْحِ ، وَحَقِيقَةُ الْفَلْقِ : الِانْشِقَاقُ عَنْ بَاطِنِ شَيْءٍ .

(*) وَرَبُّ الْفَلَقِ : هُوَ اللَّهُ ، لِأَنَّهُ الَّذِي خَلَقَ أَسْبَابَ ظُهُورِ الصُّبْحِ .

– فإن قيل : لماذا وُصْفِ اللَّهُ بِأَنَّهُ رَبُّ الْفَلَقِ دُونَ وَصْفٍ آخَرَ ، وهل هو ربُّ الفلق فقط ؟

يقال : تَخْصِيصُ وَصْفِ اللَّهِ بِأَنَّهُ رَبُّ الْفَلَقِ دُونَ وَصْفٍ آخَرَ لِأَنَّ شَرًّا كَثِيرًا يَحْدُثُ فِي اللَّيْلِ مِنْ لُصُوصٍ ، وَسِبَاعٍ ، وَذَوَاتِ سُمُومٍ ، وَتَعَذُّرِ السَّيْرِ ، وَعُسْرِ النَّجْدَةِ ، وَبُعْدِ الِاسْتِغَاثَةِ وَاشْتِدَادِ آلَامِ الْمَرْضَى ، حَتَّى ظَنَّ بَعْضُ أَهْلِ الضَّلَالَةِ اللَّيْلَ إِلَهَ الشَّرِّ .

وَالْمَعْنَى : أَعُوذُ بِفَالِقِ الصُّبْحِ مَنْجَاةً مِنْ شُرُورِ اللَّيْلِ ، فَإِنَّهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْجِيَنِي فِي اللَّيْلِ مِنَ الشَّرِّ كَمَا أَنْجَى أَهْلَ الْأَرْضِ كُلَّهُمْ بِأَنْ خَلَقَ لَهُمُ الصُّبْحَ ، فَوُصِفَ اللَّهُ بِالصِّفَةِ الَّتِي فِيهَا تمهيد للإجابة .

(*) وَالْغَاسِقُ : وَصْفُ اللَّيْلِ إِذَا اشْتَدَّتْ ظُلْمَتُهُ يُقَالُ : غَسَقَ اللَّيْلُ يَغْسِقُ ، إِذَا أَظْلَمَ قَالَ تَعَالَى : (إِلى غَسَقِ اللَّيْلِ) (الْإِسْرَاء / ٧٨) . قال ابن القيم في تفسيره القيم : من شر الغاسق الذي هو الظلمة فناسب الوصف المستعاذ به للمعنى المطلوب بالإستعاذة ،

فإن قيل فما تقولون في حديث عَائِشَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا – أَنَّ النَّبِيَّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – نَظَرَ إِلَى القَمَرِ ، فَقَالَ : " يَا عَائِشَةُ اسْتَعِيذِي بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ هَذَا ، فَإِنَّ هَذَا هُوَ الغَاسِقُ إِذَا وَقَبَ " (صحيح التِّرْمِذِيّ / ٣٣٦٦) .

وهذا أولى من كل تفسير فيتعين المصير إليه قيل هذا التفسير حق ولا يناقض التفسير الأول بل يوافقه ويشهد بصحته فإن الله تعالى قال (وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنا آيَةَ النَّهارِ مُبْصِرَةً) (الإسراء / ١٢) فالقمر هو آية الليل وسلطانه فهو أيضًا غاسق إذا وقب ، والنبي أخبر عن القمر بأنه غاسق إذا وقب وهذا خبر صدق وهو أصدق الخبر ولم ينف عن الليل اسم الغاسق إذا وقب وتخصيص النبي له بالذكر لا ينفي شمول الإسم لغيره .

(*) وَقَبَ : دَخَلَ وَتَغَلْغَلَ فِي الشَّيْءِ .

– فإن قيل : لماذا أُعِيدَتْ كَلِمَةُ مِنْ شَرِّ بَعْدَ حَرْفِ الْعَطْفِ فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ ، وَفِي الْجُمْلَتَيْنِ الْمَعْطُوفَتَيْنِ عَلَيْهَا مَعَ أَنَّ حَرْفَ الْعَطْفِ مُغْنٍ عَنْ إِعَادَةِ الْعَامِلِ ؟

يقال : أُعِيدَتْ كَلِمَةُ مِنْ شَرِّ بَعْدَ حَرْفِ الْعَطْفِ فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ . وَفِي الْجُمْلَتَيْنِ الْمَعْطُوفَتَيْنِ عَلَيْهَا مَعَ أَنَّ حَرْفَ الْعَطْفِ مُغْنٍ عَنْ إِعَادَةِ الْعَامِلِ قَصْدًا لِتَأْكِيدِ الدُّعَاءِ ، تَعَرُّضًا لِلْإِجَابَةِ ، وَهَذَا مِنَ الِابْتِهَالِ فَيُنَاسِبُهُ الْإِطْنَابُ .

(*)النَّفَّاثاتِ : النَّفْثُ : نَفْخٌ مَعَ تَحْرِيكِ اللِّسَانِ بِدُونِ إِخْرَاجِ رِيقٍ فَهُوَ أَقَلُّ مِنَ التُّفْلِ ، يَفْعَلُهُ السَّحَرَةُ إِذَا وَضَعُوا عِلَاجَ سِحْرِهِمْ فِي شَيْءٍ وَعَقَدُوا عَلَيْهِ عُقَدًا ثُمَّ نَفَثُوا عَلَيْهَا .

فَالْمُرَادُ بِالنَّفَّاثاتِ فِي الْعُقَدِ : النِّسَاءُ السَّاحِرَاتُ .

– فإن قيل : لماذا جِيءَ بِصِفَةِ الْمُؤَنَّثِ (النَّفَّاثاتِ) .

يقال : إِنَّمَا جِيءَ بِصِفَةِ الْمُؤَنَّثِ لِأَنَّ الْغَالِبَ عِنْدَ الْعَرَبِ أَنْ يَتَعَاطَى السِّحْرَ النِّسَاءُ لِأَنَّ نِسَاءَهُمْ لَا شُغْلَ لَهُنَّ بَعْدَ تَهْيِئَةِ لَوَازِمِ الطَّعَامِ وَالْمَاءِ وَالنَّظَافَةِ ، فَلِذَلِكَ يَكْثُرُ انْكِبَابُهُنَّ عَلَى مِثْلِ هَاتِهِ السَّفَاسِفِ مِنَ السِّحْرِ وَالتَّكَهُّنِ وَنَحْوِ ذَلِكَ ، فَالْأَوْهَامُ الْبَاطِلَةُ تَتَفَشَّى بَيْنَهُنَّ ، وَكَانَ الْعَرَبُ يَزْعُمُونَ أَنَّ الْغُولَ سَاحِرَةٌ مِنَ الْجِنِّ .

(*) والْعُقَدِ : جَمْعُ عُقْدَةٍ وَهِيَ رَبْطٌ فِي خَيْطٍ أَوْ وَتَرٍ يَزْعُمُ السَّحَرَةُ أَنَّهُ سِحْرُ الْمَسْحُورِ يَسْتَمِرُّ مَا دَامَت تِلْكَ العقد مَعْقُودَةً ، وَلِذَلِكَ يَخَافُونَ مِنْ حَلِّهَا فَيَدْفِنُونَهَا أَوْ يُخَبِّئُونَهَا فِي مَحَلٍّ لَا يُهْتَدَى إِلَيْهِ . أَمَرَ اللَّهُ رَسُولَهُ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بِالِاسْتِعَاذَةِ مِنْ شَرِّ السَّحَرَةِ لِأَنَّهُ ضَمِنَ لَهُ أَنْ لَا يَلْحَقَهُ شَرُّ السَّحَرَةِ ، وَذَلِكَ إِبْطَالٌ لِقَوْلِ الْمُشْرِكِينَ فِي أَكَاذِيبِهِمْ إِنَّهُ مَسْحُورٌ ، قَالَ تَعَالَى : (وَقالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا) (الْفرْقَان / ٨) .

(*) وَالْحَسَدُ : إِحْسَاسٌ نَفْسَانِيٌّ مُرَكَّبٌ مِنِ اسْتِحْسَانِ نِعْمَةٍ فِي الْغَيْرِ مَعَ تَمَنِّي زَوَالِهَا عَنْهُ لِأَجْلِ غَيْرَةٍ عَلَى اخْتِصَاصِ الْغَيْرِ بِتِلْكَ الْحَالَةِ أَوْ عَلَى مُشَارَكَتِهِ الْحَاسِدَ فِيهَا . وَقَدْ يُطْلَقُ اسْمُ الْحَسَدِ عَلَى الْغِبْطَةِ مَجَازًا .

وَالْغِبْطَةُ : تَمَنِّي الْمَرْءِ أَنْ يَكُونَ لَهُ مِنَ الْخَيْرِ مِثْلُ مَا لِمَنْ يَرُوقُ حَالُهُ فِي نَظَرِهِ ، وَهُوَ مَحْمَلُ الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ : " لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ " (خ / ٧٣ ، م / ٨١٥) ، أَيْ لَا غِبْطَةَ ، أَي لَا تحق الْغِبْطَةُ إِلَّا فِي تَيْنِكَ الْخَصْلَتَيْنِ ، وَقَدْ بَيَّنَ شِهَابُ الدِّينِ الْقَرَافِيُّ الْفَرْقَ بَيْنَ الْحَسَدِ وَالْغِبْطَةِ فِي الْفَرْقِ الثَّامِنِ وَالْخَمْسِينَ وَالْمِائَتَيْنِ .

فَقَدْ يَغْلِبُ الْحَسَدُ صَبْرَ الْحَاسِدِ وَأَنَاتَهُ فَيَحْمِلُهُ عَلَى إِيصَالِ الْأَذَى لِلْمَحْسُودِ بِإِتْلَافِ أَسْبَابِ نعْمَته أَو إهلاكه رَأْسًا .

– فإن قيل : لماذا تَقْيِيدُ الِاسْتِعَاذَةِ مِنْ شَرِّهِ بِوَقْتِ إِذا حَسَدَ ؟

يقال : تَقْيِيدُ الِاسْتِعَاذَةِ مِنْ شَرِّهِ بِوَقْتِ إِذا حَسَدَ لِأَنَّهُ حِينَئِذٍ يَنْدَفِعُ إِلَى عَمَلِ الشَّرِّ بِالْمَحْسُودِ حِينَ يَجِيشُ الْحَسَدُ

فِي نَفْسِهِ فَتَتَحَرَّكُ لَهُ الْخَيْلُ وَالنَّوَايَا لِإِلْحَاقِ الضُّرِّ بِهِ . وَالْمُرَادُ مِنَ الْحَسَدِ فِي قَوْلِهِ : إذا حَسَدَ ، حَسَدٌ خَاصٌّ وَهُوَ الْبَالِغُ أَشَدَّ حَقِيقَتِهِ ، فَلَا إِشْكَالَ فِي تَقْيِيدِ الْحَسَدِ بِحَسَدَ وَذَلِكَ كَقَوْل عَمْرو بن معد يكرب :

وَبَدَتْ لَمِيسُ كَأَنَّهَا ... بَدْرُ السَّمَاءِ إِذَا تَبَدَّى

أَيْ تَجَلَّى وَاضِحًا مُنِيرًا .

ثانيًا سورة الناس : (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ * مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ)

(*) أَعُوذُ : تقدَّم الكلام عنه في سورة الفلق .

(*) النَّاسِ : اسْمُ جَمْعٍ لِلْبَشَرِ جَمِيعِهِمْ أَوْ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ وَلَا يُطْلَقُ عَلَى غَيْرِهِمْ عَلَى التَّحْقِيقِ .

– فإن قيل : لماذا عُرِّفَ (رَبِّ) بِإِضَافَتِهِ إِلَى النَّاسِ دُونَ غَيْرِهِمْ مِنَ الْمَرْبُوبِينَ ؟

يقال : عُرِّفَ (رَبِّ) بِإِضَافَتِهِ إِلَى النَّاسِ دُونَ غَيْرِهِمْ مِنَ الْمَرْبُوبِينَ لِأَنَّ الِاسْتِعَاذَةَ مِنْ شَرٍّ يُلْقِيهِ الشَّيْطَانُ فِي قُلُوبِ النَّاسِ فَيَضِلُّونَ وَيُضِلُّونَ ، فَالشَّرُّ الْمُسْتَعَاذُ مِنْهُ مَصَبُّهُ إِلَى النَّاسِ ، فَنَاسَبَ أَنْ يُسْتَحْضَرَ الْمُسْتَعَاذُ إِلَيْهِ بِعُنْوَانِ أَنَّهُ رَبُّ مَنْ يُلْقُونَ الشَّرَّ وَمَنْ يُلْقَى إِلَيْهِمْ لِيَصْرِفَ هَؤُلَاءِ وَيَدْفَعَ عَنِ الْآخَرِينَ كَمَا يُقَالُ لِمَوْلَى الْعَبْدِ : يَا مَوْلَى فُلَانٍ كُفَّ عَنِّي عَبْدَكَ .

(*) مَلِكِ النَّاسِ : وَهُوَ مَلِكُ جَمِيعِ الْخَلْقِ : إِنْسِهِمْ وَجِنِّهِمْ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ .

(*) إِلَهِ النَّاسِ : مَعْبُودِ النَّاسِ ، الَّذِي لَهُ الْعِبَادَةُ دُونَ كُلِّ شَيْءٍ سِوَاهُ .

– فإن قيل : لماذا رُتِّبَتْ أَوْصَافُ اللَّهِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى النَّاسِ هذا الترتيب ؟

يقال : قَدْ رُتِّبَتْ أَوْصَافُ اللَّهِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى النَّاسِ تَرْتِيبًا مُدَرَّجًا فَإِنَّ اللَّهَ خَالِقُهُمْ ، ثُمَّ هُمْ غَيْرُ خَارِجِينَ عَنْ حُكْمِهِ إِذَا شَاءَ أَنْ يتصَرَّف فِي شؤونهم ، ثُمَّ زِيدَ بَيَانًا بِوَصْفِ إِلَهِيَّتِهِ لَهُمْ لِيَتَبَيَّنَ أَنَّ رُبُوبِيَّتَهُ لَهُمْ وَحَاكِمِيَّتَهُ فِيهِمْ لَيْسَتْ كَرُبُوبِيَّةِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا وَحَاكِمِيَّةِ بَعْضِهِمْ فِي بَعْضٍ .

وَفِي هَذَا التَّرْتِيبِ إِشْعَارٌ أَيْضًا بِمَرَاتِبِ النَّظَرِ فِي مَعْرِفَةِ اللَّهِ تَعَالَى فَإِن النَّاظر يعلم بادىء ذِي بَدْءٍ بِأَنَّ لَهُ رَبًّا يسبب مَا يَشْعُرُ بِهِ مِنْ وُجُودِ نَفْسِهِ ، وَنِعْمَةِ تَرْكِيبِهِ ، ثُمَّ يَتَغَلْغَلُ فِي النَّظَرِ فَيَشْعُرُ بِأَنَّ رَبَّهُ هُوَ الْمَلِكُ الْحَقُّ الْغَنِيُّ عَنِ الْخَلْقِ ، ثُمَّ يَعْلَمُ أَنَّهُ الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ فَهُوَ إِلَهُ النَّاسِ كُلِّهِمْ .

ومَلِكِ النَّاسِ عَطْفُ بَيَانٍ مِنْ رَبِّ النَّاسِ وَكَذَلِكَ إِلهِ النَّاسِ فَتَكْرِيرُ لَفْظِ النَّاسِ دُونَ اكْتِفَاءٍ بِضَمِيرِهِ لِأَنَّ عَطْفَ الْبَيَانِ يَقْتَضِي الْإِظْهَارَ لِيَكُونَ الِاسْمُ الْمُبَيِّنُ (بِكَسْرِ الْيَاءِ) مُسْتَقِلًّا بِنَفْسِهِ لِأَنَّ عَطْفَ الْبَيَانِ بِمَنْزِلَةِ عَلَمٍ لِلِاسْمِ الْمُبَيَّنِ (بِالْفَتْحِ) .

(*) والْوَسْوَاسِ : الْمُتَكَلِّمُ بِالْوَسْوَسَةِ ، وَهِيَ الْكَلَامُ الْخَفِيُّ ، وَالتَّعْرِيفُ فِي الْوَسْوَاسِ تَعْرِيفُ الْجِنْسِ وَإِطْلَاقُ الْوَسْوَاسِ عَلَى مَعْنَيَيْهِ الْمَجَازِيِّ وَالْحَقِيقِيِّ يَشْمَلُ الشَّيَاطِينَ الَّتِي تُلْقِي فِي أَنْفُسِ النَّاسِ الْخَوَاطِرَ الشِّرِّيرَةَ ، قَالَ تَعَالَى : (فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ) (طه / ١٢٠) ، وَيَشْمَلُ الْوَسْوَاسُ كُلَّ مَنْ يَتَكَلَّمُ كَلَامًا خَفِيًّا مِنَ النَّاسِ وَهُمْ أَصْحَابُ الْمَكَائِدِ وَالْمُؤَامَرَاتِ الْمَقْصُودِ مِنْهَا إِلْحَاقُ الْأَذَى مِنِ اغْتِيَالِ نُفُوسٍ أَوْ سَرِقَةِ أَمْوَالٍ أَوْ إِغْرَاءٍ بِالضَّلَالِ وَالْإِعْرَاضِ عَنِ الْهُدَى ، لِأَنَّ شَأْنَ مُذَاكَرَةِ هَؤُلَاءِ بَعْضِهِمْ مَعَ بَعْضٍ أَنْ تَكُونَ سِرًّا لِئَلَّا يَطَّلِعَ عَلَيْهَا مَنْ يُرِيدُونَ الْإِيقَاعَ بِهِ ، وَهُمُ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – الدَّوَائِرَ وَيُغْرُونَ النَّاسَ بِأَذِيَّتِهِ .

(*) الْخَنَّاسِ : الشَّدِيدُ الْخَنْسِ وَالْكَثِيرُهُ . وَالْمُرَادُ أَنَّهُ صَارَ عَادَةً لَهُ . وَالْخَنْسُ وَالْخُنُوسُ : الِاخْتِفَاءُ . وَالشَّيْطَانُ يُلَقَّبُ بِالْخَنَّاسِ لِأَنَّهُ يَتَّصِلُ بِعَقْلِ الْإِنْسَانِ وَعَزْمِهِ مِنْ غَيْرِ شُعُورٍ مِنْهُ فَكَأَنَّهُ خَنَسَ فِيهِ ، وَأَهْلُ الْمَكْرِ وَالْكَيْدِ وَالتَّخَتُّلِ خَنَّاسُونَ لِأَنَّهُمْ يَتَحَيَّنُونَ غَفَلَاتِ النَّاسِ وَيَتَسَتَّرُونَ بِأَنْوَاعِ الْحِيَلِ لِكَيْلَا يَشْعُرَ النَّاسُ بِهِمْ .

(*) (مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ) : وَالْجِنَّةُ : اسْمُ جَمْعِ جِنِّيٍّ بِيَاءِ النَّسَبِ إِلَى نَوْعِ الْجِنِّ ، فَالْجِنِّيُّ الْوَاحِدُ مِنْ نَوْعِ الْجِنِّ كَمَا يُقَالُ : إِنْسِيٌّ لِلْوَاحِدِ مِنَ الْإِنْسِ .

قال النسفي : بيان للذي يوسوس على أن الشيطان ضربان : جني وإنسي ؛ لقوله تعالى : (شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ) (الأنعام / ١١٢) ؛ أي : من شر وسوسة الإنس والجن ، ويعضد هذا القول قول ابن عطية – يرحمه الله – : ويظهر أيضًا أن يكون قوله : (وَالنَّاسِ) يراد به من يوسوس بخدعه من البشر ، ويدعو إلى الباطل ، فهو في ذلك كالشيطان .

وسمي الجن جنًّا ؛ لاجتنانهم ؛ أي : استتارهم ، والناسُ ناسًا ؛ لظهورهم ؛ من الإيناس ، وهو الإبصار ، كما سموا بشرًا ؛ من البشرة ، وهو وجه الجلد .

(وَالنَّاسِ) : – فإن قيل : لماذا كُرِّرت كَلِمَةِ النَّاسِ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ ؟

يقال : وَتَكْرِيرُ كَلِمَةِ النَّاسِ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ الْمَرَّتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ بِاعْتِبَارِ مَعْنَى وَاحِدٍ إِظْهَارٌ فِي مَقَامِ الْإِضْمَارِ لِقَصْدِ تَأْكِيدِ رُبُوبِيَّةِ اللَّهِ تَعَالَى وَمِلْكِهِ وَإِلَهِيَّتِهِ لِلنَّاسِ كُلِّهِمْ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : (يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتابِ وَما هُوَ مِنَ الْكِتابِ) (آل عمرَان / ٧٨) .

وَأَمَّا تَكْرِيرُهُ الْمَرَّةَ الثَّالِثَةَ بِقَوْلِهِ : فِي صُدُورِ النَّاسِ فَهُوَ إِظْهَارٌ لِأَجْلِ بُعْدِ الْمَعَادِ .

وَأَمَّا تَكْرِيرُهُ الْمَرَّةَ الرَّابِعَةَ بِقَوْلِهِ : مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ فَلِأَنَّهُ بَيَانٌ لِأَحَدِ صِنْفَيِ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ، وَذَلِكَ غير مَا صدق كَلِمَةِ النَّاسِ فِي الْمَرَّاتِ السَّابِقَةِ .

وَاللَّهُ يَكْفِينَا شَرَّ الْفَرِيقَيْنِ ، وَيَنْفَعُنَا بِصَالِحِ الثَّقَلَيْنِ .

(٥) حِينَ تُمْسِي : من الإمساء ، أي وقت دخول المساء .

(٦) وَحِينَ تُصْبِحُ : من الإصباح ظرف للفعل المقدر ، أي وقت دخول الصباح .

(٧) ثَلاثَ مَرَّاتٍ : أي : أعاد قراءتها ثلاث مرات ؛ كما هو دأبه في تبليغ الأحكام إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثًا .

(٨) تَكْفِيكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ : (تكفيك) بالتأنيث أي السور الثلاث .

(مِنْ كُلِّ شَيْءٍ) أَيْ مِنْ كُلِّ شَرٍّ أَوْ كُلِّ وِرْدٍ يَتَعَوَّذُ بِهِ ، قَالَ الطِّيبِيُّ : أَيْ تَدْفَعُ عَنْكَ كُلَّ سُوءٍ ، فَمِنْ زَائِدَةٌ فِي الْإِثْبَاتِ عَلَى مَذْهَبِ جَمَاعَةٍ وَعَلَى مَذْهَبِ الْجُمْهُورِ أَيْضًا لِأَنَّ يَكْفِيكَ مُتَضَمِّنَةٌ لِلنَّفْيِ كَمَا يُعْلَمُ مِنْ تَفْسِيرِهَا بِتَدْفَعُ وَيَصِحُّ أَنْ تَكُونَ لِابْتِدَاءِ الْغَايَةِ ، أَيْ تَدْفَعُ عَنْكَ مِنْ أَوَّلِ مَرَاتِبِ السُّوءِ إِلَى آخِرِهَا ، أَوْ تَبْعِيضِيَّةً ، أَيْ بَعْضُ كُلِّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ السُّوءِ ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى : تُغْنِيكَ عَمَّا سِوَاهَا أي مما يتعلق بالتعوذ من الأوراد . وفي الحديث دليل على أن تلاوة هذه السور عند المساء وعند الصباح تكفي التالي من كل شي يخشى منه كائنًا ما كان .

يعني : فيه قراءة هذه السور الثلاث والإتيان بها ثلاث مرات في الصباح والمساء وأنها تكفي ، وفسرت الكفاية بأنها تكفي عن غيرها ، وقيل : إنها تكفي من كل شر وتكفي من كل سوء .

ما يستفاد من الحديث

(خَرَجْنَا فِي لَيْلَةِ مَطَرٍ وَظُلْمَةٍ شَدِيدَةٍ نَطْلُبُ رَسُولَ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لِيُصَلِّيَ لَنَا)

– حرص الصحابة – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم – على الخير ، والطاعة مهما كانت الصعوبات والمعوقات .

– حرص الصحابة – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم – على مرافقة النَّبِيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – .

– تضحية الصحابة – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم – لنيل الطاعات والقربات .

– علوّ همة الصحابة – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم – وخروجهم في شدة المطر والظلمة .

– التبرك بصلاة النَّبِيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – .

(أَصَلَّيْتُمْ)

– مشروعية سؤال الغير عن الطاعة .

– تفقد الرَّاعي لأحوال الرَّعية .

– عِظَم شأن الصلاة وأهميتها وتعاهدها .

ويؤيد ذلك ما جاء عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قَالَ : بِتُّ عِنْدَ خَالَتِي مَيْمُونَةَ فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بَعْدَمَا أَمْسَى ، فَقَالَ : " أَصَلَّى الْغُلَامُ ؟ " قَالُوا : نَعَمْ ، فَاضْطَجَعَ حَتَّى إِذَا مَضَى مِنَ اللَّيْلِ مَا شَاءَ اللَّهُ ، قَامَ فَتَوَضَّأَ ، ثُمَّ صَلَّى سَبْعًا – أَوْ خَمْسًا – أَوْتَرَ بِهِنَّ ، لَمْ يُسَلِّمْ إِلَّا فِي آخِرِهِنّ " (صحيح أبي داود / ١٣٥٦) .

(فَقَالَ " قُلْ " ، ثُمَّ قَالَ : " قُلْ " . فَلَمْ أَقُلْ شَيْئًا ، ثُمَّ قَالَ " قُلْ ")

– علم النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بالوسائل التعليمية وتنوعها .

– أهمية التعليم بالتكرار في جذب انتباه المتعلِّم .

– تكرار الطلب أو السؤال أو السلام وقد عُلِمَ مِنْ حَالِهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أَنَّهُ كَانَ إِذَا قَالَ قَوْلًا كَرَّرَهُ ثَلَاثًا لَعَلَّهُ أَنْ يُرِيدَ بِذَلِكَ الْإِفْهَامَ وَالْبَيَانَ ؛ فعَنْ أَنَسٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – عَنِ النَّبِيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – :

" أَنَّهُ كَانَ إِذَا سَلَّمَ سَلَّمَ ثَلَاثًا ، وَإِذَا تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَعَادَهَا ثَلَاثًا " (خ / ٩٤) .

(فَلَمْ أَقُلْ شَيْئًا)

– أدب المتعلِّم بين يد معلمه .

– عدم تسرع المتعلم وأنه لا يتكلَّم فيما لا يحسن .

– أدب الصحابة – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم – في السؤال والجواب .

(يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَقُولُ ؟)

– الردُّ بعد التفكير في السؤال خشية الغلط والتكلم بغير علم .

(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) وَالْمُعَوِّذَتَيْنِ)

– فضل قراءة سور (الإخلاص ، والفلق ، والناس) .

– جواز إطلاق اسم الْمُعَوِّذَتَيْنِ على سورتي (الفلق والناس) .

– هذه السُّوَر مع قِلَّة آياتها ومبانيها ، إلا أنها عظيمة في فضائلها ومعانيها .

– هذه السُّوَر تكفي من كل شيئ يؤذي الإنسان أو يضره أو يهمه .
– فضل التوحيد الذي في سورة الإخلاص ، والذي في التعوذ والالتجاء إلى الله ، وأنها جمعت أنواع التوحيد الثلاثة .
– أهمية اللجوء إلى الصمد في قضاء الحوائج ، وكشف الكربات ، وكثرة الملمات .
– ضعف المخلوق ، الذي يعوذ ويلجأ إلى الملك القوي .
– قوة الخالق ، وأنه لا ملجأ ولا منجا إلا إليه .

(حِينَ تُمْسِي)

– ختم اليوم بذكر الله .
– فضل وأهمية أذكار المساء .
– حرص النَّبيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على الطاعة .
– مداومة النَّبيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على الأذكار .
– التأكيد على عبادة الوقت ، وهي أن كل عبادة في وقتها هي الأفضل .
– الحثّ على مداومة الذِّكر .
– أهمية أن يكون ختام اليوم بذكر الله .
– فضل المحافظة والمداومة على أذكار المساء والصباح ، وأنها من أسباب الوقاية والفلاح .

(وَحِينَ تُصْبِحُ)

– استفتاح اليوم بذكر الله .
– فضل وأهمية أذكار الصباح .
– حرص النَّبيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على الطاعة .
– مداومة النَّبيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على الأذكار .
– التأكيد على عبادة الوقت ، وهي أن كل عبادة في وقتها هي الأفضل .
– الحثّ على مداومة الذِّكر .
– أهمية أن يكون بداية اليوم بذكر الله .
– التأكيد على الذِّكر بها صباحًا .

(ثَلاَثَ مَرَّاتٍ)

– مشروعية تكرار الذِّكر .
– تكرار الذِّكر أو الدعاء أو العبادة من باب الإلحاح على الله .
– الأعداد في الذِّكر وفي العبادات توقيفية .

(تَكْفِيكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ)

– من فوائد القرآن غير تلاوته والتعبد بذلك ، الحماية والكفاية .

سَيِّدُ الِاسْتِغْفَارِ

٣- عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – عَنِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ :
" سَيِّدُ الِاسْتِغْفَارِ (١) أَنْ تَقُولَ : اللَّهُمَّ (٢) أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ (٣) ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ (٤) ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ (٥) مَا اسْتَطَعْتُ (٦) ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ (٧) ، أَبُوءُ لَكَ (٨) بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ (٩) ، وَأَبُوءُ بِذَنْبِي (١٠) ، اغْفِرْ لِي (١١) فَإِنَّهُ لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ ، قَالَ ، وَمَنْ قَالَهَا (١٢) مِنَ النَّهَارِ (١٣) مُوقِنًا بِهَا (١٤) فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُمْسِيَ (١٥) فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ (١٦) ، وَمَنْ قَالَهَا مِنَ اللَّيْلِ وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ (١٧) فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ "
(خ / ٦٣٠٦) .

المعنى الإجمالي

يرشدنا النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – إلى صيغة للاستغفار وصفها بأنها (سَيِّدُ الِاسْتِغْفَارِ) لاشتمالها على مسائل عظيمة ومهمة ؛ ومنها توحيد الإلهية وتوحيد الربوبية ، إذ التوحيد من أعظم أسباب المغفرة ، قال ابن رجب – يرحمه الله – : من أسباب المغفرة التوحيد ، وهو السبب الأعظم ، فمن فقده فقد المغفرة ، ومن جاء به فقد أتى بأعظم أسباب المغفرة ، فإن كمل توحيد العبد وإخلاصه لله فيه ، وقام بشروطه كلها بقلبه ولسانه وجوارحه ، أو بقلبه ولسانه عند الموت ، أوجب ذلك مغفرة ما سلف من الذنوب كلِّها ، ومنعه من دخول النار بالكلية ، فمن تحقق بكلمة التوحيد قلبه أخرجت منه كل ما سوى الله ، محبة وتعظيمًا وإجلالًا ومهابة وخشية ورجاء وتوكلًا ، وحينئذ تحرق ذنوبه وخطاياه كلها ولو كانت مثل زبد البحر ، وربما قلبتها حسنات ، فإن هذا التوحيد هو الإكسير الأعظم ، فلو وضع ذرة منه على جبال الذنوب والخطايا لقلبها حسنات .

ويرشدنا النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – إلى أنَّ أفضل أنواع الأذكار التي يُطلب بها المغفرة ؛ هذا الذكر الجامع لمعاني التوبة كلِّها ، وفيه أن ذكر الله تعالى أكمل الأوصاف ، وذكر العبد نفسه بأنقص الحالات وهي أقصى غاية التضرع ونهاية الاستكانة لمن لا يستحقها إلا هو ، أما الأول فلما فيه من الاعتراف بوجود الصانع وتوحيده الذي هو أصل الصفات العدمية المسماة بصفات الجلال والاعتراف بالصفات الوجودية المسماة بصفات الإكرام ، وأما الثاني فلما فيه أيضًا من الاعتراف بالعبودية وبالذنوب في مقابلة النعمة التي تقتضي نقيضها وهو الشكر – انتهى .

معاني الكلمات

(١) سَيِّدُ الِاسْتِغْفَارِ : قَالَ الطِّيبِيُّ : اسْتُعِيرَ لَفْظُ السَّيِّدِ مِنَ الرَّئِيسِ الْمُقَدَّمِ الَّذِي يُعْمَدُ إِلَيْهِ فِي الْحَوَائِجِ لِهَذَا الَّذِي هُوَ جَامِعٌ لِمَعَانِي التَّوْبَةِ كُلِّهَا ، وَالتَّوْبَةَ غَايَةُ الِاعْتِذَارِ . اهـ . وَتَبِعَهُ ابْنُ حَجَرٍ ، وَهُوَ يُفِيدُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالِاسْتِغْفَارِ إِنَّمَا هُوَ التَّوْبَةُ ، وَالظَّاهِرُ مِنَ الْحَدِيثِ الْإِطْلَاقُ ، مَعَ أَنَّ جَامِعِيَّتَهُ لِمَعَانِي التَّوْبَةِ مَمْنُوعَةٌ كَمَا لَا يَخْفَى ، إِذْ لَيْسَ فِيهِ إِلَّا الِاعْتِرَافُ بِالذَّنْبِ النَّاشِئُ عَنِ النَّدَامَةِ ، وَأَمَّا الْعَزْمُ عَلَى أَنْ لَا يَعُودَ وَأَدَاءُ الْحُقُوقِ لِلَّهِ وَالْعِبَادِ ، فَلَا يُفْهَمُ مِنْهُ أَصْلًا .

(٢) اللَّهُمَّ : أَيْ : يَا اللَّهُ ، وَالْمِيمُ بَدَلٌ عَنْ حَرْفِ النِّدَاءِ ؛ وَلِذَا لَا يُجْمَعُ بَيْنَهُمَا إِلَّا فِي الشِّعْرِ وَقَالَ أَبُو إِسْحَاق : قَالَ الْخَلِيل وسيبويه وَجَمِيع النحويّين الموثوق بعلمهم : اللهمَّ بِمَعْنى يَا أَلله ، وَأَن الْمِيم المشدّدة عِوَض من (يَا) لأَنهم لم يَجِدوا (يَا) مَعَ هَذِه الْمِيم فِي كلمةٍ ووجَدُوا اسمَ الله مستعمَلًا بـ (يَا) إِذا لم تُذكَر الْمِيم فِي آخر الْكَلِمَة فعَلموا أَن الْمِيم فِي آخر الْكَلِمَة بِمَنْزِلَة (يَا) فِي أوّلها والضمة الَّتِي فِي الْهَاء هِيَ ضمة الِاسْم المنادى الْمُفْرد وَالْمِيم مَفْتُوحَة لسكونها وَسُكُون الْمِيم قبلهَا . قَالَ الْأَزْهَرِي : فِيهِ مذهبان للنحويين قَالَ الْفراء أَصله يَا الله أمَنا بِخَير فَكثر اسْتِعْمَالهَا فَقيل اللَّهُمَّ وَتركت الْمِيم مَفْتُوحَة وَقَالَ الْخَلِيل وسيبويه وَسَائِر الْبَصرِيين مَعْنَاهُ يَا الله وَالْمِيم الْمُشَدّدَة عوض عَن يَاء النداء وَالْمِيم الْمَفْتُوحَة لسكونها وَسُكُون الْمِيم قبلهَا .

وَأنْشد قُطربٌ :

إِني إِذا مَا مُعْظَمٌ أَلَمّا ... أَقولُ : يَا اللَّهُمَّ يَا اللَّهُمّا

وقيل : إِنّي إِذَا مَا حَدَثٌ أَلَمَّا ... دَعَوْت : يَا اللَّهُمَّ يَا اللَّهُمَّا

(٣) لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ : هي كلمة التوحيد ، ولأهميتها أقول : (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) : أَيْ : لَا مَعْبُودَ حقٌ فِي الْوُجُودِ إِلَّا اللَّهُ الْوَاجِبُ الْوُجُودِ لِذَاتِهِ أَيْ : الْمُسْتَحِقُّ لِلْعُبُودِيَّةِ وَالثَّابِتُ الْأُلُوهِيَّةُ فِي تَوْحِيدِ ذَاتِهِ وَتَفْرِيدِ صِفَاتِهِ .

– قلت : (والقائل / عماد) : تنبيه مهم : اشتهرت عبارة (لَا مَعْبُودَ بِحَقٍ فِي الْوُجُودِ إِلَّا اللَّهُ) والعبارة التي ذكرتها (لَا مَعْبُودَ حقٌ فِي الْوُجُودِ إِلَّا اللَّهُ) فهل يوجد فرق بين العبارتين ؟ قال الشيخ العثيمين : الفرق بينهما أنك إذا قلت " لا معبود حق إلا الله " صار هذا أوفق للقرآن ، (ذلك بأن الله هو الحق) (الحج / ٦٢) ، وأنه لا يحتاج إلى تقدير ، لأنك إذا قلت " لا معبود بحق " فالجار والمجرور خبر متعلق بمحذوف ... تقديره

" لا معبود كائن بحق " ، أما إذا قلت " لا معبود حق " فإن الخبر هو الموجود ولا نحتاج إلى تقدير .

(والإله) : هو المألوه ، لا إله يعني : لا مألوه ، ولا أحد يستحق أن يؤله ، أي : تألهه القلوب وتوده وتحبه وتعظمه وتقر له بالعبودية ، غير الله تعالى .

(إِلَّا اللَّهُ) : اسم الجلالة : هُوَ اسْمٌ لَمْ يُسَمَّ بِهِ غَيْرُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ؛ والله : اسم علم على الإله المعبود بحق ، و(الله) معناه : ذو الألوهية ، والألوهية معناها : العبادة ، يقال : أَلَهَ يألَهُ : بمعنى : عبَد يعبُد ، فالألوهية معناها : العبادة ، فـ (اللهِ) معناه : ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين ، وقد تقدَّم الكلام عنه في الحديث الأول .

(٤) وَأَنَا عَبْدُكَ : أَيْ : مَخْلُوقُكَ وَمَمْلُوكُكَ .

(٥) وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ : أَيْ : أَنَا مُقِيمٌ عَلَى الْوَفَاءِ بِعَهْدِ الْمِيثَاقِ ، وَأَنَا مُوقِنٌ بِوَعْدِكَ يَوْمَ الْحَشْرِ وَالتَّلَاقِ .

(٦) مَا اسْتَطَعْتُ : أَيْ : بِقَدْرِ طَاقَتِي ، وَقِيلَ : أَيْ عَلَى مَا عَاهَدْتُكَ وَوَعَدْتُكَ مِنَ الْإِيمَانِ بِكَ ، وَالْإِخْلَاصُ مِنْ طَاعَتِكَ ، وَأَنَا مُقِيمٌ عَلَى مَا عَهِدْتَ إِلَيَّ مِنْ أَمْرِكَ وَمُتَمَسِّكٌ بِهِ وَمُنْجِزٌ وَعْدَكَ فِي الْمَثُوبَةِ وَالْأَجْرِ عَلَيْهِ ، وَاشْتِرَاطُ الِاسْتِطَاعَةِ اعْتِرَافٌ بِالْعَجْزِ وَالْقُصُورِ عَنْ كُنْهِ الْوَاجِبِ فِي حَقِّهِ تَعَالَى ، أَيْ : لَا أَقْدِرُ أَنْ أَعْبُدَكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ ، لَكِنْ أَشْهَدُ بِقَدْرِ طَاقَتِي .

وَقَالَ صَاحِبُ النِّهَايَةِ : وَاسْتَثْنَى بِقَوْلِهِ : مَا اسْتَطَعْتُ مَوْضِعَ الْقَدْرِ السَّابِقِ لِأَمْرِهِ أَيْ : إِنْ كَانَ قَدْ جَرَى الْقَضَاءُ عَلَى أَنْ أَنْقُضَ الْعَهْدَ يَوْمًا ، فَإِنِّي لَا أَمِيلُ عِنْدَ ذَلِكَ إِلَى الِاعْتِذَارِ بِعَدَمِ الِاسْتِطَاعَةِ فِي دَفْعِ مَا قَضَيْتَ .

– قلت : (والقائل / عماد) : ولأهمية هذه المسألة أتكلم عنها بشئ من التفصيل

فأقول : – فائدة في أقسام الناس في أفعال العباد وحججهم في ذلك :

الناس في القَدَر ثلاثة أقسام : قسمان متقابلان تمام المقابلة ، فطائفة تقول بإثبات القَدَر عمومًا ، وأن الإنسان لا قدرة له ، بل إن كل شيء يقع فهو فِعْل الله ، قالوا : الأفعال كلها لله ، يعني : ليس للإنسان فِعْل ، قالوا : إن الأفعال هي أفعال الله والعباد مجبورون على أفعالهم ، فالعباد ليس لهم من الأمر شيء ، بل هم مجبورون على الأفعال ، والأفعال أفعال الله ، فالله هو المصَلِّي وهو الصائم ، ولكن العباد وعاءٌ للأفعال ، فهم كالكُوز الذي يُصبُّ فيه الماء ، فالعباد كوب ، والله كصبَّاب الماء فيه ، العباد ليس لهم اختيار ، وليس لهم أفعال ، ولا تنسب الأفعال إليهم ، بل الأفعال أفعال الله ؛ لأن الله أجبرهم على ذلك ، وتجري الأفعال على أيديهم اضطرارًا لا اختيار لهم في ذلك .

ويقولون : جميع أفعال العباد اضطرارية ، يفعلها العبد بدون إرادة اضطرارًا ، كحركات المرتعش والنائم ونبض العروق ، وحركات الأشجار ، والعبد لا قدرة له ، ولا عمل له أصلًا ، وكون الأفعال تضاف إلى العباد هذا من باب المجاز ، وإلا فالله – تعالى – في الحقيقة هو الفاعل ، فهي على حسب ما يضاف الشيء إلى محله ، كما يقال : طلعت الشمس ، طلع النهار ، والشمس ليس لها اختيار ، وليس لها شيء ، إنما يضاف إليها الشيء مجازًا ،

وهذا مذهب الجهمية ورئيسهم الجهم بن صفوان [1]

أما الطائفة الأولى – الجهمية – فاحتجوا بمثل قول الله جل وعلا :

(فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى) (الأنفال / ١٧) .

– وأجاب أهلُ السنة والجماعة ، – أهلُ الحق – قالوا :

أنتم – أيها الجبرية – أغمضتم أعينكم عن الحق ، وفتحتم أعينكم لما يناسبكم من الآية ، الآية الآن فيها إثبات الرمي للرسول – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، ونفي الرمي قال : (وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ) إذن نفى عن نبيه رميًا ، وأثبت لنبيه رميًا ، فالرمي نوعان : نوع يكون للمخلوق ، ونوع يكون للخالق ، نوع أثبته الله لنبيه ، ونوع نفاه الله عن نبيه ، فالنوع الذي أثبته الله لنبيه الحذف ، الرسول حَذَف ، والنوع الذي نفاه عن نبيه الإصابة ، فابتداء الرمي هذا حذف ، وانتهاؤه الإصابة هذا رمي ، فالله أثبت لنبيه الحذف ، ونفى عن نبيه الإصابة ، وتقدير الآية ، وما أصبت إذ حذفت ، ولكن الله أصاب (وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى) وما أصبت إذ حذفت ، ولكن الله أصاب .

إذن : نَفَى الرمي عن نبيه ، وأثبته لنفسه .

---

(١) من هو الجهم بن صفوان :

هذا الرجل هو حامل لواء الجهمية ، واسمه الجهم بن صفوان ، وهو من أهل خراسان ، ظهر في المائة الثانية من الهجرة ، ويكني بأبي محرز ، وهو من الجبرية الخالصة ، وأول من ابتدع القول بخلق القرآن وتعطيل الله عن صفاته .

وكان مولى لبني راسب إحدى قبائل الأزد ، وقتل سنة ١٢٨ هـ ، وقيل : إن الجهم قُتل سنة ١٣٠ ، وقيل سنة ١٣٢هـ . وتاريخه طويل .

كان الجهم كثير الجدال والخصومات والمناظرات ، إلا أنه لم يكن له بصر بعلم الحديث ولم يكن من المهتمين به ، إذ شغله علم الكلام عن تلك ، وقد نبذ علماء السلف أفكار جهم وشنعوا عليه ومقتوه أشد مقت مع ما كان يتظاهر به من إقامة الحق ، وكان جهم ينكر صفات الرب عز وجل ، ويقول بخلق القرآن ، ويزعم أن الله ليس على العرش بل في كل مكان ، وقيل كان يبطن الزندقة .

ويقال : (وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ) فالمقصود به : رميه – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – الكفار بالحصباء ، فإنه أخذ كفًّا من التراب ثم رماه نحو الكفار يوم بدر ، فذهب هذا الكف من التراب ودخل في أعينهم ومناخرهم ، فالمنفي غير المثبت ، فقوله : (وَمَا رَمَيْتَ) يعني : ليس بقدرتك واستطاعتك أن توصل هذه الرمية إلى أعينهم ومناخرهم ، وقوله : (إِذْ رَمَيْتَ) إثبات لرميه ، وهو أخذه الحصباء ورميه بها ، وبهذا يتبين أن المنفي غير المثبت ، وأن المثبت للرسول – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – شيء والمنفي عنه شيء آخر ، وأن هذا ليس دليلًا لهم على نفي وقوع الأفعال من العباد اختيارًا .

وأما قوله جل وعلا في : (فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ) يعني : أن الأسباب التي حصل بها قتلهم وإن كانت في أيديكم ، فالله جل وعلا هو الذي هيأها وهو الذي يسَّر لكم الطريق إليها .

– واحتجوا أيضًا بعموم قدرة الله ومشيئته ، وأنه هو القادر على كل شيء ، وأنه هو الخالق لكل شيء ، وهذا الاحتجاج صحيح ، ولكن لا يلزم منه سلب العباد قدرتهم وأفعالهم .

– واحتجوا كذلك على هذا المذهب بالحديث الذي في الصحيح ، وهو : حديث احتجاج موسى على آدم واحتجاج آدم عليه بالقدر ، وفيه : عَنِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ : " احْتَجَّ آدَمُ ، وَمُوسَى فَقَالَ لَهُ مُوسَى يَا آدَمُ أَنْتَ أَبُونَا خَيَّبْتَنَا ، وَأَخْرَجْتَنَا مِنَ الْجَنَّةِ قَالَ لَهُ آدَمُ يَا مُوسَى اصْطَفَاكَ اللَّهُ بِكَلاَمِهِ وَخَطَّ لَكَ بِيَدِهِ أَتَلُومُنِي عَلَى أَمْرٍ قَدَّرَ اللَّهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي بِأَرْبَعِينَ سَنَةً فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى ثَلاَثًا " (خ / ٦٦١٤ ، م / ٢٦٥٢) ، يعني : غلبه بالحجة ، فقالوا : إذًا : القدر يكون حجة ، وهذا في الواقع ضلال وتأويل للحديث على غير وجهه ، ومعلوم أن موسى – عليه السلام – لا يلوم آدم على ذنب قد تاب منه ، فهو لم يلمه على الذنب وإنما لامه على المصيبة ، والمصيبة ترتبت على الذنب ، يعني قال : لماذا أخرجتنا ؟ والخروج مصيبة ، فهو ما قال : لماذا أذنبت ؟ لأنه تاب من الذنب ، فلا يلومه على الذنب ، وإنما لامه على الخروج والخروج مصيبة ، فاحتج آدم عليه بالقدر ؛ لأن المصيبة مكتوبة وقد وقعت ولا يمكن تداركها ، والشيء الذي لا يمكن تداركه يمكن أن يحتج الإنسان عليه بالقدر كما في الحديث عَنِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ : وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ ، فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا ، وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ " (م / ٢٦٦٤) ، يعني : هكذا وقع القدر ؛ لأنه ليس بالإمكان استدراكه .

– الردُّ على المحتَجِّين بالقَدَر على معاصيهم

وهذا كثيرًا ما يتعلق به أهل المعاصي ، وقد يقول الإنسان : هذه الأمور مُقَدَّرة ومكتوبة عليَّ ، فكيف أُصَلِّي وأنا ما كتب لي أن أُصَلِّي ؟ وكيف أهتدي وأنا ما كتب لي أن أهتدي ؟ والواقع أن هذه مغالطة يراد بها إلقاء اللَّوم على القَدَر وإعفاء النفس من تبعة الذنب ، وقد ضُرب لذلك مثلٌ في رجل موغل في الاعتماد على ذلك فيقول : كل شيء هو فعل الله ، وأنا لا اختيار لي ، وله أموال وقد وكّل وكلاء في تصريف أمواله ، وكان معه رجل ناصح ينصحه بترك مخالفته ، ويقول : اتق الله فإن الله أمرك بالطاعة ونهاك عن المعصية ، فقد أمرك بالشيء الذي تستطيعه ، ونهاك عن الشيء الذي تستطيع تركه ، فيقول : أنا لم يكتب لي أن أطيع ولكن كتب علي أن أعصي ، فكان هذا الناصح يترقب الفرص لينصح صاحبه ، فجاء في أحد الأيام وكيل هذا التاجر الذي وكل بدوابه ، فقال له : هلكت الماشية كلها ، فقال :

كيف هلكت ؟ قال : رعيتها في أرض مجدبة ليس فيها شيء ، فقال : كيف ترعاها في أرض مجدبة وعندك الأرض المخصبة ؟! فقال : هذا قدر الله ، فازداد غضبًا وحنقًا عليه ، ثم بينما هو كذلك إذ جاءه وكيله الثاني فقال : المال هلك ! فقال : لماذا ؟ قال : إني سلكت طريقًا فيه قطاع الطريق فأخذوه ، قال : كيف تسلك الطريق الذي فيه قطاع الطريق وهناك طريق آمنة ، فقال : هكذا القدر فازداد عليه غضبا ، وبينما هو كذلك إذ جاءه الذي وكله بأولاده ، فقال : أمرت الأولاد أن ينزلوا في البئر ليتعلموا السباحة فغرقوا ، فقال : كيف تأمرهم وأنت تعرف أنهم لا يحسنون السباحة ولم تنزل معهم ؟! فقال : هكذا القدر ، فازداد غضبًا أكثر مما سبق ، فقال له الناصح : يا هذا ألا تتقي الله ؟! أتعتذر مع ربك جل وعلا بمثل ما يعتذر هؤلاء الوكلاء وأنت لا تقبل ذلك من وكلائك ؟ فإن كان ما تقوله حقًا فهم أولى بالعذر ، وإن لم يكن حقًا فيجب عليك أن تتنبه وتعامل ربك بما يجب أن يعامل ، فانتبه الرجل ، وقال : جزاك الله خيرًا الآن انتبهت وأيقنت معنى قوله جل وعلا : (عَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ) (البقرة / ٢١٦) فهذه المصائب وإن كانت مصائب فهي خير لي ؛ لأني تنبهت واهتديت ، فهذا مثال الذي ينكر أن تكون الأفعال وقعت باختياره ، فإذا نهي عن المعصية ، قال : هذا قدر الله ! مع أن ترك المعصية يستطيع أن يفعله ، وإن كان ذلك بالقدر فيجب أن يعالج القدر بالقدر ، فالأقدار تدفع بالأقدار ، كما وقع من أمير المؤمنين لما رجع عن دخول الشام لما أصابها الطاعون ، حيث استشار الصحابة فأشير عليه بالرجوع ، فقال له أبو عبيدة : أفرار من القدر ؟ فقال : لو غيرك قالها ، ثم قال : نعم فرار من القدر بالقدر ، ثم قال له : أرأيت لو كان لك إبل وعندك وادٍ ، جانب منه مخصب ، والجانب الآخر مجدب أيهما ترعى ؟ فقال : أرعى المخصب ، قال : أليس رعيك بقدر الله ، قال : نعم ، فقال : رجوعنا بقدر الله ، فالمقصود : أن الإنسان يجب أن يفعل فعله الذي يرى فيه خيرًا ومصلحة ويكون ذلك واقعًا بقدر الله ، وعليه أن يفعل ما أُمر به وينتهي عما نُهي عنه .

– وقسم آخر قابلوا الجهمية ، وهُم القدرية والمعتزلة فقالوا :

العباد العقلاء هم الذين يخلقون أفعالهم وليس لله فيها دخل ولا يشاؤها ، بل هم الذين يشاءونها ، وهؤلاء مقابلون لأولئك تمامًا ، وهُم القدرية والمعتزلة ، الذين يقولون : العباد خالقون لأفعالهم ، والله تعالى لا يقدر عليها ، استدلوا بقول الله تعالى : (فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ) (المؤمنون / ١٤) قالوا : الآية دليل على أن هناك خالقين مع الله ، إلَّا أن الله أحسنهم وأجودهم خلقًا ، فقال : (فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ) يعني أجود الخالقين وأحسنهم ، فدلَّ على أن العباد خالقون مع الله إلا أن الله أحسن خلقًا وأجود ، فدلَّ على أن العباد خالقون لأفعالهم .

وقالوا : مما يدل على أن العباد هم الذين خلقوا أفعالهم قال الله تعالى :

(ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (النحل / ٣٢) قالوا : الباء باء العِوض ، والمعنى ادخلوا الجنة عِوضًا عن عملكم ، فدل على أن الأعمال عِوض ؛ لأن العباد خلقوها وأوجدوها باختيارهم ، فوجب على الله أن يعوضهم عنها الثواب ، كما يعوض الأجير أُجْرَته .

– بماذا أجاب أهل السنة ؟

قالوا : أنتم – أيها المعتزلة والقدرية – ضللتم في هذا ، أما قول الله تعالى :

(فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ) (المؤمنون / ١٤) فالخلق نوعان :

النوع الأول : الإنشاء والاختراع ، هذا لا يقدر عليه إلا الله ، قال الله تعالى : (اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ) (الرَّعْدِ / ١٦) .

النوع الثاني : من الخلق التصوير والتقدير ، وهذا هو الذي يثبت للمخلوق ، ومعنى الآية :

(فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ) (المؤمنون / ١٤) يعني أحسن المقدرين المصورين ، لا المنشئين المخترعين .

الإنشاء والاختراع ما يكون إلا لله ، لكن التقدير والتصوير ، يقدر عليه المخلوق ، وكما قال الله – تعالى – عن عيسى :

(وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ) (الْمَائِدَة / ١١٠) تخلق : يعني تُقدِّر وتصور ، فعيسى – عليه السلام – يصور ويُقَدِّر الطين كهيئة الطير ، وينفخ فيه ، فالله – تعالى– يخلق فيه الروح ، فيصير ؛ ولهذا قال الشاعر :

وَلَأَنْتَ تَفْرِي مَا خَلَقْتَ وَبَعْ ... ضُ الْقَوْمِ يَخْلُقُ ثُمَّ لَا يَفْرِي

معنى تخلق : يعني : تُقَدِّر ، يخاطب الشاعر يقول : أنت تُقَدِّر ، ثم تُنَفِّذ ما تقدر ، وبعض الناس يُقَدِّر ، ولا يُنَفِّذ ، هو يمدح الشاعر ، يقول : " وَلَأَنْتَ تَفْرِي " يعني : تنفذ ما خلقت ، يعني : ما قدرت وصورت ، وبعض القوم يخلق ، ثم لا يفري .

فإذن : الخلق يُطلق ، ويُراد به التقدير والتصوير ، ويُطلق ، ويراد به الإنشاء والاختراع ، والأول ثابت للمخلوق ، والثاني لا يَقدر عليه إلا الله ، وهو الإنشاء والاختراع .

وأما الباء – فأنتم أيها المعتزلة – ضللتم كما ضل إخوانكم الجبرية ، فإن الباء التي تأتي في الإثبات غير الباء التي تأتي في النفي ، فالباء التي تكون في الإثبات ، هي باء السببية ، والباء التي تكون في الجملة المنفية ، هي باء العِوض ، فباء العِوض في الجملة المنفية ، كما في الحديث الصحيح : " لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الْجَنَّةَ " قَالُوا ، وَلا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ : " لا ، وَلا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ " (خ / ٥٦٧٣ ، م / ٢٨١٦) ،

وفي مسند الإمام أحمد " لا يَدْخُلُ أَحَدٌ مِنْكُمُ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ " قَالُوا : وَلا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : " وَلا أَنَا ، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ مِنْهُ بِرَحْمَةٍ وَفَضْلٍ "

هذه باء العِوض ؛ لأنها في جملة منفية ، والمعنى : لا يدخل أحدكم الجنة عِوضًا عن عمله ، فيستحق الجنة ، كما يستحق الأجير أَجْرَهُ ، بل الدخول برحمة الله ، وأما الباء التي تكون في الجملة المثبتة ، فهي باء السبب ، قوله سبحانه :

(ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (النحل / ٣٢) يعني : بسبب ما كنتم تعملون ، فيكون دخول الجنة برحمة الله ، ولكن له سبب ، وهو العمل ، فمن جاء بالسبب نال الرحمة ، ومن لم يأت بالسبب لم ينل الرحمة .

فالنصوص يُضَم بعضُها إلى بعض فقوله : (ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (النحل / ٣٢) هذه دعوى السببية ، هذه بسبب عملكم ، هذا السبب ، لكن الدخول – دخول الجنة – لا يكون بالسبب ، الدخول لا يكون إلا بالرحمة ، الدخول برحمة الله ، لكن هذه الرحمة لها سبب ، وهو العمل ، فمن جاء بالسبب نالته الرحمة ومن لم يأت بالسبب لم تنله الرحمة ، فتكون الآية (ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (النحل / ٣٢) هذه باء السببية ، والباء في الجملة المنفية باء

العِوض ، لا يدخل أحدكم الجنة عِوضًا عن عمله ، لكن الدخول برحمة الله ، إلا أن له سبب ، وهو العمل كما جاء في النصوص الأخرى (ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (النحل / ٣٢) ، وبذلك تتفق النصوص ولا تختلف .

– من أقوال العلماء :

– قال العلامة ابن القيم – يرحمه الله – :

" الأعمال أسباب لا أعواض وأثمان والذي نفاه النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – في الدخول بالعمل هو نفي استحقاق العوض ببذل عوضه ، فالمثبت باء السببية والمنفي باء المعاوضة والمقابلة وهذا فصل الخطاب في هذه المسألة " اهـ .

– وقال النووي : لا يستحق أحد الثواب والجنة بطاعة ، وأما قوله – تعالى – (ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (النحل / ٣٢) ، (وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (الزخرف / ٧٢) ، ونحوهما من الآيات الدالة على أن الأعمال يدخل بها الجنة فلا يعارض هذه الأحاديث بل معنى الآيات أن دخول الجنة بسبب الأعمال ، ثم التوفيق للأعمال والهداية للإخلاص فيها وقبولها برحمة الله – تعالى – وفضله فيصح أنه لم يدخل بمجرد العمل وهو مراد الأحاديث ، ويصح أنه دخل بالأعمال أي : بسببها وهي من الرحمة والله أعلم " .

– وقال الحافظ ابن كثير – يرحمه الله – في تفسيره على قوله : (وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (الأعراف / ٤٣) قال : (ولهذا لما أورثوا مقاعد أهل النار من الجنة ، نودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون ، أي : بسبب أعمالكم ، نالتكم الرحمة ، فدخلتم الجنة وتبوأتم منازلكم بحسب أعمالكم ، وإنما وجب الحمل على هذا لما ثبت في الصحيحين [1] عنه – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – " لاَ يَدْخُلُ أَحَدٌ مِنْكُمُ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ " ا هـ .

– وقال الحافظ ابن كثير أيضًا على قوله تعالى : (وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (الزخرف / ٧٢) قال : أي أعمالكم الصالحة كانت سببًا لشمول رحمة الله إياكم ، فإنه لا يدخل أحدًا عمله الجنة ، ولكن برحمة الله وفضله ، وإنما الدرجات ينال تفاوتها بحسب الأعمال الصالحات) ا هـ .

– وقال القرطبي في تفسيره الجامع لأحكام القرآن ، على قوله تعالى :

(وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (الأعراف / ٤٣) (أي : ورثتم منازلكم بعملكم ودخولكم إياها برحمة الله وفضله) ، كما قال : " ذلك الفضل من الله " ، وقال : " فسيدخلهم في رحمةٍ منه وفضل " . وفي صحيح مسلم " لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الْجَنَّةَ قَالُوا ، وَلا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ : لا ، وَلا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ " إلى قوله : (وبالجملة : فالجنة ومنازلها لا تُنال إلا برحمته ، فإذا دخلوها بأعمالهم ، فقد ورِثوها برحمته ، ودخلوها برحمته ، إذ أعمالهم رحمة منه لهم وتفضل عليهم) ا هـ .

قلت : وبهذه النقول عن العلماء يتضح ما سبق بيانه من الجمع بين الأدلة بالفرق بين باء السبب وباء العوض .

---

(١) – قلت : (والقائل / عماد) : تنبيه مهم : هذا الحديث ليس في الصحيحين بهذا اللفظ وخاصة كلمة (بِعَمَلِهِ) ، إلَّا أنها ثابتة وصحيحة ولكنها في مسند الإمام أحمد ، وقد جاءت كلمة (بِعَمَلِهِ) في صحيح مسلم ولكن بألفاظ مختلفة وهو : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " قَارِبُوا وَسَدِّدُوا ، وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَنْ يَنْجُوَ أَحَدٌ مِنْكُمْ بِعَمَلِهِ " قَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ وَلَا أَنْتَ ؟ قَالَ : " وَلَا أَنَا ، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ " (م / ٢٨١٦) ، ولهذا أردت التنبيه .

– وكذلك من الردود على القائلين بأن الله لم يخلق أفعال العباد

فإنهم قالوا : لو كانت الأفعال واقعة بمشيئة الله وبخلقه لكان معذبًا للناس بغير فعلهم ، ويكون ذلك ظلمًا ؟!

والجواب عن هذا أن يقال : أولًا : ألستم تقرون بأن الله خالقكم ؟ فهنا لا بدَّ أن يقولوا : نعم إن الله خلقنا ، فإذا أقروا بأن الله خالقهم ، نقول : هل فيكم جُزء من الأجزاء لم يكن خلقًا لله ، يعني : هل أنتم الذين خلقتم الرأس أو اليد ، أو الرِّجل ، أو القلب ، أو شيئًا من الأعضاء ! أو أن الخلق كلَّه من الله ؟! فلا بدَّ أن يقروا بهذا ، فيقال : لا فرق بين هذه وبين الصفات ، يعني : القدرة والإرادة التي في الإنسان هل الإنسان خلقها ؟ لا يمكن أن يقال : إن الإنسان هو الذي خلق القدرة والإرادة ؛ لأنه لو كان هو الذي يخلق قدرته فلن يرضى أن يكون فلان أنشط منه وأقوى منه وأقدر منه ، ولكن القدرة التي فيه والاستطاعة مخلوقة لله ، وكذلك الإرادة ، وبالقدرة والإرادة يوجد الفعل ، فإذا وجد الفعل بالقدرة والإرادة قلنا : إنه مخلوق لله جل وعلا ، فالله خلق القدرة والإرادة في الناس ، ثم أمرهم بالشيء الذي يستطيعون فعله بهذه القدرة وبالإرادة فكانت أفعالهم واقعة بقدرتهم وإرادتهم وباختيارهم ، وهذا أمر واضح جلي ، وبهذا يتبين أنهم ضلوا في ذلك ؛ لأنهم اتبعوا أهواءهم .

– وهكذا جمع أهل العلم بين الآيات القرآنية التي ظاهرها أن الإنسان يدخل الجنة بعمله وبين الأحاديث التي دلت على أن الجنة لا يدخلها أهلها إلا برحمة الله وبمعرفة هذا الجمع بين الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة يتضح الردُّ على القدرية النفاة الذين يثبتون الأحكام بالعقل ، ويوجبون على الله ثواب الأعمال ، كما يوجبون أن يفعل الأصلح للعباد ، ويمنعون خلاف هذا ، وقولهم هذا صادر عن اختراعاتهم الباطلة التي مضمونها نبذ نصوص الشرع وراء ظهورهم وتحكيمهم عقولهم الفاسدة .

كما يتضح من الجمع السابق الرد على الجبرية الذين يلغون دور العمل في دخول الجنة ، وينكرون أن يكون سببًا في النجاة من النار وكلا القولين باطلان بشهادة النقل والعقل والفطرة ، وقول كل من الطائفتين مشتمل على خطأ وصواب فالقدرية النفاة : أصابوا في إثبات السببيّة وحالفهم الخطأ في إثبات المعاوضة .

فالله – عز وجل – وَعَدَ من عمل صالحًا بأن يدخله الجنة جزاءً بما عمل قال سبحانه (جَزَاءَ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (السجدة / ١٧) (وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) (الزخرف / ٧٢) ، فالجنة يدخلها العبد بالعمل ؛ لكن الباء هذه ليست باء المقابلة إنما هي باء السببية ؛ يعني بسبب ما كنتم تعملون .

فالعمل الصالح للعبد وأعلاه توحيد الله – عز وجل – والبراءة من الشرك وأهله والكفر بالطاغوت هذا العمل الصالح هو أعظم الأسباب التي يُدْخِلُ الله – عز وجل – بها العبد للجنة .

أما المُقَابَلَةْ فإنَّ الجنة وما فيها من النعيم وما أعطى الله العبد مِنَ النِّعَمْ في الدنيا بل ما مَنَّ عليه أصلًا من الهداية لا يستحق الجنة بالمقابلة ؛ لأنَّ حصول الهداية للعبد مِنَّةٌ من الله – عز وجل – وتَكَرُّم ، ولو تُرِكَ العبد ونفسه لما اهتدى ولاحتوشته الشياطين . لهذا لا يدخل أحد الجنة إلا برحمة الله – عز وجل – .

فإذًا أهل السنة والجماعة يقولون إنَّ دخول أهل الجنة للجنة بسبب الأعمال الصالحة ، وإلا فإنَّ الدخول برحمة الله – عز وجل – لما دَلَّ عليه قوله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – " لاَ يَدْخُلُ أَحَدٌ مِنْكُمُ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ " .

وأما المعتزلة وأهل إنفاذ الوعيد فيرون أنَّ دخول الجنة يكون بالعمل مقابلةً ؛ لأنَّ الله سماه أجر كما يقولون والأجر يقتضي المقابلة .

وذلك راجعٌ إلى عدم التفريق بين (باء السببية) و (باء العوض والمقابلة) والخلط بينهما في الرد على الجبرية والمعتزلة .

هذا ومعتقد أهل السنة والجماعة : أت أفعال العباد خلق من الله ، وكسب من العباد ، فهي بالنسبة إلى الله ينسب إلى الله الخلق والتقدير والإيجاد ، وينسب إلى العبد الكسب والتسبب والمباشرة .

– توسط أهل السنة في باب أفعال الله بين الجبرية والقدرية

س / كيف كان أهل السنة وسطًا في باب أفعال الله بين الجبرية والقدرية ، ومن هم الجبرية ولم سموا بذلك ومن زعيم القدرية وما مذهبهم ؟

ج / الجبرية هم أتباع الجهم بن صفوان التِّرمِذِي ، وسُمُّوا جبرية لأن مذهبهم أن العبد مجبور على فعله وحركاته ، وأفعاله اضطرارية ، فالجبرية يزعمون أن العباد لا يفعلون شيئًا البتة ، وأن الفاعل عندهم هو الله حقيقة وإضافة أفعال العباد إليهم عند الجبرية مجاز ، ومذهبهم باطل .

وأما القدرية فهم أتباع معبد الجهني ، لأنه أول من تكلم بالقدر وحقيقة مذهبهم أنهم يقولون أن أفعال العباد وطاعاتهم ومعاصيهم لم تدخل تحت قضاء الله وقدره فأثبتوا قدرة الله على أعيان المخلوقين وأوصافهم ، وقد نفوا قدرته على أفعال المكلَّفين وقالوا إن الله لم يُرِدْها ولم يشأها منهم وهم الذين أرادوها وشاءوها وفعلوها استقلالًا وأنكروا أن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء ، فأثبتوا خالقًا مع الله ، ولهذا سموا مجوس هذه الأمة ، وهم الذين ورد فيهم الحديث أنهم مجوس هذه الأمة ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ ، عَنِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ : " الْقَدَرِيَّةُ مَجُوسُ هَذِهِ الْأُمَّةِ : إِنْ مَرِضُوا فَلَا تَعُودُوهُمْ ، وَإِنْ مَاتُوا فَلَا تَشْهَدُوهُمْ " صحيح أبي داود / ٤٦٩١) .

ويقال لهم القدرية النفاة ومذهبهم باطل .

فمذهب المعتزلة والقدرية ، قالوا : بالعكس ، مذهبهم عكس مذهب الجهمية ، قالوا : أفعال العباد اختيارية ، بل زادوا على ذلك ، وقالوا : هم الذين خلقوا أفعالهم ، والله لا يقدر على أفعالهم ، لا يقدر الله على خلق أفعال العباد ، فالعباد هم الذين خلقوا الطاعات والمعاصي ، وخلقوا الخير والشر ، وباشروها وخلقوها وأوجدوا أفعالهم ؛ ولذلك يجب على الله أن يثيب المطيع ؛ لأنه هو الذي خلق فعله ، وهو حينما يفعل الحسنات كالأجير ، والأجير يجب إعطاؤه أُجرة ، فيجب على الله أن يثيب المؤمنين ، هكذا يقولون ، أوجبوا على الله .

والعاصي هو الذي خلق الشر والمعصية بنفسه ، وتوعده الله بالنار ، فيجب على الله أن ينفذ وعيده ، وأن يخلده في النار ، هكذا مذهب كل من المعتزلة والقدرية ، عكس مذهب الجبرية .

وأما أهل السنة والجماعة فأثبتوا أن العباد فاعلون حقيقة وأن أفعالهم تنسب إليهم على جهة الحقيقة لا على جهة المجاز ، وأن الله خالقهم وخالق أفعالهم قال تعالى : (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ) (الصافات / ٣٦) وأثبتوا للعبد مشيئة واختيارًا تابعين لمشيئة الله قال الله تعالى :

(لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) (التكوير / ٢٩) والله أعلم .

فهدى الله أهل السنة والجماعة ، وقالوا : إن الأفعال التي تصدر من العباد تنقسم إلى قسمين : أفعال اضطرارية ، فهذه تكون صفة للعباد ، وليست صفة لهم ، وليست أفعالًا لهم كحركات المرتعش والنائم ونبض العروق والأشجار ، هذه اضطرارية الإنسان ليس له اختيار . فيه النوع الثاني من أفعال العباد الاختياري ، وهو الذي يفعله الإنسان باختياره ، له فعله ، وله تقريره كالقيام والقعود ، أنت الآن تحس من نفسك ، تستطيع أن تقوم ، وتستطيع أن تقعد ، تأكل وتشرب ، وتتكلم ، وتذهب وتجيء ، وتسافر ، أليست هذه الأفعال باختيارك ؟ هذه أفعال اختيارية ، هل هي مثل حركات المرتعش والنائم ؟ ليست مثلها ، فمحل النزاع معهم : الأفعال الاختيارية ، أما الأفعال الاضطرارية هذه ليست محلا للنزاع ، كل الطوائف الثلاث اتفقوا على أنها تكون صفة لهم ، وليست أفعالا لهم ، أما الأفعال الاختيارية : هذه محل الخلاف .

فالجبرية قالوا : حتى الأفعال الاختيارية اضطرارية ، ما للعبد اختيار ، والمعتزلة والقدرية قالوا : العباد خلقوها ، وأوجدوها مختارين ، والله لم يقدرها ولا يستطيع خلقها ، وأهل السنة توسطوا ، فقالوا : الأفعال الاختيارية هي خلق الله ، وهي فعل العباد ، فهي تضاف إلى الله من جهة الخلق ، وتضاف إلى العباد من جهة الكسب والتسبب والمباشرة ، فهي من الله خلقًا وإيجادًا وتقديرًا ، ومن العبد فعلًا وتسببًا وكسبًا ومباشرة ، هذا معتقد أهل السنة والجماعة .

(٧) أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ : أَيْ : مِنْ أَجْلِ شَرِّ صُنْعِي بِأَنْ لَا تُعَامِلَنِي بِعَمَلِي .

– قلت : (والقائل / عماد) : فائدة في (مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ) أتكلم عنها بشئ من التفصيل فأقول :

ينبغي التأدب مع الله وأن ننسب الشر إلى ما صنع العبد ولا ننسبه إلى الرب ، كما قال تعالى : (وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا) (الجن / ١٠) فلما تكلَّم عن الشر نسبه إلى ما لم يُسَمّ فاعله ، ولما تكلَّم عن الرَّشَد نسبه إلى الله ، وفي الحديث ما يؤيد ذلك ؛ فعَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – عَنْ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أَنَّهُ كَانَ إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ ، قَالَ : " وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ، وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، إِنَّ صَلَاتِي ، وَنُسُكِي ، وَمَحْيَايَ ، وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، اللهُمَّ أَنْتَ الْمَلِكُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَنْتَ رَبِّي ، وَأَنَا عَبْدُكَ ، ظَلَمْتُ نَفْسِي ، وَاعْتَرَفْتُ بِذَنْبِي ، فَاغْفِرْ لِي ذُنُوبِي جَمِيعًا ، إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ ، وَاهْدِنِي لِأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ ، وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ ، لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ ، أَنَا بِكَ وَإِلَيْكَ ، تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ " ، وَإِذَا رَكَعَ ، قَالَ : " اللهُمَّ لَكَ رَكَعْتُ ، وَبِكَ آمَنْتُ ، وَلَكَ أَسْلَمْتُ ، خَشَعَ لَكَ سَمْعِي ، وَبَصَرِي ، وَمُخِّي ، وَعَظْمِي ، وَعَصَبِي " ، وَإِذَا رَفَعَ ، قَالَ : " اللهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ مِلْءَ السَّمَاوَاتِ ، وَمِلْءَ الْأَرْضِ ، وَمِلْءَ مَا بَيْنَهُمَا ، وَمِلْءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ " ، وَإِذَا سَجَدَ ، قَالَ : " اللهُمَّ لَكَ سَجَدْتُ ، وَبِكَ آمَنْتُ ، وَلَكَ أَسْلَمْتُ ، سَجَدَ وَجْهِي لِلَّذِي خَلَقَهُ ، وَصَوَّرَهُ ، وَشَقَّ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ ، تَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ " ، ثُمَّ يَكُونُ مِنْ آخِرِ مَا يَقُولُ بَيْنَ التَّشَهُّدِ وَالتَّسْلِيمِ : " اللهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ ، وَمَا أَسْرَفْتُ ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي ، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ " (م / ٧٧١) .

قال النووي في شرح مسلم : (وَالشَّرّ لَيْسَ إِلَيْك) :

قَالَ الْخَطَّابِيُّ وَغَيْرُه : فِيهِ الْإِرْشَاد إِلَى الْأَدَب فِي الثَّنَاء عَلَى اللَّه تَعَالَى ، وَمَدْحه بِأَنْ يُضَاف إِلَيْهِ مَحَاسِن الْأُمُور دُون مَسَاوِيهَا عَلَى جِهَة الْأَدَب . وَأَمَّا قَوْله : (وَالشَّرّ لَيْسَ إِلَيْك) فَمِمَّا يَجِب تَأْوِيله لِأَنَّ مَذْهَب أَهْل الْحَقّ أَنَّ كُلّ الْمُحْدَثَات فِعْل اللَّه تَعَالَى وَخَلْقه ، سَوَاء خَيْرهَا وَشَرّهَا ، وَحِينَئِذٍ يَجِب تَأْوِيله وَفِيهِ خَمْسَة أَقْوَال :

أَحَدهَا : مَعْنَاهُ : لَا يُتَقَرَّب بِهِ إِلَيْك ، قَالَهُ الْخَلِيل بْن أَحْمَد وَغَيْرُه .

وَالثَّانِي : حَكَاهُ الشَّيْخ أَبُو حَامِد عَنْ الْمُزَنِيّ وَقَالَهُ غَيْره أَيْضًا مَعْنَاهُ : لَا يُضَاف إِلَيْك عَلَى اِنْفِرَاده ، لَا يُقَال : يَا خَالِق الْقِرَدَة وَالْخَنَازِير ، وَيَا رَبّ الشَّرّ وَنَحْو هَذَا ، وَإِنْ كَانَ خَالِق كُلّ شَيْء وَرَبّ كُلّ شَيْء وَحِينَئِذٍ يَدْخُل الشَّرّ فِي الْعُمُوم .

وَالثَّالِث : مَعْنَاهُ وَالشَّرّ لَا يَصْعَد إِلَيْك إِنَّمَا يَصْعَد الْكَلِم الطَّيِّب وَالْعَمَل الصَّالِح .

وَالرَّابِع : مَعْنَاهُ وَالشَّرّ لَيْسَ شَرًّا بِالنِّسْبَةِ إِلَيْك فَإِنَّك خَلَقْته بِحِكْمَةٍ بَالِغَة ، وَإِنَّمَا هُوَ شَرٌّ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمَخْلُوقِينَ .

وَالْخَامِس : حَكَاهُ الْخَطَّابِيُّ أَنَّهُ كَقَوْلِك فُلَان إِلَى بَنِي فُلَان إِذَا كَانَ عِدَاده فِيهِمْ أَوْ صَفُّوهُ إِلَيْهِمْ .

– وقال العثيمين في شرح رياض الصالحين :

(وَالشَّرّ لَيْسَ إِلَيْك) : أي لاينسب إليك ، فنفس قضاء الله تعالى ليس فيه شرٌّ أبدًا ، لأنه صادر عن رحمة وحكمة ، لأن الشر المحض لا يقع إلا من الشرير ، والله تعالى خير وأبقى .

إذًا كيف نوجّه قوله – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " وتؤمن بالقدر خيره وشرّه " ؟

الجواب : أن نقول : المفعولات والمخلوقات هي التي فيها الخير والشر ، أما أصل فعل الله تعالى وهو القدر فلا شرّ فيه ، مثال ذلك : قول الله عزّ وجل :

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ) (الروم / ٤١) هذا بيان سبب فساد الأرض ، وأما الحكمة فقال : (لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) (الروم / ٤١) إذن هذه مصائب من جدب في الأرض ومرض أو فقر ، ولكن مآلها إلى خير ، فصار الشرّ لايضاف إلى الرب ، لكن يضاف إلى المفعولات والمخلوقات مع أنها شر من وجه وخير من وجه آخر ، فتكون شرًا بالنظر إلى ما يحصل منها من الأذية ، ولكنها خير بما يحصل منها من العاقبة الحميدة (لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) (الروم / ٤١) .

ومن الحكمة أن يكون في المخلوق خير وشر ، لأنه لولا الشر ما عُرف الخير ، كما قيل : (وبضدها تتبين الأشياء) فلو كان الناس كلهم على خير ما عرفنا الشر ، ولو كانوا كلهم على شر ما عرفنا الخير ، كما أنه لا يعرف الجمال إلا بوجود القبيح ، فلو كانت الأشياء كلها جمالًا ما عرفنا القبيح .

إذًا إيجاد الشر لنعرف به الخير ، لكن كون الله تعالى يوجد هذا الشر ليس شرًا ، فهنا فرق بين الفعل والمفعول ، ففعل الله الذي هو تقديره لا شر فيه ، ومفعوله الذي هو مُقدرهُ ينقسم إلى خير وشر ، وهذا الشر الموجود في المخلوق لحكمة عظيمة .

فإذا قال قائل : لماذا قدَّر الله الشر ؟

فالجواب : أولًا : ليُعرف به الخير .

ثانيًا : من أجل أن يلجأ الناس إلى الله عزّ وجل .

ثالثًا : من أجل أن يتوبوا إلى الله .

فكم من إنسان لا يحمله على الذِّكر ليلًا أو نهارًا إلا مخافة شرور الخلق ، فتجده يحافظ على الأوراد لتحفظه من الشرور ، فهذه الشرور في المخلوقات لتحمل الإنسان على الأذكار والأوراد وما أشبهها ، فهي خير .

ولنضرب مثلاً في رجل له ابن مشفق عليه تمامًا ، وأصيب الابن بمرض وكان من المقرر أن يُكوى هذا الابن بالنار ، ولا شك أن النار مؤلمة للابن ، لكن الأب يكويه لما يرجو من المصلحة بهذا الكي ، مع أن الكي في نفسه شر ، لكن نتيجته خير .

وإذا علمت أن فعل الله عزّ وجل الذي هو فعله كله خير اطمأننت إلى مقدور الله عزّ وجل واستسلمت تمامًا ، وكنت كما قال الله عزّ وجل : (وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ) (التغابن / ١١) قال علقمة : هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويُسَلِّم .

والإنسان إذا رضي بالقدر حقًا استراح من الحزن والهم ، بدليل قول الرسول – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – :

" الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا . وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ " (م / ٢٦٦٤) .

فأمر النبي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بالحرص على ما ينفع ، ثم إذا اختلفت الأمور فقل : هذا قدر الله وما شاء فعل .

وليس المراد بقول النبي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: " الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ " قوي العضلات ، بل المراد : المؤمن القوي في إيمانه لا في جسمه ، فكم من إنسان قوي الجسم لكن لا خير فيه ، وبالعكس .

وبهذه المناسبة لو كتبت هذه الجملة " الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ " على لوحة كبيرة فوق ملعب رياضي ، على أن المراد بالمؤمن القوي قوي العضلات فإن هذا لايجوز ، فالمهم أن الشر لاينسب إلى الله تعالى ، لأن النبي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قال : " وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ " وإنما ينسب الشر إلى المخلوقات ، قال الله تعالى :

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ* مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ) (الفلق / ١–٢) فالشرّ ينسب إلى المخلوقات .

وهنا مسألة : هل في تقدير المخلوقات الشريرة حكمة ؟

والجواب : نعم ، حكمة عظيمة ، ولولا هذه المخلوقات الشريرة ما عرفنا قدر المخلوقات الخيّرة ، فالذئب مثلًا صغير الجسم بالنسبة للبعير ، ومع ذلك الذئب يأكل الإنسان كما قال الله تعالى في سورة يوسف على لسان يعقوب عليه السلام : (وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ) (يوسف / ١٣) ومعلوم أن البعير لا يأكل الإنسان ، بل إن البعير القوي الكبير الجسم ينقاد للصبي الصغير ، قال الله عزّ وجل : (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ * وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ) (يس / ٧١–٧٢) فتأمل الحكمة البالغة أن الله تعالى خلق الإبل ، وهي أجسام كبيرة ، وأمرنا الله تعالى أن نتدبر حيث قال : (أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الْأِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ) (الغاشية / ١٧) وخلق الذئاب وأشباهها مما يؤذي بني آدم حتى يعلم الناس بذلك قدرة الله عزّ وجل ، وأن الأمور كلها بيده .

(٨) أَبُوءُ لَكَ : أَيْ : أَلْتَزِمُ وَأَرْجِعُ وَأُقِرُّ .

(٩) بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ : والنِّعْمة ، بِكَسْر النُّون : مَا أنعم الله بِهِ على عِباده من مَال أَو رزق .
والنَّعْمَة : بفتح النون : مَا يتنعّم بِهِ الْإِنْسَان من مأكل أَو مشرب أَو ملبس . وَجمع النِّعْمة نِعَم .
وَالنِّعْمَةُ : الْمِنَّةُ ، وَالنَّعْمَةُ : التَّنَعُّمُ وَطِيبُ الْعَيْشِ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : (وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ) (الدخان / ٢٧) .
(١٠) وَأَبُوءُ بِذَنْبِي : (بِذَنْبِي) :
قلت : (والقائل / عماد) : فائدة في الذنب والفرق بينه وبين مثيلاته (الذَّنْبُ : الإِثْمُ) ارْتِكَاب أَمر غير مَشْرُوع .
قَالَ اللَّيْث : الذَّنْبُ الإِثْمُ والمَعْصِيةُ والجميع الذُّنوب ، والجُرْمُ والمَعْصِيَةُ ، والزلة والعرة وَالْجِنَايَة وَالْخَطَأ والذنب والهفوة والسقطة والفلتة ، قال صَاحب الْعين : الحِنْث : الذَّنب الْعَظِيم ، قال أَبُو عُبَيْد : الإِصْر : الذَّنب .
الفرق بين الخطأ والذنب : الفرق بينهما أن الذنب يطلق على ما يقصد بالذات ، وكذا السيئة والخطيئة تغلب على ما يقصد بالعرض ، لأنها من الخطأ ، كمن رمى صيدًا فأصاب إنسانًا ، أو شرب مسكرًا فجنى جناية في سكره .
وقيل : الخطيئة : السيئة الكبيرة ، لأن الخطأ بالصغيرة أنسب والسوء بالكبيرة ألصق .
وقيل الخطيئة ما كان بين الإنسان وبين الله تعالى ، والسيئة ما كان بينه وبين العباد .
الفرق بين الذنب والجرم : أن الذنب ما يتبعه الذم أو ما يتتبع عليه العبد من قبيح فعله ، وذلك أن أصل الكلمة الاتباع على ما ذكرنا فأما قولهم للصبي قد أذنب فإنه مجاز ، ويجوز أن يقال الإثم هو القبيح الذي عليه تبعة ، والذنب هو القبيح من الفعل ولا يفيد معنى التبعة ، ولهذا قيل للصبي قد أذنب ولم نقل قد أثم ، والأصل في الذنب الرذل من الفعل كالذنب الذي هو أرذل ما في صاحبه ، والجرم ما ينقطع به عن الواجب وذلك أن أصله في اللغة القطع ومنه قيل للصرام الجرام وهو قطع التمر .
– الفرق بين الذنب والجرم : قيل : هما بمعنى .
إلا أن الفرق بينهما أن أصل الذنب الاتباع ، فهو ما يتبع عليه العبد من قبيح عمله ، كالتبعة .
والجرم أصله : القطع ، فهو القبيح الذي ينقطع به عن الواجب .
الفرق بين الإثم والذنب والوزر :
قال الكفويّ : إنّ الذّنب هو مطلق الجرم عمدًا كان أو سهوًا ، بخلاف الإثم فإنّه ما يستحقّ فاعله العقاب ، فيختصّ بما يكون عمدًا .
أمّا الإثم والوزر فهما واحد في الحكم العرفيّ وإن اختلفا في الوضع ، فإنّ وضع الوزر للقوّة لأنّه من الإزار ، وهو ما يقوّي الإنسان ، ووضع الإثم للّذّة وإنّما خصّ به فعل الشّرّ لأنّ الشّرور (في الغالب) ما تكون مستلذّة .
وَبَين الذَّنب وَالْإِثْم فرق من حَيْثُ إن الذَّنب مُطلق الجرم عمدًا كَانَ أَو سَهوًا ، بِخِلَاف الْإِثْم ، فَإِنَّهُ مَا يسْتَحق فَاعله الْعقَاب فَيخْتَص بِمَا يكون عمدًا وَيُسمى الذَّنب تبعة اعْتِبَارًا بذنب الشَّيْء ، كَمَا أَن الْعُقُوبَة بِاعْتِبَار مَا يحصل من عاقبته والهمزة فِيهِ من الْوَاو ، كَأَنَّهُ يثم الْأَعْمَال أَي يكسرها وَهُوَ أَيْضًا عبارَة عَن الانسلاخ عَن صفاء الْعقل ، وَمِنْه سمي الْخمر إِثْمًا ، لِأَنَّهَا سَبَب الانسلاخ عَن الْعقل (قل فيهمَا إِثْم كَبِير) أَي فِي تناولهما إبطاء عَن الْخيرَات و (آثم قلبه) أَي ممسوخ .

(١١) اغْفِرْ لِي : غَفَرَ : أَي سَتر الله ذنوبه وَلم يَفْضَحهُ بهَا على رُؤُوس الْمَلأ . وكلُّ شَيْء سترتَه فقد غفرتَه ، وأصل الغفر التَّغْطِيَةُ وَالسَّتْرُ وهو ستر الشى ، بما يصونه ، فالله غافر لذنوب عباده ساتر لها بترك العقوبة عليها ، ومعناه أنه يستر القبائح والذنوب ، بإسبال الستر عليها في الدنيا ، وترك المؤاخذة بالعفو عنها في العقبى ، ويصون العبد من أوزارها .

(١٢) وَمَنْ قَالَهَا : أَيْ : هَذِهِ الْكَلِمَاتِ .

(١٣) مِنَ النَّهَارِ : أَيْ : فِي بَعْضِ أَجْزَائِهِ .

(١٤) مُوقِنًا بِهَا : نُصِبَ عَلَى الْحَالِ أَيْ : حَالَ كَوْنِهِ مُعْتَقِدًا لِجَمِيعِ مَدْلُولِهَا إِجْمَالًا أَوْ تَفْصِيلًا : واليقين : نقيض الشك ، واليقين : العلم ، وتحقيق الأمر ، ويَقِنَ الأَمْرَ ، أَي : عَلِمَهُ وتَحَقَّقَهُ ، وَفِي الاصْطِلاحِ : اعْتِقادُ الشيءِ بأنَّه كَذَا مَعَ اعْتِقادِ أنَّه لَا يُمْكِن إلَّا كَذَا مُطابِقًا للواقِعِ غَيْرَ مُمْكِن الزَّوالِ والقَيْد .

وقيل هو : رُؤْيَةُ العِيانِ بقوَّةِ الإيمانِ لَا بالحجَّةِ والبُرْهانِ .

وقيلَ : مشاهَدَةُ الغُيوبِ بصَفَاءِ القُلوبِ ، ومُلاحَظَة الأَسْرار بمحافَظَةِ الأفْكارِ .

(١٥) قَبْلَ أَنْ يُمْسِيَ : أَيْ تَغْرُبَ شَمْسُهُ ، في أثناء اليوم ، والْمَسَاءُ إِلَى آخِرِ نِصْفِ اللَّيْلِ الْأَوَّلِ .

(١٦) فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ : أَيْ : يَمُوتُ مُؤْمِنًا فَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ لَا مَحَالَةَ ، أَوْ مَعَ السَّابِقِينَ .

(١٧) قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ : في أثناء الليل ، قَالَ ابْنُ الْجَوَالِيقِيِّ : الصَّبَاحُ عِنْدَ الْعَرَبِ مِنْ نِصْفِ اللَّيْلِ الْآخِرِ إِلَى الزَّوَالِ .

ما يستفاد من الحديث

(سَيِّدُ الِاسْتِغْفَارِ)

– جواز إطلاق اسم السيد على غير الله .

– الأذكار تتفاضل ، والاستغفار يتفاضل ، وهذا سيدها .

– للاستغفار صيغ متعددة و هذه أفضلها .

(اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ خَلَقْتَنِي)

– من الأدب في الدعاء ، البدء بالثناء على الله .

– مشروعية مخاطبة الله بكلمة (أنت) ، وأنَّ ذلك لا ينافي الأدب .

– الاعتراف والإقرار لله بأنه الرَّب والخالق .

(وَأَنَا عَبْدُكَ)

– الاعتراف والإقرار لله بالعبودية .

– اتصاف العبد بشرف العبودية لله .

– مشروعية مخاطبة الله بكاف الخطاب (عبدك ، عَهْدِكَ ، وَعْدِكَ ، بِكَ ، لَكَ ، بِنِعْمَتِكَ) ، وأنَّ ذلك لا ينافي الأدب .

(وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ)

– الالتزام بعهد الله ووعده يكون على قدر استطاعة العبد لا كما ينبغي للرب .

– الصدق مع الله ، ومع النفس ؛ بأن يلتزم العبد بالعهد والوعد قدر الاستطاعة حقًا ، ولا يكون ذلك باللسان فقط مع أنه يستطيع الأكثر .

– اثبات أن للعبد استطاعة وقدرة .

– الردُّ على الجهمية الجبرية القائلين : بأن العبد مجبور على أفعاله لا قدرة له عليها ، وأن أفعاله بمنزلة حركات الأشجار ، وكل هذا غلو منهم في إثبات القدر .

– الردُّ على القدرية القائلين : بأن العبد يخلق فعل نفسه ، ونفوا متعلق قدرة الله بأفعال العباد ، تنزيهًا لله بزعمهم . فأفعال العباد عندهم لا تدخل تحت مشيئة الله وإرادته ، وكل من هاتين الطائفتين ردت طائفة كبيرة من نصوص الكتاب والسنة .

– بيان واعلام للأمة أنه ليس لأحد قدرة ولا استطاعة على الوفاء الكامل بعهد الله ووعده .

(أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ)

– الاستعاذة بالله عبادة يُتقرب بها إلى الله .

– وفيه أن العبد ضعيف وفقير ويحتاج إلى القوي الغني .

– خوف العبد من المعاصي .

– إطلاق الشر على بعض أفعال العباد .

– إثبات أن الفعل من كسب العبد .

– التأدب مع الله ، وأن الشر ينسب إلى المخلوق لا الخالق ، كما قال – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – في دعاء الاستفتاح : " وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ " (م / ٧٧١) .

– فِيهِ الْإِرْشَاد إِلَى الْأَدَب فِي الثَّنَاء عَلَى اللَّه تَعَالَى ، وَمَدْحه بِأَنْ يُضَاف إِلَيْهِ مَحَاسِن الْأُمُور دُون مَسَاوِيهَا عَلَى جِهَة الْأَدَب .

(أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ)

– الاعتراف بنعمة الله على العبد ، وإضافة النعمة إلى واهبها .

(وَأَبُوءُ بِذَنْبِي)

– اعتراف العبد بذنبه وما بدر منه من الخطايا بأنه هو الذي فعلها ولا ينسبها إلَّا إلى نفسه لأنه هو الذي فعلها واقترف شرها ؛ فالخير كله بيد الله والشر كله ليس إلى الله وأن العبد فاعله ومقترفه .

– الجمع بين الاعتراف بالنعمة ، والاعتراف بالذنب يستفاد منه : –

أ – كثرة نِعم الله على خلقه ورزقه إيَّاهم ، وهذا يستوجب عبادة الشكر لواهب النعم الرزاق الكريم .

ب – الإقرار باقتراف الذنوب يستوجب عبادة التوبة .

ج – اجتماع الإقرار بالنِّعم ، والإقرار بالذنوب في سياقٍ واحد ، يجعل العبد يرى المنعم المستحق للشكر ، ونفسه المذنبة المستحقة للتنقص والعيب ؛ فيتولد منهما الانكسار بين يَدَي الجبار ، فلا يرى ربه إلا متفضلًا ، ولا يرى نفسه إلا مُقَصِّرًا .

د – اجتماع الإقرار بالنِّعم ، والإقرار بالذنوب في سياقٍ واحد ، مدعاة لأن يجعل العبد دائم الاستحياء من رب الأرض والسماء ، وملازم لكثرة الاستغفار .

– الاعتراف بنعمة الله على العبد والاعتراف بذنوبه لديه ، كل هذا توسلًا إلى الله بين يدي دعائه وابتهاله إليه ثم يشرع يدعو الله تعالى – وهذا من أدب الدعاء .

(اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ... اغْفِرْ لِي فَإِنَّهُ لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ)

– هذه الصيغة جمعت أنواع التوحيد الثلاثة (رَبِّي – ربوبية – ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ – ألوهية – ، لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ – أسماء وصفات ، فحُقَّ له أن يكون سيد الاستغفار .

(اغْفِرْ لِي فَإِنَّهُ لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ)

– طلب المغفرة ممن يملكها وحده .

(وَمَنْ قَالَهَا مِنَ النَّهَارِ مُوقِنًا بِهَا فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُمْسِيَ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ)

– اشتراط أن يكون مُوقِنًا بِهَا ، ولا يُكتفَى بالقول فقط لحصول الأجر ؛ فالعبرة بالقلب وليست باللسان .

– فضل هذا الذِّكر .

– الأعمال سبب في دخول الجنة .

– فضل المحافظة والمداومة على أذكار المساء والصباح ، وأنها من أسباب الوقاية والفلاح .

– استفتاح اليوم بذكر الله .

– فضل وأهمية أذكار الصباح .

– حرص النَّبيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على الطاعة .

– مداومة النَّبيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على الأذكار .

– التأكيد على عبادة الوقت ، وهي أن كل عبادة في وقتها هي الأفضل .

– الحثّ على مداومة الذِّكر .

– أهمية أن يكون بداية اليوم بذكر الله .

– التأكيد على الذِّكر بها صباحًا .

(وَمَنْ قَالَهَا مِنَ اللَّيْلِ وَهْوَ مُوقِنٌ بِهَا فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ فَهْوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ)

– استفتاح طرفي اليوم بالتوحيد والثناء والاستغفار والدعاء ، سبب لدخول الجنة .

– حرص النَّبِيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على أُمَّتِهِ توجيهًا وتعليمًا وإرشادًا فيوجهها خير وجهة ويعلمها أنفع علم ويرشدها إلى أقوم طريق وأهدى سبيل ، وجزاه الله عنا وعن الإسلام والمسلمين ما هو أهله وسلم تسليمًا كثيرًا .

– ختم اليوم بذكر الله .

– فضل وأهمية أذكار المساء .

– حرص النَّبيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على الطاعة .

– مداومة النَّبيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على الأذكار .

– التأكيد على عبادة الوقت ، وهي أن كل عبادة في وقتها هي الأفضل .

– الحثّ على مداومة الذِّكر . – أهمية أن يكون ختام اليوم بذكر الله .

٤- عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إِذَا أَمْسَى [١] قَالَ : " أَمْسَيْنَا [٢] وَأَمْسَى الْمُلْكُ [٣] لِلَّهِ [٤] ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ [٥] ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ [٦] وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ [٧] ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ [٨] ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [٩] ، اللَّهُمَّ [١٠] أَسْأَلُكَ [١١] خَيْرَ هَذِهِ اللَّيْلَةِ [١٢] ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ هَذِهِ اللَّيْلَةِ [١٣] وَشَرِّ مَا بَعْدَهَا [١٤] ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ الْكَسَلِ [١٥] وَسُوءِ الْكِبَرِ [١٦] ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابٍ فِي النَّارِ [١٧] وَعَذَابٍ فِي الْقَبْرِ [١٨] "
وَإِذَا أَصْبَحَ [١٩] قَالَ ذَلِكَ أَيْضًا [٢٠] : " أَصْبَحْنَا وَأَصْبَحَ الْمُلْكُ لِلَّهِ " [٢١] (م / ٢٧٢٣) [*] .

المعنى الإجمالي

يخبرنا الصحابي الجليل عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - بأن النبيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كان يحافظ على هذا الذِّكر في طرفي النهار ، ويسأل الله خير اليلة ، ويستعيذ بالله من شرِّ الليلة وما يليها ، ويستعيذ بالله من بعض الشرور كالْكَسَلِ وَسُوءِ الْكِبَرِ ، وعَذَابٍ فِي النَّارِ وَعَذَابٍ فِي الْقَبْرِ .

معاني الكلمات

(١) إِذَا أَمْسَى : أَيْ يَدْخُلَ اللَّيْلُ ؛ لِأَنَّ الْإِمْسَاءَ ضِدُّ الْإِصْبَاحِ ، كَمَا أَنَّ الْمَسَاءَ ضِدُّ الصَّبَاحِ عَلَى مَا فِي الْقَامُوسِ وَالصِّحَاحِ . والمَساء بعد الظهر إلى صلاة المغرب وقال بعضهم إلى نصف الليل .

(٢) أَمْسَيْنَا : وقت دخول المساء ، أَيْ : دَخَلْنَا فِي الْمَسَاءِ وَدَخَلَ فِيهِ الْمُلْكُ كَائِنًا لِلَّهِ وَمُخْتَصًّا بِهِ .

(٣) الْمُلْكُ : بِضَمِّ الْمِيم ، له السلطان والقدرة ، والسلطنة والقهر له دون غيره قال تعالى : (وهو القاهر فوق عباده) ، ولَهُ جَمِيع أَصْنَاف الْمَخْلُوقَات ، وله التصرف في الأمور كلها . جِنْسُ الْمُلْكِ مُخْتَصٌّ لَهُ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَيَنْزِعُهُ مِمَّنْ يَشَاءُ ، وَهُوَ شَامِلٌ لِمُلْكِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَمُلْكِ الْعِلْمِ ، وَالْحِكْمَةِ ، وَمُلْكِ الْعَمَلِ ، وَالزَّهَادَةِ ، وَالْقَنَاعَةِ ، أَيْ : مَلِكُ الْمَلَكُوتِ ، وَمَلِكُ الْأَمْلَاكِ ، يَعْنِي : بِتَصَرُّفِهِ وَتَقْرِيرِهِ وَمَشِيئَتِهِ وَتَقْدِيرِهِ ، مَلَكَ جَمِيعَ الْأُمُورِ .

(٤) لِلَّهِ : الله : (إِلَّا اللَّهُ) : اسم الجلالة : هُوَ اسْمٌ لَمْ يُسَمَّ بِهِ غَيْرُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ؛ والله : اسم علم على الإله المعبود بحق ، و(الله) معناه : ذو الألوهية ، والألوهية معناها : العبادة ، يقال : أَلَهَ يألَهُ : بمعنى : عبَد يعبُد ، فالألوهية معناها : العبادة ، فـ (اللهِ) معناه : ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين ، وقد تقدَّم الكلام عنه في الحديث الأول .

(٥) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ : الْحَمْدُ : عرَّفه شيخ الإسلام فقال : هو الإخبار عن صفة المحمود على وجه المحبة والتعظيم ، فلابد من اجتماع شيئين : ١ - الإخبار عن صفات المحمود . ٢ - على وجه المحبة وتعظيم .
و الْحَمْدُ ثَابِتٌ لَهُ حُمِدَ أَوْ لَمْ يُحْمَدْ ، أَوْ لَهُ الْحَامِدِيَّةُ وَالْمَحْمُودِيَّةُ ، فَهُوَ الْحَامِدُ ، وَهُوَ الْمَحْمُودُ ، وَله حمد أهل السَّمَوَات وَالْأَرْض ، وَجَمِيع أَصْنَاف المحامد الَّتِي بالأعيان والأعراض ، بِنَاء على أَن الْألف وَاللَّام لاستغراق الْجِنْس عندنَا ، وَلما كَانَ الله مَالك الْملك كُله اسْتحق أَن تكون جَمِيع المحامد لَهُ دون غَيره ، فَلَا يجوز أَن يحمد غَيره .

(*) وعند ابن حِبَّان / ٩٥٩ بلفظ : " أَصْبَحْنَا وَأَصْبَحَ الْمُلْكُ لِلَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ أَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ هَذَا الْيَوْمِ وَمِنْ خَيْرِ مَا فِيهِ وَخَيْرِ مَا بَعْدَهُ وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكَسَلِ وَالْهَرَمِ وَسُوءِ الْعُمُرِ وَفِتْنَةِ الدَّجَّالِ وَعَذَابِ الْقَبْرِ " وَإِذَا أَمْسَى قَالَ مِثْلَ ذَلِكَ .

(٦) لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ : إجمالًا فمعنى لا إله إلا الله : أي لا معبود حقٌّ إلا الله ، ولا يلجأ العباد ويضرعون ويفزعون في كل ما ينوبهم إلا إلى الله ؛ كلمة التوحيد ، جمعت الإيمان واحتوته ، وهذه الكلمة عنوان الإسلام وأساسه ، ولأهميتها سأتكلم عنها بشئ من التفصيل من عدَّة جهات مثل :

(فضلها وأهميتها ، معناها ، أركانها ، شروطها ، نواقضها ، وغير ذلك) في كتابي (هل حقًا استجبنا لأمر الله ، فاعلم أنه لا إله إلا الله) فراجعه إن شئت .

(٧) وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ : كلمتان جيء بهما للتأكيد ، تَأْكِيدٌ لِمَا دلَّت عَلَيْهِ كَلِمَةُ التَّوْحِيدِ . (وَحْدَهُ) : أي لا إله منفرد إلا هو وحده ، أَيْ : وَحْدَهُ فِي أَفْعَالِهِ وَصِفَاتِهِ ، وَقَالَ ابْنُ حَجَرٍ: تَأْكِيدٌ بَعْدَ تَأْكِيدٍ لِمَزِيدِ الِاعْتِنَاءِ ، بِمَقَامِ التَّوْحِيدِ . (لَا شَرِيكَ لَهُ) أَي لا مشارك له : توكيد للنفي ، والإشراك أن يجعل مع الله إلهًا آخر ، (لا شريك له) عقلا ونقلا وأما الأول فلأن وجود إلهين محال كما تقرر في الأصول وأما الثاني فلقوله تعالى (وإلهكم إله واحد) وذلك يقتضي أن لا شريك له وهو تأكيد لقوله وحده لأن المتصف بالوحدانية لا شريك له ، هي من حيث المعنى توكيد للإثبات ، لا شَرِيكَ لَهُ فِي عِبَادَتِهِ كَمَا أنه ليس له شريك في ملكه ، فهما كلمتان مؤكِّدتان للا إله إلاَّ الله ، لما فيها من النفي والإثبات .

(٨) لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ : تقدَّم الكلام عن (الْمُلْك وَ الْحَمْد) ؛ فإن قيل : لماذا قدَّم الْمُلْك على الحمد ؟

يقال : قدَّم الْمُلْك لأنه مَلَك فحُمِد في مملكته .

– فإن قيل : لماذا قرن الملك بالحمد ؟

يقال : قرن الملك بالحمد ؛ لأن الغالب أن من كان له الملك من العباد لا يحمد لما لا يخلو عنه من الجور والكبرياء وغير ذلك من صفات البشرية بخلاف ملكه تعالى فإنه ملك ينضم إليه حمد الخلائق له ؛ فهما قرينتان في صفاته تعالى يختص بهما ، فإنه لا يجتمع الملك والحمد لغيره إذ غالب من ملك الملك لا يحمد عند العباد .

(٩) وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ : بَالِغٌ فِي الْقُدْرَةِ ، كَامِلٌ فِي الْإِرَادَةِ والْقُوَّةِ ، مُنَزَّهٌ عَنِ الْعَجْزِ وَالْفَتْرَةِ ، لا يعجزه شيء في السماوات ولا في الأرض ، وَله الْقُدْرَة الْكَامِلَة الباهرة فِي السَّمَوَات وَالْأَرْض ، وذكر ذلك من بَاب التتميم والتكميل ، لِأَن الله تَعَالَى ، لما كَانَت الوحدانية لَهُ وَالْملك لَهُ وَالْحَمْد لَهُ ، فبالضرورة يكون قَادِرًا على كل شَيْء ،

والقدير اسم من أَسمَاء الله تَعَالَى : كالقادر والمقتدر .

(١٠) اللَّهُمَّ : تقدَّم في حديث (سيد الاستغفار) .

(١١) أَسْأَلُكَ : أَيْ أَطْلُبُ مِنْكَ .

(١٢) خَيْرَ هَذِهِ اللَّيْلَةِ : أي : خيرِ ما سكَنَ فيها ، أَيْ : مِنَ التَّقْدِيرَاتِ الْإِلَهِيَّةِ ، ومسألتُه – عليه الصلاة والسلام – خيرَ هذه الأزمنةِ ، وكأنه يطلب قَبول الطاعات التي قدَّمها فيها . قَالَ الطِّيبِيُّ : أَيْ : مِنْ خَيْرِ مَا يَنْشَأُ فِيهَا وَخَيْرِ مَا يَسْكُنُ فِيهَا ، قَالَ تَعَالَى : (وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ) (٦ / ١٣) وَقَالَ ابْنُ حَجَرٍ: أَيْ مِمَّا أَرَدْتَ وُقُوعَهُ فِيهَا لِخَوَاصِّ خَلْقِكَ مِنَ الْكَمَالَاتِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ ، وَخَيْرُ مَا يَقَعُ فِيهَا مِنَ الْعِبَادَاتِ الَّتِي أُمِرْنَا بِهَا فِيهَا ، أَوِ الْمُرَادُ خَيْرُ الْمَوْجُودَاتِ الَّتِي قَارَنَ وُجُودُهَا هَذِهِ اللَّيْلَةَ وَخَيْرُ كُلِّ مَوْجُودٍ الْآنَ . وقيل : الأظهر أن يراد بخيرها ما يعمل فيها بنفسه وبخير ما فيها ما يقع ويحدث فيها من الكوائن والحوادث .

(١٣) وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ هَذِهِ اللَّيْلَةِ : الليل محل للشرور التي تحْدُثُ فِي اللَّيْلِ مِنْ لُصُوصٍ ، وَسِبَاعٍ ، وَذَوَاتِ سُمُومٍ ، وَتَعَذُّرِ السَّيْرِ ، وَعُسْرِ النَّجْدَةِ ، وَبُعْدِ الِاسْتِغَاثَةِ وَاشْتِدَادِ آلَامِ الْمَرْضَى ، حَتَّى ظَنَّ بَعْضُ أَهْلِ الضَّلَالَةِ اللَّيْلَ إِلَهَ الشَّرِّ .

(١٤) وَشَرِّ مَا بَعْدَهَا : أي من الليالي أو مطلقًا .

(١٥) اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ الْكَسَلِ : بِفَتْحَتَيْنِ أَيِ : التَّثَاقُلِ فِي الطَّاعَةِ مَعَ الِاسْتِطَاعَةِ ،

قَالَ الرّاغب والطِّيبِيُّ : الْكَسَلُ التَّثَاقُلُ عَمَّا لَا يَنْبَغِي التَّثَاقُلُ عَنْهُ ، وَيَكُونُ ذَلِكَ بِعَدَمِ انْبِعَاثِ النَّفْسِ لِلْخَيْرِ مَعَ ظُهُورِ الِاسْتِطَاعَةِ ، قال المناويّ : الكسل : التّغافل عمّا لا ينبغي التّغافل عنه ولذلك عدّ مذمومًا وضدّه النّشاط .

(١٦) وَسُوءِ الْكِبَرِ : بِفَتْحِ الْبَاءِ وَهُوَ الْأَصَحُّ رِوَايَةً وَدِرَايَةً أَيْ : مَا يُورِثُهُ الْكِبَرُ مِنْ ذَهَابِ الْعَقْلِ وَاخْتِلَاطِ الرَّأْيِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَسُوءُ بِهِ الْحَالُ ، أَيْ : كِبَرِ السِّنِّ الْمُؤَدِّي إِلَى تَسَاقُطِ بَعْضِ الْقُوَّةِ وَضَعْفِهَا وَهُوَ الرَّدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ ؛ لِأَنَّهُ يَفُوتُ فِيهِ الْمَقْصُودُ بِالْحَيَاةِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ ، وَلِذَا قَالَ تَعَالَى : (لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا) (الحج / ٥) .

وَرُوِيَ بِسُكُونِ الْمُوَحَّدَةِ (الْكِبْرِ) وَالْمُرَادُ بِهِ الْبَطَرُ .

(١٧) اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابٍ فِي النَّارِ : أَيْ : عَذَابٍ كَائِنٍ فِي النَّارِ وَفِيهِ إِيمَاءٌ إِلَى سُهُولَةِ سَائِرِ أَنْوَاعِ الْعَذَابِ ، وَلِأَنَّ الْعَذَابَ فِيهَا يَكُونُ فِيهَا وَبِغَيْرِهَا كَمَا هُوَ مُقَرَّرٌ فِي مَحَلِّهَا .

(١٨) وَعَذَابٍ فِي الْقَبْرِ : وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالِاسْتِعَاذَةِ بِهِ تَعَالَى مِنْهُمَا : التَّحَفُّظُ وَالتَّوَقِّي مِنَ الْأَعْمَالِ وَالْأَحْوَالِ الَّتِي تَجُرُّ إِلَيْهِمَا .

(١٩) وَإِذَا أَصْبَحَ : الصَّباح : الفَجْرُ أو أَوَّلُ النَّهارِ ، وَالصَّبَاحُ أَيْضًا خِلَافُ الْمَسَاءِ قَالَ ابْنُ الْجَوَالِيقِيّ : الصَّبَاحُ عِنْدَ الْعَرَبِ مِنْ نِصْفِ اللَّيْلِ الْآخِرِ إِلَى الزَّوَالِ ، ثُمَّ الْمَسَاءُ إِلَى آخِرِ نِصْفِ اللَّيْلِ الْأَوَّلِ ، هَكَذَا رُوِيَ عَنْ ثَعْلَبٍ .

ويدخل الصباح من طلوع الفجر وينتهي بارتفاع الشمس ضُحًا .

(٢٠) قَالَ ذَلِكَ أَيْضًا : " أَصْبَحْنَا وَأَصْبَحَ الْمُلْكُ لِلَّهِ : أَيْ : مَا ذُكِرَ مِنَ الْأَذْكَارِ .

(٢١) أَصْبَحْنَا وَأَصْبَحَ الْمُلْكُ لِلَّهِ : بَدَلَ " أَمْسَيْنَا وَأَمْسَى الْمُلْكُ لِلَّهِ " .

ما يستفاد من الحديث

(كَانَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – إِذَا أَمْسَى قَالَ)

– حرص النَّبيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على الطاعة .

– مداومة النَّبيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على الأذكار ، دلَّ على المداومة (كان يفعل كذا) .

– ختم اليوم بذكر الله .

– فضل وأهمية أذكار المساء .

– التأكيد على عبادة الوقت ، وهي أن كل عبادة في وقتها هي الأفضل .

– الحثّ على مداومة الذِّكر .

– أهمية أن يكون ختام اليوم بذكر الله .

– فضل المحافظة والمداومة على أذكار المساء والصباح ، وأنها من أسباب الوقاية والفلاح .

(أَمْسَيْنَا وَأَمْسَى الْمُلْكُ لِلَّه)

– النَّبيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يُقِرُّ لله بِتَصَرُّفِهِ وَتَقْرِيرِهِ وَمَشِيئَتِهِ وَتَقْدِيرِهِ ، وأنه يملك جَمِيعَ الْأُمُورِ .

– التأكيد على عبادة الوقت ، وهي أن كل عبادة في وقتها هي الأفضل .

(وَالْحَمْدُ لِلَّه)

– النَّبيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يعلمنا بأنه لما كَانَ الله مَالك الْملك كُلّه اسْتحق أَن تكون جَمِيع المحامد لَهُ دون غَيره ، فَلَا يجوز أَن يحمد غَيره .

(لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير)

– الإقرار بأن لا معبود حقٌّ إلا الله ، ولا يلجأ العباد ويضرعون ويفزعون في كل ما ينوبهم إلا إلى الله .

– الاعتراف بأن الله بَالِغٌ فِي الْقُدْرَةِ ، كَامِلٌ فِي الْإِرَادَةِ والْقُوَّةِ ، مُنَزَّهٌ عَنِ الْعَجْزِ وَالْفَتْرَةِ ، لا يعجزه شيء في السماوات ولا في الأرض ، وَله الْقُدْرَة الْكَامِلَة الباهرة فِي السَّمَوَات وَالْأَرْض .

– قبل الدعاء ، حمدٌ وثناء ، أرجى لقبول الدعاء .

– وكما أن القرآن مفتتح بـ (الْحَمْدُ لِلَّه) ؛ فإننا نفتتح اليوم بـ (الْحَمْدُ لِلَّه) ، ونختمه بـ (الْحَمْدُ لِلَّه) كما هو ختام دعاء أهل الجنة ، (وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) (يونس / ١٠) .

(اللَّهُمَّ أَسْأَلُكَ خَيْرَ هَذِهِ اللَّيْلَة)

– سؤال مَنْ يملك كل شيء أن يهب خير هذه الليلة .

(وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ هَذِهِ اللَّيْلَةِ وَشَرِّ مَا بَعْدَهَا)

– الاعتصام واللجوء إلى مَنْ يملك كل شيء أن يقي شرّ هذه الليلة وما بعدها .

– ضعف الإنسان الذي لا يقدر أن يقي أو يحصن نفسه من الشرور التي تكون في الليل خاصة .

– قوة الخالق الذي يقدر على العوذ والذي يملك الدنيا وما فيها .

– الليل محل للشرور التي تَحْدُثُ فِي اللَّيْلِ مِنْ لُصُوصٍ ، وَسِبَاعٍ ، وَذَوَاتِ سُمُومٍ ، وَتَعَذُّرِ السَّيْرِ ، وَعُسْرِ النَّجْدَةِ ، وَبُعْدِ الِاسْتِغَاثَةِ وَاشْتِدَادِ آلَامِ الْمَرْضَى ، حَتَّى ظَنَّ بَعْضُ أَهْلِ الضَّلَالَةِ اللَّيْلَ إِلَهَ الشَّرِّ .

– فِي الْحَدِيثِ إِظْهَارُ الْعُبُودِيَّةِ وَالِافْتِقَارِ إِلَى تَصْرِيفَاتِ الرُّبُوبِيَّةِ ، وَأَنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ خَيْرَهُ وَشَرَّهُ بِيَدِ اللَّهِ وَأَنَّ الْعَبْدَ لَيْسَ لَهُ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ .

– وَفِيهِ تَعْلِيمٌ لِلْأُمَّةِ لِيَتَعَلَّمُوا آدَابَ الدُّعَاءِ .

(اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ الْكَسَلِ)

– الاعتصام واللجوء إلى مَنْ يملك كل شيء أن يقي مِنْ الْكَسَلِ .

– خطورة الكسل ، وأنه من صفات المنافقين خاصة في العبادة (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا) (النساء / ١٤٢) .

(وَسُوءِ الْكِبَرِ)

– الاعتصام واللجوء إلى مَنْ يملك كل شيء أن يقي من سُوءِ الْكِبَرِ ، وهو كِبَرِ السِّنِّ الْمُؤَدِّي إِلَى تَسَاقُطِ بَعْضِ الْقُوَّةِ وَضَعْفِهَا .

– خطورة سُوءِ الْكِبَرِ .

(اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابٍ فِي النَّارِ وَعَذَابٍ فِي الْقَبْرِ)

– الاعتصام واللجوء إلى مَنْ يملك كل شيء أن يقي مِنْ عَذَابٍ فِي النَّارِ وَعَذَابٍ فِي الْقَبْرِ ؛ وبذلك يتم الاستعاذة من شرور الدنيا والآخرة .

– ثبوت البعث .

– ثبوت عذاب النار .

– ثبوت عذاب القبر .

– الردُ على منكري عذاب القبر .

– تكرار الدعاء بـ (اللَّهُمَّ) تأكيدًا لتوحيد الألوهية ، والإلحاح في الدعاء .

(وَإِذَا أَصْبَحَ قَالَ ذَلِكَ أَيْضًا : " أَصْبَحْنَا وَأَصْبَحَ الْمُلْكُ لِلَّهِ)

– سؤال مَنْ يملك كل شيء والاعتصام واللجوء إليه أن يهب ويقي ما سُئل مساءً أن يهب ويقي ذلك أيضًا صباحًا .

– أهمية دوام الذكر مساءً وصباحًا .

– استفتاح اليوم بذكر الله .

– فضل وأهمية أذكار الصباح .

– حرص النَّبيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على الطاعة .

– مداومة النَّبيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على الأذكار .

– التأكيد على عبادة الوقت ، وهي أن كل عبادة في وقتها هي الأفضل .

– الحثّ على مداومة الذِّكر . – أهمية أن يكون بداية اليوم بذكر الله . – التأكيد على الذِّكر بها صباحًا .

٥- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يُعَلِّمُ أَصْحَابَهُ يَقُولُ : " إِذَا أَصْبَحَ (١) أَحَدُكُمْ فَلْيَقُلْ : اللَّهُمَّ بِكَ (٢) أَصْبَحْنَا (٣) ، وَبِكَ أَمْسَيْنَا (٤) ، وَبِكَ نَحْيَا (٥) ، وَبِكَ نَمُوتُ (٦) ، وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٧) ، وَإِذَا أَمْسَى (٨) فَلْيَقُلْ : اللَّهُمَّ بِكَ أَمْسَيْنَا (٩) ، وَبِكَ أَصْبَحْنَا ، وَبِكَ نَحْيَا ، وَبِكَ نَمُوتُ ، وَإِلَيْكَ النُّشُورُ (١٠) "

(صحيح التِّرْمِذِيّ واللفظ له / ٣٣٩١ ، وابن ماجة / ٣٨٦٨ ، وأبو داود / ٥٠٦٨) .

المعنى الإجمالي

رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يُعَلِّمُ أَصْحَابَهُ أذكار الصباح والمساء وما يقال فيها ، وأن المسلم ينبغي عليه أن تكون حياته ومماته كلها لله ، وأننا بعد الموت مبعوثون ، ثم إلى ربنا صائرون ، وعلى ما فعلنا في الدنيا محاسبون .

معاني الكلمات

(١) إِذَا أَصْبَحَ : الصَّباح : الفَجْرُ أو أَوَّلُ النَّهارِ ، وَالصَّبَاحُ أَيْضًا خِلَافُ الْمَسَاءِ قَالَ ابْنُ الْجَوَالِيقِيّ : الصَّبَاحُ عِنْدَ الْعَرَبِ مِنْ نِصْفِ اللَّيْلِ الْآخِرِ إِلَى الزَّوَالِ ، ثُمَّ الْمَسَاءُ إِلَى آخِرِ نِصْفِ اللَّيْلِ الْأَوَّلِ ، هَكَذَا رُوِيَ عَنْ ثَعْلَبٍ .

ويدخل الصباح من طلوع الفجر وينتهي بارتفاع الشمس ضُحًا .

(٢) بِكَ : أي : بقدرتك الباهرة ، قدم المتعلق للاختصاص لإفادة الحصر أي دخلنا في الصباح بقدرتك لا بقدرة غيرك .

(٣) بِكَ أَصْبَحْنَا : والباء للاستعانة أو المصاحبة أو السببية أي بسبب إنعامك علينا بالإيجاد والإمداد ، الْبَاءُ مُتَعَلِّقٌ بِمَحْذُوفٍ وَهُوَ خَبَرُ أَصْبَحْنَا ، وَلَا بُدَّ مِنْ تَقْدِيرِ مُضَافٍ أَيْ : دَخَلْنَا فِي الصَّبَاحِ إِذْ أَنْتَ الَّذِي أَوْجَدْتَنَا وَأَوْجَدْت الصَّبَاحَ وَمِثْلُهُ أَمْسَيْنَا ، أَصْبَحْنَا مُلْتَبِسِينَ بِحِفْظِكَ ، أَوْ مَغْمُورِينَ بِنِعْمَتِكَ ، أَوْ مُشْتَغِلِينَ بِذِكْرِكَ ، أَوْ مُسْتَعِينِينَ بِاسْمِكَ ، أَوْ مَشْمُولِينَ بِتَوْفِيقِكَ ، أَوْ مُتَحَرِّكِينَ بِحَوْلِكَ وَقُوَّتِكَ ، وَمُتَقَلِّبِينَ بِإِرَادَتِكَ وَقُدْرَتِكَ ، ولو شئتَ لجعلتَ الليل سرمدًا إلى يوم القيامة كما قال الله تعالى : (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ)

(القصص / ٧١) فهو تعالى فالق الإصباح وجاعل الليل سكنًا . وعبر بالماضي (أَصْبَحْنَا) تفننًا في التعبير ، والمراد منه المستقبل .

(٤) وَبِكَ أَمْسَيْنَا : بسبب قدرتك وإنعامك دخلنا في المساء كما سلف في الصباح ،

وما قيل في : (بِكَ أَصْبَحْنَا) يقال في : (وَبِكَ أَمْسَيْنَا) .

(٥) وَبِكَ نَحْيَا : أَيْ : بِاسْمِكَ الْمُحْيِي ، وبقدرتك لا بغيرها نحيا الحياة الصغرى وهي القيام من النوم (وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ ...) الآية إلى قوله : (ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ) (الأنعام / ٦٠)

(٦) وَبِكَ نَمُوتُ : أَيْ : بِاسْمِكَ الْمُمِيتِ ، الميتة الصغرى أو يحتمل أن يراد الحياة الكبرى وهي الإيجاد من العدم فإن الله تعالى قد سماه حياة (وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ) (الحج / ٦٦) وبالموت الموت الأكبر وهو الخروج من هذه الدار فإن هذه الحياة الصغرى والموت الأصغر ذكرًا بالموت الأكبر والحياة الكبرى ويحتمل أن يراد الجميع ، وقِيلَ : هُوَ حِكَايَةُ الْحَالِ الْآتِيَةِ بِمَعْنَى : يَسْتَمِرُّ حَالُنَا عَلَى هَذَا فِي جَمِيعِ الْأَوْقَاتِ وَسَائِرِ الْحَالَاتِ ، أَيْ : لَا أَنْفَكُّ عَنْهُ وَلَا أَهْجُرُهُ ، قَالَ النَّوَوِيُّ : مَعْنَاهُ أَنْتَ تُحْيِينِي وَأَنْتَ تُمِيتُنِي .

(٧) وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ : أَيِ : الْمَرْجِعُ فِي الدُّنْيَا وَالْمَآبُ فِي الْعُقْبَى إليك لا إلى غيرك .

(٨) إِذَا أَمْسَى : أَيْ يَدْخُلَ اللَّيْلُ ؛ لِأَنَّ الْإِمْسَاءَ ضِدُّ الْإِصْبَاحِ ، كَمَا أَنَّ الْمَسَاءَ ضِدُّ الصَّبَاحِ عَلَى مَا فِي الْقَامُوسِ وَالصِّحَاحِ . والمَساء بعد الظهر إلى صلاة المغرب وقال بعضهم إلى نصف الليل .

(٩) أَمْسَيْنَا : وقت دخول المساء ، أَيْ : دَخَلْنَا فِي الْمَسَاءِ وَدَخَلَ فِيهِ الْمُلْكُ كَائِنًا لِلَّهِ وَمُخْتَصًّا بِهِ .

(١٠) وَإِلَيْكَ النُّشُورُ : بضمتين أي : الرجوع أَيِ : الْبَعْثُ بَعْدَ الْمَوْتِ وَالتَّفَرُّقُ بَعْدَ الْجَمْعِ ، وَالنُّشُورُ مِنْ نَشَرَ الْمَيِّتَ إِذَا أَحْيَاهُ . أي : بعث الناس من قبورهم وذهابهم للمحشر ومجازاتهم على أعمالهم ، وهذه هي النهاية التي ينتهي إليها الناس ؛ لأنه لا بد من الموت ، ولا بد من البعث بعد الموت وهو النشور ، ثم الحساب والمجازاة على أعمالنا إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر . أي : أن إصباحنا وإمساءنا بقدرتك وبمشيئتك وإرادتك ، فأنت الذي شئت أن تحصل لنا الحياة ثم يحصل لنا الموت ، سواء أكان الموت الذي به مفارقة الحياة مطلقًا ، أم النوم الذي تكون به مفارقة الروح مفارقة نسبية ، فهو يقال له وفاة ، ويقال له موت ، وقد جاء في الحديث : عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ : سَأَلَ رَجُلٌ رَسُولَ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : أَيَنَامُ أَهْلُ الْجَنَّةِ ؟ قَالَ : " النَّوْمُ أَخُو الْمَوْتِ ، وَلَا يَمُوتُ أَهْلُ الْجَنَّةِ "

(البيهقي / السلسلة الصحيحة / ١٠٨٧) .

وَفِيهِ الْإِقْرَارُ بِأَنَّ كُلَّ إِنْعَامٍ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى .

– قلت : (والقائل / عماد) : تنبيه مهم : وقع اختلاف في الروايات في تقديم وتأخير جملة

(وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ) ، (وَإِلَيْكَ النُّشُورُ) فجاءت رواية بذكر (وَإِلَيْكَ النُّشُورُ) مع (وَبِكَ أَمْسَيْنَا) ، وجاءت رواية بذكر (وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ) مع (بِكَ أَصْبَحْنَا) وجاء العكس

وإليكم ما جاء من روايات في النسخ التي بين أيدينا :

– جَاءَ فِي أَبِي دَاوُدَ فِيهِمَا النُّشُورُ

" اللَّهُمَّ بِكَ أَصْبَحْنَا ، وَبِكَ أَمْسَيْنَا ، وَبِكَ نَحْيَا ، وَبِكَ نَمُوتُ ، وَإِلَيْكَ النُّشُورُ " وَإِذَا أَمْسَى قَالَ : " اللَّهُمَّ بِكَ أَمْسَيْنَا ، وَبِكَ نَحْيَا ، وَبِكَ نَمُوتُ ، وَإِلَيْكَ النُّشُورُ " (صحيح أَبِي دَاوُدَ / ٥٠٦٨) .

– وفي التِّرْمِذِيِّ : المصير مع الصباح ، والنشور مع المساء

" إِذَا أَصْبَحَ أَحَدُكُمْ فَلْيَقُلْ : اللَّهُمَّ بِكَ أَصْبَحْنَا ، وَبِكَ أَمْسَيْنَا ، وَبِكَ نَحْيَا وَبِكَ نَمُوتُ وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ، وَإِذَا أَمْسَى فَلْيَقُلْ : اللَّهُمَّ بِكَ أَمْسَيْنَا وَبِكَ أَصْبَحْنَا وَبِكَ نَحْيَا وَبِكَ نَمُوتُ وَإِلَيْكَ النُّشُورُ. (صحيح التِّرْمِذِيِّ / ٣٣٩١)

– ورواية ابن ماجة : فيهما المصير عكس أَبِي دَاوُدَ

" إِذَا أَصْبَحْتُمْ فَقُولُوا : اللَّهُمَّ بِكَ أَصْبَحْنَا ، وَبِكَ أَمْسَيْنَا ، وَبِكَ نَحْيَا ، وَبِكَ نَمُوتُ ، وَإِذَا أَمْسَيْتُمْ فَقُولُوا : اللَّهُمَّ بِكَ أَمْسَيْنَا ، وَبِكَ أَصْبَحْنَا ، وَبِكَ نَحْيَا ، وَبِكَ نَمُوتُ ، وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ " (صحيح ابن ماجة / ٣٨٦٨) .

– وَرِوَايَة اِبْن حِبَّان فِيهَا " وَإِلَيْك الْمصير وَإِلَيْك النشور "

" اللَّهُمَّ بِكَ أَصْبَحْنَا وَبِكَ أَمْسَيْنَا وَبِكَ نَحْيَا وَبِكَ نموت وَإِلَيْك الْمصير وَإِلَيْك النشور " وَإِذا أَمْسَى قَالَ :

" اللَّهُمَّ بك أمسينا وَبِك أَصْبَحْنَا وَبِك نحيا وَبِك نموت " .

– وَرِوَايَة البخاري في الأدب المفرد (١١٩٩/٩١٥) النشور مع الصباح ، والمصير مع المساء .

" كَانَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَصْبَحَ قَالَ : " اللَّهُمَّ بِكَ أَصْبَحْنَا ، وَبِكَ أَمْسَيْنَا ، وَبِكَ نَحْيَا ، وَبِكَ نَمُوتُ ، وَإِلَيْكَ النُّشُورُ " . وَإِذَا أَمْسَى قَالَ : " اللَّهُمَّ بِكَ أَمْسَيْنَا ، وَبِكَ أَصْبَحْنَا ، وَبِكَ نَحْيَا ، وَبِكَ نموت ، وإليك المصير " .

وَفِيهِ مُنَاسَبَةٌ ؛ لِأَنَّ النَّوْمَ أَخُو الْمَوْتِ فَالْإِيقَاظُ مِنْهُ كَالْإِحْيَاءِ بَعْدَ الْإِمَاتَةِ كَمَا نَاسَبَ فِي الْمَسَاءِ ذِكْرُ الْمَصِيرِ ؛ لِأَنَّهُ يَنَامُ فِيهِ وَالنَّوْمُ كَالْمَوْتِ . وَهِيَ أَوْلَى الرِّوَايَات أَنْ تَكُون مَحْفُوظَة ؛ لِأَنَّ الصَّبَاح وَالِانْتِبَاه مِنْ النَّوْم : بِمَنْزِلَةِ النُّشُور وَهُوَ الْحَيَاة بَعْد الْمَوْت . وَالْمَسَاء وَالصَّيْرُورَة إِلَى النَّوْم بِمَنْزِلَةِ الْمَوْت ، وَالْمَصِير إِلَى اللَّه وَلِهَذَا جَعَلَ اللَّه سُبْحَانه فِي النَّوْم الْمَوْت وَالِانْتِبَاه بَعْده دَلِيلًا عَلَى الْبَعْث وَالنُّشُور ؛ لِأَنَّ النَّوْم أَخُو الْمَوْت ، وَالِانْتِبَاه نُشُور وَحَيَاة قَالَ تَعَالَى : (وَمِنْ آيَاته مَنَامكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَار وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْله ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَات لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ) . وَيَدُلّ عَلَيْهِ أَيْضًا مَا رَوَاهُ الْبُخَارِيّ فِي صَحِيحه عَنْ حُذَيْفَة أَنَّ النَّبِيّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا اِسْتَيْقَظَ قَالَ : " الْحَمْد لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَمَا أَمَاتَنَا ، وَإِلَيْهِ النُّشُور " .

ويدل عليه أيضًا ما رواه البخاري في صحيحه عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ كَانَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ قَالَ : " اللَّهُمَّ بِاسْمِكَ أَحْيَا وَأَمُوتُ ، وَإِذَا أَصْبَحَ قَالَ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ " (خ / ٧٣٩٤) .

قال المباركفوري (المتوفى : ١٤١٤هـ) في مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح :

وأفادت رواية أن لفظ (المصير) في الصباح ولفظ (النشور) في المساء وهكذا وقع في نسخ الترمذي الموجودة عندنا وكذا ذكر الشوكاني في تحفة الذاكرين ويظهر من تصحيح المصابيح وجامع الأصول أن في الترمذي (المصير) في الموضعين ، وهكذا رواه البغوي في شرح السنة ، أي : بلفظ : (المصير) في الموضعين قال : ويروى (وإليك النشور)

وجاء في أبي داود فيهما النشور . وفي أبي عوانة ، والأدب المفرد : (النشور) في الصباح و (المصير) في المساء عكس ما في نسخ الترمذي ، ورواه ابن ماجة بذكر المصير في المساء ولم يذكر لفظ النشور مطلقًا ، ومؤدى النشور والمصير واحد وهو الرجوع إلى الله بعد الموت فلا تخالف بين الروايات ولا اعتراض على البغوي والمصنف في إيرادهما الرواية المذكورة .

ما يستفاد من الحديث

(كَانَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يُعَلِّمُ أَصْحَابَهُ يَقُولُ)

– فضلُ رسولِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على الصحابة خاصَّة وعلى الأُمَّة عامَّة .

– أن الأذكار من الأشياء التي تُعَلَّم .

(إِذَا أَصْبَحَ أَحَدُكُمْ فَلْيَقُلْ)

– حرصُ النَّبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على تعليم أصحابه أذكار الصباح والمساء .

– فضل النَّبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وبيان تعدد الوسائل التعليمية وتنوعها مع المتعلمين فأحيانًا التعليم بالقدوة ، وأحيانًا بالترغيب والترهيب ، وأحيانًا بضرب المثل ، وأحيانًا بالأمر كما في هذا الحديث .

– أهمية أذكار الصباح والمساء وأنها مما يُعَلَّم .

(اللَّهُمَّ بِكَ أَصْبَحْنَا ، وَبِكَ أَمْسَيْنَا ، وَبِكَ نَحْيَا ، وَبِكَ نَمُوتُ ، وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ،
وَإِذَا أَمْسَى فَلْيَقُلْ : اللَّهُمَّ بِكَ أَمْسَيْنَا ، وَبِكَ أَصْبَحْنَا ، وَبِكَ نَحْيَا ، وَبِكَ نَمُوتُ ، وَإِلَيْكَ النُّشُورُ)

– الاقرار بِنِعَم الله وفضائلِه وأن العباد محفوظون بحفظه مغمورون بِنِعَمه ...

– التذكير بِنِعَم الله فنوم الإنسان ويقظته بيد الله .

– الانسان لا غنى له طرفة عين عن فضل الله .

– الإنسان يتقلب في نعم الله في الصباح وفي المساء .

– تكرار كلمة (بك) تدل على شدة الاحتياج لله في كل لحظة .

– التبرؤ من الحول والقوة والاعتراف بأن كل شيئ يكون بالله .

– الإكثار من ذكر الموت للاستعداد له .

– التذكير بالنوم الذي هو الموتة الصغرى نتذكر به الموتة الكبرى .

– الإيمان بالبعث والنشور .

– الإيمان بالقيامة .

– حرص النَّبيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على الطاعة .

– مداومة النَّبيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على الأذكار ، دلَّ على المداومة (كان يفعل كذا) .

– استفتاح اليوم بذكر الله ، وختم اليوم بذكر الله .

– فضل وأهمية أذكار الصباح والمساء .

– التأكيد على عبادة الوقت ، وهي أن كل عبادة في وقتها هي الأفضل .

– الحثّ على مداومة الذِّكر .

– فضل المحافظة والمداومة على أذكار المساء والصباح ، وأنها من أسباب الوقاية والفلاح .

– أهمية دوام الذكر مساءً وصباحًا .

٦- عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ عَلِّمْنِي مَا أَقُولُ إِذَا أَصْبَحْتُ [١] وَإِذَا أَمْسَيْتُ [٢] ، فَقَالَ : " يَا أَبَا بَكْرٍ قُلْ : اللَّهُمَّ [٣] فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ [٤] ، عَالِمَ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ [٥] ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ [٦] رَبَّ [٧] كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكَهُ [٨] ، أَعُوذُ [٩] بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي [١٠] ، وَمِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ [١١] وَشِرْكِهِ [١٢] ، وَأَنْ أَقْتَرِفَ [١٣] عَلَى نَفْسِي سُوءًا أَوْ أَجُرَّهُ إِلَى مُسْلِمٍ [١٤] "

(صحيح التِّرْمِذِيّ / ٣٥٢٩ ، واللفظ له ، أبو داود / ٥٠٦٧) .

المعنى الإجمالي

رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يُعَلِّمُ أَبَا بَكْرٍ ، والأمةَ مِن بَعدِه ، أذكارَ الصباح والمساء وما يقال فيها ، ومنها أن الله هو الذي خلق السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ، وهو العالم بكل شيء مما يشاهده الناس ومما هو غائب عنهم ، فالله تعالى عالم به لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء سبحانه وتعالى ، وأنه لَا مَعْبُودَ حقٌ فِي الْوُجُودِ إِلَّا اللَّهُ ، وهو الْمُسْتَحِقُّ لِلْعُبُودِيَّةِ وَالثَّابِتُ الْأُلُوهِيَّةُ فِي تَوْحِيدِ ذَاتِهِ وَتَفْرِيدِ صِفَاتِهِ . وهو مَلِكُ كل شيء أو مالكه وقاهره ، ويعلمنا أن نلجأ ونعتصم بالله من شرور أنفسنا ومن شر الشيطان ووَسْوَسَتِهِ وَإِغْوَائِهِ وَإِضْلَالِهِ ، ومَا يَدْعُو إِلَيْهِ مِنَ الْإِشْرَاكِ بِاللَّهِ ، وأن نكْتَسِبَ سوءًا أو نوقع مسلمًا في سوء .

معاني الكلمات

(١) إِذَا أَصْبَحْتُ : الصَّباح : الفَجْرُ أو أَوَّلُ النَّهارِ ، وَالصَّبَاحُ أَيْضًا خِلَافُ الْمَسَاءِ قَالَ ابْنُ الْجَوَالِيقِيّ : الصَّبَاحُ عِنْدَ الْعَرَبِ مِنْ نِصْفِ اللَّيْلِ الْآخِرِ إِلَى الزَّوَالِ ، ثُمَّ الْمَسَاءُ إِلَى آخِرِ نِصْفِ اللَّيْلِ الْأَوَّلِ ، هَكَذَا رُوِيَ عَنْ ثَعْلَبٍ .
ويدخل الصباح من طلوع الفجر وينتهي بارتفاع الشمس ضُحًا .

(٢) وَإِذَا أَمْسَيْتُ : أَيْ يَدْخُلَ اللَّيْلُ ؛ لِأَنَّ الْإِمْسَاءَ ضِدُّ الْإِصْبَاحِ ، كَمَا أَنَّ الْمَسَاءَ ضِدُّ الصَّبَاحِ عَلَى مَا فِي الْقَامُوسِ وَالصِّحَاحِ . والمَساء بعد الظهر إلى صلاة المغرب وقال بعضهم إلى نصف الليل .

(٣) اللَّهُمَّ : أَيْ : يَا اللَّهُ ، وَالْمِيمُ بَدَلٌ عَنْ حَرْفِ النِّدَاءِ ؛ وَلِذَا لَا يُجْمَعُ بَيْنَهُمَا إِلَّا فِي الشِّعْرِ وَقَالَ أَبُو إِسْحَاق : قَالَ الْخَلِيل وسيبويه وَجَمِيع النحويّين الموثوق بعلمهم : اللهمَّ بِمَعْنى يَا أَلله ، وَأَن الْمِيم المشدّدة عِوَض من (يَا) لأَنهم لم يَجِدوا (يَا) مَعَ هَذِه الْمِيم فِي كلمةٍ ووجَدُوا اسمَ الله مستعَملًا بـ (يَا) إِذا لم تُذكَر الْمِيم فِي آخر الْكَلِمَة فعَلموا أَن الْمِيم فِي آخر الْكَلِمَة بِمَنْزِلَة (يَا) فِي أوّلها والضمة الَّتِي فِي الْهَاء هِيَ ضمة الِاسْم المنادى الْمُفْرد وَالْمِيم مَفْتُوحَة لسكونها وَسُكُون الْمِيم قبلهَا . قَالَ الْأَزْهَرِي : فِيهِ مذهبان للنحويين قَالَ الْفراء أَصله يَا الله أمَنا بِخَير فَكثر اسْتِعْمَالهَا فَقيل اللَّهُمَّ وَتركت الْمِيم مَفْتُوحَة وَقَالَ الْخَلِيل وسيبويه وَسَائِر الْبَصرِيين مَعْنَاهُ يَا الله وَالْمِيم الْمُشَدّدَة عوض عَن يَاء النداء وَالْمِيم الْمَفْتُوحَة لسكونها وَسُكُون الْمِيم قبلهَا .

وَأنْشد قُطربٌ :

إِني إِذا مَا مُعْظَمٌ أَلَمّا ... أَقولُ : يَا اللَّهُمَّ يَا اللَّهُمّا

وقيل : إِنِّي إِذَا مَا حَدَثٌ أَلَمَّا ... دَعَوْت : يَا اللَّهُمَّ يَا اللَّهُمَّا

(٤) فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ : أَيْ مُبْتَدِعَهُمَا وَمُخْتَرِعَهُمَا وخالقهما وموجدهما على غير مثال سبق ؛ وفَطَرَهُ : أَنْشَأَهُ ، وَاللَّهُ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، أَيْ خَالَقَهُمَا ، وَمعنى الفاطر من الْفطر وَهُوَ الِابْتِدَاء والاختراع ، قَالَه الْجَوْهَرِي .

ثمَّ قَالَ ابْن عَبَّاس : كنت لَا أَدْرِي مَا معنى (فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) حَتَّى أَتَانِي أَعْرَابِيَّانِ يختصمان فِي بِئْر فَقَالَ أَحدهمَا : أَنا فطرتها ، أَي : أَنا ابْتَدَأتهَا .

(٥) عَالِمَ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ : أي : العالم بكل شيء مما يشاهده الناس ومما هو غائب عنهم ، فالله تعالى عالم به لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء سبحانه وتعالى .

والْغَيْبُ مَا غَابَ عَنِ النَّاسِ ، وَالشَّهَادَةُ خِلَافُهُ ، و" الشهادة " : ما شاهدناه ؛ أي : علمناه بمشاهدتنا ، أي : ما يغيب عنكم ، وما تشهدونه . والغيب : ما لا يقع تحت الحواس ، ولا يقتضيه بدائه العقول ، وإنما يعلم بخبر الأنبياء عليهم السلام ، وقيل : الغيب السر ، والشهادة العلانية ، وقيل : الغيب الآخرة ، والشهادة الدنيا ، وقيل : عالم الغيب والشهادة ؛ أي : عالم ما كان وما يكون . عِلْمه مُحِيط بِكُلِّ شَيْء يَعْلَم الْغَيْب وَهُوَ عَلَى الْعَرْش .

(٦) لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ : هي كلمة التوحيد ، ولأهميتها أقول : (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) : أَيْ : لَا مَعْبُودَ حقٌ فِي الْوُجُودِ إِلَّا اللَّهُ الْوَاجِبُ الْوُجُودِ لِذَاتِهِ أَيْ : الْمُسْتَحِقُّ لِلْعُبُودِيَّةِ وَالثَّابِتُ الْأُلُوهِيَّةُ فِي تَوْحِيدِ ذَاتِهِ وَتَفْرِيدِ صِفَاتِهِ .

– قلت : (والقائل / عماد) : تنبيه مهم : اشتهرت عبارة (لَا مَعْبُودَ بِحَقٍ فِي الْوُجُودِ إِلَّا اللَّهُ) والعبارة التي ذكرتها (لَا مَعْبُودَ حقٌ فِي الْوُجُودِ إِلَّا اللَّهُ) فهل يوجد فرق بين العبارتين ؟ قال الشيخ العثيمين : الفرق بينهما أنك إذا قلت " لا معبود حق إلا الله " صار هذا أوفق للقرآن ، (ذلك بأن الله هو الحق) (الحج / ٦٢) ، وأنه لا يحتاج إلى تقدير ، لأنك إذا قلت " لا معبود بحق " فالجار والمجرور خبر متعلق بمحذوف ... تقديره

" لا معبود كائن بحق " ، أما إذا قلت " لا معبود حق " فإن الخبر هو الموجود ولا نحتاج إلى تقدير .

(والإله) : هو المألوه ، لا إله ، يعني : لا مألوه ، ولا أحد يستحق أن يؤله ، أي : تألهه القلوب وتوده وتحبه وتعظمه وتقر له بالعبودية ، غير الله تعالى .

(إِلَّا اللَّهُ) : اسم الجلالة : هُوَ اسْمٌ لَمْ يُسَمَّ بِهِ غَيْرُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ؛ والله : اسم عَلَم على الإله المعبود بحق ، و(الله) معناه : ذو الألوهية ، والألوهية معناها : العبادة ، يقال : أَلَهَ يألَهُ : بمعنى : عبَد يعبُد ، فالألوهية معناها : العبادة ، فـ (اللهِ) معناه : ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين ، وقد تقدَّم الكلام عنه في الحديث الأول .

(٧) رَبَّ : فائدة في معانى الرب ، ما معانى الرب ؟

– لها أكثر من معنى ، منها : (التربية) فيقال : رَبَّى فلانٌ ابنَه ، إذا صنع معه التربية الحسنة .

ومعنى الرب : يأتي على عدة معاني منها :

١– السيّد والمولى مثاله : قال يوسف عليه السّلام : (اُذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ) (يوسف / ٤٢) ، وقال : (اِرْجِعْ إِلى رَبِّكَ) (يوسف / ٥٠) أى سيدك .

٢– الصاحب والمالك : مثاله : (رب الدار) أي صاحب أو مالك الدار .

٣– القائد والذي يسوس الناس : مثاله : قال صفوان بن أمية لأبي سُفيان بن حرب يوم حُنين :

(لأن يربَّني رجلٌ من قُرَيش أحبُّ إليَّ أن يَربَّني رجلٌ من هَوَازِن)

٤- المُصلِح أو المُرَبِي : مثاله : (أَلَك نِعْمَةٌ ترُبُّها) أي تَحْفَظُها وتُراعيها وتُرَبّيها كما يُرَبّي الرجل ولده .
يقال : رَبَّ فُلانٌ ولدَه يَرُبُّهُ رَبًّا وربَّتَه وربَّاه كلُّه بمعنى واحِد ، وكذلك (الربانيون) قيل سموا بذلك لأنهم يربون الناس بصغار العلم قبل كباره وفيه إصلاحهم ، وقيل لما مات ابن عباس – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما – قال محمد ابن الحنفية : " مات رباني هذه الأمة " ، وإذا أطلق الرب فالمراد به هو الله تعالى ، ولا يطلق على غيره إلا مقيدًا : فيقال : رب الدار .

(٨) وَمَلِيكَهُ : فَعِيلٌ بِمَعْنَى فَاعِلٍ لِلْمُبَالَغَةِ كَالْقَدِيرِ بِمَعْنَى الْقَادِرِ ، (ومليكه) ، أي وملك كل شيء أو مالكه وقاهره .
والمَلِيك : اسم من أسماء الله ، ومعناه :
لغة : احتواء الشئ والقدرة على الاستبداد به .
معناه في حق الله : أصل الملك : الربط والشد ويرجع حاصله إلى القدرة التامة الكاملة .
فالملك : هو النافذ الأمر في ملكه ، وهو التام الملك الجامع لأصناف المملوكات .
قال – تعالى – : (فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ) القمر/٥٥) .

(٩) أَعُوذُ : الْعَوْذُ : اللَّجْأُ إِلَى شَيْءٍ يَقِي مَنْ يَلْجَأُ إِلَيْهِ مَا يَخَافُهُ ، يُقَالُ : عَاذَ بِفُلَانٍ ، وَعَاذَ بِحِصْنٍ ، وَيُقَالُ : اسْتَعَاذَ ، إِذَا سَأَلَ غَيْرَهُ أَنْ يُعِيذَهُ قَالَ تَعَالَى : (فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) (الْأَعْرَاف / ٢٠٠) . وَعَاذَ مِنْ كَذَا ، إِذَا صَارَ إِلَى مَا يُعِيذُهُ مِنْهُ ، قَالَ تَعَالَى : (فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ) (النَّحْل / ٩٨) .

(١٠) مِنْ شَرِّ نَفْسِي : أي من ظهور السيئات الباطنية التي جُبَلت النفس عليها ، وقيل : أي من شر هواها المخالف للهدى قال تعالى : (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ) (القصص / ٥٠) ، وقيل : الاستعاذة منها لكونها أسرع إجابة إلى داعي الشر من الهوى والشيطان . وحاصله مزيد الاعتناء بتطهير النفس فقدم إشارة لكمال الصديق أن يفعله ليكون وسيلة إلى كل كمال يترقى إليه بعد ، إذ الترقي يتفاوت بحسب تفاوت مراتب ذلك التطهير .

(١١) وَشَرِّ الشَّيْطَانِ : أَيْ وَسْوَسَتِهِ وَإِغْوَائِهِ وَإِضْلَالِهِ ، ثم يحتمل أن يكون المراد جنس الشياطين أو رئيسهم وهو إبليس .

(١٢) وَشِرْكِهِ : بِكَسْرِ الشِّينِ وَسُكُونِ الرَّاءِ أَيْ مَا يَدْعُو إِلَيْهِ مِنَ الْإِشْرَاكِ بِاللَّهِ .

(١٣) وَأَنْ أَقْتَرِفَ : أَيْ أَكْتَسِبَ وَأَعْمَلَ .

(١٤) أَوْ أَجُرَّهُ إِلَى مُسْلِمٍ : مِنَ الْجَرِّ أي : الجذب ، وَالضَّمِيرُ المنصوب راجع إلى قوله سوء .

ما يستفاد من الحديث

(يَا رَسُولَ اللهِ عَلِّمْنِي مَا أَقُولُ إِذَا أَصْبَحْتُ وَإِذَا أَمْسَيْتُ)

– فضائل أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – مشهورة ، ومنها ما جاء في القرآن فهو الصاحب في الغار .

– مع كثرة فضائله لم يمنعه ذلك أن يتعلم .

– تواضع أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – إذ قال : (عَلِّمْنِي) .

– طلب العلم مِن أهله الموثوق بعلمهم وفضلهم ، استجابةً لأمر الله

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) (النحل / ٤٣) .

– فضل أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقَ والصحابة – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم – وحرصهم على أن تكون كل عباداتهم بِنَصّ لا من عند أنفسهم حتى الأدعية والأذكار .

– فضل أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – وحرصه على أن يبدأ يومه وينهيه بطاعة وذِكر .

– حرص النَّبيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على الطاعة .

– استفتاح اليوم بذكر الله ، وختم اليوم بذكر الله .

– فضل وأهمية أذكار الصباح والمساء .

– التأكيد على عبادة الوقت ، وهي أن كل عبادة في وقتها هي الأفضل .

– الحثّ على مداومة الذِّكر .

– فضل المحافظة والمداومة على أذكار المساء والصباح ، وأنها من أسباب الوقاية والفلاح .

– أهمية دوام الذكر مساءً وصباحًا .

(يَا أَبَا بَكْرٍ قُلْ)

– مِن أدب المُعَلِّم مع المُتَعَلِّم الترفق به ، ومناداته بأحب الأسماء إليه .

– سُنَّة التكني وأهمية التكني ، وأنه من الوقار .

– فضل النَّبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وبيان تعدد الوسائل التعليمية ، وأن التعليم قد يكون بالأمر .

(اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، عَالِمَ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ)

– من آداب الدعاء : البدء بالثناء قبل الدعاء .

– الإقرار بأن الله هو الذي خلق السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وهو مُبْتَدِعَهُمَا وَمُخْتَرِعَهُمَا وخالقهما وموجدهما على غير مثال سبق .

– الإقرار بأن الله هو العالم بكل شيء مما يشاهده الناس ومما هو غائب عنهم ، فالله تعالى عالم به لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء سبحانه وتعالى .

(لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ رَبَّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكَهُ)

– فضل كلمة التوحيد (لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ) .

– مشروعية التوسل إلى الله ببعض أسمائه الحسنى مثل : (الإِلَهَ ، الرَبَّ ، المَلِيكَ) .

– فضل أسماء الله الحسنى وخاصَّةً هذه الأسماء (الإِلَهَ ، الرَبَّ ، المَلِيكَ) .

– التوسل إلى الله بكلمة التوحيد وبالإيمان بها .

– التوسل بأسماء الله الحسنى والثناء عليه بها سبب في إجابة الدعاء .

– الإقرار بأن الله لَا مَعْبُودَ حقٌ فِي الْوُجُودِ إِلَّا اللَّهُ ، وهو الْمُسْتَحِقُّ لِلْعُبُودِيَّةِ وَالثَّابِتُ الْأُلُوهِيَّةُ فِي تَوْحِيدِ ذَاتِهِ وَتَفْرِيدِ صِفَاتِهِ .

– الإقرار بأن الله هو مَلِكُ كل شيء أو مالكه وقاهره .

– الإيمان بأن الله هو خالق ومَلِكُ ومالك كل شيء أو وقاهره والمتصرّف فيه ، يعطي العبد قوة ويقين بأنه لا يخرج شيئ عن إرادة الله وحكمه وتدبيره .

(أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي)

– التُّحصن والالتجاء والاعتصام بالله وحده .

– أن النفس فيها شرّ ، ومشروعية التعوُّذ من شر النفس .

– بعض الشرور مبدؤها النفس .

– بدأ بذكر شر النفس قبل شر الشيطان للتنبيه على أن خطر النفس أشد من خطر الشيطان .

(وَمِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ وَشِرْكِهِ)

– مشروعية التعوذ من شر الشيطان ووَسْوَسَتِهِ وَإِغْوَائِهِ وَإِضْلَالِهِ ، ومَا يَدْعُو إِلَيْهِ مِنَ الْإِشْرَاكِ بِاللَّهِ .

– من أكبر ما يريده الشيطان إيقاع بني آدم في الشرك .

– بعض الشرور مبدؤها الشيطان .

(وَأَنْ أَقْتَرِفَ عَلَى نَفْسِي سُوءًا أَوْ أَجُرَّهُ إِلَى مُسْلِمٍ)

– التعوذ من أن نكْتَسِبَ سوءًا أو نُوقِع مسلمًا في سوء .

– حرص المسلم على أخيه المسلم من أن يُصيبَه أذىً كحرصه على نفسه مصداقًا لقول النَّبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – " لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ " (خ / ١٣ ، م / ٤٥) .

٧- عَنْ ابْنِ عُمَرَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما – قَالَ : لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يَدَعُ (١) (٢) هَؤُلَاءِ الدَّعَوَاتِ حِينَ يُمْسِي (٣) ، وَحِينَ يُصْبِحُ (٤) : " اللَّهُمَّ (٥) إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَفْوَ (٦) وَالْعَافِيَةَ (٧) فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ (٨) ، اللَّهُمَّ أَسْأَلُكَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي دِينِي وَدُنْيَايَ (٩) وَأَهْلِي وَمَالِي (١٠) ، اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِي (١١) ، وَآمِنْ رَوْعَاتِي (١٢) ، وَاحْفَظْنِي (١٣) مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ (١٤) ، وَمِنْ خَلْفِي (١٥) ، وَعَنْ يَمِينِي ، وَعَنْ شِمَالِي (١٦) ، وَمِنْ فَوْقِي (١٧) ، وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ أُغْتَالَ (١٨) مِنْ تَحْتِي (١٩) "

(صحيح ابن ماجه / ٣٨٧١ واللفظ له ، صحيح أبي داود / ٥٠٧٤) .

المعنى الإجمالي

كان رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يداوم على دعوات وأذكار يقولهن صباحًا ومساءً ، ومنها هذا الدعاء والذي يشتمل على سؤال الله أن يتجَاوَزَ عَنِ الذُّنُوبِ ويمحوها ، وأن يدفع الله عن الْعَبْدِ الْأَسْقَامَ وَالْبَلَايَا ، فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ويُسلِّمه مِنَ الْآفَاتِ الدِّينِيَّةِ وَالْحَادِثَاتِ الدُّنْيَوِيَّةِ بِتَحَمُّلِهَا وَالصَّبْرِ عَلَيْهَا وَالرِّضَا بِقَضَائِهَا ، أوالسلامة من كل شر في الدنيا والآخرة ، وكذا السلامة من كل ما يلحق أهله من البلايا والأسقام ... وأن يدفع الله عن الْعَبْدِ كل ما يضر ماله من الغرق والحرق والسرقة ... وغير ذلك من أنواع العوارض المؤذية ، وأن يستر الله عُيُوبه ، وأن يعطيه الأمن ويزيل عنه الخوف ، وأن يدفع عنه الْبَلَايا والشرور من كل الجهات .

معاني الكلمات

(١) لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يَدَعُ هَؤُلَاءِ الدَّعَوَاتِ : أي : لا يتأتى منه ذلك ، ولا يليق بحاله أن يدعها .

(٢) يَدَعُ : أَيْ : يَتْرُكُ .

– قلت : (والقائل / عماد) : فائدة لغوية في (يدع) :

كلمة (يدع) فعل مضارع ، والأمر منه (دَعْ) فما الفعل الماضي منه ؟

ج : دَعْهُ ، أي : اتْرُكْهُ ، وأصْلُه : ودَعَ يَدَعُ ، كوَضَعَ يَضَعُ ، كما في الصِّحاحِ ومنْهُ الحديثُ : " دَعْ ما يُرِيبُكَ إلى ما لا يَرِيبُكَ " ، وقالَ عمرو بنُ مَعْدِ يَكْرِبَ : (إذا لمْ تَسْتَطِعْ أمْرًا فدَعْهُ وجاوِزْهُ إلى ما تَسْتَطِيعْ) .

أمَّا الفعل الماضي ، قالوا : أُمِيتَ ماضِيهِ ، لا يُقَالُ : وَدَعَهُ وإنَّمَا يُقَالُ في ماضِيهِ : تَرَكَهُ كما في الصِّحاحِ وزادَ : ولا وادِعٌ ، ولكن تارِكٌ ، ورُبَّمَا جاءَ في ضَرُورَةِ الشِّعْرِ ودَعَهُ ، وفي لسانِ العرب : وَدَعَهُ يَدَعُهُ : تَرَكَه ، وهي شاذَّةٌ ، وكلامُ العَرَبِ : دَعْنِي وذَرْنِي ، ويَدَعُ ويَذَرُ ، ولا يَقُولونَ : وَدَعتُك ، ولا وَذَرْتُكَ ، اسْتَغْنَوا عنْهَا بتَرْكْتُكَ ، والمَصْدَرُ فيهما : تَرْكًا ، ولا يُقَالُ : وَدْعًا ولا وَذْرًا ، وحكاهُمَا بَعْضُهُم ، ولا وادِعٌ ، وقدْ جاءَ في بَيْت أنْشَدَهُ الفارِسِيُّ في البَصْرِيّاتِ :

(فأيُّهُما ما أتْبَعَنَّ فإنَّني حَزِينٌ على تَرْكِ الّذِي أنا وادِعُ)

وجاء في صحيح مسلم / ٨٦٥ : " لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ عَنْ وَدْعِهِمُ الْجُمُعَاتِ أَوْ لَيَخْتِمَنَّ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ثُمَّ لَيَكُونُنَّ

مِنَ الْغَافِلِينَ " . قال في تاج العروس ٢٢ / ٣٠٦ : قال شَيْخُنَا عِنْدَ قَوْلِهِ : وقدْ أُمِيتَ ماضِيهِ ، قلتُ : هي عِبَارَةُ أئِمَّةِ الصَّرْفِ قاطِبَةً ، وأكْثَرُ أهْلِ اللُّغَةِ ، ويُنَافِيه ما يَأْتِي بأثَرِهِ منْ وُقُوعِه في الشِّعْرِ ، ووُقُوعِ القَراءَةِ ، فإذا ثَبَتَ وُرُودُه ولو قَلِيلًا فكَيْفَ يُدَّعَى فيهِ الإماتَة قلت : وهذا بعَيْنِه نَصُّ اللَّيثِ ، فإنّه قالَ : وزَعَمَتِ النَّحْوِيَّةُ أنَّ العَرَبَ أماتُوا مَصْدَرَ يَدَعُ ويَذَرُ ، واسْتَغْنَوا عنْهُ بتَرْكٍ ، والنَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أفْصَحُ العَرَبِ ، وقد رُوِيَتْ عَنْهُ هذهِ الكَلِمَةُ ، قالَ ابنُ الأثِيرِ : وإنَّمَا يُحْمَلُ قَوْلُهُم على قِلَّةِ استِعْمَالِهِ ، فهُوَ شاذٌّ في الاسْتِعْمَالِ ، صَحِيحٌ في القِيَاسِ ، وقد جاءَ في غَيْرِ حديثٍ ، حتى قُرِئَ بهِ قولُه تعالى : ما وَدَّعَكَ وهذا غايَةُ ما فَتَحَ السَّمِيعُ العَلِيمُ ، فتَبَصَّرْ وكُنْ منَ الشّاكِرِينَ .

قلت : (والقائل عماد) : كيف يُحكم على الماضي بأنهم أماتوه ، وقد جاء على لسان خير البشر – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أفْصَح العَرَبِ ، إذ قال : " أَيْ عَائِشَةُ إِنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْ تَرَكَهُ النَّاسُ ، أَوْ وَدَعَهُ النَّاسُ – اتِّقَاءَ فُحْشِهِ " (خ / ٦٠٥٤ واللفظ له ، م / ٢٥٩١) ، إلّا أن يكون المقصود من قول النحاة : " أماتوه " : أي : لم يكثروا استعماله .

(٣) حِينَ يُمْسِي : أَيْ يَدْخُلَ اللَّيْلُ ؛ لِأَنَّ الْإِمْسَاءَ ضِدُّ الْإِصْبَاحِ ، كَمَا أَنَّ الْمَسَاءَ ضِدُّ الصَّبَاحِ عَلَى مَا فِي الْقَامُوسِ وَالصِّحَاحِ . والمَساء بعد الظهر إلى صلاة المغرب وقال بعضهم إلى نصف الليل .

(٤) وَحِينَ يُصْبِحُ : الصَّباح : الفَجْرُ أو أوَّلُ النَّهارِ ، وَالصَّبَاحُ أَيْضًا خِلَافُ الْمَسَاءِ قَالَ ابْنُ الْجَوَالِيقِيّ : الصَّبَاحُ عِنْدَ الْعَرَبِ مِنْ نِصْفِ اللَّيْلِ الْآخِرِ إلَى الزَّوَالِ ، ثُمَّ الْمَسَاءُ إلَى آخِرِ نِصْفِ اللَّيْلِ الْأَوَّلِ ، هَكَذَا رُوِيَ عَنْ ثَعْلَبٍ .
ويدخل الصباح من طلوع الفجر وينتهي بارتفاع الشمس ضُحًا .

(٥) اللَّهُمَّ : تقدَّم في الحديث قبله .

(٦) إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَفْو : أَي : التَّجَاوُزَ عَنِ الذُّنُوبِ ومحوها .

(٧) وَالْعَافِيَةَ : أَيِ : السَّلَامَةَ مِنَ الْعُيُوبِ ، وقِيلَ : دِفَاعَ اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الْعَبْدِ الْأَسْقَامَ وَالْبَلَايَا ، وَهِيَ مَصْدَرٌ جَاءَ عَلَى فَاعِلَةٍ ، وَكَأَنَّهُ أَرَادَ سَيِّئَ الْأَسْقَامِ كَالْبَرَصِ وَالْجُنُونِ وَالْجُذَامِ .

(٨) فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ : أَي : السَّلَامَةَ مِنَ الْآفَاتِ الدِّينِيَّةِ وَالْحَادِثَاتِ الدُّنْيَوِيَّةِ بِتَحَمُّلِهَا وَالصَّبْرِ عَلَيْهَا وَالرِّضَا بِقَضَائِهَا ، أو يعني : السلامة من كل شر في الدنيا والآخرة ، وسؤال العافية في الدنيا والآخرة .
– والسلامة من كل شر هذا من الأدعية الجامعة – .

(٩) فِي دِينِي وَدُنْيَايَ : أَيْ : فِي أُمُورِهِمَا . أما سؤال العافية في الدين ؛ فهي : دفاع الله كل ما يشين الدين ويضره ، وأما في الدنيا ؛ فهي : دفاع الله كل ما يضر دنياه .

(١٠) وَأَهْلِي وَمَالِي : أَيْ : فِي حَقِّهِمَا ، وأما في الأهل ؛ فهي : دفاع الله كل ما يلحق أهله من البلايا والأسقام ... وغير ذلك ، وأما في المال ؛ فهي : دفاع الله كل ما يضر ماله من الغرق والحرق والسرقة ... وغير ذلك من أنواع العوارض المؤذية .

(١١) اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِي : أَيْ : عُيُوبِي ، و(عورات) ساكنة الواو ، جمع عورة ، وهي سوءة الإنسان ، قَالَ الطِّيبِيُّ : الْعَوْرَةُ مَا يُسْتَحْيَا مِنْهُ وَيَسُوءُ صَاحِبُهُ أَنْ يُرَى ذلك منه ؛ والعورة من الرجل ما بين سُرَّتِه إلى ركبتِه ، ومن الحُرَّة جميع بدنها إلا الوجه والكفين والأفضل تغطيتهما ، وقيل : جميع بدنها دون استثناء .

(١٢) وَآمِنْ رَوْعَاتِي : (آمِنْ) أمر من الأمان بمعنى إزالة الخوف وإعطاء الأمن ، ومنه قوله تعالى (وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ) (قريش / ٤) ، (رَوْعَاتِي) بفتح الراء وسكون الواو ، أَيْ : مَخُوفَاتِي فِي جُمْلَةِ حَالَاتِي ، وَإِيرَادُهُمَا لِصِيغَةِ الْجَمْعِ فِي هَذِهِ الرِّوَايَةِ إِشَارَةٌ إِلَى كَثْرَتِهَا ، والروعات جمع روعة ، وَالرَّوْعَةُ الْفَزْعَةُ ، وحاصل المعنى : اجعل خوفي أمنًا وأبدله به ، وقال السِّنْدِي معنى (آمن روعاتي) ، أي ادفع عني خوفًا يقلقني ويزعجني ، وكأن التقدير وآمني من روعاتي على قياس (وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ) .

(١٣) وَاحْفَظْنِي : أَي : ادْفَعِ الْبَلَاءَ عَنِّي .

(١٤) مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ : أَيْ : أَمَامِي .

(١٥) وَمِنْ خَلْفِي : أَيْ : وَرَائِي .

(١٦) وَعَنْ يَمِينِي ، وَعَنْ شِمَالِي :

– (إشكال والردّ عليه) : " وَاحْفَظْنِي مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ ، وَمِنْ خَلْفِي ، وَعَنْ يَمِينِي ، وَعَنْ شِمَالِي " فإن قيل : لماذا عُدِّيَ الْفِعْلُ في (مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ ، وَمِنْ خَلْفِي) بـ (مِنْ) ثم عُدِّيَ في (وَعَنْ يَمِينِي ، وَعَنْ شِمَالِي) بـ (عَنْ) ؟

قَالَ الْبَيْضَاوِيُّ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى : (ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ) (الأعراف / ١٧) : إِنَّمَا عُدِّيَ الْفِعْلُ إِلَى الْأَوَّلَيْنِ بِحَرْفِ الِابْتِدَاءِ لِأَنَّهُ مِنْهُمَا مُتَوَجِّهٌ إِلَيْهِمْ ، وَإِلَى الْأَخِيرَيْنِ بِحَرْفِ الْمُجَاوَزَةِ فَإِنَّ الْآتِيَ مِنْهُمَا كَالْمُنْحَرِفِ عَنْهُمُ الْمَارِّ عَلَى عُرْضِهِمْ ، نَظِيرُهُ قَوْلُهُ جَلَسْتُ عَنْ يَمِينِهِ .

(١٧) وَمِنْ فَوْقِي : أي ادفع عني البلاء من الجهات الست . لأن كل بلية تصل الإنسان إنما تصله من إحداهن .

(١٨) وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ أُغْتَالَ : بِصِيغَةِ المبني لما لم يُسَم فاعله (المجهول) أَيْ : أُوخَذَ بَغْتَةً وَأَهْلِكَ غَفْلَةً ، والأصل في الاغتيال أن يؤتي المرء من حيث لا يشعر وأن يُدهَى بمكروه لم يرتقبه . قال في القاموس : غاله أهلكه كاغتاله وأخذه من حيث لم يدر ، وفي رواية أبي داود : " وَأَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي " .

وقيلَ : الِاغْتِيَالُ هُوَ أَنْ يُخْدَعَ وَيُقْتَلَ فِي مَوْضِعٍ لَا يَرَاهُ فِيهِ أَحَدٌ .

(١٩) مِنْ تَحْتِي : (قَالَ وَكِيعٌ) أَحَدُ رُوَاةِ الْحَدِيثِ (يَعْنِي الْخَسْفَ) أَيْ يُرِيدُ النَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بِالِاغْتِيَالِ مِنَ الْجِهَةِ التَّحْتَانِيَّةِ الْخَسْفَ ، فِي الْقَامُوسِ خَسَفَ اللَّهُ بِفُلَانٍ الْأَرْضَ : غَيَّبَهُ فِيهَا ، من خسف الله بفلان أي غَيَّبَتْه الأرض فيها .

قَالَ الطِّيبِيُّ : عَمَّ الْجِهَاتِ لِأَنَّ الْآفَاتِ مِنْهَا ، وَبَالَغَ فِي جِهَةِ السُّفْلِ لِرَدَاءَةِ الْآفَةِ .

ما يستفاد من الحديث

(عَنْ ابْنِ عُمَرَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما – قَالَ : لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يَدَعُ)

– فضل الصحابة عامَّة ، وابْنِ عُمَرَ خاصَّة – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم – في أنهم نقلوا إلينا الدين ، وأقوال وأفعال رسول رب العالمين – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – .

– فضل ابْنِ عُمَرَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما – وشدة متابعته للنبي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، فهو يعرف ما كان يفعله دائمًا .

– فضل هذا الدعاء الجامع ، إذ لولا فضله لما داوم عليه حِينَ يُمْسِي ، وَحِينَ يُصْبِحُ .

– مشروعية الإلحاح في الدعاء وتكراره صباحًا ومساءًا .

– رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مع علو منزلته لَمْ يَكُنْ يَدَعُ هَؤُلَاءِ الدَّعَوَاتِ لحرصه وشدة إهتمامه ، فنحن أولى بهذا الاهتمام لإدراك فضله .

(هَؤُلَاءِ الدَّعَوَاتِ حِينَ يُمْسِي)

– ختم اليوم بذكر الله .

– فضل وأهمية أذكار المساء .

– حرص النَّبيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على الطاعة .

– مداومة النَّبيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على الأذكار .

– التأكيد على عبادة الوقت ، وهي أن كل عبادة في وقتها هي الأفضل .

– الحثّ على مداومة الذِّكر .

– أهمية أن يكون ختام اليوم بذكر الله .

– فضل المحافظة والمداومة على أذكار المساء والصباح ، وأنها من أسباب الوقاية والفلاح .

(وَحِينَ يُصْبِحُ)

– استفتاح اليوم بذكر الله .

– فضل وأهمية أذكار الصباح .

– حرص النَّبيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على الطاعة .

– مداومة النَّبيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على الأذكار .

– التأكيد على عبادة الوقت ، وهي أن كل عبادة في وقتها هي الأفضل .

– الحثّ على مداومة الذِّكر .

– أهمية أن يكون بداية اليوم بذكر الله .

– التأكيد على الذِّكر بها صباحًا .

(اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ)

– مشروعية الدعاء بـ (اللَّهُمَّ) .

– مشروعية البدء بالدعاء من غير أن يتقدَّمه الثناء على الله ، أو الصلاة على النبي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – .

– أهمية سؤال الله العفو والعافية .

– الاقرار لله بأنه هو الذي يملك العفو والعافية .

– التبرؤ من الحول والقوة للمخلوقين إلا من الله رب العالمين .

– طلب الوقاية من كل أمر يضر العبد في دنياه من مصيبةٍ أو بلاء أو ضراء أو نحو ذلك .

– طلب الوقاية من أهوال الآخرة وشدائدها ، وما فيها من أنواع العقوبات .

(اللَّهُمَّ أَسْأَلُكَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي دِينِي وَدُنْيَايَ)

– طلب الوقاية من كل أمر يشين الدِّين أو يُخِلّ به .

– طلب الوقاية من كل أمر يضر بالدنيا .

(وَأَهْلِي وَمَالِي)

– مشروعية الدعاء بحفظ الأهل .

– مشروعية الدعاء بحفظ المال مما يتلفه مِن غَرَق أو حرق أو سرقة أو نحو ذلك .

(اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِي)

– طلب حفظ انكشاف العورة ، والوقاية من كل خلل وعيب وتقصير وكل ما يسوء .

– طلب ستر القبيح وستر الذنوب والزلات .

(وَآمِنْ رَوْعَاتِي)

– سؤال الله أن يُجَنِّبَه كل ما يُخِيفَه ويُحزِنه ويُقْلِقَه .

– طلب الأمن والأمان .

(وَاحْفَظْنِي مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ ، وَمِنْ خَلْفِي ، وَعَنْ يَمِينِي ، وَعَنْ شِمَالِي ، وَمِنْ فَوْقِي ، وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي)

– سؤال الله الحفظ من المهالك والشرور التي تعرض للإنسان من الجهات الست .

– هذا دعاء جامع لخيري الدنيا والآخرة .

٨- عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِفَاطِمَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - :
" مَا يَمْنَعُكِ أَنْ تَسْمَعِي مَا أُوصِيكِ (١) بِهِ ، أَنْ تَقُولِي إِذَا أَصْبَحْتِ (٢) وَإِذَا أَمْسَيْتِ (٣) : يَا حَيُّ (٤) يَا قَيُّومُ (٥) بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ (٦) ، أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ (٧) ، وَلاَ تَكِلْنِي (٨) إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ (٩) "
(أخرجه النَّسائِيُّ في السنن الكبرى واللفظ له ، والحَاكِمُ ، السلسلة الصحيحة / ٢٢٧) .

المعنى الإجمالي

النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يوصي فَاطِمَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - أن تقول إِذَا أَصْبَحَت وَإِذَا أَمْسَيَت هذا الدعاء ، والذي يبدأ بالثناء على الله بما هو أهله ، وذلك باسمين من أسماء الله الحسنى وفيهما صفة الْحَيَاة المتضمنة لجَمِيع صِفَات الْكَمَال مستلزمة لها وَصفَة القيومية المتضمنة لجَمِيع صِفَات الْأَفْعَال ، ثم فيه سؤال الله أن يُصلح الحال والأمر ، ولا يُترك إلى نفسه شيئًا ولو قليلًا ، حتى ولوكان مقدار طرفة عين .

معاني الكلمات

(١) مَا أُوصِيكِ : أَوْصَى الرَّجلَ ووَصَّاه : أي : عَهِدَ إليه ، والوصية : هي العهد إلى الشخص بأمر مهم ،
قال الأزهري : الإيصاء من الوصية وهي مصدر وصيت الشيء بكذا وصلته إليه ، فالمعنى : أوصل إليك ما ينفعك دينًا ودنيا . والوصية مصدرها الشفقة والرحمة وحب الخير .

(٢) إِذَا أَصْبَحْتِ : تقدَّم .

(٣) وَإِذَا أَمْسَيْتِ : تقدَّم .

(٤) يَا حَيُّ : هذا اسم من أسماء الله الحسنى ، ومعناه : لغة : الحياة ضد الموت ، والحي ضد الميت .
معناه في حق الله : الذي لم يزل موجودًا وبالحياة موصوفًا ، لم تحدث له الحياة بعد الموت . ولا يعترضه الموت بعد الحياة .
قال تعالى : (اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ) (البقرة /٢٥٦) .

(٥) يَا قَيُّومُ : هذا اسم من أسماء الله الحسنى ، ومعناه : لغة : من قام يقوم الذي بمعنى : دام ، لا القيام المعروف الذي هو نقيض الجلوس ، ومنه قوله تعالى : (إلا ما دمت عليه قائمًا) أي دائمًا .
معناه في حق الله :
١ - القائم الدائم بلا زوال ، من القيام وهو نعت المبالغة في القيامة على الشئ .
٢ - القيم بحفظ كل شئ ورزقه ، وتصريفه فيما شاء وأحب من تغيير وتبديل ، وزيادة ونقص . قال تعالى :
(اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ) (البقرة/٢٥٦) .
قال ابن القيم :
صفة الْحَيَاة متضمنة لجَمِيع صِفَات الْكَمَال مستلزمة لها وَصفَة القيومية متضمنة لجَمِيع صِفَات الْأَفْعَال ، وَلِهَذَا كَانَ اسْمُ اللَّهِ الْأَعْظَمُ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ ، وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى : هُوَ اسْمُ الْحَيِّ الْقَيُّومِ ، وَالْحَيَاةُ التَّامَّةُ تُضَادُّ جَمِيعَ الْأَسْقَامِ وَالْآلَامِ ، وَلِهَذَا لَمَّا كَمُلَتْ حَيَاةُ أَهْلِ الْجَنَّةِ لَمْ يَلْحَقْهُمْ هَمٌّ وَلَا غَمٌّ وَلَا حَزَنٌ وَلَا شَيْءٌ مِنَ الْآفَاتِ . وَنُقْصَانُ الْحَيَاةِ تَضُرُّ بِالْأَفْعَالِ ، وَتُنَافِي الْقَيُّومِيَّةَ ، فَكَمَالُ الْقَيُّومِيَّةِ لِكَمَالِ الْحَيَاةِ ، فَالْحَيُّ الْمُطْلَقُ التَّامُّ الْحَيَاةِ لَا تَفُوتُهُ صِفَةُ الْكَمَالِ الْبَتَّةَ ،

وَالْقَيُّومُ لَا يَتَعَذَّرُ عَلَيْهِ فِعْلٌ مُمْكِنٌ الْبَتَّةَ ، فَالتَّوَسُّلُ بِصِفَةِ الحياة والقيومية لَهُ تَأْثِيرٌ فِي إِزَالَةِ مَا يُضَادُّ الْحَيَاةَ ، وَيَضُرُّ بِالْأَفْعَالِ . والمقصود أن لاسم الحي القيوم تأثيرًا خاصًا في إجابة الدعوات وكشف الكربات .

(٦) بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ : وأما قوله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – " بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ " ، فهذا من باب التوسل ، يعني استغيث بك برحمتك ، فـ (الباء) هنا للاستغاثة والتوسل ، وليست داخلة على المدعو حتى نقول إن الرسول – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – دعا أو استغاث برحمة الله ، لكن استغاث بالله لأنه رحيم ، وهذا هو معنى الحديث الذي يتعين أن يكون معنى له .

ذهب شيخ الإسلام – يرحمه الله – كما في تلخيص الاستغاثة إلى كفر من دعا صفات الله وكلماته ، وذكر أنَّ هذا باتفاق المسلمين .

فال شيخ الإسلام ابن تيمية – يرحمه الله – :

وَالِاسْتِغَاثَةُ بِرَحْمَتِهِ اسْتِغَاثَةٌ بِهِ فِي الْحَقِيقَةِ كَمَا أَنَّ الِاسْتِعَاذَةَ بِصِفَاتِهِ اسْتِعَاذَةٌ بِهِ فِي الْحَقِيقَةِ وَكَمَا أَنَّ الْقَسَمَ بِصِفَاتِهِ قَسَمٌ بِهِ فِي الْحَقِيقَةِ فَفِي الْحَدِيثِ : (أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ) وَفِيهِ (أَعُوذُ بِرِضَاك مِنْ سَخَطِك وَبِمُعَافَاتِك مِنْ عُقُوبَتِك وَبِك مِنْك لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْك أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْت عَلَى نَفْسِك) .

– فإن قيل : ورد أن النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قال : " يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ "

فهل يجوز الاستغاثة بصفات الله ، ودعاؤه بصفاته كما ورد في هذا الحديث ؟

الجواب : قوله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – في الحديث : " بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ " هذا من قبيل التوسل لا من قبيل دعاء الصفة ، مثل : أسألك يا الله برحمتك ، وفي دعاء الاستخارة : " أستخيرك بعلمك ، وأستقدرك بقدرتك " (خ / ١١٦٦) ، ومثله الاستعاذة بالصفة ، كقوله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك " (م / ٤٨٦) ، وكقوله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " أعوذ بكلمات الله التامات " (م / ٢٧٠٨) .

كل هذا من نوع التوسل إلى الله بصفاته ، وهو من التوسل المشروع ، وأما دعاء الصفة فلم يرد في الأدعية المأثورة ، ولا يمكن أن يكون مشروعًا ؛ لأن دعاء الصفة كقولك : يا رحمة الله ، يا عزة الله ، يا قوة الله . تقتضي أن الصفة شيء مستقل منفصل عن الله يسمع ويجيب ، فمن اعتقد ذلك فهو كافر ، بل صفات الله قائمة به ، وليس شيء منها إله يُدعى ، بل الله بصفاته إله واحد ، وهو المدعو والمرجو والمعبود وحده لا إله إلا هو ؛ والله أعلم .

(أَسْتَغِيثُ) : **قلت : (والقائل / عماد)** : فائدة في الاستغاثة :

– عَرِّف الاستغاثة ، و ما أنوعها ؟

قال الشيخ صالح آل الشيخ في (شرحه للثلاثة الأصول) : (الاستغاثة : طلب الغوث ، والغوث يُفسَّر بأنه : الإغاثة ، المدد ، النصرة ، ونحو ذلك ، فإذا وقع مثلا أحد في غرق ينادي أَغثني أغثني ، يطلب الإغاثة ، يطلب إزالة هذا الشيء ، يطلب النصرة . والاستغاثة عبادة ؛ وجه كونها عبادة أن الله جل وعلا قال هنا (إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ) (الأنفال / ٩) وجه الاستدلال أنه أتى بها في مَعْرِض الثناء عليهم ، وأنه رتّب عليها الإجابة ، وما دام الله جل وعلا رتّب على استغاثتهم به إجابته جل وعلا دلّ على أنه يحبها ، وقد رضيها منهم ، فنتج أنها من العبادة ،

و(إِذْ) هنا بمعنى حين (إذ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُم) يعني حين (تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ) والاستغاثة عمل ظاهر ، ولهذا يجوز أن يستغيث المرء بمخلوق ، لكن بشروطه .

– س : ما الشروط التي يجب توافرها في المستغاث به ، مع الشرح والحكم ؟

ج : أن يكون : ١ – حيًا ٢ – حاضرًا ٣ – قادرًا ٤ – يسمع .

وهي أن يكون هذا المطلوب منه الغوث ، حيًا ، حاضرًا ، قادرًا ، يسمع ، فإذا لم يكن حيًا كان ميتًا صارت الاستغاثة بهذا الميت كفرًا ، ولو كان يسمع ولو كان قادرًا ، مثل الملائكة أو الجن ، قلنا أن يكون حيًا حاضرًا قادرًا يسمع ، فإذا لم يكن حيًا كان ميتًا ، ولو اعتقد المستغيث أنه يسمع وأنه قادر ، فإنه إذا كان ميتًا فإن الاستغاثة به شرك . الأموات جميعًا لا يقدرون على الإغاثة لكن قد يقوم بقلوب المشركين بهم أنهم يسمعون ، وأنهم أحياء مثل حال الشهداء ، وأنهم يقدرون مثل ما يُزعَم في حال النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ونحو ذلك ، فنقول إذا كان ميتًا فإنه لا يجوز الطلب منه ، قالوا فما يحصل يوم القيامة من استغاثة الناس بآدم ثم استغاثتهم بنوح إلى آخر أنهم استغاثوا بنبينا محمد – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، نقول هذا ليس استغاثة بأموات ، يوم القيامة هؤلاء أحياء ، يُبعث الناس ويُحيَوْن من جديد ، كانوا في حياة ثم ماتوا ثم أعيدوا إلى حياة أخرى . فهي استغاثة بمن ؟ بحي ، حاضر ، قادر ، يسمع . بهذا ليس فيما احتجوا به من حال أولئك الأنبياء يوم القيامة حُجة على جواز الاستغاثة بغير الله جل وعلا ، والاستغاثة بغير الله جل وعلا أعظم كفرًا من كثير من المسائل التي صَرْفها لغير الله جل وعلا شرك ، إذن فالشروط :

١ – أن يكون حيًا : إذا كان ميّتا لا يجوز الاستغاثة به .

٢ – أن يكون حاضرًا : إذا كان غائبًا لا يجوز الاستغاثة به ؛ حي قادر لكنه غائب . مثل لو استغاث بجبريل عليه السلام فليس بحاضر ، حي نعم ، وقادر قد يطلب منه ما يقدر عليه ، ولكنه ليس بحاضر . مثل أن يطلب من حي قادر من الناس ؛ يَطلب من ملك يملك أو أمير يستغيث به أغثني يا فلان ، وهو ليس عنده ، مع أنه لو كان عنده لأمكن بقوَّته ، لكنه لمَّا لم يكن حاضرًا صارت الاستغاثة – تعلُّق القلب – بغير حاضر هذا شرك بالله جل وعلا .

٣ – أن يكون قادرًا ٤ – أن يكون يسمع .

س : اذكر أقسام الاستغاثة و ما حكمها ؟

ج : قال الشيخ ابن عثيمين (شرحه للثلاثة الأصول) :

(الاستغاثة طلب الغوث وهو الإنقاذ من الشدة والهلاك ، وهو أقسام :

الأول : الاستغاثة بالله عز وجل وهذا من أفضل الأعمال وأكملها وهو دأب الرسل وأتباعهم ، ودليله ما ذكره الشيخ – يرحمه الله – (إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُرْدِفِينَ) (الأنفال / ٩) وكان ذلك في غزوة بدر حين نظر النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – إلى المشركين في ألف رجل وأصحابه ثلثمائة وبضعة عشر رجلًا فدخل العريش يناشد ربه عز وجل رافعًا يديه مستقبل القبلة يقول : " اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي اللَّهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةُ مِنْ أَهْلِ الإِسْلاَمِ لاَ تُعْبَدْ فِي الأَرْضِ " (م / ٤٦٨٧) وما زال يستغيث بربه رافعًا يديه حتى سقط رداؤه عن منكبيه فأخذ أبو بكر – رَضِيَ اللَّهُ عَنْه – رداءه فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه ، وقال : يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك وعدك فأنزل الله هذه الآية .

الثاني : الاستغاثة بالأموات أو بالأحياء غير الحاضرين القادرين على الإغاثة فهذا شرك ؛ لأنه لا يفعله إلا من يعتقد أن لهؤلاء تصرفًا خفيًا في الكون فيجعل لهم حظًا من الربوبية قال الله تعالى : (أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاء الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ) (النمل / ٦٢) .

الثالث : الاستغاثة بالأحياء العالمين القادرين على الإغاثة فهذا جائز كالاستعانة بهم قال الله تعالى في قصة موسى : (فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ) (القصص/ ١٥) .

الرابع : الاستغاثة بحي غير قادر من غير أن يعتقد أن له قوة خفية مثل أن يستغيث الغريق برجل مشلول فهذا لغو وسخرية بمن استغاث به فيمنع منه لهذه العلة ، ولعلة أخرى وهي الغريق ربما اغتر بذلك غيره فتوهم أن لهذا المشلول قوة خفية ينقذ بها من الشدة) ا. هـ

س : ما الفرق بين الاستغاثة والدعاء ؟

ج : الاستغاثة لا تكون إلا من مكروه ، أما الدعاء فأعم من ذلك فيكون من المكروه وغيره .

س : ما الفرق بين الاستغاثة والاستعاذة ؟

ج : الفرق بين الاستغاثة والاستعاذة : أن الاستعاذة تَطلب منه لأن يعصمك وأن يمنعك وأن يحصنك ، أما الاستغاثة تَطلب منه أن يزيل ما فيك من شدة وهذا لا يكون إلا لله سبحانه وتعالى .

الاستغاثة : هي نوع من أنواع العبادة ، وهي طلب الغوث ، وهي لا تكون إلا عند الشدة ، إذا وقع الإنسان في شدة فإنه يطلب الغوث من الله والنجاة من هذه الشدة .

(٧) أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ : أي : حالي وأمري ، (الشَّأْن) : الخَطْبُ والأَمْرُ والحَالُ الَّذِي يشينُ ويصلحُ . وَلَا يُقالُ إِلَّا فيمَا يَعْظمُ مِن الأَحْوالِ والأُمُورِ ؛ قالَهُ الرَّاغبُ وَفِي التَّنْزِيل الْعَزِيز (وَمَا تكون فِي شَأْن) .

(٨) وَلاَ تَكِلْنِي : أي : لا تتركني .

(٩) إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ : أي : لحظة ولمحة . والطَّرْفُ : تَحْرِيكُ الجَفُونِ فِي النَّظَرِ، وطَرَفَ بصرَه يَطْرِفُ طَرْفًا ، إِذَا أَطْبَقَ أَحَدَ جَفْنَيْهِ عَلَى الْآخَرِ ، وَالْمَرَّةُ مِنْهُ (طَرْفَةٌ) ، يُقَالُ : أَسْرَعُ مِنْ طَرْفَةِ عَيْنٍ .

ما يستفاد من الحديث

(قَالَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لِفَاطِمَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا – : مَا يَمْنَعُكِ أَنْ تَسْمَعِي مَا أُوصِيكِ بِهِ ، أَنْ تَقُولِي إِذَا أَصْبَحْتِ وَإِذَا أَمْسَيْتِ)

– النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يُوصِي فَاطِمَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا – أن تقول إِذَا أَصْبَحَت وَإِذَا أَمْسَيَت هذا الدعاء .

– حب النَّبِيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يُوصِي لفَاطِمَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا – ، إذ يوصيها بهذه الوصية .

– حرص النَّبِيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على إيصال الخير لفَاطِمَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا – وللأُمَّة مِنْ بعدها .

– أهمية هذا الذِّكر وهذا الدعاء ، إذ جعله مما يُوصَى به .

(مَا يَمْنَعُكِ أَنْ تَسْمَعِي مَا أُوصِيكِ بِهِ)

– أدب النَّبِيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – إذ يعرض ما يريد بصيغة السؤال والطلب .

– استخدام النَّبِيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لوسيلة من وسائل التعليم وهو التعليم بالسؤال .

(إِذَا أَصْبَحْتِ)

– استفتاح اليوم بذكر الله .

– فضل وأهمية أذكار الصباح .

– حرص النَّبيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على الطاعة .

– مداومة النَّبيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على الأذكار .

– التأكيد على عبادة الوقت ، وهي أن كل عبادة في وقتها هي الأفضل .

– الحثّ على مداومة الذِّكر .

– أهمية أن يكون بداية اليوم بذكر الله .

– التأكيد على الذِّكر بها صباحًا .

(وَإِذَا أَمْسَيْتِ)

– مشروعية التكرار والإلحاح على الله في الدعاء .

– ختم اليوم بذكر الله .

– فضل وأهمية أذكار المساء .

– حرص النَّبيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على الطاعة .

– مداومة النَّبيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على الأذكار .

– التأكيد على عبادة الوقت ، وهي أن كل عبادة في وقتها هي الأفضل .

– الحثّ على مداومة الذِّكر .

– أهمية أن يكون ختام اليوم بذكر الله .

– فضل المحافظة والمداومة على أذكار المساء والصباح ، وأنها من أسباب الوقاية والفلاح .

(يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ)

- البدء بالثناء قبل الدعاء .
- فضل وأهمية هذين الاسمين من أسماء الله الحسنى .
- مشروعية التوسل والاستغاثة بالله ، وأنها عبادة .

(أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ ، وَلاَ تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ)

- الإقرار والاعتراف لله بأنه هو الرَّب المُصْلِح ، الذي يملك كل شيئ ويملك صلاح كل شيئ .
- التبرؤ من الحول والقوة وإثباتها إلى مالكها وطلبها منه .
- ضعف النفس البشرية وعدم الاتكال عليها ولو لحظة ولمحة .

٩- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – :
" مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ (١) وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ (٢) ، لَهُ الْمُلْكُ (٣) وَلَهُ الْحَمْدُ (٤) ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٥) ، بَعْدَمَا يُصَلِّي الْغَدَاةَ (٦) ، كُتِبَ لَهُ عَشْرُ حَسَنَاتٍ (٧) ، وَكُنَّ لَهُ عِتْقَ رَقَبَتَيْنِ (٨) مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ (٩) ، وَكُنَّ لَهُ حِجَابًا مِنَ النَّارِ (١٠) ، وَكُنَّ لَهُ حِرْزًا مِنَ الشَّيْطَانِ (١١) حَتَّى يُمْسِيَ (١٢) ، وَمَنْ قَالَهَا حِينَ يُمْسِي ، كَانَ لَهُ مِثْلُ ذَلِكَ ، وَكُنَّ لَهُ حِجَابًا مِنَ الشَّيْطَانِ (١٣) حَتَّى يُصْبِحَ (١٤) "
(رواهُ الحسنُ بنُ عرفة في جزئه (٥ / ١) ، الصحيحة / ١١٣) .

المعنى الإجمالي

يخبرنا رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أن مَن قال هذا الذكر ، والذي يحتوي على توحيد الله ، ولا معبود حقٌّ إلا الله ، ولا يلجأ العبادُ ويضرعون ويفزعون في كل ما ينوبهم إلَّا إلى الله ، ويُقِرُّ لله بِتَصَرُّفِهِ وَتَقْرِيرِهِ وَمَشِيئَتِهِ وَتَقْدِيرِهِ ، وأنه يملك جَمِيعَ الْأُمُورِ ، ولما كَانَ الله مَالك الْملك كُلّه اسْتحق أَن تكون جَمِيع المحامد لَهُ دون غَيره ، فَلَا يجوز أَن يُحمد غَيره .
والاعتراف بأن الله بَالِغٌ فِي الْقُدْرَةِ ، كَامِلٌ فِي الْإِرَادَةِ والْقُوَّةِ ، مُنَزَّهٌ عَنِ الْعَجْزِ وَالْفَتْرَةِ ، لا يعجزه شيء في السماوات ولا في الأرض ، وَله الْقُدْرَة الْكَامِلَة الباهرة فِي السَّمَوَات وَالْأَرْض ؛ فمن قال هذا بعد صلاة الفجر ، يثيبه الله بعدة أشياء ، وكذلك إذا قالها إذا دخل وقت المساء .

معاني الكلمات

(١) لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ : إجمالًا فمعنى لا إله إلا الله : أي لا معبود حقٌّ إلا الله ، ولا يلجأ العباد ويضرعون ويفزعون في كل ما ينوبهم إلا إلى الله ؛ كلمة التوحيد ، جمعت الإيمان واحتوته ، وهذه الكلمة عنوان الإسلام وأساسه ، ولأهميتها سأتكلم عنها بشئ من التفصيل من عدَّة جهات مثل :
(فضلها وأهميتها ، معناها ، أركانها ، شروطها ، نواقضها ، وغير ذلك) في كتابي (هل حقًا استجبنا لأمر الله ، فاعلم أنه لا إله إلا الله) فراجعه إن شئت .
(٢) وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ : كلمتان جيء بهما للتأكيد ، تَأْكِيدٌ لِمَا دلَّت عَلَيْهِ كَلِمَةُ التَّوْحِيدِ . (وَحْدَهُ) : أي لا إله منفرد إلا هو وحده ، أَيْ : وَحْدَهُ فِي أَفْعَالِهِ وَصِفَاتِهِ ، وَقَالَ ابْنُ حَجَرٍ: تَأْكِيدٌ بَعْدَ تَأْكِيدٍ لِمَزِيدِ الِاعْتِنَاءِ ، بِمَقَامِ التَّوْحِيدِ .
(لَا شَرِيكَ لَهُ) أَي لا مشارك له : توكيد للنفي ، والإشراك أن يجعل مع الله إلهًا آخر ، (لا شريك له) عقلا ونقلا وأما الأول فلأن وجود إلهين محال كما تقرر في الأصول وأما الثاني فلقوله تعالى (وإلهكم إله واحد) وذلك يقتضي أن لا شريك له وهو تأكيد لقوله وحده لأن المتصف بالوحدانية لا شريك له ، هي من حيث المعنى توكيد للإثبات ، لا شَرِيكَ لَهُ فِي عِبَادَتِهِ كَمَا أنه ليس له شريك في ملكه ، فهما كلمتان مؤكّدتان للا إله إلاَّ الله ، لما فيها من النفي والإثبات .
(٣) لَهُ الْمُلْكُ : الْمُلْكُ : بِضَمِّ الْمِيم ، له السلطان والقدرة ، والسلطنة والقهر له دون غيره قال تعالى : (وهو القاهر فوق عباده) ، ولَهُ جَمِيع أَصْنَاف الْمَخْلُوقَات ، وله التصرف في الأمور كلها . جِنْسُ الْمُلْكِ مُخْتَصٌّ لَهُ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَيَنْزِعُهُ مِمَّنْ يَشَاءُ ، وَهُوَ شَامِلٌ لِمُلْكِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَمُلْكِ الْعِلْمِ ، وَالْحِكْمَةِ ، وَمُلْكِ الْعَمَلِ ، وَالزَّهَادَةِ ، وَالْقَنَاعَةِ ، أَيْ : مَلِكُ الْمَلَكُوتِ ، وَمَلِكُ الْأَمْلَاكِ ، يَعْنِي : بِتَصَرُّفِهِ وَتَقْرِيرِهِ وَمَشِيئَتِهِ وَتَقْدِيرِهِ ، مَلَكَ جَمِيعَ الْأُمُورِ .

(٤) وَلَهُ الْحَمْدُ : الْحَمْدُ : عرَّفه شيخ الإسلام فقال : هو الإخبار عن صفة المحمود على وجه المحبة والتعظيم ، فلا بدَّ من اجتماع شيئين :

١ – الإخبار عن صفات المحمود . ٢ – على وجه المحبة وتعظيم .

و الْحَمْدُ ثَابِتٌ لَهُ حُمِدَ أَوْ لَمْ يُحْمَدْ ، أَوْ لَهُ الْحَامِدِيَّةُ وَالْمَحْمُودِيَّةُ ، فَهُوَ الْحَامِدُ ، وَهُوَ الْمَحْمُودُ ، وَله حمد أهل السَّمَوَات وَالْأَرْض ، وَجَمِيع أَصْنَاف المحامد الَّتِي بالأعيان والأعراض ، بِنَاء على أَن الْألف وَاللَّام لاستغراق الْجِنْس عندنَا ، وَلما كَانَ الله مَالك الْملك كُله اسْتحق أَن تكون جَمِيع المحامد لَهُ دون غَيره ، فَلَا يجوز أَن يحمد غَيره .

– فإن قيل : لماذا قدَّم الْمُلْك على الحمد ؟

يقال : قدَّم الْمُلْك لأنه مَلَك فحُمِد في مملكته .

– فإن قيل : لماذا قرن الملك بالحمد ؟

يقال : قرن الملك بالحمد ؛ لأن الغالب أن من كان له الملك من العباد لا يحمد لما لا يخلو عنه من الجور والكبرياء وغير ذلك من صفات البشرية بخلاف ملكه تعالى فإنه ملك ينضم إليه حمد الخلائق له ؛ فهما قرينتان في صفاته تعالى يختص بهما ، فإنه لا يجتمع الملك والحمد لغيره إذ غالب من ملك الملك لا يحمد عند العباد .

(٥) وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ : بَالِغٌ فِي الْقُدْرَةِ ، كَامِلٌ فِي الْإِرَادَةِ والْقُوَّةِ ، مُنَزَّهٌ عَنِ الْعَجْزِ وَالْفَتْرَةِ ، لا يعجزه شيء في السماوات ولا في الأرض ، وَله الْقُدْرَة الْكَامِلَة الباهرة فِي السَّمَوَات وَالْأَرْض ، وذكر ذلك من بَاب التتميم والتكميل ، لِأَن الله تَعَالَى ، لما كَانَت الوحدانية لَهُ وَالْملك لَهُ وَالْحَمْد لَهُ ، فبالضرورة يكون قَادِرًا على كل شَيْء ، والقدير اسم من أَسمَاء الله تَعَالَى : كالقادر والمقتدر .

(٦) بَعْدَمَا يُصَلِّي الْغَدَاةَ : أَي : الْفَجْرَ .

(٧) كُتِبَ لَهُ عَشْرُ حَسَنَاتٍ : الحسنات جمع حسنة ، وهي الفعلة الحسنة من الحُسْن خلاف القبح ، وسقوط " التاء " من " عشر " لكون مفسرها جمع مؤنث ، وهذا من باب المقابلة والمشاكلة ؛ لأن الحسنة هي الخصلة التي يعملها العبد ، والذي يعطيه ربه عليها تُسمى جزاءً وثوابًا ، فحق المعنى : كتب الله له عشر ثوابات ، أو عشر أجزية ، ولكنها ذكرت بالحسنات للتشاكل والتقابل ، ومعنى قوله : " كتب الله له " قدَّر الله له فيما عنده ، أو يكتبه في اللوح .

– قلت : (والقائل / عماد) : فائدة في الحسنة :

اختلفت تعبيرات العلماء في تعريف الحسنة كالآتي :

قالَ الرَّاغبُ : الحَسَنَةُ يُعبَّرُ بهَا عَن كلِّ مَا يسرُّ مِن نعْمَةٍ تَنالُ الإِنْسانَ فِي نفْسِه وبَدَنِه وأَحْوالِه ، والسَّيِّئَةُ تضادُّها .

وقيل : الحسنة : هي الفعل المثاب عليه . وقال بعضهم : الحسنة هي ما جعل الله سبحانه على عملها ثوابًا ، والسيئة هي ما جعل الله على عملها عقابًا .

وتطلق على ما أحبه الله ورسوله ، وهو ما أمر الله به أمر إيجاب ، أو أمر استحباب . وقيل : الحسنة هى ما يُعطَى العبد فى الدنيا مما يستحب فيها .

وقيل : الحسنة هي الغبطة الخالية عن جميع جهات القبح . وقيل : الحسنة : هي ما يحسن لدى الإنسان مما يتلاءم مع مزاجه .

– و فسرها بعض العلماء بأنها ما يلائم الطبع ويسرّ النفس .

وقيل : الحسنة هي : كل ما جاء في الشرع الحث على فعله من الواجبات أو من المستحبات ، من الفروض ومن النوافل ، سواء أكانت قولاً أم فعلاً .

قال الشنقيطي : قوله – صلى الله عليه وسلم –: " أَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا "

يعني : إن صدرت منك سيئة فأتبعها بحسنة ؛ لأن السيئة تُجعل في كفة الميزان سيئة واحدة ؛ وتجعل الحسنة في الكفة الأخرى عشر حسنات فيثقل وزنها عليها ، وهذا معنى قوله : (مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا) (الأنعام / ١٦٠) .

أصل الحسنة : هي الصفة المشبهة من حسُن يحسن ، فهو حسَن ، والأنثى حسنة ، وقد جَرَتْ عادة العرب بأن يجعلوا لفظ الحسنة والصالحة كأنهما اسما جنس للخصلة الطيبة والفعلة الكريمة ، حتى كادوا يتناسون الوصفية فيهما ، ومنه هنا : (مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ) أي : بالخصلة الحسنة ، فَحُسْنها هو كونها تُرضي الله (جل وعلا) ، وتطابق ما أمر به ونهى عنه ، وقد وعد الثواب عليها ، وكذلك قال : (وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ) (البقرة / ٢٥) فالصالحة كالحسنة ؛ أي : هي الخصلة التي هي صالحة ؛ لأن الله أمر بها ، ووعد فاعلها الخير ، وهذا معروف في كلام العرب ، أما في الحسنة فمشهور ، وأما في الصالحة فمعروف في كلام العرب ، سُئل أعرابي عن الحب ما هو ؟ فقال :

الحُبُّ مَشْغَلَةٌ عَنْ كُلِّ صَالِحَةٍ ... وَسَكْرَةُ الحُبِّ تَنْفِي سَكْرَةَ الْوَسَنِ

فالصالحة ، والحسنة ، والسيئة كأنها أسماء أجناس ، ثنتان للخصلة الطيبة ، وواحدة للخصلة الخبيثة .

– قال ابن تيمية في مجموع الفتاوى : و " الْحَسَنَاتُ " هِيَ مَا أَحَبَّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَهُوَ مَا أَمَرَ بِهِ أَمْرَ إيجَابٍ أَوْ اسْتِحْبَابٍ فَمَا كَانَ مِنْ الْبِدَعِ فِي الدِّينِ الَّتِي لَيْسَتْ مَشْرُوعَةً فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّهَا وَلَا رَسُولُهُ فَلَا تَكُونُ مِنْ الْحَسَنَاتِ وَلَا مِنْ الْعَمَلِ الصَّالِحِ كَمَا أَنَّ مَنْ يَعْمَلُ مَا لَا يَجُوزُ كَالْفَوَاحِشِ وَالظُّلْمِ لَيْسَ مِنْ الْحَسَنَاتِ وَلَا مِنْ الْعَمَلِ الصَّالِحِ .

وقال أيضًا : الْحَسَنَات هِيَ الْإِيمَان وَالْعَمَل الصَّالِح .

وقيل : الْحَسَنَة : هِيَ الَّتِي لَا يشوبها نقص فِي كَونهَا حَسَنَة . وَهَذَا هُوَ الْحَقِيقَة . وَقد يُسمى بذلك مَا يشوبه السوء لِأَن الْأَظْهر فِيهِ الْحسن . والسيئة : نقيض الْحَسَنَة .

– قال د / مساعد بن سليمان بن ناصر الطيار في شرح مقدمة التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي : (الْحَسَنَاتِ) قيل : الصلوات الخمس ، وقيل : إنها قول العبد : (سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر) . وهذه الأقوال إنما هي ذكر وأمثلة للحسنات ، ولو قال قائل : إن الحسنات هي بر الوالدين ، وقال آخر : إن الحسنات هي إيتاء الصدقة ، وقال آخر : إن الحسنات هي متابعة الحج ، بعد الحج فهذا كله داخل في معنى الحسنات ، فالحسنات لفظ عام ، ويشمل أمثلة كثيرة . ثم قال : (فهذا عدَّه أيضًا كثير من المؤلفين خلافًا وليس في الحقيقة بخلاف ؛ لأن كل قول منها مثال للمراد ، وليس بكل المراد ؛ – أي : ليس كل قول فيها هو المراد كله – ، ولم نعده نحن خلافًا بل عبَّرنا عنه بعبارة عامة تدخل تلك تحتها ، وربما ذكرنا بعض تلك الأقوال على وجه التمثيل مع التنبيه على العموم المقصود) .

– وأول الحسنات في الإيمان أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وهذه حسنة أذهبت الكفر ؛ لأن الحسنات يذهبن السيئات .

ولذلك قال بعض العلماء : إن المسلم الذي ارتكب معصية أو كبيرة من الكبائر ، لا يخلد في النار ؛ لأنه إذا كانت حسنة الإيمان قد أذهبت سيئة الكفر ، أفلا تذهب ما دون الكفر ؟ .

وهكذا يخفّف العقاب على المسلم فينال عقابه من النار ، ولكنه لا يخلد فيها ؛ لأننا لا يمكن أن نساوي بين من آمن بالله ومن لم يؤمن بالله .

والإيمان بالله هو أكبر حسنة ، وهذه الحسنة تذهب الكفر ، ومن باب أولى أن تذهب ما دون الكفر .

– وقالوا : الحسنات قسمان :

أحدهما : حسنة سببها الإيمان والعمل الصالح ، وتحصل بطاعة الله ورسوله .

الثاني : حسنة سببها الإنعام الإلهي على العبد بما يؤتيه الله من مال وولد وسلامة بدن .

– وقد تتبَّعت الحسنة المقصودة في القرآن حسب ترتيبها في المصحف كالآتي :

الحسنة في القرءان والتفسير :

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً) (البقرة / ٢٠١) عَنِ الْحَسَنِ قَالَ : الْحَسَنَةُ فِي الدُّنْيَا الْعِلْمُ وَالْعِبَادَةُ في الدنيا . الرزق الطيب والعلم النافع ، وفي الآخرة الجنة . وتفسير الحسنة في الآخرة بالجنة نقله ابن أبي حاتم أيضًا عن السدي ومجاهد وإسماعيل بن أبي خالد ومقاتل بن حيان .

و (الحسنة) في الدّارين هي النّعمة عند مجاهد ، والعافية عند قتادة . ويحتمل أنّه نعت لاسم مضمر ، وهو العيشة أو الحالة .

(وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً) (البقرة / ٢٠١) عَنِ الْحَسَنِ : قَالَ : الْحَسَنَةُ فِي الْآخِرَةِ : الْجَنَّةُ . وَرُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ ، وَالسُّدِّيِّ ، وَمُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانَ نَحْوُ ذَلِكَ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : (إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ) (آل عمران / ١٢٠) ، وَالْمُرَادُ بِالْحَسَنَةِ وَالسَّيِّئَةِ هُنَا مَا تَعَارَفَهُ الْعَرَبُ مِنْ قِبَلِ اصْطِلَاحِ الشَّرِيعَةِ أَعْنِي الْكَائِنَةِ الْمُلَائِمَةِ والكائنة المنافرة ، كَقَوْلِهِم : (فَإِذا جاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قالُوا لَنا هذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسى وَمَنْ مَعَهُ) (الْأَعْرَاف / ١٣١) وَقَوْلُهُ : (رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيا حَسَنَةً) (الْبَقَرَة / ٢٠١) ، وَتَعَلُّقُ فِعْلِ الْإِصَابَةِ بِهِمَا دَلِيلٌ عَلَى ذَلِكَ ، أَمَّا الْحَسَنَةُ وَالسَّيِّئَةُ بِالِاصْطِلَاحِ الشَّرْعِيِّ ، أَعْنِي الْفِعْلَ الْمُثَابَ عَلَيْهِ وَالْفِعْلَ الْمُعَاقَبَ عَلَيْهِ ، فَلَا مَحْمَلَ لَهُمَا هُنَا إِذْ لَا يَكُونَانِ إِصَابَتَيْنِ ، وَلَا تُعْرَفُ إِصَابَتُهُمَا لِأَنَّهُمَا اعْتِبَارَانِ شَرْعِيَّانِ .

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا) (النساء / ٤٠) بِمَعْنَى : وَإِنْ تُوجَدْ حَسَنَةً عَلَى مَا ذَكَرْتُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ مِنْ تَأْوِيلِ ذَلِكَ ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَبْخَسُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِهِ أَنْفَقَ فِي سَبِيلِهِ مِمَّا رَزَقَهُ مِنْ ثَوَابِ نَفَقَتِهِ فِي الدُّنْيَا وَلَا مِنْ أَجْرِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

قَوْلُهُ : (وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا) (النساء: ٧٨) أي : رخاء .

قَوْلُهُ : (مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ) (النساء / ٧٩) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، قَالَ : مَا أَصَابَ مِنَ الْغَنِيمَةِ وَالْفَتْحِ وَرُوِيَ عَنِ الضَّحَّاكِ نَحْوُ ذَلِكَ .

قَوْلِهِ تَعَالَى : (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) (الأنعام / ١٦٠) .

قَوْلُهُ تَعَالَى : (ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ) (الأعراف / ٩٥) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، يَقُولُ : مَكَانَ الشِّدَّةِ الرَّخَاءَ " .

قَوْلُهُ تَعَالَى : (فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ) (الأعراف / ١٣١) .

(وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ) (الأعراف / ١٥٦) .

(وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) (الأعراف / ١٦٨) .

(إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ)

(سُورَة التَّوْبَة / آيَة ٥٠) .

قَوْلِهِ : (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ) (الرَّعْد /٦) أي بالعذاب قبل العاقبةِ .

(وَيَدْرَءُونَ بالحسنة السيئة) (الرعد / ٢٢) أي : بالقول المعروف .

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةٌ وَلَدارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دارُ الْمُتَّقِينَ) (النَّحْل / ٣٠) وَحَسَنَةُ الدُّنْيَا هِيَ الْحَيَاةُ الطَّيِّبَةُ وَمَا فَتَحَ اللَّهُ لَهُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا مَعَ نِعْمَةِ الْإِيمَانِ . وَخَيْرُ الْآخِرَةِ هُوَ النَّعِيمُ الدَّائِمُ .

(وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)

(النَّحْل / ٤١) . وَالْمَعْنَى : لَنُجَازِيَنَّهُمْ جَزَاءً حَسَنًا . فَعَبَّرَ عَنِ الْجَزَاءِ بِالتَّبْوِئَةِ لِأَنَّهُ جَزَاءٌ عَلَى تَرْكِ الْمُبَاءَةِ .

(وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ) (النَّحْل / ١٢٢) وَالْحَسَنَةُ فِي الدُّنْيَا : كُلُّ مَا فِيهِ رَاحَةُ الْعَيْشِ مِن اطْمِئْنَانِ الْقَلْبِ بِالدِّينِ ، وَالصِّحَّةِ ، وَالسَّلَامَةِ ، وَطُولِ الْعُمْرِ ، وَسَعَةِ الرِّزْقِ الْكَافِي ، وَحُسْنِ الذِّكْرِ بَيْنَ النَّاسِ .

وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ : (وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنا فِي الدُّنْيا حَسَنَةً) (سُورَة الْبَقَرَة / ٢٠١) .

(قَالَ يَاقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) (النمل / ٤٦) .

قَوْلِهِ تَعَالَى : (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا ، وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ، وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ ، هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) (النمل / ٩٠) يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ : (مَنْ جَاءَ) اللَّهَ بِتَوْحِيدِهِ وَالْإِيمَانِ بِهِ ، وَقَوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُوقِنًا بِهِ قَلْبُهُ ، (فَلَهُ) (البقرة / ١١٢) مِنْ هَذِهِ الْحَسَنَةِ عِنْدَ اللَّهِ (خَيْرٌ) (البقرة / ٥٤) يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَذَلِكَ الْخَيْرُ أَنْ يُثِيبَهُ اللَّهُ (مِنْهَا) (البقرة / ٢٥) الْجَنَّةَ ، وَيُؤَمِّنَهُ (مِنْ فَزَعٍ) (النمل / ٨٩) الصَّيْحَةِ الْكُبْرَى وَهِيَ النَّفْخُ فِي الصُّورِ (وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ) (الأنعام / ١٦٠) يَقُولُ : وَمَنْ جَاءَ بِالشِّرْكِ بِهِ يَوْمَ يَلْقَاهُ ، وَجُحُودِ وَحْدَانِيَّتِهِ (فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ) (النمل / ٩٠) فِي نَارِ جَهَنَّمَ .

(أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) (القصص / ٥٤) قَالَ ابْنُ زَيْدٍ فِي قَوْلِهِ : (وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ) قَالَ : (يَدْفَعُونَ الشَّرَّ بِالْخَيْرِ ، لَا يُكَافِئُونَ الشَّرَّ بِالشَّرِّ ، وَلَكِنْ يَدْفَعُونَهُ بِالْخَيْرِ) .

(مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(القصص / ٨٤) وَمَعْنَى فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها أَنَّ كُلَّ حَسَنَةٍ تَحْتَوِي عَلَى خَيْرٍ لَا مَحَالَةَ يَصِلُ إِلَى نَفْسِ الْمُحْسِنِ أَوْ إِلَى غَيْرِهِ فَلِلْجَائِي بِالْحَسَنَةِ خَيْرٌ أَفْضَلُ مِمَّا فِي حَسَنَتِهِ مِنَ الْخَيْرِ، أَوْ فَلَهُ مِنَ اللَّهِ إِحْسَانٌ عَلَيْهَا خَيْرٌ مِنَ الْإِحْسَانِ الَّذِي فِي الْحَسَنَةِ قَالَ تَعَالَى فِي آيَاتٍ أُخْرَى فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها (الْأَنْعَام / ١٦٠) أَيْ فَلَهُ مِنَ الْجَزَاءِ حَسَنَاتٌ أَمْثَالُهَا وَهُوَ تَقْدِيرٌ يَعْلَمُهُ اللَّهُ .

وَلَمَّا ذُكِرَ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ أُعْقِبَ بِضِدِّ ذَلِك مَعَ مُقَابَلَةُ فَضْلِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى الْمُحْسِنِ بِعَدْلِهِ مَعَ الْمُسِيءِ عَلَى عَادَةِ الْقُرْآنِ مِنْ قَرْنِ التَّرْغِيبِ بِالتَّرْهِيبِ .

يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ : مَنْ جَاءَ اللَّهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِإِخْلَاصِ التَّوْحِيدِ ، فَلَهُ خَيْرٌ ، وَذَلِكَ الْخَيْرُ هُوَ الْجَنَّةُ وَالنَّعِيمُ الدَّائِمُ ، وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ ، وَهِيَ الشِّرْكُ بِاللَّهِ .

(قُلْ يَاعِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ) (الزمر / ١٠)

قَالَ السُّدِّيُّ : الْحَسَنَةُ فِي الدُّنْيَا الصِّحَّةُ وَالْعَافِيَةُ .

قَوْلِهِ : (وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ) (فُصِّلَتْ / ٣٤) . قَوْلِهِ : (وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ) (الشورى / ٢٣) .

– وَذكر أهل التَّفْسِير أَن الْحَسَنَة والسيئة فِي الْقُرْآن على أوجه كالآتي :

– قال يحيى بن سلام بن أبي ثعلبة في التصاريف لتفسير القرآن مما اشتبهت أسمائه وتصرفت معانيه ، وأبو الفرج بن الجوزي (المتوفى : ٥٩٧هـ) في نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر ، وأبو هلال العسكري في الوجوه والنظائر ، وأَدْمَجْتُ كلامَهم في كلام بعض :

أَحدهَا : الْحَسَنَة : التَّوْحِيد . والسيئة : الشّرك . وَمِنْه قَوْله تَعَالَى فِي النَّمْل : (من جَاءَ بِالْحَسَنَة فَلهُ خير مِنْهَا وهم من فزع يَوْمئِذٍ ءَامِنون) (وَمن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فكبت وُجُوههم فِي النَّار) . وَفِي الْقَصَص : (من جَاءَ بِالْحَسَنَة فَلهُ خير مِنْهَا) ، (وَمن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يجزى الَّذين عمِلُوا السَّيِّئَات إِلَّا مَا كَانُوا يعْملُونَ) .

(مَن جَآءَ بالحسنة) يعني التَّوحيد ، (فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا) . (وَمَن جَآءَ بالسيئة) يعني الشِّرك .

وَالثَّانِي : الْحَسَنَة : النَّصْر وَالْغنيمَة . والسيئة : الْقَتْل والهزيمة ، وَمِنْه قَوْله تَعَالَى فِي آل عمرَان : (إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ) يعني النَّصر والغنيمة ، يعني يوم بدر ، قال : (وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ) يعني القتل والهزيمة يوم أحد . ونظيرها في سورة النِّسَاء قال : (مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ الله) يعني النَّصر والغنيمة يوم بدر تسؤهم ، (وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ) يعني القتل والهزيمة يوم أحد . وهو تفسير السدّي . وقال في سورة براءة : (إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ) النَّصر والغنيمة .

وَالثَّالِث : الْحَسَنَة : الْمَطَر وَالْخصب . والسيئة : قحط الْمَطَر والجدب . وَمِنْه قَوْله تَعَالَى فِي الْأَعْرَاف : (فَإِذا جَاءَتْهُم الْحَسَنَة قَالُوا لنا هَذِه) يعني كثرة المطر والخصب ، (وَإِن تصبهم سَيِّئَة يطيروا بمُوسَى وَمن مَعَه) يعني قحط المطر ، وقلَّة الخير والنَّبات .

وقال في سورة الرّوم : (وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ) يعني قحط المطر . يقول إن أصابهم خير وسعة وخصب نسبوه إلى الله تعالى ، وإن أصابهم ضيق وقحط نسبوه إليك ، وقالوا : إنما نالنا ذلك من شؤمك ، ومثله قوله : (ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ) أي : بدل الضيق بالسعة ، ومثله : (وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ) أي : اختبرناهم بالضيق والسعة والبلوى .

والاختبار والتجربة سواء ، وحقيقة معناه فعل ما يحدث معه العلم بالمبلوِ المختبر ، ولا يجوز ذلك على الله ، لأنه عالم بنفسه وإنما المراد أنه يكلف عباده ويأمرهم وينهاهم ، لأن الابتلاء والامتحان هو الأمر والنهي ، فسمى الله تكليفه وأمره عباده ابتلاء من هذا الوجه على سبيل التوسع .

وَالرَّابِع : الْحَسَنَة : الْعَافِيَة ، والسيئة : الْبَلَاء وَالْعَذَاب ، وَمِنْه قَوْله تَعَالَى فِي الرَّعْد : (ويستعجلونك بِالسَّيِّئَةِ قبل الْحَسَنَة) . يعني بالعذاب في الدنيا ، (قَبْلَ الحسنة) يعني قبل العافية . وكقوله في النَّمل : (لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بالسيئة) يعني بالعذاب في الدنيا ، (قَبْلَ الحسنة) يعني قبل العافية .

يعني : أنهم يريدون تقديم العذاب لهم في الدنيا على ما هم فيه من العافية فيها .

وَالْخَامِس : الْحَسَنَة : قَول الْمَعْرُوف ، والسيئة : قَول الْمُنكر ، وَمِنْه قَوْله تَعَالَى فِي الْقَصَص : (وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ) أي : يدفعون القول القبيح المؤذي بالقول الحسن مرة وبالعفو أخرى ، والمعنى أنهم يتغافلون عنه فينقطع ، وكأنهم دفعوه ، ولو أجابوا عنه زيد فيه . وَفِي فُصِّلت : (وَلَا تستوي الْحَسَنَة وَلَا السَّيِّئَة ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أحسن) . (وَلاَ تَسْتَوِي الحسنة) يعني العفو والصفح ، (وَلاَ السيئة) يعني الشرّ من القول والأَذى . ونظيرها في سورة المؤمنون ، قال : (ادفع بالتي هِيَ أَحْسَنُ السيئة) أمره بالصفح والتغافل . يقول : يدفع بالعفو والصَّفح القول القبيح والأَذى . نظيرها في سورة الرّعد : (وَيَدْرَءُونَ بالحسنة السيئة) .

وَالسَّادِس : الْحَسَنَة : فعل نوع من الْخَيْر ، والسيئة : فعل نوع من الشَّرّ ، وَمِنْه قَوْله تَعَالَى فِي الْأَنْعَام : (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يجزى إِلَّا مثلهَا) (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا) العمل الصالح ، فإن قيل : كيف قال : (عَشْرُ أَمْثَالِهَا) والمثل مذكر ؟ قلنا : لأنه مضاف إلى مؤنث ، وهي في المعنى أيضًا حسنة أو درجة فأتت على المعنى ، وأراد بذكر العشر التكثير ولم يرد عشر بعينها ، كما تقول : إن كلمتني واحدة كلمتك عشرًا ؛ وكذلك قوله : (إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً) أراد التكثير ، ولم يرد عددًا بعينه ، ألا ترى أنه لو زاد على السبعين لم يغفر اللَّه لهم أيضًا .

– وقيل : بمعنى الرَّخَاء : قال تعالى : (وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هذه مِنْ عِندِ الله) (النساء / ٧٨) أي : رخاء .

– * قلت : (والقائل / عماد) :

قد تتبَّعتُ الحسنة في القرآن فوجدتها كالآتي :

الحسنة إما أن تكون ١ – حسنة من الله : وتنقسم إلى :

أ – حسنة في الدنيا وتكون بعِدَّة معاني منها : الصحة والأمن والكفاية والولد الصالح والزوجة الصالحة و الخصب والمطر والسعة والخير أو المال أو الإمارة أو الجواري أو الثناء الحسن أو الطمأنينة والظفر والغنيمة والسراء والرخاء والنصرة على الأعداء . أو الرزق الحلال الواسع والعمل الصالح ، والإسلام والقرآن ، على اختلاف الآيات واختلاف أقوال المفسرين وبالجملة فالحسنة في الدنيا تشمل كلّ خير دنيويّ ، وهذا الذي رجّحه ابن جرير وابن كثير أيضًا ، فقد قال ابن كثير : فالحسنة في الدنيا تشمل كلّ مطلوب دنيويّ ، من عافية ، ودار رحبة ، وزوجة حسنة ، ورزق واسع ، وعلم نافع ، وعمل صالح ، ومركب هنئ ، وثناء جميل ، إلى غير ذلك مما اشتملت عليه عبارات المفسرين ، ولا منافاة بينها ، فإنها كلها مندرجة في الحسن في الدنيا .

ب – حسنة في الآخرة وتكون بمعنى : الفوز بالثواب ، والمغفرة أو الجنة ، والخلاص من العقاب . فمن ذلك دخول الجنة وتوابعه من الأمن من الفزع الأكبر في العرصات ، وتيسير الحساب وغير ذلك من أمور الآخرة الصالحة .

٢ – حسنة من العبد : وهي بمعنى : التوبة وفعل الْخَيْرَات والطاعات والأعمال الصالحات ، والْفُرُوضُ وَالنَّوَافِلُ ، وأجمع أهل التفسير على أن الحسنة مقصود بها – التوحيد – في قوله تعالى : (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا) (النمل / ٨٩) وقد صحَّ موقوفًا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، قَوْلَهُ : ((مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا) (النمل / ٨٩) يَقُولُ : مَنْ جَاءَ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)) .

– والذي يظهر لي والله أعلم أن الحسنات ليست هي فعل الْخَيْرَات والطاعات والأعمال الصالحات ، وإنما هي ما يترتب على فعل الْخَيْرَات والطاعات والأعمال الصالحات من ثواب أو جزاء ، ولا يعلم مقدارها أو عددها أو حقيقتها إلا الله ، وقلت ذلك للآتي :

أجمع أهل التفسير على أن الحسنة مقصود بها – التوحيد – في قوله تعالى : (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا) (النمل / ٨٩) وقد صحَّ موقوفًا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، قَوْلَهُ : ((مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا) (النمل / ٨٩) يَقُولُ : مَنْ جَاءَ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)) .

وعَنْ أَبِي ذَرٍّ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قَالَ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ مِنَ الْحَسَنَاتِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ؟ ، قَالَ : " هِيَ أَحْسَنُ الْحَسَنَاتِ " .

و عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " إِنَّ اللَّهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الخَلَائِقِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلًّا كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ البَصَرِ ، ثُمَّ يَقُولُ : أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا ؟ أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الحَافِظُونَ ؟ فَيَقُولُ : لا يَا رَبِّ ، فَيَقُولُ : أَفَلَكَ عُذْرٌ ؟ فَيَقُولُ : لا يَا رَبِّ ، فَيَقُولُ : بَلَى إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً ، فَإِنَّهُ لا ظُلْمَ عَلَيْكَ اليَوْمَ ، فَتَخْرُجُ بِطَاقَةٌ فِيهَا : أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، فَيَقُولُ : احْضُرْ وَزْنَكَ ، فَيَقُولُ : يَا رَبِّ مَا هَذِهِ البِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ ، فَقَالَ : إِنَّكَ لا تُظْلَمُ ، قَالَ : فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كَفَّةٍ وَالبِطَاقَةُ فِي كَفَّةٍ ، فَطَاشَتِ السِّجِلَّاتُ وَثَقُلَتِ البِطَاقَةُ ، فَلا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللهِ شَيْءٌ " (صحيح التِّرْمِذِيّ / ٢٦٣٩) . فقد سُمِّيت كلمة التوحيد – لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ – أو الشهادتين ، سُمِّيت (حسنة) ، في حين مَنْ قَتَلَ وَزَغًا كُتِبَتْ لَهُ (مِائَةُ حَسَنَةٍ) ؛ فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – عَنِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قال : " مَنْ قَتَلَ وَزَغًا فِي أَوَّلِ ضَرْبَةٍ كُتِبَتْ لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ ، وَفِي الثَّانِيَةِ دُونَ ذَلِكَ ، وَفِي الثَّالِثَةِ دُونَ ذَلِكَ " (م / ٢٢٤٠) ؛ فهل قتل الوزغ أفضل من (لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) ؟ بالتأكيد لا ، إذًا (لا يعلم مقدارها أو عددها أو حقيقتها إلا الله) ، أم يقال : كلمة (حسنة) نكرة ، تفيد العموم أي جنس الحسنة ؟

– فإن قيل : الحسنة هي الأجر فما القول في قَوْلِهِ – تَعَالَى – :

(وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا) ؟

فقد فرَّق بين الحسنة والأجر .

– أقول : هذا قولي وفهمي لهذه المسألة ؛ فإن كان من توفيق وسداد فمن الله والحمد لله أولًا وآخرًا ، وإن كان غير ذلك فليُطرح ويُرمى به .

(٨) وَكُنَّ لَهُ عِتْقَ رَقَبَتَيْنِ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : (عِتْقَ رَقَبَتَيْنِ) قال أهل اللغة العتق : الحرية ، قال الأزهري : هو مشتق من قولهم عتق الفرس إذا سبق ونجا وعتق الفرخ طار واستقل لأن العبد يتخلص بالعتق ويذهب حيث شاء ، قال الأزهري وغيره : وإنما قيل لمن أعتق نسمة إنه أعتق رقبة وفك رقبة فخصت الرقبة دون سائر الأعضاء مع أن العتق يتناول الجميع – لأن حكم السيد عليه وملكه له كحبل في رقبة العبد وكالغل المانع له من الخروج فإذا أعتق فكأنه أطلقت رقبته من ذلك .

العِتق : هُوَ عِتْقُ المَمْلُوكِ ، أَي إِطْلَاق النفس من الرّقّ بِالْعِتْقِ ، أي فك رقبتين من الرِّق والعبودية ، وفك الرقاب أعظم مطلوب .

(٩) مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : والمعنى : حصل له من الثواب مثل ما لو اشترى ولدين من أولاد إسماعيل عليه السلام ، وأعتقهما . وكونه من عنصر إسماعيل الذي هو أشرف الخلق نسبًا ، أعظم وأمثل .

– فإن قيل لماذا مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ خاصَّة ؟

الجواب : إنما خَصَّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَلَدَ إسماعيل ؛ لأن العرب أفضل الأمم ، وأولاد إسماعيل أفضل العرب ؛ وآثر إسماعيل عليه السلام بالذكر لشرفه وكفاه شرفًا أن النبي– صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – من أبنائه ، وإطلاق الأرقاء والعتق عليهم على الفرض والتقدير . وهذا دليل على فضل هذا الذِّكر .

(١٠) وَكُنَّ لَهُ حِجَابًا مِنَ النَّارِ : أَيْ يَكُونُ جَزَاؤُهُ عَلَى ذَلِكَ وِقَايَةً بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَارِ جَهَنَّمَ حَائِلًا بَيْنَهُ وبين دخول نار جهنم ، وإن استوجب دخولها بذنوبه .

(١١) وَكُنَّ لَهُ حِرْزًا مِنَ الشَّيْطَانِ : (حِرْزًا) أَيْ : حِفْظًا وَمَنْعًا ، أي : مانعًا من تأثير وسوسته . أَيْ : حِفْظٍ رَفِيعٍ وَحِصْنٍ مَنِيعٍ ، (مِنَ الشَّيْطَانِ) أَيْ : مِنْ شَرِّ إِغْوَائِهِ .

(١٢) حَتَّى يُمْسِيَ : تقدَّم في الحديث قبله .

(١٣) وَكُنَّ لَهُ حِجَابًا مِنَ الشَّيْطَانِ : أي : قائل هذا الذِّكر وكأنه بهذا الكلام العظيم جعل بَيْنَهُ وَبَيْنَ الشَّيْطَانِ حَائِلًا ؛ فلا يستطيع أذيته .

(١٤) حَتَّى يُصْبِحَ : تقدَّم في الحديث قبله .

ما يستفاد من الحديث

(مَنْ قَالَ)

– التشويق والتحفيز من براعة الاستهلال ، حتى يهتم المستمع لما سيأتي .

(لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير)

– الحثّ على قول كلمة التوحيد ودوام ذكرها .

– الإقرار بأن لا معبود حقٌّ إلا الله ، ولا يلجأ العباد ويضرعون ويفزعون في كل ما ينوبهم إلا إلى الله .

– النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يعلمنا بأنه لما كَانَ الله مَالك الْملك كُلِّه اسْتحق أَن تكون جَمِيع المحامد لَهُ دون غَيره ، فَلَا يجوز أَن يحمد غَيره .

– الاعتراف بأن الله بَالِغٌ فِي الْقُدْرَةِ ، كَامِلٌ فِي الْإِرَادَةِ والْقُوَّةِ ، مُنَزَّهٌ عَنِ الْعَجْزِ وَالْفَتْرَةِ ، لا يعجزه شيء في السماوات ولا في الأرض ، وَله الْقُدْرَة الْكَامِلَة الباهرة فِي السَّمَوَات وَالْأَرْض .

– وكما أن القرآن مفتتح بـ (الْحَمْدُ لِلَّه) ؛ فإننا نفتتح اليوم بـ (الْحَمْدُ لِلَّه) ، ونختمه بـ (الْحَمْدُ لِلَّه) كما هو ختام دعاء أهل الجنة ، (وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) (يونس / ١٠) .

(بَعْدَمَا يُصَلِّي الْغَدَاةَ)

– أهمية صلاة الغداة (الفجر) .

– استفتاح اليوم بذكر الله .

– فضل وأهمية أذكار الصباح .

– حرص النَّبيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على الطاعة .

– مداومة النَّبيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على الأذكار .

– التأكيد على عبادة الوقت ، وهي أن كل عبادة في وقتها هي الأفضل .

– الحثّ على مداومة الذِّكر .

– أهمية أن يكون بداية اليوم بذكر الله .

– التأكيد على الذِّكر بها صباحًا .

(كُتِبَ لَهُ عَشْرُ حَسَنَاتٍ ، وَكُنَّ لَهُ عِتْقَ رَقَبَتَيْنِ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَكُنَّ لَهُ حِجَابًا مِنَ النَّارِ ، وَكُنَّ لَهُ حِرْزًا مِنَ الشَّيْطَانِ حَتَّى يُمْسِيَ)

– الجوائز العظيمة لهذا الذِّكر ومنها :

– نَيلُ الحسنات .

– عتق الرِّقاب وتحريرها من العبودية (ولما كانت هذه العبادة العظيمة والتي من ثوابها النجاة من النار ، قَالَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " مَنْ أَعْتَقَ رَقَبَةً مُسْلِمَةً أَعْتَقَ اللَّهُ بِكُلِّ عُضْوٍ مِنْهُ عُضْوًا مِنَ النَّارِ حَتَّى فَرْجَهُ بِفَرْجِهِ " (خ / ٦٧١٥ ، م / ١٥٠٩) ، فحتى لا نُحرَم من هذا الأجر ، دلَّنا النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على شيئ يسير عمله ، عظيم أجره ، وهو هذا الذِّكر .

– فضل إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وذريته .

– الاحتجاب من النار بسبب هذا الدعاء .

– الاحتراز من الشيطان .

(وَمَنْ قَالَهَا حِينَ يُمْسِي ، كَانَ لَهُ مِثْلُ ذَلِكَ ، وَكُنَّ لَهُ حِجَابًا مِنَ الشَّيْطَانِ حَتَّى يُصْبِحَ)

– ختم اليوم بذكر الله .

– فضل وأهمية أذكار المساء .

– حرص النَّبيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على الطاعة .

– مداومة النَّبيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على الأذكار .

– التأكيد على عبادة الوقت ، وهي أن كل عبادة في وقتها هي الأفضل .

– الحثّ على مداومة الذِّكر .

– أهمية أن يكون ختام اليوم بذكر الله .

– فضل المحافظة والمداومة على أذكار المساء والصباح ، وأنها من أسباب الوقاية والفلاح .

– الاحتجاب من الشيطان .

ويستفاد من الحديث :

– الإيمان بالنار ووجودها ، والإيمان بالبعث بعد الموت .

– فضل هذا الدعاء وعظم شأنه ، ومع وجازته فيه هذا الثواب العظيم الذي يعادل هذه الأجور العظيمة ، فهذا كلام يسير وعمل يسير ولكن ثوابه جزيل وعظيم عند الله سبحانه وتعالى .

١٠- عَنْ أَبِي عَيَّاشٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ :
" مَنْ قَالَ إِذَا أَصْبَحَ (١) ، لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ (٢) وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ (٣) ، لَهُ الْمُلْكُ (٤) وَلَهُ الْحَمْدُ (٥) ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) ، كَانَ لَهُ عِدْلُ رَقَبَةٍ (٧) مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ (٨) ، وَكُتِبَ لَهُ عَشْرُ حَسَنَاتٍ (٩) ، وَحُطَّ عَنْهُ (١٠) عَشْرُ سَيِّئَاتٍ (١١) ، وَرُفِعَ لَهُ عَشْرُ دَرَجَاتٍ (١٢) ، وَكَانَ فِي حِرْزٍ (١٣) مِنَ الشَّيْطَانِ حَتَّى يُمْسِيَ (١٤) ،
وَإِنْ قَالَهَا إِذَا أَمْسَى كَانَ لَهُ مِثْلُ ذَلِكَ حَتَّى يُصْبِحَ "
(صحيح أبي داود / ٥٠٧٩ ، وابن ماجة / ٣٨٦٨) .

المعنى الإجمالي

يخبرنا النَّبيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أنَّ الذي يقول هذا الذِّكر صباحًا ومساءً ، يُعطى من الأجر ما يساوي تحرير رَقَبَةٍ مِنْ ذرية إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَكُتِبَ لَهُ حَسَنَاتٍ ، وَحُطَّ عَنْهُ سَيِّئَاتٍ ، وَرُفِعَ لَهُ دَرَجَاتٍ ، وَدخل في حماية من الشَّيْطَانِ.

معاني الكلمات

(١) من (١) إلى (٦) ، تقَدَّم في الحديث قبله .
(٧) عَدْلُ رَقَبَةٍ : أَيْ : مِثْلُ عِتْقِهَا (عَدْلُ) وَهُوَ بِفَتْحِ الْعَيْنِ وَكَسْرِهَا بِمَعْنَى الْمِثْلِ .
(٨) ، (٩) : تقَدَّم في الحديث قبله .
(١٠) وَحُطَّ عَنْهُ : أَيْ : وُضِعَ وَمُحِيَ .
(١١) عَشْرُ سَيِّئَاتٍ :

قلت : (والقائل / عماد) : فائدة في السَّيِّئَةِ :

أصل السيئة : (سَيِوئَة) ووزنها بالميزان الصرفي : (فَيِعِلَة) فـ (ياء) (الفَيعِلَة) زائدة ، اجتمعت هي والواو التي في مكان العين ؛ لأن أصلها من (سَوَأ) فمادة الكلمة : فاؤها سين ، وعينها واو ، ولامها همز (سَوَأ) ،
فقيل في السيئة : (سيوِئة) على وزن (فَيْعِلة) اجتمعت ياء (الفَيعِلة) الزائدة ، والواو التي في محل العين سكنت إحداهما قبل الأخرى سكونًا غير عارض ، فأُبدلت الواو ياء على القاعدة التصريفية المشهورة ،
فقيل : (سيئة) فالياء الأولى زائدة ، والثانية مُبْدَلة من الواو التي في محل عَيْنِ الكَلِمَة .
والسيئة : هي الخصلة التي تسوء صاحبها إذا رآها في صحيفته يوم القيامة .
(وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوَءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا) (آل عمران / ٣٠) .
والسيئة ضد الحسنة ، وهي ما لا يحسن لدى الإنسان .
والسيئات قسمان :
أحدهما : سيئة سببها الشرك والمعاصي اللذان يورثان ظلمة وخبثًا في النفس ، وتحصل بمعصية الله ورسوله .
الثاني : سيئة سببها الانتقام أو الابتلاء الإلهي كالمرض وضياع المال ، والجوع والقحط ونحو ذلك .
عَنْ مُجَاهِدٍ ، قَوْلُهُ : (مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ) (الأعراف / ٩٥) ، قَالَ : السَّيِّئَةُ الشَّرُّ .

– وَذكر أهل التَّفْسِير أَن السيئة فِي الْقُرْآن على أوجه كالآتي :

– قال يحيى بن سلام بن أبي ثعلبة في التصاريف لتفسير القرآن مما اشتبهت أسمائه وتصرفت معانيه ،

وأبو الفرج بن الجوزي (المتوفى : ٥٩٧هـ) في نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر ،

وأبو هلال العسكري في الوجوه والنظائر ، وأَدْمَجْتُ كلامَهم في كلام بعض :

الوجه الأول : السَّيِّئة يعني القتل والهزيمة ، وذلك قوله في سورة (آل عمران / ١٢٠) : (وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ) يعني القتل والهزيمة يوم أُحد ، (يَفْرَحُواْ بِهَا) . ونظيرها في سورة النِّسَاء قال : (وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ) يعني القتل والهزيمة يوم أحد . وهو تفسير السُّدِّي .

الوجه الثاني : السيئة الشرك ، وذلك قوله في النمل : (وَمَن جَآءَ بالسيئة) يعني الشِّرك ، (فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النار) . ونظيرها في سورة القصص ، وقال تعالى : (وَمَن جَآءَ بالسيئة) (الأنعام / ١٦٠) .

وَمِنْه قَوْله تَعَالَى فِي سُورَة النِّسَاء : (وَلَيْسَت التَّوْبَة للَّذين يعْملُونَ السَّيِّئَات) ،

وَفِي يُونُس : (وَالَّذين كسبوا السَّيِّئَات جَزَاء سَيِّئَة بِمِثْلِهَا) .

الوجه الثالث : السيئة يعني قحط المطر والجدب وقلة النبات ، وذلك قوله :

(وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بموسى وَمَن مَّعَهُ) (الأعراف / ١٣١) .

يعني قحط المطر ، ونظيرها فيها ، قال : (مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ) (الأعراف / ٩٥) يعني مكان القحط المطر ، ومكان قلَّة النَّبات الخصب والخير . وقال أيضًا : (وَبَلَوْنَاهُمْ بالحسنات) كثرة المطر والخصب ، (والسيئات) قلَّة المطر والجدب . وقال في سورة الرّوم : (وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ) يعني قحط المطر . قال :

(بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ) يقول : بذنوبهم ، قال تعالى : (وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هذه مِنْ عِندِكَ) (النساء / ٧٨) .

الوجه الرابع : السيئة يعني العذاب في الدنيا ، وذلك قوله : (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بالسيئة قَبْلَ الحسنة) (الرعد / ٦) يعني بالعذاب في الدنيا ، (قَبْلَ الحسنة) يعني قبل العافية . وكقوله في سورة النَّمل : (لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بالسيئة) يعني بالعذاب في الدنيا ، (قَبْلَ الحسنة) يعني قبل العافية ، وَمِنْه قَوْله تَعَالَى فِي سورة الزمَر :

(فَأَصَابَهُمْ سيئات مَا كسبوا وَالَّذين ظلمُوا من هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سيئات مَا كسبوا) .

الوجه الخامس : والسيئة الأذى وقول الفحش والقول الرديء ، وذلك قوله في القصص : (وَيَدْرَؤُنَ بالحسنة السيئة) يقول : ويدفعون بالقول المعروف والعفو الأَذى والأَمر القبيح .

وقال في حم السَّجدة : (وَلاَ تَسْتَوِي الحسنة) يعني العفو والصفح ، (وَلاَ السيئة) يعني الشرّ من القول والأَذى .

ونظيرها في سورة المؤمنون ، قال : (ادفع بالتي هِيَ أَحْسَنُ السيئة) يقول : يدفع بالعفو والصَّفح القول القبيح والأَذى .

نظيرها في سورة الرّعد : (وَيَدْرَءُونَ بالحسنة السيئة) (الرعد / ٢٢) وفي حم السَّجدة .

– وَذكر أهل التَّفْسِير أَن السيئات فِي الْقُرْآن على أوجه كالآتي :

الأول : الشّرك . وَمِنْه قَوْله تَعَالَى فِي سُورَة النِّسَاء : (وَلَيْسَت التَّوْبَة للَّذين يعْملُونَ السَّيِّئَات) .

الثاني : المعاصي ، قال : (وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا) وارتفع (جزاء) بإضمار لهم ، أى : لهم :

(جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا) ، والسيئات هنا الكبائر من المعاصي .

الثالث : العذاب ، قال : (فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا) وسمي العذاب ، وهو فعلة سيئة ، كما سماه شرًّا في قوله : (فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ) وإنما سماه شرًّا وسيئة من أجل أنه مضرة .

الرابع : الضر ، قال الله : (بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي) وقال : (وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ) أي : بالضر وسوء الحال ، والبلوى من الله التكليف ، وأصلها استنارة العلم بالمبلو ، وَفِي هود : (ليَقُولن ذهب السَّيِّئَات عني) .

وَالخامس : الشَّرّ ، وَمِنْه قَوْله تَعَالَى فِي الْمُؤمن : (فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا) ، أي : الشر الذي أراده به فرعون .

السادس : الفاحشة – إتْيَان الرِّجَال – ، وَمِنْه قَوْله تَعَالَى فِي هود : (وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ) يعني : إتيان الرجال .

هل السيئات تتضاعف ؟ قال تعالى : (فَلاَ يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا) ومن هنا تعرفون أن ما يجري على ألسنة العامة : أن السيئات تضاعف في مكة كما تضاعف الحسنات ، أن ذلك الإطلاق لا يجوز ؛ لأن مضاعفة السيئات ممنوعة قطعًا ؛ لأن الله يقول : (وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا) وهو نص صريح قرآني في أن السيئات لا تُضَاعَف ، ولكن السيئة في حرم مكة مثلا تعظم ؛ لأن السيئة تعظم بحسب عظم الزمان والمكان ، فإذا عظمت السيئة عظم جزاؤها ؛ لأن الجزاء بحسب الذنب ، إذا عظم الذنب عظم الجزاء ، وإذا صَغُرَ الذنب صغر الجزاء ، فهو من عظم الذنب ، وعظم الجزاء تبعًا لعظم الذنب ، لا من المضاعفة ؛ لأن السيئات لا تضاعف ، ولكنها تعظم وتكون أكبر في زمان من زمان ، وفي محل من محل ؛ ولذا قال في حرم مكة : (وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ) (الحج / ٢٥) وقال في الأشهر الحرم : (مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ) ثم قال : (ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلاَ تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ) (التوبة / ٣٦) مع أن ظلم النفس في غيرهن حرام .

وهذا معنى قوله : (وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ) أي : والجميع لا يظلمون ، فلا يُزاد في سيئات المسيئ ، ولا يُنقص من حسنات المحسن ، بل حسنات المحسن تُزاد ، وسيئات المسيئ إما أن يُعفى عنها أو يُتجاوز ، وإن عُومل بها عُومِلَ بِوِزْرِهَا فَقَطْ عَدْلاً وإِنْصَافًا .

(١٢) وَرُفِعَ لَهُ عَشْرُ دَرَجَاتٍ : أَيْ : مِنْ دَرَجَاتِ الْجِنَانِ .

(١٣) ، (١٤) : تقَدَّم في الحديث قبله .

ما يستفاد من الحديث

(مَنْ قَالَ)

– التشويق والتحفيز ، وهذا من براعة الاستهلال ، حتى يهتم المستمع لما سيأتي .

(إِذَا أَصْبَحَ)

– استفتاح اليوم بذكر الله .

– أهمية أذكار الصباح والمساء .

– فضل وأهمية أذكار الصباح .

– حرص النَّبيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على الطاعة .

– مداومة النَّبيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على الأذكار .

– التأكيد على عبادة الوقت ، وهي أن كل عبادة في وقتها هي الأفضل .

– الحثّ على مداومة الذِّكر .

– أهمية أن يكون بداية اليوم بذكر الله .

– التأكيد على الذِّكر بها صباحًا .

(لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير)

– الحثّ على قول كلمة التوحيد ودوام ذكرها .

– الإقرار بأن لا معبود حقٌّ إلا الله ، ولا يلجأ العباد ويضرعون ويفزعون في كل ما ينوبهم إلا إلى الله .

– النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يعلمنا بأنه لما كَانَ الله مَالك الْملك كُلّه اسْتحق أَن تكون جَمِيع المحامد لَهُ دون غَيره ، فَلَا يجوز أَن يحمد غَيره .

– الاعتراف بأن الله بَالِغٌ فِي الْقُدْرَةِ ، كَامِلٌ فِي الْإِرَادَةِ والْقُوَّةِ ، مُنَزَّهٌ عَنِ الْعَجْزِ وَالْفَتْرَةِ ، لا يعجزه شيء في السماوات ولا في الأرض ، وَله الْقُدْرَة الْكَامِلَة الباهرة فِي السَّمَوَات وَالْأَرْض .

– وكما أن القرآن مفتتح بـ (الْحَمْدُ لِلَّه) ؛ فإننا نفتتح اليوم بـ (الْحَمْدُ لِلَّه) ، ونختمه بـ (الْحَمْدُ لِلَّه) كما هو ختام دعاء أهل الجنة ، (وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) (يونس / ١٠) .

(كَانَ لَهُ عِدْلُ رَقَبَةٍ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ)

– فضل عتق الرِّقاب .

– فضل العرب على غيرهم .

(وَكُتِبَ لَهُ عَشْرُ حَسَنَاتٍ)

– الحرص على اكتساب الحسنات .

– أهمية الحسنة .

(وَحُطَّ عَنْهُ عَشْرُ سَيِّئَاتٍ)

– الحرص على اجتناب السيئات .

– خطورة السيئة .

(وَرُفِعَ لَهُ عَشْرُ دَرَجَاتٍ)

– الحرص على اكتساب الدرجات .

– الجوائز العظيمة لهذا الذِّكر ومنها :

– عتق الرِّقاب وتحريرها من العبودية (ولما كانت هذه العبادة العظيمة والتي من ثوابها النجاة من النار ، قَالَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " مَنْ أَعْتَقَ رَقَبَةً مُسْلِمَةً أَعْتَقَ اللَّهُ بِكُلِّ عُضْوٍ مِنْهُ عُضْوًا مِنَ النَّارِ حَتَّى فَرْجَهُ بِفَرْجِهِ " (خ / ٦٧١٥ ، م / ١٥٠٩) ، فحتى لا نُحرَم من هذا الأجر ، دلَّنا النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على شيئ يسير عمله ، عظيم أجره ، وهو هذا الذِّكر .

– نَيلُ الحسنات ، وحط السيئات ، ورفع الدرجات .

(وَكَانَ فِي حِرْزٍ مِنَ الشَّيْطَانِ حَتَّى يُمْسِيَ)

– أهمية الاحتراز من الشيطان .

– التنبيه على خطر الشيطان .

(وَإِنْ قَالَهَا إِذَا أَمْسَى كَانَ لَهُ مِثْلُ ذَلِكَ حَتَّى يُصْبِحَ)

– الحث على مداومة الذِّكر .

– أهمية أذكار الصباح والمساء .

– ختم اليوم بذكر الله .

– فضل وأهمية أذكار المساء .

– حرص النَّبيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على الطاعة .

– مداومة النَّبيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على الأذكار .

– التأكيد على عبادة الوقت ، وهي أن كل عبادة في وقتها هي الأفضل .

– أهمية أن يكون ختام اليوم بذكر الله .

– فضل المحافظة والمداومة على أذكار المساء والصباح ، وأنها من أسباب الوقاية والفلاح .

أذكار تُقال عدة مرَّات

١١- عَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - :
" مَا مِنْ عَبْدٍ يَقُولُ فِي صَبَاحِ كُلِّ يَوْمٍ وَمَسَاءِ كُلِّ لَيْلَةٍ (١) : بِسْمِ اللَّهِ (٢) الَّذِي لَا يَضُرُّ مَعَ اسْمِهِ (٣) شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (٤) ، وَهُوَ السَّمِيعُ (٥) العَلِيمُ (٦) ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ (٧) ، فَيَضُرَّهُ شَيْءٌ (٨) "
(صحيح التِّرْمِذِيّ / ٣٣٨٨ واللفظ له ، أبو داود / ٥٠٨٨ صحيح ابن ماجة / ٣٨٩٦) .

المعنى الإجمالي

هذه كلمات يسيرة لكن فائدتها عظيمة فالله سبحانه وتعالى بيده ملكوت السماوات والأرض واسمه مُباركٌ إذا ذُكِر على الشيء ، فلا يجتمع قول عبد هذه الكلمات في هذه الأوقات ومضرة شيء إياه .

معاني الكلمات

(١) مَا مِنْ عَبْدٍ يَقُولُ فِي صَبَاحِ كُلِّ يَوْمٍ وَمَسَاءِ كُلِّ لَيْلَةٍ : أَيْ : بَعْدَ طُلُوعِ الْفَجْرِ وَبَعْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ ، وَمُتَعَلِّقُ الْبَاءِ بِبَسْمِ اللَّهِ هُوَ أَصْبَحْنَا وَأَمْسَيْنَا حَسْبَمَا يَقْتَضِيهِ الْمَقَامُ ، أَوْ مُتَعَلِّقُهُ أَسْتَعِينُ وَأَتَحَفَّظُ ، وَالْمَعْنَى أَذْكُرُ اسْمَهُ عَلَى وَجْهِ التَّعْظِيمِ وَالتَّبَرُّكِ .

(٢) بِسْمِ اللَّهِ : أَيْ : أَسْتَعِينُ أَوْ أَتَحَفَّظُ مِنْ كُلِّ مُؤْذٍ بِاسْمِ اللَّهِ .

(٣) الَّذِي لَا يَضُرُّ مَعَ اسْمِهِ : أَيْ : مَعَ ذِكْرِ اسْمِهِ بِاعْتِقَادٍ حَسَنٍ وَنِيَّةٍ خَالِصَةٍ ، أو : مع مصاحبة اسمه .

(٤) شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ : أَيْ : مِنَ الْبَلَاءِ النَّازِلِ مِنْهَا .

(٥) وَهُوَ السَّمِيعُ : أَيْ : بِأَقْوَالِنَا . السَّمِيعُ : اسم من أسماء الله الحسنى ومعناه : لغة :

١ - حِسّ الأُذُن ، وما وقر في الأُذُن من شئ يسمع .

٢ - ويأتي سَمِع بمعنى أجاب ، ومنه قول المصلي (سمع الله لمن حمده) أي : أجاب .

معناه في حق الله : ١ - الذي يسمع السِّرّ والنجوى ، سواء عنده الجهر والخفوت ، والنطق والسكوت .

٢ - وقد يكون السماع بمعنى : القَبول والإجابة كقول المُصَلِّي : (سمع الله لمن حمده) أي (قبل الله حمده) .

قال - تعالى - : (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ) (الشورى / ١١) .

(٦) الْعَلِيمُ : أَيْ : بِأَحْوَالِنَا ، العَلِيمُ : اسم من أسماء الله الحسنى ومعناه : لغة : العلم : نقيض الجهل ، وعلمت الشئ : عرفته وخبرته .

معناه في حق الله : العالم بالسرائر والخفيات التي لا يدركها علم الخلق (مما كان وما هو كائن وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف يكون في كل مكان وزمان) .

قال - تعالى - : (وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) (يس / ٣٨) .

(٧) ثَلَاثَ مَرَّاتٍ : ظَرْفُ يَقُولُ .

(٨) فَيَضُرَّهُ شَيْءٌ : بِالنَّصْبِ ، جَوَابُ مَا مِنْ عَبْدٍ ، وتقديره : لا يجتمع قول عبد هذه الكلمات في هذه الأوقات ومضرة شيء إياه ؛ فلا تنسى أن تقول في كل مساء وفي كل صباح ، بِسْمِ اللَّهِ الَّذِي لَا يَضُرُّ مَعَ اسْمِهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ، وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ .

ما يستفاد من الحديث

(مَا مِنْ عَبْدٍ يَقُولُ)

– بدأ الحديث بالعبودية لاستشعار الخضوع والخشوع لله .

– استشعار واستحضار عظمة وقدرة الله .

(فِي صَبَاحِ كُلِّ يَوْمٍ وَمَسَاءِ كُلِّ لَيْلَةٍ)

– الحث على مداومة الذِّكر .

– الإلحاح على الله بالذِّكر .

– فضل وأهمية أذكار الصباح والمساء .

– فضل بداية اليوم وختامه بذكر الله .

– حرص النَّبيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على الطاعة .

– مداومة النَّبيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على الأذكار ، دلَّ على المداومة (كان يفعل كذا) .

– استفتاح اليوم بذكر الله ، وختم اليوم بذكر الله .

– التأكيد على عبادة الوقت ، وهي أن كل عبادة في وقتها هي الأفضل .

– الحثّ على مداومة الذِّكر .

– فضل المحافظة والمداومة على أذكار المساء والصباح ، وأنها من أسباب الوقاية والفلاح .

– أهمية دوام الذكر مساءً وصباحًا .

(بِسْمِ اللَّهِ الَّذِي لَا يَضُرُّ مَعَ اسْمِهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ)

– التَّبرُّك ببِسْمِ اللَّهِ .

– على المسلم أن يبدأ دائمًا وأبدأ أفعاله وأقواله بـ (بِسْمِ اللَّهِ) .

– الله هو الحفيظ والمليك المقتدر الذي يتصف بصفات الجبروت والقوة والعزة فلا يخرج شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ عن مُلكِه وحُكْمِه وقدرته .

– فيه إشارة إلى توكل المؤمن على ربه والتجائه إليه .

(وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ)

– فيه إثبات لاسمين من أسماء الله الحسنى : السَّمِيعُ : الذي يسمع السِّرّ والنجوى ، سواء عنده الجهر والخفوت ، والنطق والسكوت ، وقد يكون السماع بمعنى : القبول والإجابة كقول المُصَلِّي : (سمع الله لمن حمده) أي (قبل الله حمده) .
الْعَلِيمُ : العالم بالسرائر والخفيات التي لا يدركها علم الخلق (مما كان وما هو كائن وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف يكون في كل مكان وزمان .

(ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، فَيَضُرَّهُ شَيْءٌ)

– مشروعية ذكرِ الله بأعداد معينة .
– مشروعية تكرار والإلحاح بالدعاء .
– الدعاء من أسباب الحفظ والوقاية .
– حرص النَّبِيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على تبليغ أمته كل خير .

١٢- عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ أَنَّهُ قَالَ لأَبِيهِ : يَا أَبَةِ [١] إِنِّي أَسْمَعُكَ تَدْعُو كُلَّ غَدَاةٍ [٢] :
" اللَّهُمَّ عَافِنِي فِي بَدَنِي [٣] ، اللَّهُمَّ [٤] عَافِنِي فِي سَمْعِي ، اللَّهُمَّ عَافِنِي فِي بَصَرِي [٥] ، لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ [٦] ،
تُعِيدُهَا ثَلاَثًا [٧] حِينَ تُصْبِحُ ، وَثَلاَثًا حِينَ تُمْسِي .
فَقَالَ : إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يَدْعُو بِهِنَّ ، فَأَنَا أُحِبُّ أَنْ أَسْتَنَّ [٨] بِسُنَّتِهِ [٩] "
(صحيح أبي داود / ٥٠٩٠ ، وصحيح الأدب المفرد) .

المعنى الإجمالي

هذا حوار بين التابعي عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ – يرحمه الله – وبين أبيه الصحابي أَبِي بَكْرَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – ؛ فيقول الابن لأبيه إِنِّي أَسْمَعُكَ تَدْعُو كُلَّ صباحٍ ، أو كل يومٍ بهذا الدعاء ، والذي تسأل الله فيه أن يُسَلِّمك من الآفات والأمراض في جميع بدنك عامةً ، وفي سمعك وبصرك خاصةً ، وتختم بكلمة التوحيد ، وتكرر هذا ثلاث مرات في الصباح ، ومثلها في المساء ، فلِمَ تفعلُ ذلك . قال الأب : إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يقول ويفعل هذا ، وأنا أحب الاقتداء والاهتداء بهديه .

معاني الكلمات

(١) يَا أَبَةِ : العامَّة يَقُولُونَ عِنْد نِدَاء الْأَبَوَيْنِ : يَا أبتي وَيَا أمتِي ، فيثبتون يَاء الْإِضَافَة فيهمَا مَعَ إِدْخَال تَاء التَّأْنِيث عَلَيْهِمَا ، قِيَاسا على قَوْلهم : يَا عَمَّتِي ، وَهُوَ وهم يشين وَخطأ مستبين ، وَوجه الْكَلَام أَن يُقَال : يَا أَبَتِ وَيَا أمتِ ، بِحَذْف الْيَاء والاجتزاء عَنْهَا بِالْكَسْرِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : (يَا أَبَتِ لم تعبد مَا لَا يسمع وَلَا يبصر وَلَا يُغني عَنْك شَيْئًا) (مريم / ٤٢) ، أَو يُقَال : يَا أبتا وَيَا أمَّتا بِإِثْبَات الْألف ، وَالِاخْتِيَار أَن يُوقف عَلَيْهِمَا بِالْهَاءِ ، فَيُقَال : يَا أبه وَيَا أمه . فهاء التأنيث تأتي عِوَضًا عن ياء المتكلم في مثل (يا أَبَة) و(يا أُمَّة) ، فإن المختار كما في (المختار) الوقف عليها بالهاء ، وكتابتها بهاء نظرًا للوقف وإن كانت لم تكتب
في المصحف إلا مجرورة (يَا أَبَتِ لَا تعبد الشَّيْطَان) (مريم / ٤٤) ،
(وقد قُرِئ بالوجْهَيْن للسبعة) كما في شرح الأشموني على الألفية ، قال مؤلفه : يجوز إبدال هذه التاء هاء ، وهو يدل على أنها تاء التأنيث . قال في " التسهيل " : وجعلها هاء في الخط والوقف جائز ، وقد قرئ بالوجهين في السبع ، قال الشاطبي في حرز الأماني :

٣٨٠ – وَقِفْ يَا أَبَهْ كُفْؤًا دَنَا وَكَأَيِّنِ ..... الْوُقُوفُ بِنُونٍ وَهْوَ بِالْيَاءِ حُصِّلا

ورسمت في المصحف بالتاء ، قرأ ابن كثير وابن عامر ، (وأبو جعفر ويعقوب) (وقفًا) (يا أبه) بالهاء .
وَقَالُوا فِي النِّداءِ : يَا أَبَتِ افْعَلْ ، (بكسْر التَّاءِ وفَتْحِها) .
قال الْجَوْهَرِيُّ : وَقَوْلُهُمْ يَا أَبَةِ افعلْ ، يَجْعَلُونَ علامةَ التأْنيث عِوَضًا مِنْ يَاءِ الإِضافة ، كَقَوْلِهِمْ فِي الأُمِّ يَا أُمَّةِ ، وتقِف عَلَيْهَا بِالْهَاءِ إِلا فِي الْقُرْآنِ الْعَزِيزِ فإنك تَقِفُ عَلَيْهَا بِالتَّاءِ . اتِّباعًا لِلْكِتَابِ ، وَقَدْ يَقِفُ بعضُ الْعَرَبِ عَلَى هَاءِ التأْنيث بِالتَّاءِ فَيَقُولُونَ : يَا طَلْحَتْ ، وإِنما لَمْ تسْقُط التَّاءُ فِي الوصْل مِنَ الأَب ، يَعْنِي فِي قَوْلِهِ يَا أَبَةِ افْعَل ، وسَقَطتْ مِنَ الأُمِّ إِذا قلتَ يَا أُمَّ أَقْبِلي ، لأَن الأَبَ لَمَّا كَانَ عَلَى حَرْفَيْنِ كَانَ كأَنه قَدْ أُخِلَّ بِهِ ، فَصَارَتِ الهاءُ لَازِمَةً وَصَارَتِ الياءُ كأَنها بَعْدَهَا .

قَالَ ابْنُ بَرّيّ : أُمّ مُنادَى مُرَخَّم ، حُذِفَتْ مِنْهُ التَّاءُ ، قَالَ : وَلَيْسَ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ مُضَافٌ رُخِّم فِي النِّداء غَيْرَ أُمّ ، كَمَا أَنه لَمْ يُرَخَّم نَكِرَةٌ غَيْرَ (صاحِب) فِي قَوْلِهِمْ يَا صاحِ ، وَقَالُوا فِي النِّدَاءِ يَا أَبَةِ ، ولَزِموا الحَذْف والعِوَض ، قالَ سِيْبَوَيْه : (وسَأَلْتُ الْخَليلَ عَن قَوْلِهم : (يَا أَبَهْ ، بالهاءِ ، وَيَا أَبَتِ ، وَيَا أَبَتاهُ وَيَا أُمَّتاهُ) ، فزَعَمَ أنَّ هَذِه الهاءَ مثْلُ الهاءِ فِي عَمَّه وخَالَه ، قَالَ : ويدلُّكَ على أَنَّ الهاءَ بمنْزِلَةِ الهاءِ فِي عَمَّه وخالَه أنَّك تقولُ فِي الوَقْفِ يَا أَبَهْ ، كَمَا تقولُ يَا خالَهْ ، وتقولُ يَا أَبَتاهْ كَمَا تقولُ يَا خالَتاهُ ، قالَ : وإنّما يلزمون هَذِه الهاءَ فِي النِّداءِ إذا أَضَفْتَ إِلَى نَفْسِك خَاصَّة ، كَأَنَّهَا جَعَلُوها عِوَضًا من حذْفِ الياءِ ، قَالَ : وأَرادُوا أَنْ يُخِلُّوا بالاسْمِ حينَ اجْتَمَعَ فِيهِ حَذْف النِّداء ، (وأَنَّهم لَا يَكادُونَ يقُولُونَ : (يَا أَباهُ) ، وصَارَ هَذَا مُحْتَملًا عنْدَهم لِمَا دَخَلَ النِّداءَ مِن الحَذْفِ والتَّغْيير ، فأَرَادُوا أَن يُعَوِّضوا هذَيْن الحَرْفَيْن ، واخْتَصّ النِّداء بذلِكَ لكَثْرتِه فِي كَلامِهم كَمَا اخْتصَّ بيا أَيُّها الرَّجُل .

(٢) غَدَاةٍ : أَي بَعْدَ صلاةِ الفَجْرِ ، غَدَاةٍ : أَيْ : صَبَاحٍ ، أَوْ كُلَّ يَوْمٍ ، وَفِي المِصْباح : الغَداةُ الضّحْوَةُ .

(٣) اللَّهُمَّ عَافِنِي فِي بَدَنِي : أي : سلِّمْني من الآفاتِ والأمراض والآلام في بدني ، وعافاه الله معافاة وعافية : وهب له العافية من العلل والبلايا .

(٤) اللَّهُمَّ : تقدَّمت في حديث سيد الاستغفار .

(٥) عَافِنِي فِي سَمْعِي ، اللَّهُمَّ عَافِنِي فِي بَصَرِي : خاص بعد عام ؛ فقوله بدني شامل لكل الجسم ، ولكن خصص هاتين الحاستين ؛ لأنهما الطريق إلى القلب ؛ الذي بصلاحه يصلح الجسد كله ، وبفساده يفسد الجسد كله ، وخَصَّهُمَا بِالذِّكْرِ لِأَنَّ الْبَصَرَ يُدْرِكُ آيَاتِ اللَّهِ الْمُثْبَتَةَ فِي الْآفَاقِ ، وَالسَّمْعَ لِإِدْرَاكِ الْآيَاتِ الْمُنَزَّلَةِ عَلَى الرُّسُلِ ، فَهُمَا جَامِعَانِ لِدَرْكِ الْأَدِلَّةِ النَّقْلِيَّةِ وَالْعَقْلِيَّةِ ، ومن باب عطف الخاص على العام ؛ وذلك لعظم شأن السمع والبصر ، وإلا فقد دخلا تحت العافية في البدن ؛ لأنهما من جملة البدن .

وَفِي تَقَدُّمِ السَّمْعِ إِيمَاءٌ إِلَى أَفْضَلِيَّتِهِ وَمِنْهُ قَوْلُهُ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " اللَّهُمَّ مَتِّعْنَا بِأَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا وَقُوَّتِنَا مَا أَحْيَيْتَنَا وَاجْعَلْهُمَا الْوَارِثَ مِنَّا "

– **قلت : (والقائل / عماد) :** فائدة في التفضيل بين السمع والبصر :

وقبل أن أَذْكُر اختلاف أهل العلم في هذه المسألة أسألُ بعضَ الأسئلة التي تدعونا إلى التدبر :

هل جاء في القرآن تقديم البصر على السمع مع اختلاف تصريفاتها (السمع والبصر – السميع والبصير – السمع والأبصار ...) ؟ وإذا جاء ، فكم مرة قُدِّم البصر وفي أي سورة ولماذا قُدِّم ؟ وهل تقدُّم السمع لتقدُّم الخلق ولأن السمع خُلق قبل البصر فقط ؟ أم أن هذا إشارة إلى الأفضلية ؟

هل جاء في القرآن السمع مجموعًا في مقابلة الأبصار ولماذا (وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة) ؟

فائدة :

– الله سُبْحَانَهُ فِي الْقُرْآن يُعدّد على عباده من نِعَمه عَلَيْهِم أن أعطاهم آلَات الْعلم فيذكر الْفُؤَادَ والسمعَ والأبصارَ وَمرَّة يذكر اللِّسَان الَّذِي يُترجم بِهِ عَن الْقلب فَقَالَ تَعَالَى فِي سُورَة النِّعم وَهِي سُورَة النَّحْل الَّتِي ذكر فِيهَا أصول النعم وفروعها ومتمماتها ومكملاتها فعدَّد نِعَمه فِيهَا على عباده وتعرَّف بهَا إليهم واقتضاهم شكرها وَأخْبَر أنه يُتمهَا عَلَيْهِم ليعرفوها ويذكروها ويشكروها فأولها فِي أصول النعم وَآخِرهَا فِي مكملاتها قَالَ تَعَالَى :

(وَالله أخرجكم من بطُون أُمَّهَاتكُم لَا تعلمُونَ شَيْئًا وَجعل لكم السّمع والأبصار والأفئدة لَعَلَّكُمْ تشكرون) فَذكر سُبْحَانَهُ نعْمَته عَلَيْهِم بَأن أخرجهم لَا علم لَهُم ثمَّ أعطاهم الأسماع والأبصار والأفئدة الَّتِي نالوا بهَا من الْعلم مانالوه وأنه فعل بهم ذَلِك ليشكروه وَقَالَ تَعَالَى : (وَجَعَلنَا لَهُم سمعًا وأبصارًا وأفئدة فَمَا أغْنى عَنْهُم سمعهم وَلَا أَبْصَارهم وَلَا أفئدتهم من شَيْء) وَقَالَ تَعَالَى : (ألم نجْعَل لَهُ عينين وَلِسَانًا وشفتين وهديناه النجدين) فَذكر هُنَا الْعَينَيْنِ الَّتِي يبصر بهما فَيعلم المشاهدات وَذكر هِدَايَة النجدين وهما طَرِيقا الْخَيْر وَالشَّر وَفِي ذَلِك حَدِيث عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود (وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ) (البلد / ١٠) قَالَ : (الْخَيْرَ وَالشَّرَّ) وَهُوَ قَول أكثر الْمُفَسّرين وتدل عَلَيْهِ الآية الأخرى (إِنَّا هديناه السَّبِيل إِمَّا شاكرًا وَإِمَّا كفورًا) وَالْهِدَايَة تكون بِالْقَلْبِ والسمع فقد دخل السّمع فِي ذَلِك لُزُومًا وَذكر اللِّسَان والشفتين اللَّتَيْنِ هما آلَة التَّعْلِيم فَذكر آلات الْعلم والتعليم وَجعلهَا من آيَاته الدَّالَّة عَلَيْهِ وعَلى قدرته ووحدانيته ونِعَمه الَّتِي تعرَّف بهَا إلى عباده ، وَلما كَانَت هَذِه الأعضاء الثَّلَاثَة الَّتِي هِيَ أشرف الأعضاء وملوكها والمتصرفة فِيهَا والحاكمة عَلَيْهَا ، خصها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِالذكر فِي السُّؤَال عَنْهَا فَقَالَ : (إِن السّمع وَالْبَصَر والفؤاد كل أولئك كَانَ عَنهُ مسؤلا) فسعادة الإنسان بِصِحَّة هَذِه الأعضاء الثَّلَاثَة ، وشقاوته بفسادها ، قَالَ ابْن عَبَّاس : يسْأَل الله الْعباد فِيمَا استعملوا هَذِه الثَّلَاثَة السّمع وَالْبَصَر والفؤاد وَالله تَعَالَى أعطى العَبْد السّمع ليسمع بِهِ أوامر ربه ونواهيه وعهوده ، وَالْقلب ليعقلها ويفقهها ، وَالْبَصَر ليرى آيَاته فيستدل بهَا على وحدانيته وربوبيته .

وَلما كَانَ للسمع وَالْبَصَر من الإدراك مَا لَيْسَ لغَيْرِهِمَا من الأعضاء كَانَا فِي أشرف جُزْء من الإنسان وَهُوَ وَجهه ، وَكَانَا من أفضل مَا فِي الإنسان من الأجزاء والأعضاء وَالْمَنَافِع . وَاخْتلف فِي الأفضل مِنْهُمَا ،

– فَقَالَت طَائِفَة مِنْهُم أبو الْمَعَالِي وَغَيرُه : السّمع أفضل ، قَالُوا لأن بِهِ تُنَال سَعَادَة الدُّنْيَا والآخرة فإنها إنما تحصل بمتابعة الرُّسُل وَقبُول رسالاتهم وبالسمع عرف ذَلِك فإن من لَا سمع لَهُ لَا يعلم مَا جاؤا بِهِ .

وأيضًا فان السّمع يُدْرك بِهِ أجل شَيْء وأفضله وَهُوَ كَلَام الله تَعَالَى الَّذِي فَضلُه على الْكَلَام كفضل الله على خلقه .

وبه ينال غاية السعادة من سمع كلام الله وسماع كلام رسوله .

وأيضًا فان الْعُلُوم إنما تُنَال بالتفاهم والتخاطب وَلَا يحصل ذَلِك إلا بِالسَّمْعِ .

وأيضًا فان مدركه أعم من مدرك الْبَصَر فإنه يدْرك الكليات والجزئيات وَالشَّاهِد وَالْغَائِب وَالْمَوْجُود والمعدوم ، وَالْبَصَر لَا يدْرك إلا بعض المشاهدات ، والسمع يسمع كل علم فأين أحدهما من الآخر ، وَلَو فَرضنَا شَخْصَيْنِ أحدهما يسمع كَلَام الرَّسُول – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَلَا يرى شخصه والآخر بَصِير يرَاهُ وَلَا يسمع كَلَامه لصممه ، هَل كَانَا سَوَاء ؟ .

قالوا وبه حصلت العلوم النافعة ، قالوا وبه يدرك الحاضر والغائب والمحسوس والمعقول فلا نسبة لمدرك البصر إلى مدرك السمع قالوا ولهذا يكون فاقده أقل علمًا من فاقد البصر بل قد يكون فاقد البصر أحد العلماء الكبار بخلاف فاقد صفة السمع فإنه لم يُعهد من هذا الجنس عالِم البتة .

وأيضًا ففاقد الْبَصَر إنما يفقد إدراك بعض الأمور الْجُزْئِيَّة الْمُشَاهدَة ويمكنه مَعْرفَتهَا بِالصّفةِ وَلَو تَقْرِيبًا ، وأما فَاقِد السّمع فَالَّذِي فَاتَهُ من الْعلم لَا يُمكن حُصُوله بحاسة الْبَصَر وَلَو قَرِيبًا .

وأيضًا فإن ذمّ الله تَعَالَى للْكفَّار بِعَدَمِ السّمع فِي الْقُرْآن أكثر من ذمه لَهُم بِعَدَمِ الْبَصَر بل إنما يذمهم بِعَدَمِ الْبَصَر تبعًا لعدم الْعقل والسمع .

وأيضًا فإن الَّذِي يُورِدهُ السّمع على الْقلب من الْعُلُوم لَا يلْحقهُ فِيهِ كلال وَلَا سآمة وَلَا تَعب مَعَ كثرته وعِظَمه ، وَالَّذِي يُورِدهُ الْبَصَر عَلَيْهِ يلْحقهُ فِيهِ الكلال والضعف وَالنَّقْص وَرُبمَا خشى صَاحبه على ذَهَابه مَعَ قلته بِالنِّسْبَةِ إلى السّمع .

وَقَالَت طَائِفَة : بل الْبَصَر أفضل فإن أعلى النَّعيم وأفضلَه وأعظمَه لَذَّةً هُوَ النّظر إلى الله فِي الدَّار الآخرة ، وَهَذَا إنما يُنَال بالبصر ، لِأَنَّ مُتَعَلّقهَا رُؤْيَةُ وَجْهِ الرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ فِي دَارِ النَّعِيمِ . وَلَا شَيْءَ أَعْلَى وَأَجَلَّ مِنْ هَذَا التَّعَلُّقِ . وَهَذِه وَحدهَا كَافِيَة فِي تفضيله .

قَالُوا وَهُوَ مُقَدِّمَة الْقلب وطليعته ورائده فمنزلته مِنْهُ أقْربْ من منزلَة السّمع وَلِهَذَا كثيرًا مَا يُقرن بَينهمَا – القلب والبصر – فِي الذّكر بقوله : (فاعتبروا يَا أولي الْأَبْصَار) فالاعتبار بِالْقَلْبِ وَالْبَصَر بِالْعينِ ، وَقَالَ تَعَالَى : (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كَمَا لم يُؤمنُوا بِهِ أول مرّة) وَلم يقل وأسماعهم وَقَالَ تَعَالَى : (فَإِنَّهَا لَا تعمى الْأَبْصَار وَلَكِن تعمى الْقُلُوب الَّتِي فِي الصُّدُور) ، وَقَالَ تَعَالَى : (قُلُوب يَوْمئِذٍ واجفة أبصارها خاشعة) ، وَقَالَ تَعَالَى : (يعلم خَائِنَة الْأَعْين وَمَا تخفي الصُّدُور) ، وَقَالَ فِي حق رَسُوله : (مَا كذب الْفُؤَاد مَا رأى) ثمَّ قَالَ : (مَا زاغ الْبَصَر وَمَا طَغى) هَذَا يدل على شدَّة الوصلة والارتباط بَين الْقلب وَالْبَصَر وَلِهَذَا يقْرَأ الإنسان مَا فِي قلب الآخر من عينه وَهَذَا كثير فِي كَلَام النَّاس نظمه ونثره وَهُوَ أكثر من أن نذكرهُ هُنَا ، قَالُوا وأيضًا فالبصر يُؤدي الى الْقلب وَيُؤَدِّي عَنهُ فإن الْعين مرْآة الْقلب يظْهر فِيهَا مَا يُحِبهُ من الْمحبَّة والبغض والموالاة والمعاداة وَالسُّرُور والحزن وَغَيرهَا وَأما الْأُذُن فَلَا تُؤَدّى عَن الْقلب شَيْئًا الْبَتَّةَ وَإِنَّمَا مرتبتها الإيصال إليه حسب فالعين أشد تعلقًا بِهِ .

وَلما كَانَ الْقلب أشرف الأعضاء كَانَ أشدها ارتباطًا بِهِ وأشرف من غَيره ، قَالُوا وَلِهَذَا يأتمنه الْقلب مَالا يأتمن السّمع عَلَيْهِ بل إِذا ارتاب من جِهَة عرض مَا يَأْتِيهِ بِهِ على الْبَصَر ليزكيه أم يردهُ فالبصر حَاكم عَلَيْهِ مؤتمن عَلَيْهِ .

قَالُوا وَمن هَذَا حدِيث ابْن عَبَّاسٍ : عَنِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ :

" لَيْسَ الْخَبَرُ كَالْمُعَايَنَةِ ، قَالَ اللَّهُ لِمُوسَى : إِنَّ قَوْمَكَ صَنَعُوا كَذَا وَكَذَا فَلَمَّا يُبال ، فَلَمَّا عَايَنَ ألقى الألواح "

(صحيح ابن حِبَّان ، انظر حديث رقم : ٥٣٧٤ في صحيح الجامع) .

قَالُوا وَلِهَذَا أخبر الله سُبْحَانَهُ مُوسَى أن قومه افتتنوا من بعده وعبدوا الْعجل فَلم يلْحقهُ فِي ذَلِك مَا لحقه عِنْد رُؤْيَة ذَلِك ومعاينته من إلقاء الألواح وَكسرهَا لفوت المعاينة على الْخَبَر .

قَالُوا وَهَذَا إِبْرَاهِيم خَلِيل الله يسْأَل ربه أن يريه كَيفَ يحيي الْمَوْتَى وَقد علم ذَلِك بِخَبَر الله لَهُ وَلَكِن طلب أفضل الْمنَازل وَهِي طمأنينة الْقلب .

قَالُوا ولليقين ثَلَاث مَرَاتِب أولها للسمع ، وَثَانِيها للعين وَهِي الْمُسَمَّاة بِعَين الْيَقِين وَهِي أفضل من الْمرتبَة الأولى وأكمل . وَلِأَنَّهُ عَيْنُ الْيَقِينِ . وَغَايَةُ مُدْرَكِ حَاسَّةِ السَّمْعِ عِلْمُ الْيَقِينِ . وَعَيْنُ الْيَقِينِ أَفْضَلُ ، وَأَكْمَلُ مِنْ عِلْمِ الْيَقِينِ .

– وقالوا لِكَمَالِ مُدْرَكِهَا . وَامْتِنَاعِ الْكَذِبِ فِيهِ . وَزَوَالِ الرَّيْبِ وَالشَّكِّ بِهِ .

والذي يراه البصر لا يقبل الغلط بخلاف ما يُسمع فإنه يقع فيه الغلط والكذب والوهم فمدرك البصر أتم وأكمل .

– وَحَكَمَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ – رَحِمَهُ اللَّهُ – بَيْنَ الطَّائِفَتَيْنِ حُكْمًا حَسَنًا . فَقَالَ : الْمُدْرَكُ بِحَاسَّةِ السَّمْعِ أَعَمُّ وَأَشْمَلُ . وَالْمُدْرَكُ بِحَاسَّةِ الْبَصَرِ أَتَمُّ وَأَكْمَلُ . فَلِلسَّمْعِ الْعُمُومُ وَالشُّمُولُ ، وَالْإِحَاطَةُ بِالْمَوْجُودِ وَالْمَعْدُومِ ، وَالْحَاضِرِ وَالْغَائِبِ ، وَالْحِسِّيِّ وَالْمَعْنَوِيِّ ، وَلِلْبَصَرِ: التَّمَامُ وَالْكَمَالُ .

– وَقَالَ ابن القيم فِي مَوْضِعٍ آخَرَ مِنْ كِتَابِ مِفْتَاحِ دَارِ السَّعَادَةِ : وَاخْتَلَفَ النُّظَّارُ فِي الضَّرِيرِ وَالأَطْرَشِ أَيُّهُمَا أَقْرَبُ إِلَى الْكَمَالِ وَأَقَلُّ اخْتِلالا لأُمُورِهِ ، وَهَذَا مَبْنِيٌّ عَلَى أَصْلٍ وَهُوَ أَيُّ الصِّفَتَيْنِ أَكْمَلُ ، صِفَةِ السَّمْعِ أَوْ صِفَةِ الْبَصَرِ ، ثُمَّ أَشَارَ إِلَى مَا قَدَّمْنَا وَأَنَّهُ أَيُّ الصِّفَتَيْنِ كَانَ أَكْمَلَ فَالضَّرَرُ بِعَدَمِهَا أَقْوَى .

ثُمَّ قَالَ : وَالَّذِي يَلِيقُ بِهَذَا الْمَوْضِعِ أَنْ يُقَالَ : عَادِمُ الْبَصَرِ أَشَدُّهُمَا ضَرَرًا ، وَأَسْلَمُهُمَا دِينًا وَأَحْمَدُهُمَا عَاقِبَةً .

وَعَادِمُ السَّمْعِ أَقَلُّهُمَا ضَرَرًا فِي دُنْيَاهُ ، وَأَجْهَلُهُمَا بِدِينِهِ ، وَأَسْوَأُ عَاقِبَةً ، فَإِنَّهُ إِذَا عَدِمَ السَّمْعَ عَدِمَ الْمَوَاعِظَ وَالنَّصَائِحَ ، وَانْسَدَّتْ عَلَيْهِ أَبْوَابُ الْعُلُومِ النَّافِعَةِ ، وَانْفَتَحَ لَهُ طُرُقُ الشَّهَوَاتِ الَّتِي يُدْرِكُهَا الْبَصَرُ ، وَلا يَنَالُهُ مِنْ الْعِلْمِ مَا يَكُفُّهُ عَنْهَا . فَضَرَرُهُ فِي دِينِهِ أَكْثَرُ ، وَضَرَرُ الأَعْمَى فِي دُنْيَاهُ أَكْثَرُ .

وَلِهَذَا لَمْ يَكُنْ فِي الصَّحَابَةِ – رضي الله عنهم – أَطْرَشُ ، وَكَانَ فِيهِمْ جَمَاعَةٌ أَضِرَّاءُ ، وَقَلَّ أَنْ يَبْتَلِيَ اللَّهُ أَوْلِيَاءَهُ بِالطَّرَشِ ، وَيَبْتَلِي كَثِيرًا مِنْهُمْ بِالْعَمَى .

فَهَذَا فَصْلُ الْخِطَابِ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ ، فَمَضَرَّةُ الطَّرَشِ فِي الدِّينِ ، وَمَضَرَّةُ الْعَمَى فِي الدُّنْيَا ، وَالْمُعَافَى مَنْ عَافَاهُ اللَّهُ مِنْهُمَا وَمَتَّعَهُ بِسَمْعِهِ وَبَصَرِهِ ، وَجَعَلَهُ الْوَارِثَ مِنْهُ . انْتَهَى .

وَالْحَاصِلُ أَنَّ الْقَلْبَ أَفْضَلُ الْجَوَارِحِ ، إِذْ هُوَ الْمَلِكُ ، ثُمَّ اللِّسَانَ ، ثُمَّ السَّمْعَ لِسَعَةِ إِدْرَاكِهِ ، ثُمَّ الْبَصَرُ عَلَى اخْتِلافٍ فِي الأَخِيرَيْنِ كَمَا ذَكَرْنَا . وَأَمَّا الأَوَّلانِ فَلا خِلافَ فِيهِمَا فِيمَا عَلِمْنَا .

وَلِذَا يُلْحَقُ مَنْ عَدِمَ الْبَيَانَيْنِ بَيَانَ اللِّسَانِ وَبَيَانَ الْجَنَانِ بِالْحَيَوَانَاتِ الْبَهِيمِيَّةِ ، بَلْ هِيَ أَحْسَنُ حَالا مِنْهُ ، وَإِنْ عَدِمَ بَيَانَ اللِّسَانِ وَحْدَهُ عَدِمَ خَاصِّيَّةَ الإِنْسَانِ وَهِيَ النُّطْقُ وَاشْتَدَّتْ الْمُؤْنَةُ بِهِ وَعَلَيْهِ ، وَعَظُمَتْ حَسْرَتُهُ فَطَالَ تَأَسُّفُهُ عَلَى رَدِّ الْجَوَابِ وَرَجْعِ الْخِطَابِ ، فَهُوَ كَالْمُقْعَدِ الَّذِي يَرَى مَا هُوَ مُحْتَاجٌ إِلَيْهِ وَلا تَمْتَدُّ يَدُهُ إِلَيْهِ .

فَجَلَّ شَأْنُ اللَّهِ كَمْ لَهُ مِنْ نِعْمَةٍ عَلَى عِبَادِهِ سَابِغَةٍ فِي هَذِهِ الأَعْضَاءِ وَالْقُوَى وَالْمَنَافِعِ ، فَحِكْمَتُهُ سُبْحَانَهُ بَالِغَةٌ .

وَهَذِهِ مَسْأَلَةٌ شَرِيفَةٌ قَلَّ أَنْ تَعْثُرَ عَلَيْهَا فِي كِتَابٍ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ .

وَالصَّوَاب : أن كُلًّا مِنْهُمَا لَهُ خاصية فُضِّل بهَا الآخر فالمدرَك بِالسَّمْعِ أعم وأشمل والمدرك بالبصر أتم وأكمل فالسمع لَهُ الْعُمُوم والشمول ، وَالْبَصَر لَهُ الظُّهُور والتمام وَكَمَال الادراك ، وأما نعيم أهل الْجنَّة فشيئآن أحدهما النّظر الى الله ، وَالثَّانِي سَماع خطابه وَكَلَامه .

وَمَعْلُوم ان سَلَامه عَلَيْهِم وخطابه لَهُم ومحاضرته إياهم لَا يشبهها شَيْء قطّ وَلَا يكون أطيب عِنْدهم مِنْهَا وَلِهَذَا يذكر سُبْحَانَهُ فِي وَعِيد أعدائه أنه لايكلمهم كَمَا يذكر احتجابه عَنْهُم وَلَا يرونه فَكَلَامه أعلى نعيم أهل الْجنَّة وَالله اعْلَم .

ذَكَرَ بعضُ العلماءِ فَصْلًا في بيان أفضلية السمع على البصر ، وساق الأقوال في ذلك ، ثم انتصر لقول أن السمع أفضل من البصر لأدلة ومن ذلك : –

١ – أن الله قَدَّم مُتَعَلّق السمع على مُتَعَلّق العين فقال : (صم بكم عمي) والتقدم دليل أفضلية .

٢ – لأن السمع شرط في النُّبوة بخلاف البصر فلم يأتِ نبيٌّ أصمّ وقد وُجد من الأنبياء من طرأ عليه العمى كإسحاق ويعقوب وشعيب .

وَلِهَذَا كَانَ الصَّحِيحُ مِنَ الْقَوْلَيْنِ : أَنَّ حَاسَّةَ السَّمْعِ أَفْضَلُ مِنْ حَاسَّةِ الْبَصَرِ لِشَدَّةِ تَعَلُّقِهَا بِالْقَلْبِ ، وَعِظَمِ حَاجَتِهِ إِلَيْهَا . وَتَوَقُّفِ كَمَالِهِ عَلَيْهَا . وَوُصُولِ الْعُلُومِ إِلَيْهِ بِهَا ، وَتَوَقُّفِ الْهُدَى عَلَى سَلَامَتِهَا .

(٦) لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ : إِقْرَارٌ وَاعْتِرَافٌ بِالْأُلُوهِيَّةِ وهذا كَمَالُ الْعُبُودِيَّةِ ، هي كلمة التوحيد ، ولأهميتها أقول : (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) : أَيْ : لَا مَعْبُودَ حقٌ فِي الْوُجُودِ إِلَّا اللَّهُ الْوَاجِبُ الْوُجُودِ لِذَاتِهِ أَيْ : الْمُسْتَحِقُّ لِلْعُبُودِيَّةِ وَالثَّابِتُ الْأُلُوهِيَّةُ فِي تَوْحِيدِ ذَاتِهِ وَتَفْرِيدِ صِفَاتِهِ .

(والإله) : هو المألوه ، لا إله يعني : لا مألوه ، ولا أحد يستحق أن يؤله ، أي : تألهه القلوب وتوده وتحبه وتعظمه وتقر له بالعبودية ، غير الله تعالى .

(إِلَّا اللَّهُ) : اسم الجلالة : هُوَ اسْمٌ لَمْ يُسَمَّ بِهِ غَيْرُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ؛ والله : اسم علم على الإله المعبود بحق ، و(الله) معناه : ذو الألوهية ، والألوهية معناها : العبادة ، يقال : أَلَهَ يألَهُ : بمعنى : عبَد يعبُد ، فالألوهية معناها : العبادة ، فـ (اللهِ) معناه : ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين ، وقد تقدَّم الكلام عنه في الحديث الأول .

(٧) تُعِيدُهَا ثَلَاثًا : أَيْ : هَذِهِ الْجُمَلَ ، أَوْ هَذِهِ الدَّعَوَاتِ .

(٨) فَأَنَا أُحِبُّ أَنْ أَسْتَنَّ : أَيْ : أَقْتَدِي .

(٩) بِسُنَّتِهِ : وَأَتَتَبَّعَ سِيرَتَهُ .

ما يستفاد من الحديث

(يَا أَبَتِهِ)

– البر بالأب وتوقيره ومخاطبته بما يجب له من الاحترام والأدب .

– أدب التابعين وأبناء الصحابة .

(إِنِّي أَسْمَعُكَ تَدْعُو كُلَّ غَدَاةٍ)

– الصحابة يربُّون مَنْ تحت أيديهم بالتربية بالقدوة وهي من أهم طرق التربية .

– مشروعية رفع الصوت بالدعاء .

– مشروعية رفع الصوت بأذكار الصباح والمساء .

– حرص التابعين على التعلُّم والتربية من أكابرهم وأولي الفضل .

– أهمية صلاة الغداة – الفجر – وفضل الذِّكر بعدها .

(اللَّهُمَّ عَافِنِي فِي بَدَنِي)

– مشروعية الدعاء بـ (اللهم) .

– الإقرار والاعتراف لله بالقدرة الكاملة وأنه يملك أن يهب الخلق العافية .

(اللَّهُمَّ عَافِنِي فِي سَمْعِي ، اللَّهُمَّ عَافِنِي فِي بَصَرِي)

– التفصيل بعد الإجمال ؛ فبعدما دعا بالمعافاة في البدن إجمالًا فصَّل وذكر السمع والبصر .

– فضل حاستي السمع والبصر خاصة .

– الإشارة إلى فضل السمع على البصر .

(لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ)

– الإقرار والاعتراف بتوحيد الألوهية وأنه لا معبود حقٌ إلا الله .

– مشروعية خطاب الله بـ (أنت) وأنه لا ينافي الأدب .

(تُعِيدُهَا ثَلاثًا)

– مشروعية ذكرِ الله بأعداد معينة .

– مشروعية التكرار والإلحاح بالدعاء .

(حِينَ تُصْبِحُ ، وَثَلاثًا حِينَ تُمْسِي)

– فضل وأهمية أذكار الصباح والمساء .

– فضل بداية اليوم وختامه بذكر الله .

– حرص النَّبيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على الطاعة .

– مداومة النَّبيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على الأذكار ، دلَّ على المداومة (كان يفعل كذا) .

– استفتاح اليوم بذكر الله ، وختم اليوم بذكر الله .

– التأكيد على عبادة الوقت ، وهي أن كل عبادة في وقتها هي الأفضل .

– الحثّ على مداومة الذِّكر .

– فضل المحافظة والمداومة على أذكار المساء والصباح ، وأنها من أسباب الوقاية والفلاح .

– أهمية دوام الذكر مساءً وصباحًا .

(فَقَالَ إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يَدْعُو بِهِنَّ فَأَنَا أُحِبُّ أَنْ أَسْتَنَّ بِسُنَّتِهِ)

– فضل الصحابي أَبِي بَكْرَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – في قُربه من النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وسماعه منه ما كان يقوله صباحًا ومساءً .

– فضل الصحابة – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم – في شدة تأسيهم واقتدائهم بالنبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – .

– مداومتهم على فعل ما عهدوه منه – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – حتى بعد موته .

١٣- عَنْ أَبِي أَيُّوبَ الأَنْصَارِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهُ قَالَ :

" مَنْ قَالَ حِينَ يُصْبِحُ (١) : لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ (٢) وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ (٣) ، لَهُ الْمُلْكُ (٤) وَلَهُ الْحَمْدُ (٥) ، يُحْيِي وَيُمِيتُ (٦) وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٧) ، عَشْرَ مَرَّاتٍ ، كَتَبَ اللَّهُ (٨) لَهُ بِكُلِّ وَاحِدَةٍ (٩) قَالَهَا عَشْرَ حَسَنَاتٍ (١٠) ، وَحَطَّ (١١) اللَّهُ عَنْهُ بِهَا عَشْرَ سَيِّئَاتٍ (١٢) ، وَرَفَعَهُ اللَّهُ بِهَا عَشْرَ دَرَجَاتٍ (١٣) ، وَكُنَّ (١٤) لَهُ (١٥) كَعَشْرِ رِقَابٍ (١٦) ، وَكُنَّ لَهُ مَسْلَحَةً (١٧) مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ إِلَى آخِرِهِ ، وَلَمْ يَعْمَلْ يَوْمَئِذٍ عَمَلًا يَقْهَرُهُنَّ (١٨) ، فَإِنْ قَالَ حِينَ يُمْسِي (١٩) ، فَمِثْلُ ذَلِكَ (٢٠) "

(رواهُ أحمدُ ، صحيح الترغيب / ٦٦٠) .

المعنى الإجمالي

يحثنا النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - على قول كلمة التوحيد (لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ، يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) والإكثار من ذكرها والمداومة عليها حتى نحيا بها ونموت عليها ، وعلَّمَنا أن الذي يقول هذا الذِّكر ، ينال هذه الأجور العظيمة .

معاني الكلمات

(١) يُصْبِحُ : تقدَّم ذكرها كثيرًا .

(٢) من (٢) - (٧) : تقدَّم في الحديث الرابع .

(٨) كَتَبَ اللَّهُ لَهُ : أَيْ أَثْبَتَ .

(٩) بِكُلِّ وَاحِدَةٍ : أي من المرات أو من الكلمات .

(١٠) عَشْرَ حَسَنَاتٍ : تقدَّم في الحديث التاسع .

(١١) وَحَطَّ اللَّهُ عَنْهُ بِهَا : أَيْ وَضَعَ وَمَحا .

(١٢) عَشْرَ سَيِّئَاتٍ : تقدَّم في الحديث العاشر .

(١٣) وَرَفَعَهُ اللَّهُ بِهَا عَشْرَ دَرَجَاتٍ : أَيْ : مِنْ دَرَجَاتِ الْجِنَانِ .

(١٤) وَكُنَّ : أي الكلمات .

(١٥) لَهُ : أي للقائل .

(١٦) كَعَشْرِ رِقَابٍ : خُصَّت الرقبة دون سائر الأعضاء مع أن العتق ينتاول الجميع - لأن حكم السيد عليه وملكه له كحبل في رقبة العبد وكالغل المانع له من الخروج فإذا أعتق فكأنه أطلقت رقبته من ذلك .

– قلت : (والقائل / عماد) : – إشكال وجوابه :

فإن قيل : جاء في حديث أَبِي عَيَّاشٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – : " مَنْ قَالَ إِذَا أَصْبَحَ ، لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، كَانَ لَهُ عِدْلُ رَقَبَةٍ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ .

وفي حديث أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – : " مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، بَعْدَمَا يُصَلِّي الْغَدَاةَ ، كُتِبَ لَهُ عَشْرُ حَسَنَاتٍ ، وَكُنَّ لَهُ عِتْقَ رَقَبَتَيْنِ " .

وفي حديث أَبِي أَيُّوبَ الأَنْصَارِيِّ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – : " مَنْ قَالَ حِينَ يُصْبِحُ : لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ، يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، عَشْرَ مَرَّاتٍ ، كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِكُلِّ وَاحِدَةٍ قَالَهَا عَشْرَ حَسَنَاتٍ ، وَحَطَّ اللَّهُ عَنْهُ بِهَا عَشْرَ سَيِّئَاتٍ ، وَرَفَعَهُ اللَّهُ بِهَا عَشْرَ دَرَجَاتٍ ، وَكُنَّ لَهُ كَعَشْرِ رِقَابٍ " .

وفي حديث أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – : " مَنْ قَالَ : لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، فِي يَوْمٍ مِئَةَ مَرَّةٍ ، كَانَتْ لَهُ عَدْلَ عَشْرِ رِقَابٍ " .

الجملة المذكورة واحدة ، والأجر المترتب عليها مختلف ؛ فمرة رَقَبَةٍ ، ومرة رَقَبَتَيْنِ ومرة عَشْرِ رِقَابٍ ،

فكيف نوفق بين هذه الأحاديث وهل من قال هذه الجملة له (رَقَبَةٍ ، أم رَقَبَتَيْنِ أم عَشْرِ رِقَابٍ) ؟

وَذِكْرُ الْعَشْرِ الرِّقَابِ فِي بَعْضِهَا رَقَبَةٍ رَقَبَتَيْنِ و رَقَبَتَيْنِ فِي بَعْضِهَا كَأَنَّهُ بِاعْتِبَارِ الذَّاكِرِينَ فِي اسْتِحْضَارِهِمْ مَعَانِيَ الْأَلْفَاظِ بِالْقُلُوبِ ، وَإِمْحَاضِ التَّوَجُّهِ وَالْإِخْلَاصِ لِعَلَّامِ الْغُيُوبِ فَيَكُونُ اخْتِلَافُ مَرَاتِبِهِمْ بِاعْتِبَارِ ذَلِكَ وَبِحَسَبِهِ كَمَا قَالَ الْقُرْطُبِيُّ .

(١٧) وَكُنَّ لَهُ مَسْلَحَةً : قَالَ الْكِرْمَانِي : المسلحة ، بِفَتْحِ الْمِيمِ : صَاحِبُ السِّلَاحِ ، قَالَ الْجَوْهَرِي : المسلحة قوم ذَوُو سلَاح ، والمسلحة كالثغر والمرقب ، وَقَالَ ابْنُ الْأَثِيرِ فِي النِّهَايَةِ : الْمَسْلَحَةُ : الْقَوْمُ الَّذِينَ يَحْفَظُونَ الثُّغُورَ مِنَ الْعَدُوِّ ، وَسُمُّوا مَسْلَحَةً لِأَنَّهُمْ يَكُونُونَ ذَوِي سِلَاحٍ ، أَوْ لِأَنَّهُمْ يَسْكُنُونَ الْمَسْلَحَةَ ، وَهِيَ كَالثَّغْرِ ، وَالْمَرْقَبُ يَكُونُ فِيهِ أَقْوَامٌ يَرْقُبُونَ الْعَدُوَّ ؛ لِئَلَّا يَطْرُقَهُمْ عَلَى غَفْلَةٍ ، فَإِذَا رَأَوْا أَعْلَمُوا أَصْحَابَهُمْ ؛ لِيَتَأَهَّبُوا لَهُ ، وَالْجمع مسالح .

(١٨) عَمَلًا يَقْهَرُهُنَّ : أي يغلبهن ، يعني يفوقهن في الفضل إلا من عمل أفضل من عمله كما في بعض الروايات .

(١٩) فَإِنْ قَالَ حِينَ يُمْسِي : تقدَّم قبل ذلك كثيرًا .

(٢٠) فَمِثْلُ ذَلِكَ : أي في الأجر .

ما يستفاد من الحديث

(مَنْ قَالَ)

– التشويق والتحفيز ، وهذا من براعة الاستهلال ، حتى يهتم المستمع لما سيأتي .

(حِينَ يُصْبِحُ)

– استفتاح اليوم بذكر الله .

– أهمية أذكار الصباح والمساء .

– حرص النَّبيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على الطاعة .

– مداومة النَّبيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على الأذكار .

– التأكيد على عبادة الوقت ، وهي أن كل عبادة في وقتها هي الأفضل .

(لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الْمُلْكُ)

– الحثّ على قول كلمة التوحيد ودوام ذكرها .

– النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يُقِرُّ لله بِتَصَرُّفِهِ وَتَقْرِيرِهِ وَمَشِيئَتِهِ وَتَقْدِيرِهِ ، وأنه يملك جَمِيعَ الْأُمُورِ .

– الإقرار بأن لا معبود حقٌّ إلا الله ، ولا يلجأ العباد ويضرعون ويفزعون في كل ما ينوبهم إلا إلى الله .

(وَلَهُ الْحَمْدُ)

– النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يعلمنا بأنه لما كَانَ الله مَالك الْملك كُلِّه اسْتحق أَن تكون جَمِيع المحامد لَهُ دون غَيره ، فَلَا يجوز أَن يحمد غَيره .

– وكما أن القرآن مفتتح بـ (الْحَمْدُ لِلَّه) ؛ فإننا نفتتح اليوم بـ (الْحَمْدُ لِلَّه) ، ونختمه بـ (الْحَمْدُ لِلَّه) كما هو ختام دعاء أهل الجنة ، (وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) (يونس / ١٠) .

(يُحْيِي وَيُمِيتُ)

– الإقرار والاعتراف لله بأنه هو الذي يملك الإحياء والإماتة .

– الخضوع لله والشجاعة والإقدام إذ لا يملك الإحياء والإماتة إلا هو .

(وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

– الاعتراف بأن الله بَالِغٌ فِي الْقُدْرَةِ ، كَامِلٌ فِي الْإِرَادَةِ والْقُوَّةِ ، مُنَزَّهٌ عَنِ الْعَجْزِ وَالْفَتْرَةِ ، لا يعجزه شيء في السماوات ولا في الأرض ، وَله الْقُدْرَة الْكَامِلَة الباهرة فِي السَّمَوَات وَالْأَرْض .

(عَشْرَ مَرَّاتٍ)

– مشروعية ذكرِ الله بأعداد معينة .

– مشروعية التكرار والإلحاح بالدعاء .

(كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِكُلِّ وَاحِدَةٍ قَالَهَا عَشْرَ حَسَنَاتٍ)

– الحرص على اكتساب الحسنات .

– أهمية الحسنة .

(وَحَطَّ اللَّهُ عَنْهُ بِهَا عَشْرَ سَيِّئَاتٍ)

– الحرص على اجتناب السيئات .

– خطورة السيئة .

(وَرَفَعَهُ اللَّهُ بِهَا عَشْرَ دَرَجَاتٍ)

– الحرص على اكتساب الدرجات .

(وَكُنَّ لَهُ كَعَشْرِ رِقَابٍ)

– فضل عتق الرِّقاب .

– عتق الرِّقاب وتحريرها من العبودية (ولما كانت هذه العبادة العظيمة والتي من ثوابها النجاة من النار ، قَالَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " مَنْ أَعْتَقَ رَقَبَةً مُسْلِمَةً أَعْتَقَ اللَّهُ بِكُلِّ عُضْوٍ مِنْهُ عُضْوًا مِنَ النَّارِ حَتَّى فَرْجَهُ بِفَرْجِهِ " (خ / ٦٧١٥ ، م / ١٥٠٩) ، فحتى لا نُحرَم من هذا الأجر ، دلَّنا النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على شيئ يسير عمله ، عظيم أجره ، وهو هذا الذِّكر .

(وَكُنَّ لَهُ مَسْلَحَةً مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ إِلَى آخِرِهِ ، وَلَمْ يَعْمَلْ يَوْمَئِذٍ عَمَلًا يَقْهَرُهُنَّ)

– أهمية الأخذ بالأسباب والاستعداد للعدو وإعداد العُدَّة .

– أهمية الاحتراز من الأعداء (الشياطين) .

– التنبيه على خطر الشيطان .

– فضل هذه الدعوات وأن من قالهن لا يفوقه في الفضل إلا من عمل أفضل من عمله .

– إثبات وإطلاق كلمة العمل على القول ، إذ إن العمل يشمل عمل اللسان وعمل الجوارح والأركان .

(فَإِنْ قَالَ حِينَ يُمْسِي ، فَمِثْلُ ذَلِكَ)

– الحث على مداومة الذِّكر . – ختم اليوم بذكر الله . – فضل وأهمية أذكار المساء .

– حرص النَّبيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على الطاعة .

– مداومة النَّبيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على الأذكار .

– التأكيد على عبادة الوقت ، وهي أن كل عبادة في وقتها هي الأفضل .

– أهمية أن يكون ختام اليوم بذكر الله .

– فضل المحافظة والمداومة على أذكار المساء والصباح ، وأنها من أسباب الوقاية والفلاح .

١٤ – عَنْ أَبِي أَيُّوبَ الأَنْصَارِيِّ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – أَنَّهُ قَالَ وَهُوَ فِي أَرْضِ الرُّومِ : إِنَّ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ : " مَنْ قَالَ غُدْوَةً (١) : لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢) ، عَشْرَ مَرَّاتٍ ، كَتَبَ اللهُ لَهُ (٣) عَشْرَ حَسَنَاتٍ (٤) ، وَمَحَا عَنْهُ (٥) عَشْرَ سَيِّئَاتٍ (٦) ، وَكُنَّ (٧) لَهُ (٨) بِقَدْرِ عَشْرِ رِقَابٍ (٩) ، وَأَجَارَهُ اللهُ مِنَ الشَّيْطَانِ (١٠) ، وَمَنْ قَالَهَا عَشِيَّةً (١١) كَانَ لَهُ مِثْلُ ذَلِكَ (١٢) "

(أخرجه النَّسائِيُّ في السنن الكبرى وفي عمل اليوم والليلة ، صحيح الترغيب / ٦٦٠) (*) .

المعنى الإجمالي

يحثنا النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على قول كلمة التوحيد (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) والإكثار من ذكرها والمداومة عليها حتى نحيا بها ونموت عليها ، وعلَّمَنا أن الذي يقول هذا الذِّكر ، ينال هذه الأجور العظيمة من كتابة الحسنات ومحو السيئات وتحرير الرقاب والحماية من وسوسة الشيطان ، وتلك الأجور ينالها إذا قالها في الصباح ، وينالها أيضًا إذا قالها في المساء ففضل الله واسع .

معاني الكلمات

(١) غُدْوَةً : الغُدْوَةُ ، بالضَّمِّ : البُكْرةُ ، وَفِي الصِّحاح : صَلاة الغَدَاةِ ، وَفِي المِصْباح : صَلاةِ الصُّبْح ؛ (وطُلوعِ الشَّمسِ) ، والجَمْعُ : غُدًى ، كمُدْيَةٍ ومُدًى (السِّكِين) .

وَفِي المِصْباح : الغَداةُ الضّحْوَةُ ، وَهِي مُؤنَّثَة .

قالَ ابنُ الأنْبارِي : وَلم يُسْمَع تَذْكِيرها ، وَلَو حَمَلَها حامِلٌ على مَعْنى أَوَّل النَّهارِ جازَ لَهُ التَّذْكِير ؛ وقولُه تَعَالَى : (بالغَدَاةِ والعَشيّ) ؛ أَي بَعْدَ صلاةِ الفَجْرِ وصَلاةِ العَصْر ؛ وقيلَ : يَعْني بهما دَوامَ عِبادَتِهم .

(٢) لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ : تقدَّم في الحديث الرابع .

(٣) كَتَبَ اللَّهُ لَهُ : أَيْ أَثْبَتَ .

(٤) عَشْرَ حَسَنَاتٍ : تقدَّم في الحديث التاسع .

(٥) وَمَحَا عَنْهُ : أزال ، يقال : محوته محوًا ومحيته محيًا : أزلته ، وذلك بأن يمحوها من صحف الحفظة ، محاها من صحائفه أو غفرها حتى كأن لم يكن ، وَالْمَحْوُ أَبْلَغُ مِنَ الْغُفْرَانِ .

(٦) عَشْرَ سَيِّئَاتٍ : تقدَّم في الحديث العاشر .

(٧) وَكُنَّ : أي الكلمات .

(٨) لَهُ : أي للقائل .

(٩) بِقَدْرِ عَشْرِ رِقَابٍ : أي بما يساوي عِتق وتحرير عشر رقاب من الرِّق والعبودية .

(*) وعند ابن حِبَّان / ٢٠٢٠ بلفظ : " من قَالَ إِذَا أَصْبَحَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ عَشْرَ مَرَّاتٍ كُتِبَ لَهُ بِهِنَّ عَشْرُ حَسَنَاتٍ ومُحِي بِهِنَّ عَنْهُ عَشْرُ سَيِّئَاتٍ ورُفِع لَهُ بِهِنَّ عَشْرُ دَرَجَاتٍ وكُنَّ لَهُ عَدْلَ عِتاقة أَرْبَعِ رِقَابٍ وكُنَّ لَهُ حَرَسًا مِنَ الشَّيْطَانِ حَتَّى يُمْسِيَ وَمَنْ قَالَهُنَّ إِذَا صَلَّى الْمَغْرِبَ دُبُرَ صلاته فمثل ذلك حتى يُصبح " .

(١٠) وَأَجَارَهُ اللهُ مِنَ الشَّيْطَانِ : أي : حمَاهُ ومنَعهُ وأَنْقَذَهُ وَخَلَّصَهُ من الشَّيْطَان ونزغه ووسوسته وإلقائه وكيده .

(١١) عَشِيَّةً : العَشِيَّةُ ، كغَنِيَّةٍ : آخِرُ النَّهارِ . وَفِي الصِّحاح : مِن صَلاةِ المَغْرِبِ إِلَى العَتَمَةِ ، وقيلَ : العَشِيُّ بِلَا هاءٍ آخِرُ النّهارِ ، فَإِذا قُلْتَ : عَشِيَّة ، فَهُوَ لِيَوْمٍ واحِدٍ ويُقالُ جِئْتُه عَشِيَّة وعَشِيَّةً وأَتَيْتُه العَشِيَّةَ ، لِيَوْمِك ، وأَتَيْته عَشِيَّ غدٍ ، بِلا هاءٍ ، إِذا كانَ للمُسْتَقْبلِ ، وأَتَيْتك عَشِيًّا غَيْرَ مُضافٍ ، وأَتَيْته بالعَشِيّ والغَدِ : أَي كلَّ عَشِيَّةٍ وغَدَاةٍ . وَلَهُم رزْقُهم فِيهَا بُكْرَةً وعَشِيًّا ، إِنَّمَا هُوَ فِي مِقْدارِ مَا بينَ الغَدَاةِ والعَشِيّ .

وَقَالَ الراغِبُ : العَشِيُّ مِن زَوالِ الشَّمْسِ إِلَى الصَّباح ؛ وقالَ الأَزْهري : وَإِذا زَالَتِ الشمْسُ دُعِيَ ذلكَ الوَقْتُ العَشِيّ ، ويَقَعُ العَشِيُّ على مَا بينَ الزَّوالِ والغُروبِ ؛ كلُّ ذلكَ عَشِيٌّ ، فَإِذا غابَتْ فَهُوَ العِشاءُ . وقال الخليل في العين : العشيّ ، آخر النّهار ، فإذا قلت : عَشِيّة فهي ليومٍ واحد ، تقول : لقيتُه عشيّةَ يوم كذا (كان معرفة) ، وعشيّةً من العَشِيّاتِ (كان نكرة) ، وإذا صغّروا العشيّ قالوا : عُشَيشِيان ، وذلك عند الشَّفَى وهو آخر ساعة من النّهار عند مُغَيْرِبان الشّمس . ويجوز في تصغير عَشيّة : عُشَيَّة ، وعُشَيشِيَة .

(١٢) كَانَ لَهُ مِثْلُ ذَلِكَ : أي في الأجر .

ما يستفاد من الحديث

(وَهُوَ فِي أَرْضِ الرُّومِ)

– التحرك لنشر الدين بالجهاد والدعوة .

– فضل الصحابي الجليل أَبِي أَيُّوبَ الأَنْصَارِيّ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – في نشر الدين .

– وفضله في جهاده وتضحيته بنفسه وماله ووقته لرفعة هذا الدين .

– فضل الصحابة – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم – في نشر الدين .

– أخذ العبرة من هؤلاء الصحابة الذين ضَحّوا بالنفس والنفيس لكي يصل إلينا هذا الدين .

– النظر بعين الإجلال لهؤلاء الصحابة ومعرفة فضلهم علينا .

– ما يجب علينا في اتّباع نهجهم وإيصال الدّين غير منقوص إلى مَنْ بعدنا .

– التحرك لنشر الدين بالدعوة أيضًا .

– وهو في أرض الروم يُبَلِّغُ كلام المعصوم ، – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وهذا فيه فضل الصحابي الجليل أَبِي أَيُّوبَ الأَنْصَارِيّ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – خاصَّة ، والصحابة – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم – عامَّة في نشر الدين وتبليغ دعوة خير المرسلين .

(مَنْ قَالَ)

– التشويق والتحفيز ، وهذا من براعة الاستهلال ، حتى يهتم المستمع لما سيأتي .

(حِينَ يُصْبِحُ)

– استفتاح اليوم بذكر الله .

– أهمية أذكار الصباح .

– حرص النَّبيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على الطاعة .

– مداومة النَّبيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على الأذكار .

– التأكيد على عبادة الوقت ، وهي أن كل عبادة في وقتها هي الأفضل .

(لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الْمُلْكُ)

– الحثّ على قول كلمة التوحيد ودوام ذكرها .

– النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يُقِرُّ لله بِتَصَرُّفِهِ وَتَقْرِيرِهِ وَمَشِيئَتِهِ وَتَقْدِيرِهِ ، وأنه يملك جَمِيعَ الْأُمُورِ .

– الإقرار بأن لا معبود حقٌّ إلا الله ، ولا يلجأ العباد ويضرعون ويفزعون في كل ما ينوبهم إلا إلى الله .

(وَلَهُ الْحَمْدُ)

– النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يعلمنا بأنه لما كَانَ الله مَالك الْملك كُلِّه اسْتحق أَن تكون جَمِيع المحامد لَهُ دون غَيره ، فَلَا يجوز أَن يحمد غَيره .

– وكما أن القرآن مفتتح بـ (الْحَمْدُ لِلَّه) ؛ فإننا نفتتح اليوم بـ (الْحَمْدُ لِلَّه) ، ونختمه بـ (الْحَمْدُ لِلَّه) كما هو ختام دعاء أهل الجنة ، (وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) (يونس / ١٠) .

(وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

– الاعتراف بأن الله بَالِغٌ فِي الْقُدْرَةِ ، كَامِلٌ فِي الْإِرَادَةِ والْقُوَّةِ ، مُنَزَّهٌ عَنِ الْعَجْزِ وَالْفَتْرَةِ ، لا يعجزه شيء في السماوات ولا في الأرض ، وَله الْقُدْرَة الْكَامِلَة الباهرة فِي السَّمَوَات وَالْأَرْض .

(عَشْرَ مَرَّاتٍ)

– مشروعية ذكرِ الله بأعداد معينة .

– مشروعية التكرار والإلحاح بالدعاء .

(كَتَبَ اللهُ لَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ)

– الحرص على اكتساب الحسنات .

– أهمية الحسنة .

(وَمَحَا عَنْهُ عَشْرَ سَيِّئَاتٍ)

– الحرص على اجتناب السيئات .

– خطورة السيئة .

– الإيمان والتسليم لله بأنه القادر على محو السيئات .

(وَكُنَّ لَهُ بِقَدْرِ عَشْرِ رِقَابٍ)

– فضل عتق الرِّقاب .

– عتق الرِّقاب وتحريرها من العبودية (ولما كانت هذه العبادة العظيمة والتي من ثوابها النجاة من النار ، قَالَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " مَنْ أَعْتَقَ رَقَبَةً مُسْلِمَةً أَعْتَقَ اللَّهُ بِكُلِّ عُضْوٍ مِنْهُ عُضْوًا مِنَ النَّارِ حَتَّى فَرْجَهُ بِفَرْجِهِ " (خ / ٦٧١٥ ، م / ١٥٠٩) ، فحتى لا نُحرَم من هذا الأجر ، دلَّنا النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على شيئ يسير عمله ، عظيم أجره ، وهو هذا الذِّكر .

(وَأَجَارَهُ اللهُ مِنَ الشَّيْطَانِ)

– أهمية الاحتراز من الأعداء (الشياطين) .

– التنبيه على خطر الشيطان .

– فيه بيان حماية الله للعبد الذَّاكر من الشَّيْطَان ونزغه ووسوسته وإلقائه وكيده .

– قوة وقدرة الله وأنه لا غالب له ، تعطي العبد اليقين الخالص والثقة التامة إذا كان في حماية القوي العزيز فمن يقدر علي أذيته أو مَسِّه بسوءٍ أو ضرر .

(وَمَنْ قَالَهَا عَشِيَّةً)

– الحث على مداومة الذِّكر .

– ختم اليوم بذكر الله .

– فضل وأهمية أذكار المساء .

– حرص النَّبيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على الطاعة .

– مداومة النَّبيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على الأذكار .

– التأكيد على عبادة الوقت ، وهي أن كل عبادة في وقتها هي الأفضل .

– أهمية أن يكون ختام اليوم بذكر الله .

– فضل المحافظة والمداومة على أذكار المساء والصباح ، وأنها من أسباب الوقاية والفلاح .

(كَانَ لَهُ مِثْلُ ذَلِكَ)

– غنى الله وسَعَة خزائنه ؛ فلو افترضنا أن مليار مسلم في هذا الزمان يقولون هذا الذِّكر ، والله يُعطِي كل إنسان العشرة المذكورة فيكون ناتج مليار ضرب عشرة يساوي عشرة مليار من كل صنف من الأصناف الثلاثة المذكورة (كتاية حسنات ، محو سيئات ، تحرير رقبات) ، وبالحساب أقول : ١٠٠٠٠٠٠٠٠٠ × ١٠ = ١٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ (عشرة مليار) هذا في الصباح ، ومثلها في المساء ، وفي هذا الزمان فقط ، فكيف بمن سبقونا وبمن سيأتون إلى قيام الساعة ، فلا شك أنها أعداد يعجز العقل عن عدِّها ، فسبحان الغني الوهاب الكريم المنان .

١٥- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - :
" مَنْ قَالَ : حِينَ يُصْبِحُ وَحِينَ يُمْسِي (١) : سُبْحَانَ اللهِ (٢) وَبِحَمْدِهِ (٣) ، مِائَةَ مَرَّةٍ ، لَمْ يَأْتِ أَحَدٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ (٤) ، إِلَّا أَحَدٌ قَالَ مِثْلَ مَا قَالَ أَوْ زَادَ عَلَيْهِ (٥) "
(م / ٢٦٩٢) .

المعنى الإجمالي

يُعلِّمنا ويحثنا النبي- صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - على أن يقول المسلم حِينَ يُصْبِحُ وَحِينَ يُمْسِي : (سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ ، مِائَةَ مَرَّةٍ) وأن مَن قال ذلك ، لَمْ يَأْتِ أَحَدٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ ، إِلَّا أَحَدٌ قَالَ مِثْلَ مَا قَالَ أَوْ زَادَ عَلَيْهِ في عدد المرات .

معاني الكلمات

(١) حِينَ يُصْبِحُ وَحِينَ يُمْسِي : تقدَّم في الأحاديث قبله كثيرًا .
(٢) سُبْحَانَ اللهِ : أَيِ : الْمُنَزَّهُ عَنْ كُلِّ عَيْبٍ وَآفَةٍ ، و تَنْزِيهُهُ عَمَّا لَا يَلِيقُ بِهِ مِنْ نَقْصٍ فَيَلْزَمُ مِنْهُ نَفْيُ الشَّرِيكِ وَالصَّاحِبِ وَالْوَلَدِ وَجَمِيعِ مَا لَا يَلِيقُ ، وَالتَّسْبِيحُ يُطْلَقُ عَلَى جَمِيعِ أَلْفَاظِ الذِّكْرِ ، وَيُطْلَقُ عَلَى صَلَاةِ النَّافِلَةِ ، وَمِنْهُ صَلَاةُ التَّسْبِيحِ خُصَّتْ بِذَلِكَ لِكَثْرَةِ التَّسْبِيحِ فِيهَا . وَفِيهِ أَنَّهُ تُكَفَّرُ بِهَذَا الذِّكْرِ الْخَطَايَا وَظَاهِرُهُ وَلَوْ كَبَائِرَ ، وَالْعُلَمَاءَ يُقَيِّدُونَ ذَلِكَ بِالصَّغَائِرِ وَيَقُولُونَ لَا تُمْحَى الْكَبَائِرُ إِلَّا بِالتَّوْبَةِ .
وأما معنى (سُبْحَانَ) ؛ فيقول علماء فقه اللغة : الأصل في وضع الألفاظ للمعاني الأشياء المحسوسة الملموسة ، ثم ينتقل بها إلى المعنويات ، نعلم أن سبحان الله هو تنزيه الله عما لا يليق بجلاله ، ومادة (سُبْحَانَ) أصلها من سبح ، وسبح المحسوس الذي يسبح في الماء ، ولماذا يسبح الإنسان في الماء ؟ لئلا يغرق ، فكذلك المسبّح لله ؛ لئلا يغرق في بحار الشرك ، ولينزه الله ويبعده عما لا يليق بجلاله كما يبعد نفسه عن مهالك الغرق .
(٣) وَبِحَمْدِهِ : أَيْ : أُنَزِّهُهُ مِنْ كُلِّ سُوءٍ ، وَأَبْتَدِئُ بِحَمْدِهِ ، أَيْ : سُبْحَانَكَ بِجَمِيعِ آلَائِكَ وَبِحَمْدِكَ سَبَّحْتُكَ ؛ فهذا تَنْزِيهٌ مَمْزُوجٌ بِالْحَمْدِ ، إِشَارَةٌ إِلَى تَقْدِيمِ التَّخْلِيَةِ عَلَى التَّحْلِيَةِ . فَإِنَّ التَّسْبِيحَ يَتَضَمَّنُ نَفْيَ الشَّرِيكِ الَّذِي هُوَ التَّهْلِيلُ ، وَيَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ كَوْنُهُ أَكْبَرَ . وقدَّم التسبيح على الحمد لأن الأول تنزيه عن صفات النقص ، والثاني نتاج بصفات الكمال والتخلية مقدمة على التحلية .
والحمد : ثناء على المحمود لكمال ذاته وصفاته ، ولا ينبغي هذا أبدًا ولا يجمع إلا للمولى سبحانه ؛ لأنه كامل الذات والصفات ، فإذا قلت : (سبحان الله) نزهته عن كل ما لا يليق بجلاله ، وإذا قلت : (الحمد لله) أثبت لله جميع صفات المحامد والكمال ، وهذا أقصى منتهى التوحيد .
(٤) لَمْ يَأْتِ أَحَدٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ أَيِ : الْقَائِلُ (بِهِ) : وَهُوَ قَوْلُ الْمِائَةِ الْمَذْكُورَةِ .

– قلت : (والقائل / عماد) : – إشكال وجوابه :

قَدْ أُورِدَ عَلَى هَذَا سُؤَالٌ وَهُوَ أَنَّهُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ التَّسْبِيحَ أَفْضَلُ مِنْ التَّهْلِيلِ ، فَإِنَّهُ قَالَ فِي التَّهْلِيلِ " إنَّ مَنْ قَالَ مِائَةَ مَرَّةٍ فِي يَوْمٍ مُحِيَتْ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ " وَهُنَا قَالَ حُطَّتْ عَنْهُ خَطَايَاهُ وَلَوْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ ، وَالْأَحَادِيثُ دَالَّةٌ عَلَى أَنَّ التَّهْلِيلَ أَفْضَلُ ، فَقَدْ أَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَصَحَّحَهُ ابْنُ حِبَّانَ وَالْحَاكِمُ مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ مَرْفُوعًا " أَفْضَلُ الذِّكْرِ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ ، وَأَفْضَلُ مَا قُلْت أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ ، وَهِيَ كَلِمَةُ التَّوْحِيدِ وَالْإِخْلَاصِ ، وَقيل : هِيَ اسْمُ اللَّهِ الْأَعْظَمُ " وَمَعْنَى التَّسْبِيحِ دَاخِلٌ فِيهَا فَإِنَّهُ التَّنْزِيهُ عَمَّا لَا يَلِيقُ بِاَللَّهِ ، وَهُوَ دَاخِلٌ فِي لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ لَهُ الْمُلْكُ إلَخْ وَفَضَائِلُهَا عَدِيدَةٌ .

وَأُجِيبَ عَنْهُ بِأَنَّهُ انْضَافَ إلَى ثَوَابِ التَّهْلِيلِ مَعَ التَّكْفِيرِ ثَلَاثَةُ أُمُورٍ : رَفْعُ الدَّرَجَاتِ ، وَكَتْبُ الْحَسَنَاتِ ، وَعِتْقُ الرِّقَابِ ، وَالْعِتْقُ يَتَضَمَّنُ تَكْفِيرَ جَمِيعِ السَّيِّئَاتِ فَإِنَّهُ مَنْ أَعْتَقَ رَقَبَةً أَعْتَقَ اللَّهُ بِكُلِّ عُضْوٍ مِنْهَا عُضْوًا مِنْهُ مِنْ النَّارِ كَمَا سَلَفَ .

وَظَاهِرُ الْأَحَادِيثِ أَنَّ هَذِهِ الْفَضَائِلَ لِكُلِّ ذَاكِرٍ . وَذَكَرَ الْقَاضِي عَنْ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ أَنَّ الْفَضْلَ الْوَارِدَ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ وَالْأَذْكَارِ إنَّمَا هُوَ لِأَهْلِ الْفَضْلِ فِي الدِّينِ وَالطَّهَارَةِ مِنْ الْجَرَائِمِ الْعِظَامِ وَلَيْسَ مَنْ أَصَرَّ عَلَى شَهَوَاتِهِ ، وَانْتَهَكَ دِينَ اللَّهِ وَحُرُمَاتِهِ بِلَا حَقٍّ مِنْ الْأَفَاضِلِ الْمُطَهَّرِينَ فِي ذَلِكَ وَيَشْهَدُ لَهُ قَوْله تَعَالَى : (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) (الجاثية / ٢١) الْآيَةَ .

(٥) إلَّا أَحَدٌ قَالَ مِثْلَ مَا قَالَ أَوْ زَادَ عَلَيْهِ : قَالَ الطِّيبِيُّ – رَحِمَهُ اللَّهُ – : دَلَّ الْحَدِيثُ عَلَى أَنَّ مَنْ زَادَ عَلَى الْعَدَدِ الْمَذْكُورِ كَانَ لَهُ الْأَجْرُ الْمَذْكُورُ وَالزِّيَادَةُ ، فَلَيْسَ مَا ذَكَرَهُ تَحْدِيدًا لَا يَجُوزُ الزِّيَادَةُ عَلَيْهِ كَمَا فِي عَدَدِ الطَّهَارَةِ وَعَدَدِ الرَّكَعَاتِ . اهـ . وَلَعَلَّ الْفَرْقَ أَنَّ الْأَوَّلَ لِلتَّشْرِيعِ وَالثَّانِي لِلتَّرْغِيبِ .

قَالَ النَّوَوِيُّ : فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَوْ قَالَ هَذَا أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ مَرَّةٍ فِي الْيَوْمِ كَانَ لَهُ هَذَا الْأَجْرُ الْمَذْكُورُ .

– فَإِن قلت : الشَّرْط فِي هَذَا أَن يَقُول : الذّكر الْمَنْصُوص عَلَيْهِ بِالْعدَدِ مُتَتَابِعًا أم لَا ؟ وَالشّرط أَن يكون فِي مجْلِس وَاحِد أم لَا ؟ قلت : كل مِنْهُمَا لَيْسَ بِشَرْط ، وَلَكِن الْأَفْضَل أَن يَأْتِي بِهِ مُتَتَابِعًا ، وَأَن يُرَاعِي الْوَقْت الَّذِي عين فِيهِ .

ما يستفاد من الحديث

(مَنْ قَالَ : حِينَ يُصْبِحُ وَحِينَ يُمْسِي)

– التشويق والتحفيز ، وهذا من براعة الاستهلال ، حتى يهتم المستمع لما سيأتي .

– استفتاح اليوم بذكر الله .

– فضل وأهمية أذكار الصباح والمساء .

– حرص النَّبيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على الطاعة .

– مداومة النَّبيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على الأذكار .

– التأكيد على عبادة الوقت ، وهي أن كل عبادة في وقتها هي الأفضل .

– الحثّ على مداومة الذِّكر .

– أهمية أن يكون بداية اليوم وختامه بذكر الله .

(سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ)

- فضل وأهمية التسبيح والتحميد .
- التأكيد على الذِّكر بهما صباحًا ومساءً .
- الحث على أن يبدأ وينتهي اليوم بهما .

(مِائَةَ مَرَّةٍ)

- مشروعية الذِّكر بأعداد مخصوصة .
- الحث على الإكثار من الذِّكر ، وخاصة هذا .

(لَمْ يَأْتِ أَحَدٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ)

- إثبات الإيمان باليوم الآخر .
- أعمال العباد تُحصى وتُحفظ وسيجدها يوم القيامة .
- الأعمال تتفاضل .
- الحث على كثرة الذِّكر ولو أكثر من مِائَةِ مَرَّةٍ .

(إِلَّا أَحَدٌ قَالَ مِثْلَ مَا قَالَ أَوْ زَادَ عَلَيْهِ)

- مشروعية التنافس على الزيادة في الطاعة .
- مشروعية الزيادة على المِائَةِ مَرَّةٍ في هذا الذِّكر ، أو ما جاء الحث على الزيادة فيه .

١٦ – عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – :
" مَنْ قَالَ حِينَ يُصْبِحُ (١) سُبْحَانَ اللَّهِ (٢) الْعَظِيمِ (٣) ، وَبِحَمْدِهِ (٤) ، مِائَةَ مَرَّةٍ ، وَإِذَا أَمْسَى كَذَلِكَ (٥) ،
لَمْ يُوَافِ أَحَدٌ مِنَ الْخَلَائِقِ بِمِثْلِ مَا وَافَى (٦) " (صحيح أبي داود / ٥٠٩١) .

المعنى الإجمالي

يُعلِّمنا ويحثنا النبي– صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على أن يقول المسلم حِينَ يُصْبِحُ : (سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ وَبِحَمْدِهِ ، مِائَةَ مَرَّةٍ) وَحِينَ يُمْسِي مِائَةَ مَرَّةٍ ، وأن مَن قال ذلك ، لَمْ يَأْتِ أَحَدٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ ، وأنه جاء بعمل عظيم لم يكن أحد مثله ؛ لأنه أتى بهذا الذكر العظيم الذي وصف من أتى به بأنه لَمْ يُوَافِ أَحَدٌ مِنَ الْخَلَائِقِ بِمِثْلِ مَا وَافَى .

معاني الكلمات

(١) حِينَ يُصْبِحُ : تقدَّم في الأحاديث قبله كثيرًا .

(٢) سُبْحَانَ اللهِ : أَيِ : الْمُنَزَّهُ عَنْ كُلِّ عَيْبٍ وَآفَةٍ ، و تَنْزِيهُهُ عَمَّا لَا يَلِيقُ بِهِ مِنْ نَقْصٍ فَيَلْزَمُ مِنْهُ نَفْيُ الشَّرِيكِ وَالصَّاحِبِ وَالْوَلَدِ وَجَمِيعِ مَا لَا يَلِيقُ ، وَالتَّسْبِيحُ يُطْلَقُ عَلَى جَمِيعِ أَلْفَاظِ الذِّكْرِ ، وَيُطْلَقُ عَلَى صَلَاةِ النَّافِلَةِ ، وَمِنْهُ صَلَاةُ التَّسْبِيحِ خُصَّتْ بِذَلِكَ لِكَثْرَةِ التَّسْبِيحِ فِيهَا . وَفِيهِ أَنَّهُ تُكَفَّرُ بِهَذَا الذِّكْرِ الْخَطَايَا وَظَاهِرُهُ وَلَوْ كَبَائِرَ ، وَالْعُلَمَاءَ يُقَيِّدُونَ ذَلِكَ بِالصَّغَائِرِ وَيَقُولُونَ لَا تُمْحَى الْكَبَائِرُ إِلَّا بِالتَّوْبَةِ .

وأما معنى (سُبْحَانَ) ؛ فيقول علماء فقه اللغة : الأصل في وضع الألفاظ للمعاني الأشياء المحسوسة الملموسة ، ثم ينتقل بها إلى المعنويات ، نعلم أن سبحان الله هو تنزيه الله عما لا يليق بجلاله ، ومادة (سُبْحَانَ) أصلها من سبح ، وسبح المحسوس الذي يسبح في الماء ، ولماذا يسبح الإنسان في الماء ؟ لئلا يغرق ، فكذلك المسبّح لله ؛ لئلا يغرق في بحار الشرك ، ولينزه الله ويبعده عما لا يليق بجلاله كما يبعد نفسه عن مهالك الغرق .

(٣) الْعَظِيمِ : اسم من أسماء الله الحسنى ومعناه لغةً : التعظيم : التبجيل ، والعظمة : الكبرياء .
ومعناه في حق الله : ذو العظمة والجلال في ملكه وسلطانه ، الذي جاوز قدره عز وجل حدود العقول ، حتى لا تتصور الإحاطة بكنهه وحقيقته . قال – تعالى – : (وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ) (البقرة / ٢٥٥) .

(٤) وَبِحَمْدِهِ : أَيْ : أُنَزِّهُهُ مِنْ كُلِّ سُوءٍ ، وَأَبْتَدِئُ بِحَمْدِهِ ، أَيْ : سُبْحَانَكَ بِجَمِيعِ آلَائِكَ وَبِحَمْدِكَ سَبَّحْتُكَ ؛ فهذا تَنْزِيهٌ مَمْزُوجٌ بِالْحَمْدِ ، إِشَارَةٌ إِلَى تَقْدِيمِ التَّخْلِيَةِ عَلَى التَّحْلِيَةِ . فَإِنَّ التَّسْبِيحَ يَتَضَمَّنُ نَفْيَ الشَّرِيكِ الَّذِي هُوَ التَّهْلِيلُ ، وَيَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ كَوْنُهُ أَكْبَرَ . وقدَّم التسبيح على الحمد لأن الأول تنزيه عن صفات النقص ، والثاني نتاج بصفات الكمال والتخلية مقدمة على التحلية .

والحمد : ثناء على المحمود لكمال ذاته وصفاته ، ولا ينبغي هذا أبدًا ولا يجمع إلا للمولى سبحانه ؛ لأنه كامل الذات والصفات ، فإذا قلت : (سبحان الله) نزهته عن كل ما لا يليق بجلاله ، وإذا قلت : (الحمد لله) أثبت لله جميع صفات المحامد والكمال ، وهذا أقصى منتهى التوحيد .

(٥) وَإِذَا أَمْسَى كَذَلِكَ : أَيْ قَالَ تِلْكَ الْكَلِمَةَ مِائَةَ مَرَّةٍ .

(٦) لَمْ يُوَافِ أَحَدٌ مِنَ الْخَلَائِقِ بِمِثْلِ مَا وَافَى : (لَمْ يُوَافِ) : لم يأتِ ، يعني : أنه جاء بعمل عظيم لم يكن أحد مثله ؛ لأنه أتى بهذا الذكر العظيم الذي وُصف من أتى به بأنه لَمْ يُوَافِ أَحَدٌ مِنَ الْخَلَائِقِ بِمِثْلِ مَا وَافَى .

ما يستفاد من الحديث

(مَنْ قَالَ)

– التشويق والتحفيز ، وهذا من براعة الاستهلال ، حتى يهتم المستمع لما سيأتي من كلام .

(حِينَ يُصْبِحُ)

– استفتاح اليوم بذكر الله .
– فضل وأهمية أذكار الصباح .
– حرص النَّبيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على الطاعة .
– مداومة النَّبيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على الأذكار .
– التأكيد على عبادة الوقت ، وهي أن كل عبادة في وقتها هي الأفضل .
– الحثّ على مداومة الذِّكر .
– أهمية أن يكون بداية اليوم بذكر الله .
– التأكيد على الذِّكر بها صباحًا .

(سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ ، وَبِحَمْدِهِ)

– فضل وأهمية التسبيح .
– تعظيم الله وإجلاله .
– إثبات اسم (العظيم) لله تعالى وأنه من الأسماء الحسنى .
– فضل وأهمية التحميد .

(مِائَةَ مَرَّةٍ)

– مشروعية الذِّكر بأعداد مخصوصة .
– الحث على الإكثار من الذِّكر ، وخاصة هذا .

(وَإِذَا أَمْسَى كَذَلِكَ)

- ختم اليوم بذكر الله .
- فضل وأهمية أذكار المساء .
- حرص النَّبيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على الطاعة .
- مداومة النَّبيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على الأذكار .
- التأكيد على عبادة الوقت ، وهي أن كل عبادة في وقتها هي الأفضل .
- الحثّ على مداومة الذِّكر .
- أهمية أن يكون ختام اليوم بذكر الله .

(لَمْ يُوَافِ أَحَدٌ مِنَ الْخَلَائِقِ بِمِثْلِ مَا وَافَى)

- فضل وأهمية هذا الذِّكر العظيم وأنه من أفضل الأعمال وأعظمها أجرًا .
- الخلائق قد تشمل الثقلين (الجن والإنس) ، وعليه فإن صاحب هذا الذِّكر لم يأتِ أحدٌ مثله من الجن والإنس .

١٧- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ رَسُولَ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ :
" مَنْ قَالَ : لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) ، فِي يَوْمٍ مِئَةَ مَرَّةٍ ، كَانَتْ لَهُ عَدْلَ عَشْرِ رِقَابٍ (٢) ، وَكُتِبَتْ لَهُ (٣) مِائَةُ حَسَنَةٍ (٤) ، وَمُحِيَتْ عَنْهُ (٥) مِائَةُ سَيِّئَةٍ (٦) ، وَكَانَتْ لَهُ حِرْزًا (٧) مِنَ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمْسِيَ (٨) ، وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ إِلَّا أَحَدٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ "
(خ / ٣٢٩٣ ، م / ٢٦٩١) .

المعنى الإجمالي

يحثنا النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - على قول كلمة التوحيد (لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) والإكثار من ذكرها والمداومة عليها حتى نحيا بها ونموت عليها ، وعلَّمَنا أن الذي يقول هذا الذِّكر ، ينال الأجور العظيمة كعتق الرِّقاب ، وكتابة الحسنات ومحو السيئات والتحصن من الشيطان ، ويأتي في الآخرة بأفضل الأعمال والأجور ولا يفوقه إلَّا مَنْ عَمِل أكثر منه .

معاني الكلمات

(١) تقدَّم في الحديث الرابع .
(٢) تقدَّم في الحديث الثالث عشر .
(٣) كُتِبَتْ لَهُ : أَيْ : أَثْبَتَ الله لَهُ ، أو قَدَّر ، أَوْ أَمَرَ بِالْكِتَابَةِ لِأَجْلِهِ فِي اللَّوح أو الصُّحُف .
(٤) مِائَةُ حَسَنَةٍ : تقدَّم الكلام بالتفصيل على الحسنة في الحديث التاسع .
(٥) وَمُحِيَتْ عَنْهُ : أَيْ : أُزِيلَتْ .
(٦) مِائَةُ سَيِّئَةٍ : تقدَّم في الحديث العاشر .
(٧) وَكَانَتْ لَهُ حِرْزًا مِنَ الشَّيْطَانِ : (حِرْزًا) أَيْ : حِفْظًا وَمَنْعًا ، أي : مانعًا من تأثير وسوسته . أَيْ : حِفْظٍ رَفِيعٍ وَحِصْنٍ مَنِيعٍ ، (مِنَ الشَّيْطَانِ) أَيْ : مِنْ شَرِّ إِغْوَائِهِ .
(٨) يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمْسِيَ : تقدَّم كثيرًا .
(٩) إِلَّا أَحَدٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ : فيه تنبيهٌ على أنّ هذه الغاية في ذِكْرِ الله تعالى ، وأنّه قلَّ من يزيد عليه ، ولذلك قال : " وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِأَفْضَلَ مِمّا جاءَ بِهِ " ولو لم يُفِد ذلك لبَطَلَت فائدة الكلام ؛ لأَنّ كلَّ ما أتَى الإنسانُ ببعضه فإن أحدًا لا يأتي بأفضل ممّا جاء به ، إلَّا من جاء بأكثر من ذلك ، ولكنه أفاد بذلك أنّ هذا غاية في بابه . ثم قال : " إِلَّا أَحَدٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ " ، لئلّا يظنّ السّامع أنَّ الزّيادةَ على ذلك ممنوعة كَتَكْرَارِ العمل في الوُضوءِ .
ووجه ثانٍ : وهو أنّه يحتمل أنّ يُريدَ أنّه لا يأتي أحدٌ من سائر أبواب البِرّ بأفضل ممّا جاء به ، " إِلَّا أَحَدٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ " أي من عمله .

ما يستفاد من الحديث

(مَنْ قَالَ)

– التشويق والتحفيز ، وهذا من براعة الاستهلال ، حتى يهتم المستمع لما سيأتي من كلام .

(لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الْمُلْكُ)

– الحثّ على قول كلمة التوحيد ودوام ذكرها .

– النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يُقِرُّ لله بِتَصَرُّفِهِ وَتَقْرِيرِهِ وَمَشِيئَتِهِ وَتَقْدِيرِهِ ، وأنه يملك جَمِيعَ الْأُمُورِ .

– الإقرار بأن لا معبود حقٌّ إلا الله ، ولا يلجأ العباد ويضرعون ويفزعون في كل ما ينوبهم إِلَّا إلى الله .

(وَلَهُ الْحَمْدُ)

– النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يعلمنا بأنه لما كَانَ الله مَالك الْملك كُلِّه اسْتحق أَن تكون جَمِيع المحامد لَهُ دون غَيره ، فَلَا يجوز أَن يحمد غَيره .

– وكما أن القرآن مفتتح بـ (الْحَمْدُ لِلَّه) ؛ فإننا نفتتح اليوم بـ (الْحَمْدُ لِلَّه) ، ونختمه بـ (الْحَمْدُ لِلَّه) كما هو ختام دعاء أهل الجنة ، (وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) (يونس / ١٠) .

(وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

– الاعتراف بأن الله بَالِغٌ فِي الْقُدْرَةِ ، كَامِلٌ فِي الْإِرَادَةِ والْقُوَّةِ ، مُنَزَّهٌ عَنِ الْعَجْزِ وَالْفَتْرَةِ ، لا يعجزه شيء في السماوات ولا في الأرض ، وَله الْقُدْرَة الْكَامِلَة الباهرة فِي السَّمَوَات وَالْأَرْض .

(فِي يَوْمٍ)

– استفتاح اليوم بذكر الله .

– أهمية أذكار الصباح والمساء .

– حرص النَّبيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على الطاعة .

– مداومة النَّبيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على الأذكار .

– لعل المقصود بكلمة (فِي يَوْمٍ) ، أثناء النهار ، أو من الفجر حتى المساء بدلالة قوله : " وَكَانَتْ لَهُ حِرْزًا مِنَ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمْسِيَ "

(مِئَةَ مَرَّةٍ)

– مشروعية ذكرِ الله بأعداد معينة .

– مشروعية التكرار والإلحاح بالدعاء .

– أن هناك أذكار تصل إلى العدد (مِئَةَ مَرَّةٍ) .

(كَانَتْ لَهُ عَدْلَ عَشْرِ رِقَابٍ)

– فضل عتق الرِّقاب .

– عتق الرِّقاب وتحريرها من العبودية (ولما كانت هذه العبادة العظيمة والتي من ثوابها النجاة من النار ، قَالَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " مَنْ أَعْتَقَ رَقَبَةً مُسْلِمَةً أَعْتَقَ اللَّهُ بِكُلِّ عُضْوٍ مِنْهُ عُضْوًا مِنَ النَّارِ حَتَّى فَرْجَهُ بِفَرْجِهِ " (خ / ٦٧١٥ ، م / ١٥٠٩) ، فحتى لا نُحرَم من هذا الأجر ، دلَّنا النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على شيئ يسير عمله ، عظيم أجره ، وهو هذا الذِّكر .

(وَكُتِبَتْ لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ)

– الحرص على اكتساب الحسنات .

– أهمية الحسنة .

(وَمُحِيَتْ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ)

– الحرص على اجتناب السيئات .

– خطورة السيئة .

– مِن الأعمال ما يكون سببًا في إزالة السيئات .

(وَكَانَتْ لَهُ حِرْزًا مِنَ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمْسِيَ)

– أهمية الأخذ بالأسباب والاستعداد للعدو وإعداد العُدَّة .

– أهمية الاحتراز من الأعداء (الشياطين) .

– التنبيه على خطر الشيطان .

– الحثّ على مداومة الذِّكر .

– فضل وأهمية أذكار الصباح والمساء ، وأنها من أسباب الاحتراز من الشيطان .

(وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ إِلَّا أَحَدٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ)

– فضل هذه الدعوات وأن من قالهن لا يفوقه في الفضل إلا من عمل أفضل من عمله .

– إثبات وإطلاق كلمة العمل على القول ، إذ إن العمل يشمل عمل اللسان وعمل الجوارح والأركان .

– الحث على الإكثار من الأعمال الصالحة ومنها الذِّكر .

– فضل وأهمية الذِّكر ، وأنه سبب في نَيل الأجور العظيمة .

١٨- عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - :
" مَنْ قَالَ : سُبْحَانَ اللهِ [١] مِائَةَ مَرَّةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا كَانَ أَفْضَلَ مِنْ مِائَةِ بَدَنَةٍ [٢] ، وَمَنْ قَالَ :
الْحَمْدُ لِلَّهِ [٣] مِائَةَ مَرَّةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ ، وَقَبْلَ غُرُوبِهَا كَانَ أَفْضَلَ مِنْ مِائَةِ فَرَسٍ [٤] يُحْمَلُ عَلَيْهَا [٥] ، وَمَنْ قَالَ :
اللَّهُ أَكْبَرُ [٦] مِائَةَ مَرَّةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ، كَانَ أَفْضَلَ مِنْ عِتْقِ مِائَةِ رَقَبَةٍ [٧] ، وَمَنْ قَالَ :
لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [٨] مِائَةَ مَرَّةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ
وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ، لَمْ يَجِئْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَدٌ بِعَمَلٍ أَفْضَلَ مِنْ عَمَلِهِ إِلَّا مَنْ قَالَ قَوْلَهُ أَوْ زَادَ [٩] "
(أخرجه النَّسائِيُّ في السنن الكبرى ، صحيح الترغيب / ٦٥٨) .

المعنى الإجمالي

رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الحريص على إيصال كل خير لأمته ، يهدي إليهم هدايا ثمينة ، وهي عبارة عن كلمات يسيرة يقابلها كنوز عظيمة ويحثنا على أن نذكر الله صباحًا ومساءً ، بأفضل الكلمات وهي :
(التسبيح والتحميد والتكبير والتهليل) ، ويحثنا على الإكثار منها بأن نقولها مِائَةَ مَرَّةٍ في وقت الصباح والمساء ، ومن فعل ذلك لم يأتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَدٌ بِعَمَلٍ أَفْضَلَ مِنْ عَمَلِهِ إِلَّا مَنْ قَالَ قَوْلَهُ أَوْ زَادَ عليه .

معاني الكلمات

* قلت : (والقائل / عماد) : هذا الحديث غير مشروح في الكتب التي شرحت الحديث ، وأُنَبِّهُ على ذلك لِيُلْتَمَس لِيَ العُذْر إن أَخْطَأتُ ، فقلت مستعينًا بمولاي :

(١) سُبْحَانَ اللهِ : أَيِ : الْمُنَزَّهُ عَنْ كُلِّ عَيْبٍ وَآفَةٍ ، و تَنْزِيهُهُ عَمَّا لَا يَلِيقُ بِهِ مِنْ نَقْصٍ فَيَلْزَمُ مِنْهُ نَفْيُ الشَّرِيكِ وَالصَّاحِبِ وَالْوَلَدِ وَجَمِيعِ مَا لَا يَلِيقُ ، وَالتَّسْبِيحُ يُطْلَقُ عَلَى جَمِيعِ أَلْفَاظِ الذِّكْرِ ، وَيُطْلَقُ عَلَى صَلَاةِ النَّافِلَةِ ، وَمِنْهُ صَلَاةُ التَّسْبِيحِ خُصَّتْ بِذَلِكَ لِكَثْرَةِ التَّسْبِيحِ فِيهَا . وَفِيهِ أَنَّهُ تُكَفَّرُ بِهَذَا الذِّكْرِ الْخَطَايَا وَظَاهِرُهُ وَلَوْ كَبَائِرَ ، وَالْعُلَمَاءَ يُقَيِّدُونَ ذَلِكَ بِالصَّغَائِرِ وَيَقُولُونَ لَا تُمْحَى الْكَبَائِرُ إِلَّا بِالتَّوْبَةِ .

وأما معنى (سُبْحَانَ) ؛ فيقول علماء فقه اللغة : الأصل في وضع الألفاظ للمعاني الأشياء المحسوسة الملموسة ، ثم ينتقل بها إلى المعنويات ، نعلم أن سبحان الله هو تنزيه الله عما لا يليق بجلاله ، ومادة (سُبْحَانَ) أصلها من سَبَحَ ، وسبح المحسوس الذي يسبح في الماء ، ولماذا يسبح الإنسان في الماء ؟ لئلا يغرق ، فكذلك المسبّح لله ؛ لئلا يغرق في بحار الشرك ، ولينزه الله ويبعده عما لا يليق بجلاله كما يبعد نفسه عن مهالك الغرق .

(٢) بَدَنَةٍ : هِيَ النَّاقة سميت بَدَنَة بالعِظَم إِمَّا لسِمَنِها أَو لسِنِّها لِأَنَّهُ لَا يجوز أَن يُساق مِنْهَا الصغار إِنَّمَا يساق مِنْهَا الثنية فَمَا فَوق وكل مَا أسن مِنْهَا وَعظم فَهُوَ أفضل ، وَالْبَدَنَةُ قَالُوا هِيَ نَاقَةٌ ، وَلَا تَقَعُ الْبَدَنَةُ عَلَى الشَّاةِ .
وَقَالَ بَعْضُ الْأَئِمَّةِ الْبَدَنَةُ هِيَ الْإِبِلُ خَاصَّةً وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى : (فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا) سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِعِظَمِ بَدَنِهَا ، وهي ما جُعل للنحر والأضحى وأشباه ذلك . فإذا كانت للنحر فهي جزور ، والمقصود من قوله :
" كَانَ أَفْضَلَ مِنْ مِائَةِ بَدَنَةٍ " ، هل أن يمتلكها أم يتصدق بها ؟ احتمالان ولعل التصدق هو المقصود بدلالة ما بعدها

من قوله : " أَفْضَلَ مِنْ عِتْقِ مِائَةِ رَقَبَةٍ " .

(٣) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ : الْحَمْدُ : عرَّفه شيخ الإسلام فقال : هو الإخبار عن صفة المحمود على وجه المحبة والتعظيم ، فلابد من اجتماع شيئين :

١ – الإخبار عن صفات المحمود . ٢ – على وجه المحبة وتعظيم .

و الْحَمْدُ ثَابِتٌ لَهُ حُمِدَ أَوْ لَمْ يُحْمَدْ ، أَوْ لَهُ الْحَامِدِيَّةُ وَالْمَحْمُودِيَّةُ ، فَهُوَ الْحَامِدُ ، وَهُوَ الْمَحْمُودُ ، وَله حمد أهل السَّمَوَات وَالْأَرْض ، وَجَمِيع أَصْنَاف المحامد الَّتِي بالأعيان والأعراض ، بِنَاء على أَن الْألف وَاللَّام لاستغراق الْجِنْس عندنَا ، وَلما كَانَ الله مَالك الْملك كُله اسْتحق أَن تكون جَمِيع المحامد لَهُ دون غَيره ، فَلَا يجوز أَن يُحمَد غَيره .

(٤) فَرَسٍ : الفَرس : وَاحِدُ الخَيْل ، سُمِّيَ بِهِ لدَقِّه الأَرْضَ بحَوَافِرِه ، وأَصْلُ الفَرْسِ : الدَّقُّ ، كَمَا قَالَه الزَّمَخْشَرِيّ ، وأَشارَ لَهُ ابنُ فارسٍ للذَّكَر والأُنْثَى ، والجمع : أَفْرَاس وفروس .

(٥) يُحْمَلُ عَلَيْهَا : كان له مثل ثواب من تصدق بمائة فرس مسرجة ملجمة ، وهي الخيل التي تُرْصَد لِلْجِهَادِ ، وَ يُحْمَل عَلَيْهَا فِي سَبِيل اللَّه ، أي جاهزة لحمل المجاهدين في سبيل الله عز وجل .

(٦) اللَّهُ أَكْبَرُ : أَيْ : أَكْبَرُ مِنْ أَنْ يُعْرَفَ كُنْهُ كِبْرِيَائِهِ وَعَظَمَتِهِ ، أَوْ مِنْ أَنْ يُنْسَبَ إِلَيْهِ مِمَّا لَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ ، أَوْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ

(٧) رَقَبَةٍ : خُصَّت الرقبة دون سائر الأعضاء مع أن العتق ينتاول الجميع – لأن حكم السيد عليه وملكه له كحبل في رقبة العبد وكالغل المانع له من الخروج فإذا أعتق فكأنه أطلقت رقبته من ذلك .

(٨) لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ : تقَدَّم .

(٩) : تقَدَّم .

ما يستفاد من الحديث

(مَنْ قَالَ)

– التشويق والتحفيز ، وهذا من براعة الاستهلال ، حتى يَهْتَم المستَمِع لما سيأتي من كلام .

(سُبْحَانَ اللهِ)

– فضل وأهمية التسبيح .

(مِائَةَ مَرَّةٍ)

– مشروعية الذِّكر بأعداد مخصوصة .

– الحث على الإكثار من الذِّكر ، وخاصة هذا .

(قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ)

– استفتاح اليوم بذكر الله .

– فضل وأهمية أذكار الصباح .

– حرص النَّبيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على الطاعة .

– مداومة النَّبيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على الأذكار .

– التأكيد على عبادة الوقت ، وهي أن كل عبادة في وقتها هي الأفضل .

– الحثّ على مداومة الذِّكر .

– أهمية أن يكون بداية اليوم بذكر الله .

– التأكيد على الذِّكر بها صباحًا .

(وَقَبْلَ غُرُوبِهَا)

– ختم اليوم بذكر الله .

– فضل وأهمية أذكار المساء .

– حرص النَّبيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على الطاعة .

– مداومة النَّبيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على الأذكار .

– التأكيد على عبادة الوقت ، وهي أن كل عبادة في وقتها هي الأفضل .

– الحثّ على مداومة الذِّكر .

– أهمية أن يكون ختام اليوم بذكر الله .

– لعل من تخصيص وقتي قبل الشروق وقبل الغروب ، أن يَصف العبدُ ربَّه بصفات الجلال والكمال ، مخالفةً للذين يسجدون للشمس ، قال رسولُ الله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " صَلِّ صَلَاةَ الصُّبْحِ ، ثُمَّ أَقْصِرْ عَنِ الصَّلَاةِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ حَتَّى تَرْتَفِعَ ، فَإِنَّهَا تَطْلُعُ حِينَ تَطْلُعُ بَيْنَ قَرْنَيْ شَيْطَانٍ ، وَحِينَئِذٍ يَسْجُدُ لَهَا الْكُفَّارُ ، ثُمَّ صَلِّ فَإِنَّ الصَّلَاةَ مَشْهُودَةٌ مَحْضُورَةٌ حَتَّى يَسْتَقِلَّ الظِّلُّ بِالرُّمْحِ ، ثُمَّ أَقْصِرْ عَنِ الصَّلَاةِ ، فَإِنَّ حِينَئِذٍ تُسْجَرُ جَهَنَّمُ ، فَإِذَا أَقْبَلَ الْفَيْءُ فَصَلِّ ، فَإِنَّ الصَّلَاةَ مَشْهُودَةٌ مَحْضُورَةٌ حَتَّى تُصَلِّيَ الْعَصْرَ ، ثُمَّ أَقْصِرْ عَنِ الصَّلَاةِ حَتَّى تَغْرُبَ الشَّمْسُ ، فَإِنَّهَا تَغْرُبُ بَيْنَ قَرْنَيْ شَيْطَانٍ ، وَحِينَئِذٍ يَسْجُدُ لَهَا الْكُفَّارُ " (م / ٨٣٢) .

(كَانَ أَفْضَلَ مِنْ مِائَةِ بَدَنَةٍ)

– مراعاة البيئة في المحفزات .

– مخاطبة الناس على قدر عقولهم .

– بيان أن يسير الكلمات أفضل من كثير من متاع الدنيا وكنوزها .

(الْحَمْدُ لِلَّه)

– وكما أن القرآنَ مُفْتَتَح بـ (الْحَمْدُ لِلَّه) ؛ فإننا نفتتح اليوم بـ (الْحَمْدُ لِلَّه) ، ونختمه بـ (الْحَمْدُ لِلَّه) كما هو ختام دعاء أهل الجنة ، (وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) (يونس / ١٠) .

(مِائَةِ فَرَسٍ يُحْمَلُ عَلَيْهَا)

– بيان أهمية الجهاد في سبيل الله .

(اللَّهُ أَكْبَرُ)

– بيان أنَّ الله أَكْبَرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ .

(عِتْقِ مِائَةِ رَقَبَةٍ)

– فضل عتق الرِّقاب .

– عتق الرِّقاب وتحريرها من العبودية (ولما كانت هذه العبادة العظيمة والتي من ثوابها النجاة من النار ، قَالَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " مَنْ أَعْتَقَ رَقَبَةً مُسْلِمَةً أَعْتَقَ اللَّهُ بِكُلِّ عُضْوٍ مِنْهُ عُضْوًا مِنَ النَّارِ حَتَّى فَرْجَهُ بِفَرْجِهِ " (خ / ٦٧١٥ ، م / ١٥٠٩) ، فحتى لا نُحرَم من هذا الأجر ، دلَّنا النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على شيئ يسير عمله ، عظيم أجره ، وهو هذا الذِّكر .

– في قوله : " أَفْضَلَ مِنْ مِائَةِ بَدَنَةٍ ... ، أَفْضَلَ مِنْ مِائَةِ فَرَسٍ ... ، أَفْضَلَ مِنْ عِتْقِ مِائَةِ رَقَبَةٍ ... " أجور عظيمة في وقتٍ يسير ، قد لا تجتمع لإنسان في الواقع .

(لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير)

– الإقرار بأن لا معبود حقٌّ إلا الله ، ولا يلجأ العباد ويضرعون ويفزعون في كل ما ينوبهم إلا إلى الله .

– الاعتراف بأن الله بَالِغٌ فِي الْقُدْرَةِ ، كَامِلٌ فِي الْإِرَادَةِ والْقُوَّةِ ، مُنَزَّهٌ عَنِ الْعَجْزِ وَالْفَتْرَةِ ، لا يعجزه شيء في السماوات ولا في الأرض ، وَله الْقُدْرَة الْكَامِلَة الباهرة فِي السَّمَوَات وَالْأَرْض .

(لَمْ يَجِئْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَدٌ بِعَمَلٍ أَفْضَلَ مِنْ عَمَلِهِ)

– إثبات الإيمان باليوم الآخر .

– أعمال العباد تُحصى وتُحفظ وسيجدها يوم القيامة .

– الأعمال تتفاضل .

– الحث على كثرة الذِّكر ولو أكثر من مِائَةِ مَرَّةٍ .

– غنى الله وسَعَة خزائنه ؛ فلو افترضنا أن مليار مسلم في هذا الزمان يقولون هذا الذِّكر ، والله يُعطِي كل إنسان المِائة المذكورة فيكون ناتج مليار ضرب مِائة يساوي مِائة مليار من كل صنف من الأصناف الثلاثة المذكورة (بدنة ، فرس ، رقبة) ، وبالحساب أقول : ١٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ × ١٠٠ = ١٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ (مِائة مليار) هذا في اليوم الواحد ، وفي هذا الزمان فقط ، فكيف بمن سبقونا وبمن سيأتون إلى قيام الساعة ، فلا شك أنها أعداد يعجز العقل عن عدِّها ، فسبحان الغني الوهاب الكريم المنان .

(إلا مَنْ قَالَ قَوْلَهُ أَوْ زَادَ)

– مشروعية التنافس على الزيادة في الطاعة .

– مشروعية الزيادة على المِائَةِ مَرَّةٍ في هذا الذِّكر ، أو ما جاء الحث على الزيادة فيه .

١٩- عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ :

" مَنْ قَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [١] ، مِائَتَيْ مَرَّةٍ لَمْ يُدْرِكْهُ أَحَدٌ بَعْدَهُ [٢] ، إِلَّا مَنْ قَالَ مِثْلَ مَا قَالَ أَوْ أَفْضَلَ [٣] " وفي رواية : " مِائَةَ مَرَّةٍ إِذَا أَصْبَحَ ، وَمِائَةَ إِذَا أَمْسَى "

(أخرجه النَّسائِيُّ في عمل اليوم والليلة وفي السُنَن الكبرى واللفظ له ، وأحمد ، السلسلة الصحيحة / ٢٧٦٢) .

المعنى الإجمالي

يرشدنا النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إلى هذا الذِّكر العظيم ، والذي يتضمن كلمة التوحيد ، وصفات الجلال والكمال ، وعلَّمنا أن الذي يقوله مِائَتَيْ مَرَّةٍ ، لم يلحقه أحدٌ في الأجر إِلَّا مَنْ قَالَ مِثْلَ مَا قَالَ أَوْ أَفْضَلَ منه .

معاني الكلمات

*** قلت : (والقائل / عماد) : هذا الحديث غير مشروح في الكتب التي شرحت الحديث ،**
وأُنَبِّهُ على ذلك لِيُلْتَمَس ليَ العُذْر إن أَخْطَأتُ ، فقلت مستعينًا بمولاي :

(١) مَنْ قَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ : تقَدَّم .

(٢) لَمْ يُدْرِكْهُ أَحَدٌ : أدرك الشَّيْء : لحقه وبلغه وناله ، الدَّرَكُ ، مُحَرَّكَةً : اللَّحاقُ ، وَقد أَدْرَكَه : إِذا لَحِقَه وَهُوَ اسمٌ من الإِدْراكِ ، وَفِي الصِّحاحِ الإِدْراكُ : اللُّحُوقُ ، يُقال : مَشَيت حَتَّى أَدْرَكْتُه ، وعِشْتُ حَتَّى أَدْرَكْتُ زمانَه .

(٣) إِلَّا مَنْ قَالَ مِثْلَ مَا قَالَ أَوْ أَفْضَلَ : لئَلّا يظنّ السّامع أنَّ الزِّيادةَ على ذلك ممنوعة كَتَكْرَارِ العمل في الوُضوءِ .
ويحتمل أنّ يُريدَ أنّه لا يأتي أحدٌ من سائر أبواب البِرِّ بأفضل ممّا جاء به ،
" إِلَّا مَنْ قَالَ مِثْلَ مَا قَالَ أَوْ أَفْضَلَ " أي من عمله .

ما يستفاد من الحديث

(مَنْ قَالَ)

- التشويق والتحفيز ، وهذا من براعة الاستهلال ، حتى يَهْتَم المستَمِع لما سيأتي من كلام .

(لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير)

- الإقرار بأن لا معبود حقٌّ إلا الله ، ولا يلجأ العباد ويضرعون ويفزعون في كل ما ينوبهم إلا إلى الله .

- الاعتراف بأن الله بَالِغٌ فِي الْقُدْرَةِ ، كَامِلٌ فِي الْإِرَادَةِ والْقُوَّةِ ، مُنَزَّهٌ عَنِ الْعَجْزِ وَالْفَتْرَةِ ، لا يعجزه شيء في السماوات ولا في الأرض ، وَله الْقُدْرَة الْكَامِلَة الباهرة فِي السَّمَوَات وَالْأَرْض .

(مِائَتَيْ مَرَّةٍ)

- مشروعية الذِّكر بأعداد مخصوصة .

- الحث على الإكثار من الذِّكر ، وخاصة هذا .

(لَمْ يُدْرِكْهُ أَحَدٌ بَعْدَهُ ، إِلَّا مَنْ قَالَ مِثْلَ مَا قَالَ أَوْ أَفْضَلَ)

– مشروعية التنافس على الزيادة في الطاعة .

– مشروعية الزيادة على المِائَةِ مَرَّةٍ في هذا الذِّكر ، أو ما جاء الحث على الزيادة فيه .

(مِائَةَ مَرَّةٍ إِذَا أَصْبَحَ)

– استفتاح اليوم بذكر الله .

– أهمية أن يكون بداية اليوم بذكر الله .

– فضل وأهمية أذكار الصباح .

– حرص النَّبيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على الطاعة .

– مداومة النَّبيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على الأذكار .

– التأكيد على عبادة الوقت ، وهي أن كل عبادة في وقتها هي الأفضل .

– الحثّ على مداومة الذِّكر .

– التأكيد على الذِّكر بها صباحًا .

(وَمِائَةَ إِذَا أَمْسَى)

– ختم اليوم بذكر الله .

– فضل وأهمية أذكار المساء .

– أهمية أن يكون ختام اليوم بذكر الله .

– حرص النَّبيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على الطاعة .

– مداومة النَّبيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على الأذكار .

– التأكيد على عبادة الوقت ، وهي أن كل عبادة في وقتها هي الأفضل .

– الحثّ على مداومة الذِّكر .

مُقيَّد بالصَّباح

٢٠- عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبْزَى - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إِذَا أَصْبَحَ قَالَ : " أَصْبَحْنَا (١) عَلَى فِطْرَةِ الْإِسْلَامِ (٢) ، وَكَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ (٣) ، وَدِينِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - (٤) ، وَمِلَّةِ أَبِينَا إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا مُسْلِمًا (٥) ، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦) "

(أخرجه النَّسائيُّ في عمل اليوم و الليلة ، وأحمد ، السلسلة الصحيحة / ٢٩٨٩) .

المعنى الإجمالي

كَانَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يداوم على الطاعة وخاصَّة أذكار الصباح والمساء ، ويُقِرّ أنه أصبح على الدِّين الحق ، وعلى التَّوْحِيدِ الْخَالِصِ الْمُخَلِّصِ مِنَ الْحِجَابِ فِي الدُّنْيَا وَمِنِ الْعِقَابِ فِي الْعُقْبَى ، وعلى شريعة نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، وعلى دين خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام ، أبي الأنبياء ، المَائِل عَنِ الْأَدْيَانِ الْبَاطِلَةِ إِلَى الْمِلَّةِ الثَّابِتَةِ الْعَادِلَةِ ، ودينه الإسلام ، ولم يكن يهوديًا ولا نصرانيًا ، ولم يكن من المشركين .

معاني الكلمات

(١) أَصْبَحْنَا : الصَّباح : الفَجْرُ أو أَوَّلُ النَّهارِ ، وَالصَّبَاحُ أَيْضًا خِلَافُ الْمَسَاءِ قَالَ ابْنُ الْجَوَالِيقِيّ : الصَّبَاحُ عِنْدَ الْعَرَبِ مِنْ نِصْفِ اللَّيْلِ الْآخِرِ إِلَى الزَّوَالِ ، ثُمَّ الْمَسَاءُ إِلَى آخِرِ نِصْفِ اللَّيْلِ الْأَوَّلِ ، هَكَذَا رُوِيَ عَنْ ثَعْلَبٍ . ويدخل الصباح من طلوع الفجر وينتهي بارتفاع الشمس ضُحًا .

(٢) عَلَى فِطْرَةِ الْإِسْلَامِ : (عَلَى) في مثل هذا يدل على أن الاستقرار والتمكن من ذلك المعنى لأن الجسم إذا علا على شيء تمكن منه واستقر عليه ومنه : (أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ) (البقرة / ٥) .

(فِطْرَةِ) : بكسر الفاء ، دينه الحق ، أَو : خِلْقَتُهُ ، قِيلَ : الْفِطْرَةُ الْخِلْقَةُ مِنَ الْفَطْرِ كَالْخِلْقَةِ مِنَ الْخَلْقِ فِي أَنَّهَا اسْمٌ لِلْحَالَةِ ، ثُمَّ إِنَّهَا جُعِلَتِ اسْمًا لِلْخِلْقَةِ الْقَابِلَةِ لِدِينِ الْحَقِّ عَلَى الْخُصُوصِ ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا) (الروم / ٣٠) وَحَدِيثُ " كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ " ، وقد تَرِد الفطرة بمعنى السُّنَّة .

(٣) وَكَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ : أَي : التَّوْحِيدِ الْخَالِصِ الْمُخَلِّصِ مِنَ الْحِجَابِ فِي الدُّنْيَا وَمِنِ الْعِقَابِ فِي الْعُقْبَى ، وَهِيَ كَلِمَةُ التَّوْحِيدِ ، وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ، وإنما سميت كلمة التوحيد كلمة الإخلاص لأنها لا تكون سببًا للخلاص إلا إذا كانت مقرونة بالإخلاص فالإضافة لأدنى ملابسة فإنها كلمة يحصل بها الإخلاص .

(٤) وَدِينِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : وَهُوَ أَخَصُّ مِمَّا قَبْلَهُ لِأَنَّ مِلَلَ الْأَنْبِيَاءِ كُلِّهِمْ تُسَمَّى إِسْلَامًا عَلَى الْأَشْهَرِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : (إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإِسْلاَمُ) (آل عمران / ١٩) وَلِقَوْلِ إِبْرَاهِيمَ : (أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) (البقرة / ١٣١) وَلِوَصِيَّةِ يَعْقُوبَ لِبَنِيهِ : (فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ) (البقرة / ١٣٢)

قَالَ التُّورِبِشْتِيُّ : كَذَا فِي الْحَدِيثِ وَهُوَ غَيْرُ مُمْتَنِعٍ وَلَعَلَّهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ ذَلِكَ جَهْرًا لِيَسْمَعَهُ غَيْرُهُ فَيَتَعَلَّمَ ، قال القاري : لَا وَجْهَ لِقَوْلِهِ : لَعَلَّ ، فَإِنَّ الرِّوَايَةَ مُتَفَرِّعَةٌ عَلَى السَّمَاعِ وَهُوَ لَا يَتَحَقَّقُ إِلَّا بِالْجَهْرِ . وقيل : الظاهر أنه قاله تعليمًا لغيره ويحتمل أنه جرَّد من نفسه نفسًا يخاطبها .

(٥) وَمِلَّةِ أَبِينَا إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا مُسْلِمًا : (الْمِلَّة) : الشَّرِيعَة أَو الدّين ، كملة الْإِسْلَام والنصرانية وَهِي اسْم لما شرع الله لِعِبَادِهِ بوساطة أنبيائه ليتوصلوا بِهِ إِلَى السَّعَادَة فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَة .

(أَبِينَا إِبْرَاهِيمَ) : – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – هُوَ أَبُو الْعَرَبِ ، فَإِنَّهُمْ مِنْ نَسْلِ إِسْمَاعِيلَ ، فَفِيهِ تَغْلِيبٌ ، أَوِ الْأَنْبِيَاءُ بِمَنْزِلَةِ الْآبَاءِ ، وَلِذَا قَالَ تَعَالَى : (النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ) (الأحزاب / ٦) وَفِي قِرَاءَةٍ شَاذَّةٍ " وَهُوَ أَبٌ لَهُمْ " وَإِنَّمَا احْتِيجَ لِهَذَا التَّخْصِيصِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : (أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا) (النحل / ١٢٣) أَيْ : فِي أُصُولِ الدِّينِ ، أَوْ فِي بَعْضِ الْفُرُوعِ كَالْخِتَانِ وَبَقِيَّةِ الْعَشَرَةِ مِنَ السُّنَنِ الْمَشْهُورَةِ .

(حَنِيفًا) أَيْ : مَائِلًا عَنِ الْأَدْيَانِ الْبَاطِلَةِ إِلَى الْمِلَّةِ الثَّابِتَةِ الْعَادِلَةِ ، وَضِدُّهُ الْمُلْحِدُ ، وَالْإِلْحَادُ فِي اللُّغَةِ مُطْلَقُ الْمَيْلِ ، قِيلَ : الْحَنِيفُ الْمُسْلِمُ الْمُسْتَقِيمُ ، وَغَلَبَ هَذَا الْوَصْفُ عَلَى إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ ، أَوِ الْمُرَادُ بِهِ (مُسْلِمًا) أَيْ : مُنْقَادًا كَامِلًا بِحَيْثُ لَا يَلْتَفِتُ إِلَى غَيْرِهِ تَعَالَى ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – " بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ " .

(٦) وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ : فِيهِ رَدٌّ عَلَى كُفَّارِ الْعَرَبِ فِي قَوْلِهِمْ : نَحْنُ عَلَى دِينِ أَبِينَا إِبْرَاهِيمَ ، وَتَعْرِيضٌ بِالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ، ثُمَّ هُوَ مَعَ مَا قَبْلَهُ مِنَ الْأَحْوَالِ الْمُتَدَاخِلَةِ أَتَى بِهَا تَقْرِيرًا وَصِيَانَةً لِلْمَعْنَى الْمُرَادِ تَحْقِيقًا عَمَّا يُتَوَهَّمُ مِنْ أَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ (حَنِيفًا) حَالًا مُنْتَقِلَةً ، فَرُدَّ ذَلِكَ التَّوَهُّمُ بِأَنَّهُ لَمْ يَزَلْ مُوَحِّدًا ، وَأَنَّهَا مُثْبَتَةٌ لِأَنَّهَا حَالٌ مُؤَكِّدَةٌ .

واستفتاح صباحه بهذا تحديد لما هو عليه من الإيمان وتعبد لله سبحانه وإعلان بما انطوى عليه قلبه .

ما يستفاد من الحديث

(كَانَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – إِذَا أَصْبَحَ قَالَ)

– حرص النَّبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على الطاعة .

– مداومة النَّبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على فعل الخيرات والثبات على العمل الصالح حتى الممات .

– عدم الاغترار فالنَّبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مع أنه غُفِر له ما تقَدَّم من ذنبه وما تأخر لم يغتر بذلك ولم يترك العمل .

– استفتاح اليوم بذكر الله .

– أهمية أن يكون بداية اليوم بذكر الله .

– فضل وأهمية أذكار الصباح .

– مداومة النَّبيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على الأذكار .

– التأكيد على عبادة الوقت ، وهي أن كل عبادة في وقتها هي الأفضل .

– الحثّ على مداومة الذِّكر .

– التأكيد على الذِّكر بها صباحًا .

(أَصْبَحْنَا عَلَى فِطْرَةِ الْإِسْلَامِ)

– الإقرار باللسان بعد الاعتقاد بالجَنان ، بأن الدِّين الحق والموافق للفطر السليمة هو دين الإسلام .

– بيان نعمة الله العظيمة على عبده حين يصبح وهو على فطرة سليمة لم يصبها تلوث أو تَغَيُّر أو انحراف .

– الاعتراف والإقرار لله بأنه مَنَّ علينا بالإصباح ونحن على فطرة الإسلام ، مستمسكين بها ، غير مُغَيِّرين ولا مبدِّلين ؛ فيسلتزم ذلك الشكر .

(وَكَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ)

– كَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ هِيَ كَلِمَةُ التَّوْحِيدِ ، وإنما سميت كلمة التوحيد كلمة الإخلاص لأنها لا تكون سببًا للخلاص إلا إذا كانت مقرونة بالإخلاص ، فإنها كلمة يحصل بها الإخلاص .

– إقرار النَّبيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بأنه على كَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ والتي هِيَ كَلِمَةُ التَّوْحِيدِ .

– بداية اليوم بالإقرار لله بالتوحيد .

(وَدِينِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –)

– فضل النَّبيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – واختصاصه بنسبة الدِّين إليه .

– تنوع الأساليب والوسائل التعليمية من خير مُعَلِّم بل خير البرية .

– ويحتمل أن النَّبيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – جرَّد من نفسِه نفسًا يخاطبها .

(وَمِلَّةِ أَبِينَا إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا مُسْلِمًا ، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

– قوله أَبِينَا ، فيها بيان وشمول لنوعي الأبوة ، إذ الأبوة نوعان :

قال ابن القيم في مدارج السالكين :

وَمِمَّا يُذْكَرُ عَنِ الْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ : يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ، لَنْ تَلِجُوا مَلَكُوتَ السَّمَاءِ حَتَّى تُولَدُوا مَرَّتَيْنِ .

سَمِعْتُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَةَ – رَحِمَهُ اللَّهُ – يَذْكُرُ ذَلِكَ . وَيُفَسِّرُهُ بِأَنَّ الْوِلَادَةَ نَوْعَانِ . أَحَدُهُمَا : هَذِهِ الْمَعْرُوفَةُ ، وَالثَّانِيَةُ : وِلَادَةُ الْقَلْبِ وَالرُّوحِ وَخُرُوجُهُمَا مِنْ مَشِيمَةِ النَّفْسِ ، وَظُلْمَةِ الطَّبْعِ .

قَالَ : وَهَذِهِ الْوِلَادَةُ لَمَّا كَانَتْ بِسَبَبِ الرَّسُولِ كَانَ كَالْأَبِ لِلْمُؤْمِنِينَ ، وَقَدْ قَرَأَ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – وهي قراءة شاذة " النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَهُوَ أَبٌ لَهُمْ " .

قَالَ : وَمَعْنَى هَذِهِ الْآيَةِ وَالْقِرَاءَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ) (الأحزاب / ٦)

إِذْ ثُبُوتُ أُمُومَةِ أَزْوَاجِهِ لَهُمْ : فَرْعٌ عَنْ ثُبُوتِ أُبُوَّتِهِ .

قَالَ : فَالشَّيْخُ وَالْمُعَلِّمُ وَالْمُؤَدِّبُ أَبُ الرُّوحِ . وَالْوَالِدُ أَبُ الْجِسْمِ . ا هـ .

فَظهر معنى قَوْله تَعَالَى : (النَّبِي أولى بِالْمُؤْمِنِينَ من أنفسهم) فَهُوَ الْأَب الروحاني وَالْوَالِد الْأَب الجثماني وَهُوَ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – سَبَب السَّعَادَة الأبدية لِلْمُؤمنِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَة ، وَالْأَب سَبَب لوُجُوده فِي الدُّنْيَا ، وَمَعْلُوم أَن الْإِنْسَان

يجب عَلَيْهِ أَن يُطِيع مُعَلِّمه الَّذِي يَدعُوهُ إِلَى الْخَيْر ويأمره بِمَا أمره الله ، وَلَا يجوز لَهُ أَن يطيع أَبَاهُ فِي مُخَالفَة هَذَا الدَّاعِي لِأَنَّهُ يَدلّه على مَا يَنْفَعهُ ويُقرّبه إِلَى ربه وَيحصل لَهُ باتباعه السَّعَادَة الأبدية .

فَظهر فضل الْأَب الروحاني على الْأَب الجثماني ؛ فَهَذَا أَبوهُ فِي الدّين ، وَذَلِكَ أَبوهُ فِي الطين ، وَأَيْنَ هَذَا من هَذَا ؟ .

– إثبات أن إِبْرَاهِيمَ – عليه السلام – أبو الأنبياء .

– فضل نبي الله إِبْرَاهِيمَ – عليه السلام – إذ ذكره دون غيره من الأنبياء .

– إثبات أن دين إِبْرَاهِيمَ – عليه السلام – مائِل عَنِ الْأَدْيَانِ الْبَاطِلَةِ إِلَى الْمِلَّةِ الثَّابِتَةِ الْعَادِلَةِ .

– إثبات أن دين إِبْرَاهِيمَ – عليه السلام – هو الإسلام ، ولم يكن يهوديًا ولا نصرانيًا ، ولم يكن من المشركين .

– الردّ على اليهود والنصارى والمشركين (ما كانَ إِبْراهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرانِيًّا وَلكِنْ كانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (آل عمران / ٦٧) .

– استجابة النَّبيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لأمر الله باتباع مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ ، قال تعالى :

(ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (النحل / ١٢٣) .

٢١- عَنْ أَبِي مُوسَى - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ :
" مَا أَصْبَحْتُ (١) غَدَاةً (٢) قَطُّ (٣) إِلَّا اسْتَغْفَرْتُ (٤) اللَّهَ (٥) عَزَّ وَجَلَّ مِئَةَ مَرَّةٍ "
(رواهُ الطَّبرانِيُّ) ، قال الشيخ الألبانيُّ : (صحيح) انظر حديث رقم : ٥٥٣٤ في صحيح الجامع .

المعنى الإجمالي

النَّبِيُّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الذي غَفَر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر يَستغفر الله كل صباح مِئَةَ مَرَّةٍ ، فماذا عسانا أن نفعل وكم يكفينا من استغفار ؟ .

معاني الكلمات

(١) أَصْبَحْتُ : الصَّباح : الفَجْرُ أو أَوَّلُ النَّهارِ ، وَالصَّبَاحُ أَيْضًا خِلَافُ الْمَسَاءِ قَالَ ابْنُ الْجَوَالِيقِيّ : الصَّبَاحُ عِنْدَ الْعَرَبِ مِنْ نِصْفِ اللَّيْلِ الْآخِرِ إلَى الزَّوَالِ ، ثُمَّ الْمَسَاءُ إلَى آخِرِ نِصْفِ اللَّيْلِ الْأَوَّلِ ، هَكَذَا رُوِيَ عَنْ ثَعْلَبٍ . ويدخل الصباح من طلوع الفجر وينتهي بارتفاع الشمس ضُحًا .

(٢) غَدَاةً : فِي المِصْباح المنير : الغَداةُ الصّحْوَةُ ، وَهِي مُؤَنَّثَة . قالَ ابنُ الأَنْبارِي : وَلم يُسْمَع تَذْكِيرها ، وَلَو حَمَلَها حامِلٌ على مَعْنى أَوَّل النَّهارِ جازَ لَهُ التَّذْكِير ؛ وقولُه تَعالَى : (بالغَدَاةِ والعَشيّ) ؛ أَي بَعْدَ صلاةِ الفَجْرِ وصَلاةِ العَصْر ؛ وقيلَ : يَعْني بهما دَوامَ عِبادَتِهم .

(٣) قَطُّ : يقال : ما رأيتهُ قطُّ : أي فيما مضى من الزمان ، أو تقول : مَا فَعَلْتُ ذَلِكَ قَطُّ ، أَيْ فِي الزَّمَانِ الْمَاضِي بِضَمِّ الطَّاءِ مُشَدَّدَةٌ ، ولا يقال لا أراهُ قطُّ ، قَالَ الكِسَائِيُّ : كانَت قَطَطُ ، فلمّا سُكِّنَ الحَرْفُ الأَوَّلُ للإدغامِ جُعِلَ الآخِرُ مُتَحَرِّكًا إلى إعرابِه ، ويُضَمُّ بإتْباع الضَّمَّةِ الضّمَّةَ ، وحكى ابنُ الأَعْرَابِيّ : مَا رأَيْتُه قَطِّ مشدَّدَةً مَجْرُورَةً ، هَذَا إنْ كانَتْ بمَعْنَى الدَّهْرِ ، مَخْصُوصٌ بالماضِي ، أَي المَنْفَيّ ، كَمَا يَدُلُّ قولُه أَوَّلًا : مَا رأَيْتُه قَطِّ .
- قلت : (والقائل / عماد) : فائدة في (قط) : قالَ اللَّيْثُ : وأَمّا قَطُّ فإنَّهُ هُوَ الأَبَدُ الماضِي ، تَقُول : مَا رَأَيْتُ مِثْلَهُ قَطُّ ، وهُوَ رَفْعٌ ، لأَنَّهُ مِثْلُ قَبْلُ وبَعْدُ ، قالَ : وأَمَّا القَطّ الّذِي فِي مَوْضِعِ : مَا أَعْطَيْتُه إلاّ عِشْرِينَ قَطِّ ، فإنَّهُ مَجْرُورٌ ، فَرْقًا بَين الزَّمانِ والعَدَدِ . وقَطُّ مَعْناها الزَّمانُ . وإذا كانَتْ بمَعْنَى حَسْبُ ، فَقَطْ مَفْتُوحَةُ القافِ ساكِنَةُ الطّاءِ كعَنْ ، قالَ سِيبَوَيْهِ : مَعْنَاهَا الاكْتِفَاءُ وَقد يُقَالُ : قَطِ ، مُنَوّنًا مَجْرُورًا ، - وقَطِي ، وَقَالَ سِيبَوَيْهِ : قَطُ معناهَا : الانْتِهَاءُ ، وبُنِيَتْ على الضَّمّ كحَسْبُ ، هكَذا هُوَ فِي اللّسَانِ . وعِبَارَةُ الصّحاح : فأَمّا إذا كانَتْ بمَعْنَى حَسْبُ ، وَهُوَ الاكْتِفَاءُ ، فَهِيَ مَفْتُوحةٌ ساكِنَةُ الطّاءِ ، تَقُول : مَا رَأَيْتُه إلّا مَرّةً وَاحِدَةً فقَطْ ، فإذا أَضَفْتَ قُلْتَ : قَطْكَ هَذَا الشَّيْءُ ، أَي حَسْبُكَ ، - وقَطْنِي ، - وقَطِي ، وقَطْ . وَفِي الحَدِيث فِي ذِكْرِ النّارِ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - :
" لا تَزَالُ جَهَنَّمُ تَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ حَتَّى يَضَعَ رَبُّ الْعِزَّةِ فِيهَا قَدَمَهُ فَتَقُولُ قَطْ قَطْ وَعِزَّتِكَ وَيُزْوَى بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ "
(خ / ٦٦٦١ ، م / ٢٨٤٨) ، بمَعْنى حَسْبُ ، قَالَ ابنُ الأَثِيرِ : وتَكْرارُهَا للتَّأْكِيدِ ، وَهِي ساكِنَةُ الطّاءِ . وإذا كَانَ اسْمَ فِعْلٍ بمَعْنى يَكْفِي فتُزادُ نُونُ الوِقايَةِ ، ويُقالُ : قَطْنِي وهُوَ الَّذِي جَزَمَ بِهِ جَماعَةٌ مِنْهُم الشَّيْخُ ابنُ هِشامٍ .

وَفِي اللِّسَانِ : وزادُوا النُّونَ فِي قَطْ ، فقالُوا : قَطْنِي ، لم يُرِيدُوا أَنْ يَكْسِرُوا الطّاءَ ، لئلاَّ يَجْعَلُوهَا بِمَنْزِلَة الأَسْمَاءِ المُتَمَكِّنَةِ ، نَحْو : يَدِي وهَنِي ، وَقَالَ بَعْضُهُم : قَطْنِي : كَلِمَةٌ مَوْضُوعةٌ لَا زِيَادَةَ فِيها كحَسْبِي ، قَالَ الرّاجِزُ :

(امْتَلأَ الحَوْضُ وَقَالَ – قَطْنِي ... سَلًّا رُوَيْدًا قد مَلأْتَ بَطْنِي)

ويُرْوَى : مَهْلًا رويدًا . وأَنْشَدَ الجَوْهَرِيُّ هَذَا الرَّجَزَ هَكَذَا ، وَقَالَ : وإِنَّما دَخَلَتِ النُّونُ لِيَسْلَمَ) السُّكُونُ الَّذِي بُنِيَ الاسْمُ عَلَيْهِ ، وهذِه النُّونُ لَا تَدْخُلُ الأَسْمَاءَ ، وإِنَّمَا تَدْخُلُ الفِعْلَ الماضِيَ إِذا دَخَلَتْهُ ياءُ المُتَكَلِّم ، كقَوْلِك : ضَرَبَنِي وكَلَّمَنِي ، لتَسْلَمَ الفَتْحَةُ الَّتِي بَنِيَ الفعلُ عَلَيْهَا ، ولِتَكُونَ وِقَايَةً لِلفِعْلِ من الجَرّ ، وإِنَّما أَدْخَلُوهَا فِي أَسْمَاءٍ مَخْصُوصَةٍ نَحْو : قَطْنِي وقَدْنِي وعَنِّي ومِنِّي ولَدُنِّي ، لَا يُقَاسُ عَلَيْهَا ، وَلَو كَانَت النُّونُ من أَصْلِ الكَلِمَةِ لقالُوا : قَطْنُكَ ، وَهَذَا غيرُ معلومٍ . انْتهى .

فإِنْ قَلَّلْت بقَطْ فاجْزِمْها ، تقول : مَا عِنْدَكَ إِلَّا هَذَا قَطْ . فإِن لَقِيَتْه أَلِفُ وَصْلٍ كُسِرَت ، تقول : مَا عَلِمْتُ إِلّا هَذَا قَطِ اليَوْمَ . وَمَا فَعَلْت هَذَا قَطْ مَجْزُومَ الطّاء وَلَا ! قَطُّ مُشَدَّدًا مضمومَ الطّاءِ ، أَو يُقَال : قَطّ يَا هَذَا مُثَلَّثة الطّاءِ مُشَدَّدَةً ، ومَضْمُومَةَ الطّاءِ مُخَفَّفَةً ومَرْفُوعَةً ، ونصُّ اللِّحْيَانِيّ فِي النَّوَادِرِ : وَمَا زالَ هَذَا مُذْ قُطُّ يَا فَتَى ، بضَمّ القافِ والتَّثْقِيل ، وتَخْتَص بالنَّفْيِ ماضِياً كَمَا قَدَّمْنَا الإِشَارَةَ إِلَيْهِ . وتَقُولُ العَامَّةُ : لَا أَفْعَلُه قَطُّ . وإِنَّمَا يُسْتَعْمَلُ فِي المُسْتَقْبَلِ عَوْضُ .

وحَكَى اللِّحْيَانِيُّ : قد يُقالُ : مَالَهُ إلاّ عَشَرَةٌ قَط يَا فَتَى ، مُخَفَّفًا مَجْزُومًا ، ومُثَقَّلًا مَخْفُوضًا .

وَفِي الصّحاحِ : يُقَال : قَطَاطِ كقَطَامِ ، أَي حَسْبِي ، قَالَ عَمْرُو بنُ مَعْدِ يكْرِبَ :

(أَطَلْتُ فِراطَهُم حَتَّى إِذا مَا ... قَتَلْتُ سَراتَهُمْ كانَتْ قَطاطِ)

قالَ ابنُ بَرّيّ والصّاغَانِيُّ صَوابُ إِنْشَادِه : فِراطَكُمْ وسَرَاتَكُم بكافِ الخِطابِ .

– إِذًا : قَطُّ فَفِيهَا لُغَاتٌ منها : قَطُّ وَقُطُّ بِفَتْحِ الْقَافِ وَضَمِّهَا مَعَ تَشْدِيدِ الطَّاءِ الْمَضْمُومَةِ وَقَطِّ بِفَتْحِ الْقَافِ وَكَسْرِ الطَّاءِ الْمُشَدَّدَةِ وَقَطْ بِفَتْحِ الْقَافِ وَإِسْكَانِ الطَّاءِ وَقَطِ بِفَتْحِ الْقَافِ وَكَسْرِ الطَّاءِ الْمُخَفَّفَةِ وهي لتوحيد نَفْيِ الْمَاضِي وربما تسْتَعْمل (قطّ) بِدُونِ النَّفْي نَحْو : (كنت أرَاهُ قطّ) أَي دَائِمًا .

(٤) اسْتَغْفَرْتُ اللَّهَ : أَي طلبت مِنْهُ الْمَغْفِرَة ، وغفر الله له ، أَي سَتر الله ذنوبه وَلم يَفْضَحهُ بهَا على رُؤُوس الْمَلأ .

وكلُّ شَيْء سترتَه فقد غفرتَه ، وأصل الغفر التَّغْطِيَةُ وَالسَّتْرُ وهو ستر الشى ، بما يصونه ، فالله غافر لذنوب عباده ساتر لها بترك العقوبة عليها ، ومعناه أنه يستر القبائح والذنوب ، بإسبال الستر عليها في الدنيا ، وترك المؤاخذة بالعفو عنها في العقبى ، ويصون العبد من أوزارها .

ومن أهمّ موجبات المغفرة وأجمعِها هو طلبُ المغفرة من الله بالاستغفار وفي ذلك يقول تعالى :

(وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (المزمل / ٢٠) ويقول تعالى : (وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا) (النساء / ١٠٦) والقرآن دلَّ على أنّ من استغفر الله تائبًا وعازمًا على ترك الإصرار على المعصية فسيتجيب الله دعائه ويغفر له قال الله تعالى : (وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا) (النساء / ١١٠) وهذا وعدٌ من الله لا يتخلف ولا يتبدل ومن أوفى بعهده من الله ؟ .

(٥) الله : اسم الجلالة : هُوَ اسْمٌ لَمْ يُسَمَّ بِهِ غَيْرُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ؛ والله : اسم عَلَم على الإله المعبود بحق ، و(الله) معناه : ذو الألوهية ، والألوهية معناها : العبادة ، يقال : أَلَهَ يألَهُ : بمعنى : عبَد يعبُد ، فالألوهية معناها : العبادة ، فـ (اللهِ) معناه : ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين ، وقد تقدَّم الكلام عنه في الحديث الأول .

ما يستفاد من الحديث

(مَا أَصْبَحْتُ غَدَاةً قَطُّ إلا)

– حرص النَّبي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على الطاعة .

– مداومة النَّبي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على فعل الخيرات والثبات على العمل الصالح حتى الممات .

– عدم الاغترار فالنَّبي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مع أنه غُفِر له ما تقَدَّم من ذنبه وما تأخر لم يغتر بذلك ولم يترك العمل .

– استفتاح اليوم بذكر الله .

– أهمية أن يكون بداية اليوم بذكر الله .

– فضل وأهمية أذكار الصباح .

– مداومة النَّبيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على الأذكار .

– التأكيد على عبادة الوقت ، وهي أن كل عبادة في وقتها هي الأفضل .

– الحثّ على مداومة الذِّكر .

– التأكيد على الذِّكر بها صباحًا .

(اسْتَغْفَرْتُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ)

– أهمية وفضائل الاستغفار .

– فضل النَّبي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، وأنه كثير الاستغفار .

– النَّبي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – الذي غَفَر الله له ماتقدم من ذنبه وما تأخر يستغفر كل صباح فقط مِئَةَ مَرَّةٍ .

– النَّبي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يحقق الشكر عمليًا ، ليكون عبدًا شكورًا ففي الحديث قَالَ الْمُغِيرَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – : إِنْ كَانَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لَيَقُومُ لِيُصَلِّيَ حَتَّى تَرِمُ قَدَمَاهُ ، أَوْ سَاقَاهُ فَيُقَالُ لَهُ فَيَقُولُ أَفَلا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا . (خ / ١١٣٠) .

(مِئَةَ مَرَّةٍ)

– مشروعية ذكرِ الله بأعداد معينة .

– مشروعية التكرار والإلحاح بالدعاء .

– أن هناك أذكار تصل إلى العدد (مِئَةَ مَرَّةٍ) .

٢٢- عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما - عَنْ جُوَيْرِيَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - خَرَجَ مِنْ عِنْدِهَا بُكْرَةً (١) حِينَ صَلَّى الصُّبْحَ (٢) ، وَهِيَ فِي مَسْجِدِهَا (٣) ، ثُمَّ رَجَعَ بَعْدَ أَنْ أَضْحَى (٤) ، وَهِيَ جَالِسَةٌ (٥) ، فَقَالَ : " مَا زِلْتِ عَلَى الْحَالِ الَّتِي فَارَقْتُكِ عَلَيْهَا ؟ (٦) " قَالَتْ : نَعَمْ ، قَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : " لَقَدْ قُلْتُ بَعْدَكِ (٧) أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ (٨) ، لَوْ وُزِنَتْ (٩) بِمَا قُلْتِ (١٠) مُنْذُ الْيَوْمِ (١١) لَوَزَنَتْهُنَّ (١٢) : سُبْحَانَ اللهِ (١٣) وَبِحَمْدِهِ (١٤) ، عَدَدَ خَلْقِهِ (١٥) ، وَرِضَا نَفْسِهِ (١٦) ، وَزِنَةَ عَرْشِهِ (١٧) ، وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ (١٨) " (م / ٢٧٢٦) .

المعنى الإجمالي

هذا الحديث من الأحاديث التي فيها بيان فضيلة نوع من أنواع الذِّكر وهو ما رَوْته أم المؤمنين جُوَيْرِيَةَ بنت الحارث - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - عن النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أنه خرج من عندها الفجر ثم رجع إليها ضُحَىً وهي تُسبّح وتُهلّل ، فَبَيَّن لها - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أنه قال بعدها كلمات تزن ما قالت منذ الفجر أو منذ الصبح وهي : (سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ ، عَدَدَ خَلْقِهِ ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ رِضَا نَفْسِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ زِنَةَ عَرْشِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ مِدَادَ كَلِمَاتِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ) .

معاني الكلمات

(١) بُكْرَةً : البُكْرة : الغُدْوة . (البكرة) أول النَّهَار إِلَى طُلُوع الشَّمْس والعامَّة يسمون يَوْم الْغَد كُله بكرَة وباكرًا ، الْبُكْرَةُ وَهِيَ الْغَدَاةُ ، وَالْجَمْعُ الْبُكَرُ . وَالتَّبْكِيرُ وَالْبُكُورُ وَالِابْتِكَارُ الْمُضِيُّ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ .
وَالْإِبْكَارُ : الْبُكْرَةُ ، كَمَا أَنَّ الْإِصْبَاحَ اسْمُ الصُّبْحِ .
قَالَ سِيبَوَيْهِ : من الْعَرَب من يَقُول : أَتَيْتُك بكرَة ، وَفِي التَّنْزِيل : (ولَهُم رِزْقُهم فِيهَا بكرَة وعَشِيّا) .
(٢) حِينَ صَلَّى الصُّبْحَ : أَيْ : أَرَادَ صَلَاةَ الصُّبْحِ .
(٣) وَهِيَ فِي مَسْجِدِهَا : أي : في الموضع الذي هَيَّأَتْهُ للصلاة .
(٤) بَعْدَ أَنْ أَضْحَى : أَيْ : دَخَلَ فِي الضَّحْوَةِ ، وَهِيَ ارْتِفَاعُ النَّهَارِ قَدْرَ رُمْحٍ وَقِيلَ : أَيْ صَلَّى صَلَاةَ الضُّحَى .
(٥) وَهِيَ جَالِسَةٌ : أي في موضعها ففي رواية أبي داود " فَخَرَجَ وَهِيَ فِي مُصَلَّاهَا وَرَجَعَ وَهِيَ فِي مُصَلَّاهَا "
وفي رواية أحمد والتِّرْمِذِيّ والنَّسائِيّ أن النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - " مَرَّ عَلَى جُوَيْرِيَةَ بَاكِرًا وَهِيَ فِي الْمَسْجِدِ ، تَدْعُو ثُمَّ مَرَّ عَلَيْهَا قَرِيبًا مِنْ نِصْفِ النَّهَارِ " ولابن ماجه " مر بها رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حِينَ صَلَّى الْغَدَاةَ ، - أَوْ بَعْدَ مَا صَلَّى الْغَدَاةَ - وَهِيَ تَذْكُرُ اللَّهَ ، فَرَجَعَ حِينَ ارْتَفَعَ النَّهَارُ - أَوْ قَالَ : انْتَصَفَ - وَهِيَ كَذَلِكَ ،
وفي الأدب المفرد " ثُم رجعَ إليهَا بَعد مَا تَعالى النَّهار ، وهِي فِي مَجلِسِهَا فَقال : مَا زِلتِ فِي مَجلِسكِ ؟ "
" مَا زِلتِ " بكسر التاء خطاب لجويرية على تقدير الاستفهام أي ثَبَتِّ في مكانك وما زلت ؟ .
(٦) مَا زِلْتِ عَلَى الْحَالِ الَّتِي فَارَقْتُكِ عَلَيْهَا : أَيْ : مِنَ الْجُلُوسِ عَلَى ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى .
(٧) لَقَدْ قُلْتُ بَعْدَكِ : أَيْ : بَعْدَ أَنْ خَرَجْتُ مِنْ عِنْدِكِ ، أو بعد ما فارقتك .

(٨) ثَلَاثَ مَرَّاتٍ : أي : سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ عَدَدَ خَلْقِهِ (ثَلَاثَ مَرَّاتٍ) سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ رضا نفسه (ثَلَاثَ مَرَّاتٍ) سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ زنة عرشه (ثَلَاثَ مَرَّاتٍ) سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ مداد كلماته (ثَلَاثَ مَرَّاتٍ) فيكون الجميع اثنتي عشرة مرة .

(٩) لَوْ وُزِنَتْ : أَيْ : قُوبِلَتْ .

(١٠) بِمَا قُلْتِ : أَيْ : بِجَمِيعِ مَا قُلْتِ مِنَ الذِّكْرِ من أول النهار إلى هذا الوقت .

(١١) مُنْذُ الْيَوْمِ : أَيْ : فِي هَذَا الْيَوْمِ أَوِ الْوَقْتِ الْمَذْكُورِ ، و" منذ " على هذا حرف جر بمعنى (مِنْ) أو (في) أي : من ابتداء النهار ، أو في الوقت المذكور .

(١٢) لَوَزَنَتْهُنَّ : أَيْ : لَتَرَجَّحَتْ تِلْكَ الْكَلِمَاتُ عَلَى جَمِيعِ أَذْكَارِكِ وَزَادَتْ عَلَيْهِنَّ فِي الْأَجْرِ وَالثَّوَابِ ، يُقَالُ وَازَنَهُ فَوَزَنَهُ : إِذَا غَلَبَ عَلَيْهِ وَزَادَ فِي الْوَزْنِ ، كَمَا يُقَالُ : حَاجَجْتُهُ فَحَجَجْتُهُ . أَوْ لَسَاوَتْهُنَّ ، يُقَالُ : هَذَا يَزِنُ دِرْهَمًا أَوْ يُسَاوِيهِ ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ – : " لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ لَمَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ " ، أَيْ : سَاوَتْهُنَّ أَوْ غَلَبَتْهُنَّ ، وَفِيهِ تَنْبِيهٌ عَلَى أَنَّهَا كَلِمَاتٌ كَثِيرَةُ الْمَعْنَى لَوْ قُوبِلَتْ بِمَا قُلْتِ لَسَاوَتْهُنَّ .

– أجمع السلف على أن أعمال العباد مخلوقة ، لأن ما يوضع في الميزان فهو مخلوق ؛ لأنه من عمل العبد .

– وصف هذه الكلمات بـ (لَوْ وُزِنَتْ بِمَا قُلْتِ مُنْذُ الْيَوْمِ لَوَزَنَتْهُنَّ) لبيان كثرة الثواب مع قلة العمل ، لِأَنَّ الْأَعْمَالَ تَتَجَسَّمُ عِنْدَ الْمِيزَانِ .

وَقِيلَ : تُوزَنُ صَحَائِفُ الْأَعْمَالِ ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ حَدِيثُ الْبِطَاقَةِ وَالسِّجِلَّاتِ .

– قلت : (والقائل / عماد) : فائدة في (الْمِيزَانِ) :

الميزان من أمور الآخرة الغيبية التي يجب الإيمان بها وقد أنكرته الجهمية ، ومن الإيمان باليوم الآخر الإيمان بالموازين التي توضع لوزن أعمال الناس يوم القيامة . والمراد به في الاصطلاح الشرعي : الميزان الذي أخبر الله تعالى عنه في الأحاديث الشريفة في أكثر من مناسبة تنويهًا بعظم شأنه وخطورة أمره .

وهو ميزان حقيقي له لسان وكفتان توزن به أعمال العباد خيرها وشرها ، وقد أخبر الله عنه في القرآن الكريم إخبارًا مجملًا من غير تفصيل لحقيقته ، وجاءت السنة النبوية فبينته . يظهره الله في يوم القيامة لإظهار مقادير أعمال الخلق ، وقد أجمع المسلمون على القول به واعتقاده .

وجاء ذكره في القرآن الكريم في أكثر من آية تنويهًا بعظمه وأهميته ، قال تعالى : (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ) (الأنبياء / ٤٧) والميزان جنس للموازين ، وقال جل وعلا : (فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ) فهي موازين ، ومن أهل العلم من قال إنه ميزان واحد ، والميزان حقيقة ، (له كفتان ولسان) ويعني بذلك مخالفة المعتزلة الذين قالوا إن الميزان لا يُعقل أن تكون حقيقته في الآخرة كحقيقته في الدنيا : أنه توزن به الأمور . ويوزن في الميزان العمل ، وصاحب العمل ، وصحائف الأعمال ، ومنهم من قال – يعني من أهل العلم – : إنَّ وزن صاحب العمل هو وزن عمله . لكن هذا جاء أحاديث فيها وزن صاحب العمل ، وفيها وزن الصحائف ؛ صحائف الأعمال .

والذي يوزن في الميزان ثلاثة ، وقد دلَّت على ذلك النصوص :

١ – الأعمال ، فقد ثبت أنها تجسم وتوزن في الميزان ودلَّ عليه حديث أبي هريرة :

" كلمتان حبيبتان إلى الرحمن ثقيلتان في الميزان . . . " ، وحديث أَبِي الدَّرْدَاءِ ، عَنِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ : " مَا مِنْ شَيْءٍ أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ " (صحيح أبي داود / ٤٧٩٩) .

٢ – صحف الأعمال ، وقد دلَّ على ذلك حديث عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما – قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " إِنَّ اللَّهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الخَلائِقِ يَوْمَ القِيَامَةِ ، فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلًّا ، كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ البَصَرِ ، ثُمَّ يَقُولُ : أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا ؟ أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الحَافِظُونَ ؟ فَيَقُولُ : لا يَا رَبِّ ، فَيَقُولُ : أَفَلَكَ عُذْرٌ ؟ فَيَقُولُ : لا يَا رَبِّ ، فَيَقُولُ : بَلَى إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً ، فَإِنَّهُ لا ظُلْمَ عَلَيْكَ اليَوْمَ ، فَتَخْرُجُ بِطَاقَةٌ فِيهَا : أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، فَيَقُولُ : احْضُرْ وَزْنَكَ ، فَيَقُولُ : يَا رَبِّ مَا هَذِهِ البِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ ؟ ، فَقَالَ : إِنَّكَ لا تُظْلَمُ ، قَالَ : فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كَفَّةٍ ، وَالبِطَاقَةُ فِي كَفَّةٍ ، فَطَاشَتِ السِّجِلَّاتُ ، وَثَقُلَتِ البِطَاقَةُ ، فَلا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللهِ شَيْءٌ " (صحيح التِّرْمِذِيّ / ٢٦٣٩) .

٣ – العامل نفسه ، وقد دل على وزنه قوله تعالى : (فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا) (الكهف / ١٠٥) ، وكذلك حديث عَبدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – أَنَّهُ كَانَ يَجْتَنِي سِوَاكًا مِنَ الأَرَاكِ ، وَكَانَ دَقِيقَ السَّاقَيْنِ ، فَجَعَلَتِ الرِّيحُ تَكْفَؤُهُ ، فَضَحِكَ الْقَوْمُ مِنْهُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " مِمَّ تَضْحَكُونَ ؟ قَالُوا : يَا نَبِيَّ اللهِ ، مِنْ دِقَّةِ سَاقَيْهِ ، فَقَالَ : وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، لَهُمَا أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ أُحُدٍ " (رواهُ أحمد ، السلسلة الصحيحة / ٢٧٥٠) .

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – عَنْ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ : " إِنَّه لَيَأْتِي الرَّجُلُ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يَزِنُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ ، وَقَالَ اقْرَؤُوا (فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا) (خ / ٤٧٢٩ ، م / ٢٧٨٥) .

وقد جاء ما يدل على أنَّ الوزن يوم القيامة بمثاقيل الذر ، قال الله تعالى : (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) . فمهما صغر العمل ودق فإنَّه يؤتى به يوم القيامة ويوزن ، قال الله تبارك وتعالى : (يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ) .

كما دلَّت النصوص أيضًا على أنَّ الأشخاص وأعمالهم وصحائفهم كلَّها توزن يوم القيامة . وإذا آمن بالميزان وأنَّه ميزان حقيقي له كفتان ، توضع الحسنات في كفة والسيئات في كفة ، وكلُّ عملٍ عملَه في هذه الحياة يوزن ، إذا آمن بذلك إيمانًا جازمًا فإنه لا ريب سيزداد إقباله على الحسنات ، ويشتد بعده عن السيئات .

(١٣) سُبْحَانَ اللهِ : أَيِ : الْمُنَزَّهُ عَنْ كُلِّ عَيْبٍ وَآفَةٍ ، و تَنْزِيهُهُ عَمَّا لَا يَلِيقُ بِهِ مِنْ نَقْصٍ فَيَلْزَمُ مِنْهُ نَفْيُ الشَّرِيكِ وَالصَّاحِبِ وَالْوَلَدِ وَجَمِيعِ مَا لَا يَلِيقُ ، وَالتَّسْبِيحُ يُطْلَقُ عَلَى جَمِيعِ أَلْفَاظِ الذِّكْرِ ، وَيُطْلَقُ عَلَى صَلَاةِ النَّافِلَةِ ، وَمِنْهُ صَلَاةُ التَّسْبِيحِ خُصَّتْ بِذَلِكَ لِكَثْرَةِ التَّسْبِيحِ فِيهَا . وَفِيهِ أَنَّهُ تُكَفَّرُ بِهَذَا الذِّكْرِ الْخَطَايَا وَظَاهِرُهُ وَلَوْ كَبَائِرَ ، وَالْعُلَمَاءَ يُقَيِّدُونَ ذَلِكَ بِالصَّغَائِرِ وَيَقُولُونَ لَا تُمْحَى الْكَبَائِرُ إِلَّا بِالتَّوْبَةِ .

وأما معنى (سُبْحَانَ) ؛ فيقول علماء فقه اللغة : الأصل في وضع الألفاظ للمعاني الأشياء المحسوسة الملموسة ، ثم ينتقل بها إلى المعنويات ، نعلم أن (سبحان الله) هو تنزيه الله عما لا يليق بجلاله ، ومادة (سُبْحَانَ) أصلها من سَبَح ، وسَبَح

المحسوس الذي يسبح في الماء ، ولماذا يَسبَح الإنسان في الماء ؟ لئلا يغرق ، فكذلك المسبّح لله ؛ لئلا يغرق في بحار الشرك ، ولينزه الله ويبعده عما لا يليق بجلاله كما يبعد نفسه عن مهالك الغرق .

(١٤) وَبِحَمْدِهِ : (وَبِحَمْدِهِ) أَيْ : وَبِحَمْدِهِ أَحْمَدُهُ ، أَيْ : أُنَزِّهُهُ مِنْ كُلِّ سُوءٍ ، وَأَبْتَدِئُ بِحَمْدِهِ ، أَيْ : سُبْحَانَكَ بِجَمِيعِ آلَائِكَ وَبِحَمْدِكَ سَبَّحْتُكَ ؛ فهذا تَنْزِيهٌ مَمْزُوجٌ بِالْحَمْدِ ، إِشَارَةٌ إِلَى تَقْدِيمِ التَّخْلِيَةِ عَلَى التَّحْلِيَةِ . فَإِنَّ التَّسْبِيحَ يَتَضَمَّنُ نَفْيَ الشَّرِيكِ الَّذِي هُوَ التَّهْلِيلُ ، وَيَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ كَوْنُهُ أَكْبَرَ . وقدَّم التسبيح على الحمد لأن الأول تنزيه عن صفات النقص ، والثاني نتاج بصفات الكمال والتخلية مقدمة على التحلية .

والحمد : ثناء على المحمود لكمال ذاته وصفاته ، ولا ينبغي هذا أبدًا ولا يجمع إلا للمولى سبحانه ؛ لأنه كامل الذات والصفات ، فإذا قلتَ : (سبحان الله) نزهتَه عن كل ما لا يليق بجلاله ، وإذا قلتَ : (الحمد لله) أثبتَ لله جميع صفات المحامد والكمال ، وهذا أقصى منتهى التوحيد .

(١٥) عَدَدَ خَلْقِهِ : أَيْ : بِعَدَدِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ . أَو : قَدْرِ عَدَدِ خَلْقِهِ ، فمعناه أنك تُسبّح الله عز وجل وتحمده عدد مخلوقاته ، ومخلوقات الله عز وجل لا يحصيها إلا الله ؛ فلو ضربنا مثلًا لكثرة عدد الخلق بشئ قد يكون في نظر الناس تافه أو حقير مِثْل عدد الرمال والحصى والديدان وعالم الحشرات وعالم البحار وما فيها من مخلوقات والجراثيم والميكروبات والبكتريا والفيروسات ، وكذلك مَثَل لشئ عظيم وهو عدد الملائكة فلنأخذ مثالًا يدلُّ على كثرتهم ، قال أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ عَنْ مَالِكِ بْنِ صَعْصَعَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا – قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم – بَيْنَا أَنَا عِنْدَ الْبَيْتِ بَيْنَ النَّائِمِ وَالْيَقْظَانِ – وَذَكَرَ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ – فَأُتِيتُ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مُلِئَ حِكْمَةً وَإِيمَانًا فَشُقَّ مِنَ النَّحْرِ إِلَى مَرَاقِّ الْبَطْنِ ثُمَّ غُسِلَ الْبَطْنُ بِمَاءِ زَمْزَمَ ثُمَّ مُلِئَ حِكْمَةً وَإِيمَانًا وَأُتِيتُ بِدَابَّةٍ أَبْيَضَ دُونَ الْبَغْلِ وَفَوْقَ الْحِمَارِ الْبُرَاقُ فَانْطَلَقْتُ مَعَ جِبْرِيلَ حَتَّى أَتَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا قِيلَ مَنْ هَذَا قَالَ جِبْرِيلُ قِيلَ مَنْ مَعَكَ قِيلَ مُحَمَّدٌ " ... إلى أن قال " ... فَرُفِعَ لِيَ الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ فَسَأَلْتُ جِبْرِيلَ فَقَالَ هَذَا الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ يُصَلِّي فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ إِذَا خَرَجُوا لَمْ يَعُودُوا إِلَيْهِ أخِرَ مَا عَلَيْهِمْ "

(خ / ٣٢٠٧ ، م / ١٦٢) فهل يستطيع أحد أن يحسب عددهم ؟ وكل هذا بخلاف عالمي الجن والإنس .

(١٦) وَرِضَا نَفْسِهِ : أَيْ : أَقُولُ لَهُ التَّسْبِيحَ وَالتَّحْمِيدَ بِقَدْرِ مَا يُرْضِيهِ خَالِصًا مُخْلِصًا لَهُ ، فَالْمُرَادُ بِالنَّفْسِ ذَاتُهُ ، وَالْمَعْنَى ابْتِغَاءُ وَجْهِهِ . أي بمقدار يكون سببًا لرضاه تعالى أو بمقدار يَرضى به لذاته ، ويختاره فهو مثل ما جاء وبملأ ما شئت من شيء بعد .

والمعنى أنك تُسبّحُ الله وتحمده حمدًا يَرضى به الله عز وجل وأي حمد يَرضى به الله إلا وهو أفضل الحمد وأكمله .

قال النووي : قَالَ الْعُلَمَاء : الرِّضَى وَالسُّخْط وَالْكَرَاهَة مِنْ اللَّه تَعَالَى الْمُرَاد بِهَا أَمْره وَنَهْيه ، وَثَوَابه وَعِقَابه ، أَوْ إِرَادَته الثَّوَاب لِبَعْضِ الْعِبَاد ، وَالْعِقَاب لِبَعْضِهِمْ . (وهذا تأويل لهذه الصفات مخالف لعقيدة أهل السُّنَّة ، وبيانه ما يلي) :

– قلت : (والقائل / عماد) : فائدة في (صفة الرِّضا) :

(تنبيه مهم) (هذا تأويل لصفات الرِّضَى وَالسُّخْط وَالْكَرَاهَة) والصواب الآتي :

– جاء في العقيدة الطحاوية (وَاللَّهُ يَغْضَبُ وَيَرْضَى ، لَا كَأَحَدٍ مِنَ الْوَرَى) وَمَذْهَبُ السَّلَفِ وَسَائِرُ الْأَئِمَّةِ إِثْبَاتُ صِفَةِ الْغَضَبِ ، وَالرِّضَى ، وَالْعَدَاوَةِ ، وَالْوِلَايَةِ ، وَالْحُبِّ ، وَالْبُغْضِ ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الصِّفَاتِ ، الَّتِي وَرَدَ بِهَا الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ ، وَمَنْعُ التَّأْوِيلِ الَّذِي يَصْرِفُهَا عَنْ حَقَائِقِهَا اللَّائِقَةِ بِاللَّهِ تَعَالَى .

كَمَا يَقُولُونَ مِثْلَ ذَلِكَ فِي السَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْكَلَامِ وَسَائِرِ الصِّفَاتِ ، كَمَا أَشَارَ إِلَيْهِ الشَّيْخُ فِيمَا تَقَدَّمَ بِقَوْلِهِ :
" إِذْ كَانَ تَأْوِيلُ الرُّؤْيَةِ وَتَأْوِيلُ كُلِّ مَعْنًى يُضَافُ إِلَى الربوبية – بترك التَّأْوِيلِ ، وَلُزُومَ التَّسْلِيمِ ، وَعَلَيْهِ دِينُ الْمُسْلِمِينَ " .
وَانْظُرْ إِلَى جَوَابِ الْإِمَامِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي صفة (الاستواء) : الِاسْتِوَاءُ مَعْلُومٌ ، وَالْكَيْفُ مَجْهُولٌ .
وَرُوِيَ أَيْضًا عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا – مَوْقُوفًا عَلَيْهَا ، وَمَرْفُوعًا إِلَى النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – .
وَكَذَلِكَ قَالَ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ فِيمَا تَقَدَّمَ : " مَنْ لَمْ يَتَوَقَّ النَّفْيَ وَالتَّشْبِيهَ ، زَلَّ وَلَمْ يُصِبِ التَّنْزِيهَ " .
وَيَأْتِي فِي كَلَامِهِ " أَنَّ الْإِسْلَامَ بَيْنَ الْغُلُوِّ وَالتَّقْصِيرِ ، وَبَيْنَ التَّشْبِيهِ وَالتَّعْطِيلِ " .
فَقَوْلُ الشَّيْخِ رَحِمَهُ اللَّهُ : " لَا كَأَحَدٍ مِنَ الْوَرَى " – نَفْيُ التَّشْبِيهِ .
وَلَا يُقَالُ : إِنَّ الرِّضَى إِرَادَةُ الْإِحْسَانِ ، وَالْغَضَبَ إِرَادَةُ الِانْتِقَامِ – فَإِنَّ هَذَا نَفْيٌ لِلصِّفَةِ .
وَقَدِ اتَّفَقَ أَهْلُ السُّنَّةِ عَلَى أَنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِمَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ ، وَإِنْ كَانَ لَا يُرِيدُهُ وَلَا يَشَاؤُهُ ، وَيَنْهَى عَمَّا يَسْخَطُهُ وَيَكْرَهُهُ ، وَيُبْغِضُهُ وَيَغْضَبُ عَلَى فَاعِلِهِ ، وَإِنْ كَانَ قَدْ شَاءَهُ وَأَرَادَهُ . فَقَدْ يُحِبُّ عِنْدَهُمْ وَيَرْضَى مَا لَا يُرِيدُهُ ، وَيَكْرَهُ وَيَسْخَطُ وَيَغْضَبُ لِمَا أَرَادَهُ .
وَقَدْ نَفَى الْجَهْمُ وَمَنْ وَافَقَهُ كُلَّ مَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ ، مِنْ كَلَامِهِ وَرِضَاهُ وَغَضَبِهِ وَحُبِّهِ وَبُغْضِهِ وَأَسَفِهِ وَنَحْوِ ذَلِكَ ، وَقَالُوا : إِنَّمَا هِيَ أُمُورٌ مَخْلُوقَةٌ مُنْفَصِلَةٌ عَنْهُ ، لَيْسَ هُوَ فِي نَفْسِهِ مُتَّصِفًا بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ !!
وَعَارَضَ هَؤُلَاءِ مِنَ الصِّفَاتِيَّةِ ابْنُ كُلَّابٍ وَمَنْ وَافَقَهُ ، فَقَالُوا : لَا يُوصَفُ اللَّهُ بشيء يتعلق بمشيئته وقدرته أصلا ، و جَمِيعُ هَذِهِ الْأُمُورِ صِفَاتٌ لَازِمَةٌ لِذَاتِهِ ، قَدِيمَةٌ أَزَلِيَّةٌ ، فَلَا يَرْضَى فِي وَقْتٍ دُونَ وَقْتٍ ، وَلَا يَغْضَبُ فِي وَقْتٍ دُونَ وَقْتٍ .
كَمَا قَالَ فِي حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ : " إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ " .
وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – ، عَنِ النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – :
" إن الله تَعَالَى يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ : يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ . فيقولون : لبيك وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ . فَيَقُولُ : هَلْ رَضِيتُمْ ؟ فَيَقُولُونَ : وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى يَا رَبُّ وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ ! فَيَقُولُ : أَلَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ ؟ فَيَقُولُونَ : يَا رَبُّ ، وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ ؟ فَيَقُولُ : أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي ، فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا "
(خ / ٦٥٤٩ ، م / ٢٨٢٩) ، فَيُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى أَنَّهُ يُحِلُّ رِضْوَانَهُ فِي وَقْتٍ دُونَ وَقْتٍ ، وَأَنَّهُ قَدْ يُحِلُّ رِضْوَانَهُ ثُمَّ يَسْخَطُ ، كَمَا يُحِلُّ السَّخَطَ ثُمَّ يَرْضَى ، لَكِنَّ هَؤُلَاءِ أَحَلَّ عَلَيْهِمْ رِضْوَانًا لَا يَتَعَقَّبُهُ سَخَطٌ .
وَهُمْ قَالُوا : لَا يَتَكَلَّمُ إِذَا شَاءَ ، وَلَا يَضْحَكُ إِذَا شَاءَ ، وَلَا يَغْضَبُ إِذَا شَاءَ ، وَلَا يَرْضَى إِذَا شَاءَ ، بَلْ إِمَّا أَنْ يَجْعَلُوا الرِّضَى وَالْغَضَبَ وَالْحُبَّ وَالْبُغْضَ هُوَ الْإِرَادَةُ ، أَوْ يَجْعَلُوهَا صِفَاتٍ أُخْرَى ، وَعَلَى التَّقْدِيرَيْنِ فَلَا يَتَعَلَّقُ شَيْءٌ مِنْ ذلك لَا بِمَشِيئَتِهِ وَلَا بِقُدْرَتِهِ ، إِذْ لَوْ تَعَلَّقَتْ بِذَلِكَ لَكَانَ مَحَلًّا لِلْحَوَادِثِ !! فَنَفَى هَؤُلَاءِ الصِّفَاتِ الْفِعْلِيَّةَ الذَّاتِيَّةَ بِهَذَا الْأَصْلِ ، كَمَا نَفَى أُولَئِكَ الصِّفَاتِ مُطْلَقًا بِقَوْلِهِمْ لَيْسَ مَحَلًّا لِلْأَعْرَاضِ . وَقَدْ يُقَالُ : بَلْ هِيَ أَفْعَالٌ ، وَلَا تُسَمَّى حَوَادِثَ ، كَمَا سُمِّيَتْ تِلْكَ صِفَاتٍ ، وَلَمْ تُسَمَّ أَعْرَاضًا . وَقَدْ تَقَدَّمَتِ الْإِشَارَةُ إِلَى هَذَا الْمَعْنَى ، وَلَكِنَّ الشَّيْخَ رَحِمَهُ اللَّهُ لَمْ يَجْمَعِ الْكَلَامَ فِي الصِّفَاتِ فِي الْمُخْتَصَرِ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ ، وَكَذَلِكَ الْكَلَامُ فِي الْقَدَرِ وَنَحْوُ ذَلِكَ ، وَلَمْ يَعْتَنِ فِيهِ بِتَرْتِيبٍ .

قال الشيخ صالح آل الشيخ في شرح الطحاوية ١ / ٦١٥ :

الذين لا يُثْبِتُونَ صفة الغضب والرضا كَصِفَةٍ فِعْلِيَّةٍ اختيارية ، يَتَأَوَلُوْنها بإرادة الانتقام والعذاب في الغضب ، وإرادة الإنعام والإحسان في الرِّضَى .

فيقولون : إنَّ الغضب : هو إرادة الانتقام والعذاب ، فجعلوها صفة الإرادة .

,الرضا : هو إرادة الإحسان والإنعام . لماذا أَوَّلْتُمُوها إلى صفة الإرادة ؟

قالوا : لأنَّ صفة الإرادة صفةٌ ثابتةٌ بالعقل ، فوجب رَد هذه الصفة التي لا يَصْلُحُ أن يُوصَفَ الله – عز وجل – بها إلى ما دلَّ عليه الدليل العقلي .

فصفة الإرادة نعم دلَّ عليها الدليل العقلي ، هذا صحيح ، كما دلَّ عليها الدليل السمعي . ولكن تَسْمِيَتُكُمْ لهذا تأويلًا هو في الحقيقة نَفْيٌ للصفة ؛ لأنَّ صفة الإرادة دلَّ عليه العقل ودلَّ عليها السمع كما عندهم ، فكونكم تقولون : لا يتصف بالغضب ، لا يتصف بالرضا وإنما يتصف بالإرادة ، الإرادة أقسام : إرادة غضب ، إرادة انتقام ، إرادة إحسان ، إرادة خلق إلخ ... لكن هي تبقى صفة إرادة . فإذًا لمَّا أَوَّلُوا الغضب والرضا بالإرادة ، فإنَّهُم – يعني – ينفون صفة الغضب والرضا .

ولهذا في الحقيقة الذي يتأول الصفة بصفة أخرى فإنَّهُ ينفي الصفة ، فكل مُتَأَوِّلٍ نافٍ للصفة التي يقول أنَّهُا لا تصلح في حق الله – عز وجل – .

ولهذا يَدْخُلُ في نُفَاة الصفات عند السلف – مسمى نُفاة الصفات – ، يدخل فيه الجهمية الذين ينفون جميع الصفات ، والمعتزلة الذين ينفون جميع الصفات إلا ثلاث صفات ، ويدخل فيه الكلابية الذين ينفون جميع الصفات إلا صفات سبع ومعهم الأشاعرة ، ويدخل فيهم الماتريدية الذين ينفون جميع الصفات إلا صفات ثمان ، وهكذا ، فمسمى نُفاة الصفاة يدخل فيه كل هذه الفرق ، في بعض الأحيان .

وهذا في الحقيقة تَعَدٍّ على الشريعة وعلى النَّص لأنَّهُم ينفون – وحاشانا من ذلك – ما أثبته الله لنفسه وأثبته له رسوله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – .

فهل يتجاسر مسلم على أن ينفي شيئًا وصف الله – عز وجل – به نفسه أو وصفه به رسوله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ؟

فتقول لهم : الله يغضب ؟

يقولون : لا يغضب .

تقول : (غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ) (النساء / ٩٣) .

يقولون لم يغضب عليه وإنما أراد به الانتقام وهكذا .

لكن لأجل الشُّبْهَة عندهم فإنَّهُم يكونون من أهل البدع لعدم متابعتهم للسلف في هذه المسائل وإحداثهم لبدعة التأويل في هذه النصوص الغيبية ولا يُكَفَّرُونَ في تأويلهم لأجل الشبهة التي عندهم .

قال الشيخ العثيمين في شرح العقيدة السفارينية ٧٣/١ : الصفات الفعلية نمرها كما جاءت ، مثل : المجيء والإتيان ، الغضب ، السخط ، الرضى ، الفرح ، العَجَب ، وغير ذلك من الصفات الفعلية فنمره كما جاء ، فنقول : المراد بالرضى المعنى الحقيقي – بالسخط المعنى الحقيقي – بالفرح المعنى الحقيقي – بالكراهة المعنى الحقيقي – وهكذا ، لأنها ألفاظ جاءت بمعناها فإذا صرفناها عن معناها الظاهر صار ذلك من باب اتِّباع الهوى لا الهدى .

يجب علينا أن نثبت بلا تعطيل ، والتعطيل نوعان :

١ – تعطيل للنص . ٢ – وتعطيل للصفة .

فأما تعطيل النص : فتعطيله عن دلالته .

وأما تعطيل الصفة : فنفيها عن الله عز وجل .

مثلًا : اليد تعطيلها باعتبار تعطيل صفة ، أن يقول : ليس لله يد حقيقية .

وتعطيل النص : أن يقول : قوله تعالى : (لما خلقتُ بيديَّ) أي بقدرتي أو نعمتي .

فالتعطيل إذن إما تعطيلٌ للنصوص بمنع دلالاتها على ما أُريدَ بها ، وإما تعطيل للصفات بنفيها عن الله سبحانه وتعالى مع ثبوتها له ، أهل السنة والجماعة يتبرءون من التعطيلين ، لأنهم يُجرون النصوص على ظاهرها ولأنهم يثبتون لله ما أثبته الله لنفسه ، ثم اعلم أن التعطيل الذي ينفيه أهل السنة والجماعة ينقسم إلى أقسام :

١ – أولًا : تعطيل جزئي : يكون بإثبات الأسماء وإثبات سبعٍ من الصفات وإنكار الباقي ، وهذا مذهب الأشاعرة ، الأشاعرة يثبتون الأسماء لله عز وجل ويثبتون سبعًا من الصفات وينكرون الباقي ، فإذا جاءت النصوص بدلالةٍ على الباقي حرفوها ، فيكون هؤلاء عطلوا النصوص وعطلوا الصفات فيما نفوه ، فمثلًا : يقولون : (رضي الله عنهم ورضوا عنه) (المائدة / ١١٩) ، يقولون : معنى : (رضي الله عنهم) : أي أثابهم ، فيفسرون الرضا بالمفعول المنفصل عن الله وهو الثواب فهؤلاء عطلوا ماذا ؟

عطلوا الصفة وهي الرضى ، وعطلوا النص فصرفوا وهو دلالته عن الرضى إلى الثواب فعطلوه عن مدلوله .

الثاني : تعطيل هو فوق ذلك . وهو تعطيل الصفات كلها دون الأسماء فينفون الصفات عن الله ويثبتون له الأسماء ومنهم من يقر بالحياة والعلم والقدرة لأنه لابد للرب منها ، وما عدا ذلك يحرفونه ، وهؤلاء هم المعتزلة ، وهذا هو المشهور عنهم ؛ أنهم يقرون بالأسماء ، وينكرون الصفات أو يقرون بثلاث صفات وينكرون الباقي .

الثالث : تعطيل فوق ذلك ، وهو إنكار الأسماء والصفات . فيقولون : إن الله لا يسمى سميعًا ولا يثبت له سمع ، وكل ما سمى الله به نفسه يجعلونه اسمًا للمخلوقات ، فليس الله هو السميع بل السميع خلقه ، وأضيف السمع إليه لأنه هو الذي خلقه في هذا ، فيجعلون الأسماء والصفات كلها للمخلوقات لا للخالق عز وجل ، وهؤلاء غلاة الجهمية ، يقولون : لا نؤمن بأن الله له أسماء ولا بأن الله له صفات .

الرابع : تعطيل قوم فوق ذلك وهم الذين لا يثبتون لله أي صفة ثبوتية . فكل شيء ثبوتي لا يثبتونه لله ، وإنما يثبتون لله السلبيات فقط ، فيقولون مثلا : ليس بمعدوم ، ليس بجاهل ، ليس بأعمى ، ليس بأصم ، وأما إثبات الصفة فهي ممنوعة ، لا الأسماء ولا الصفات ، وهؤلاء هم القرامطة وأشباههم .

الخامس : تعطيل فوق ذلك وهم الذين يعطلون النفي والإثبات ، فلا يصفون الله بصفة ثبوتية ولا بصفة سلبية ، فلا يثبتون الإثبات ولا النفي ، فيقولون : لا نقول أنه يرضى ولا نقول أنه لا يرضى ولا نقول حي ولا ميت ، لا سميع ولا أصم ، لا بصير ولا أعمى . فينفون عنه النفي والإثبات .

قالوا : لأنك لو أثبت لشبهته بالمثبتات ، ولا نفيت لشبهته بالمنفيات .

فأنت واقع في التشبيه سواء أأثبت أم نفيت ، فنقول لهم : هل تقولون أنه موجود ؟ فيقولون : لا . هل تقولون معدوم ؟ فسيقولون : لا . إذًا لا موجود ولا معدوم ! وهل هذا ممكن أن يكون الشيء لا موجودًا ولا معدومًا ؛ أو موجودًا معدومًا ؟! لا يمكن .

إذًا انتم الآن فررتم من تشبيهه بالمنفيات أو بالمثبتات وشبهتموه بالممتنعات . والممتنع طبعًا لا وجود له أصلا .

والحاصل أن التعطيل خمسة أنواع ، وأهل السنة والجماعة يتبرؤون من جميع هذه الأنواع ، ويثبتون لله كل ما أثبته لنفسه .

وأقول لهؤلاء : إنكم ما فررتم من شيء إلا ووقعتم في شرٍ منه ، لا في مثله فحسب بل في شر منه ، لأن هؤلاء إذا فروا مما يعتقدون في تشبيهه وأثبتوا صفة أخرى ، نقول لهم : هذه الصفة موجودة في المخلوق فقد وقعتم فيما فررتم منه من حيث التشبيه بالمخلوق ، وشر منه تحريف النص .

ونضرب مثلا : الذين يقولون إن الله ليس له يد حقيقية وإنما له قوة . لماذا لم يثبتوا اليد الحقيقية ؟ قالوا : لأن هذا يقتضي التشبيه بالمخلوق الذي له يد وجارحة . فنقول : والقوة كذلك : أليس للمخلوق قوة ؟ فلن يستطيع أن يقول : لا ، والله يقول : (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً) (الروم / ٥٤) فأنتم كان لكم ضعف ثم قوة ثم ضعف ، فإذا قلتم : له قوة وقعتم في التشبيه على قاعدتكم ؛ لأن للمخلوق قوة ، فيلزم على قاعدتكم أن تكونوا مشبهين لله تعالى بخلقه .

وقلنا : أنهم وقعوا في شر مما يفرون منه وهو تحريف النص ، حيث حرفوا معنى النص إلى معنى خلاف الظاهر ، وهكذا كل الذين يتكلمون بالتعطيل نقول : هم فرُّوا من شيء ووقعوا في شر منه .

– قلت : (والقائل / عماد) : فائدة في صفة النَّفْس لله عز وجل ، وهل هي الذات ؟.

هذا مَحِل خلاف بين أهل العلم ؛ منهم من يُثبت هذه الصفة على أنها صفة زائدة على الذات ، فأهل السنة والجماعة يُثبتون النَّفْس لله تعالى ، ونَفْسُه هي ذاته عَزَّ وجَلَّ ، وهي ثابتة بالكتاب والسنة .

– الدليل من الكتاب :

قول الله – عز وجل – (وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي) (طه / ٤١) ، (وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ) (آل عمران / ٢٨) و(تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ) (المائدة / ١١٦) ، (كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ) (الأنعام / ٥٤) .

– الدليل من السُّنَّة :

١– الحديث المشهور : عَنْ أَبِي ذَرٍّ – رَضِيَ اللهُ عَنْه – عَنِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فِيمَا رَوَى عَنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ : " يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي " (م / ٢٥٧٧) .

٢– حديث عائشة – رَضِيَ اللهُ عَنْهَا – : " اللهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ " (م / ٤٨٥) .

٣– حديث أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – :

" يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَة " (خ / ٧٤٠٥ ، م / ٢٦٧٥)

٤– حديث أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْه – عَنْ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ :
" إِنَّ اللَّهَ حِينَ خَلَقَ الخَلْقَ كَتَبَ بِيَدِهِ عَلَى نَفْسِهِ : إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي " (صحيح التِّرْمِذِيّ / ٣٥٣٤) .
٥– حديث أم المؤمنين جُوَيْرِيَةَ بنت الحارث – رَضِيَ اللهُ عَنْهَا – الذي معنا .
فاستدلّ البعض بهذه النصوص على إثبات صفة النفس لله – عز وجل – ، وممن قال بهذا ابن خزيمة – يرحمه الله – ، والإمام أبو حنيفة – يرحمه الله – ، وغيرهم . لكن شيخ الإسلام ذكر أن رأي الجمهور هو أن النفس هنا المقصود بها الذات ؛ قال شيخ الإسلام ابن تيمية في (مجموع الفتاوى) عن نَفْس الله : (ونفسه هي ذاته المقدسة) .
وقال أيضًا في (مجموع الفتاوى) : (ويراد بنَفْس الشيء ذاتِه وعينِه ؛ كما يقال : رأيت زيدًا نَفْسَه وعينَه ، وقد قال تعالى : (تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ) ، وقال تعالى : (كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ) ، وقال تعالى : (وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ) ؛ فهذه المواضع المراد فيها بلفظ النَفْس عند جمهور العلماء : الله نفسه ، التي هي ذاته ، المتصفة بصفاته ، ليس المراد بها ذاتًا منفكة عن الصفات ، ولا المراد بها صفة للذات ، وطائفة من الناس يجعلونها من باب الصفات ، كما يظن طائفة أنها الذات المجردة عن الصفات ، وكلا القولين خطأ) . اهـ .
– وفي كتاب التوحيد من (صحيح البخاري) : باب : قول الله تعالى : (وَيُحَذِّرُكُمْ اللهُ نَفْسَهُ) ، وقوله جل ذكره : (تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ) .
وقال القاسمي في (التفسير) : (وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ) أي : ذاته المقدسة .
لكن من السلف من يعدُّ (النَّفْس) صفةً لله عَزَّ وجَلَّ ، منهم الإمام ابن خزيمة في كتاب (التوحيد) ؛ حيث قال في أوله : (فأول ما نبدأ به من ذكر صفات خالقنا جل وعلا في كتابنا هذا : ذكر نَفْسه ، جل ربنا عن أن تكون نَفْسُه كنَفْسِ خلقه ، وعزَّ أن يكون عَدَمًا لا نَفْس له . اهـ .
ومنهم عبد الغني المقدسي ؛ قال : ومما نطق به القرآن وصحَّ به النقل من الصفات (النَّفْس) ، ثم سرد بعض الآيات والأحاديث لإثبات ذلك . انظر : (عقيدة الحافظ عبد الغني المقدسي) . ومنهم البغوي .
ومن المتأخرين صديق حسن خان في (قطف الثمر) ؛ قال : (ومما نطق بها القرآن وصحَّ بها النقل من الصفات : (النَّفْس) . لكنه في تفسير قوله تعالى : (وَيُحَذِّرُكُمْ اللهُ نَفْسَهُ) ، قال : أي : ذاته المقدسة .
– قال الغُنَيمان في كتاب التوحيد من (صحيح البخاري) :
المراد بالنفس في هذا : الله – تعالى – ، المتصف بصفاته ، ولا يقصد بذلك ذاتًا مُنْفَكَّة عن الصفات ، كما لا يُراد به صفة الذات كما قاله بعض الناس .
قال ابن جرير – يرحمه الله تعالى – : (وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ) أن تسخطوها عليكم بركوبكم ما يسخطه عليكم ، فتوافونه (يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوَءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا) وهو عليكم ساخط ، فينالكم من أليم عقابه ما لا قِبَلَ لكم به " .
وقال : " ويخوفكم الله من نفسه ، أن تركبوا معاصيه ، أو توالوا أعداءه ، فإن إلى الله مرجعكم ، فاتقوه واحذروا أن ينالكم عقابه ، فإنه شديد العقاب " .

وقال ابن خزيمة : " أول ما نبدأ به من ذكر صفات خالقنا : ذكر نفسه ، جل ربنا عن أن تكون نفسه ، كنفس خلقه ، وعز عن أن يكون عدمًا لا نفس له " .

ثم ذكر بعض النصوص في ذلك كقوله – تعالى – (كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ) وقوله – تعالى – : (وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي) ثم ذكر ما رواه البخاري في هذا الباب ، وحديث ابن عباس :

" لقد قلت بعدك أربع كلمات ، لو وزنت بهن لوزنتهن : سبحان الله العظيم وبحمده . عدد خلقه ، ومداد كلماته ، ورضا نفسه ، وزنة عرشه " . وفي "صحيح مسلم" في حديث أبي ذر : " يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي " .

وفي " السنن " لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ " و حديث ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " مَا قَالَ عَبْدٌ قَطُّ إِذَا أَصَابَهُ هَمٌّ أَوْ حُزْنٌ : اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ ابْنُ عَبْدِكَ ابْنُ أَمَتِكَ نَاصِيَتِي بِيَدِكَ مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي وَنُورَ بَصَرِي وَجِلَاءَ حُزْنِي وَذَهَابَ هَمِّي إِلَّا أَذْهَبَ اللَّهُ هَمَّهُ وَأَبْدَلَهُ مَكَانَ حُزْنِهِ فَرَحًا " قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَعَلَّمَ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ ؟ قَالَ : " أَجَلْ يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهُنَّ أَنْ يتعلمهن " (راهُ أحمدُ وابنُ حِبَّان ، السلسلة الصحيحة / ١٩٩) .

فهذه النصوص واضحة في أن المراد بالنفس هو الله – تعالى – كما قلنا .

ولا يخالف ذلك ما قاله ابن خزيمة والأئمة ؛ لأن مقصودهم إثبات ما أثبته الله من غير تعرض له بتأويل أو تمثيل ، تعالى الله عن الأمثال والأنداد ، والتمسك بالنصوص التي قالها الله ورسوله ، مع الإعراض عما يقوله أهل التأويل ، وأصحاب الوساوس الشيطانية ، التي تعود على النصوص بالإبطال ، وحسب المسلم أن يسعه ما وسع السلف الصالح من الصحابة ، ومن سلك طريقهم .

وليس معنى ذلك الإعراض عن معاني النصوص ، كما يتوهمه بعض الناس من مذهب السلف ، ويعبرون عنه بالتفويض . بل المقصود إثبات ما أثبته الله لنفسه ، أو أثبته له رسوله ، مع فقه المعنى اللائق بعظمة الله – تعالى – وفهمه ، على ما دلَّ عليه قوله – تعالى – : (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ) ونحوها من الآيات المحكمات ، والأمر في هذا واضح لمن تمسك بالكتاب والسنة .

وقال ابن جرير في قوله – تعالى – : (تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ) ، يقول : إنك يا رب لا يخفى عليك ما أضْمَرَتْه نفسي مما لا أنطق به ولم أظهره بجوارحي ، فكيف بما نَطَقْتُ به وأظهرتُه بجوارحي ، لو كنتُ قد قلتُ للناس : (اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللهِ) كنتَ قد علمتَه ، لأنك تعلم ضمائر النفوس مما لم تنطق به ، فكيف بما نَطَقَتْ به ؟ (وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ) يقول : ولا أعلم أنا ما أخفيتَه عني فلم تُطْلِعْني عليه ، لأني إنما أعلم من الأشياء ما عَلَّمْتَنِيه " .

وقال في قوله – تعالى – : (وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي) " أنعمت عليك – يا موسى – هذه النعم ، ومننت عليك هذه المنن ، اجتباءً مني لك ، واختبارًا لرسالاتي ، والبلاغ عني ، والقيام بأمري ونهيي " .

وقال ابن كثير : " أي : اصطفيتك واجتبيتك رسولًا لنفسي ، أي كما أريد وأشاء " .

– قال البَيْهَقِيّ : والنَّفْس في كلام العرب على أوجه :

منها : الحقيقة ، كما يقولون في نفس الأمر ، وليس للأمر نفس منفوسة .

ومنها : الذَّات ، قال : وقد قيل في قوله تعالى : (تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ) إن معناه : تعلم ما أُكِنُّه ، وما أُسِرُّه ، ولا أعلم ما تسره عني " ، " وقال أبو إسحاق الزَّجَّاج في قوله – تعالى – :

(وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ) أي : إيَّاه .

"قال ابن بطَّال : في هذه الآيات والأحاديث ، إثبات النفس لله – تعالى – وللنفس معان ، والمراد بنفس الله – تعالى – ذاته ، وليس بأمر مزيد عليه ، فوجب أن يكون هو " .

– وعلى كل حال من أثبتها لله على أنها صفة ؛ فيثبتها كما ذكرها ؛ كما ذكر أَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنِ خَفِيف ؛ يثبتها كسائر الصفات ؛ بمعنى يثبت لله نفسًا لا تشبه سائر النفوس على حَدِّ قول الله – عز وجل – : (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) .

(١٧) وَزِنَةَ عَرْشِهِ : أَيْ : أُسَبِّحُهُ وَأَحْمَدُهُ بِثِقَلِ عَرْضِهِ أَوْ بِمِقْدَارِ عَرْضِهِ ، أو ما يوازنه في القدر والرزانة ، يقال : هو زنة الجبل أي حذاؤه في الثقل والوزانة ، وزنة عرشه لا يعلم ثقلها إلا الله سبحانه وتعالى لأن العرش أكبر المخلوقات التي نعلمها فعن أبي ذر رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يقول :

" مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ فِي الْكُرْسِيِّ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مُلْقَاةٍ بِأَرْضٍ فَلَاةٍ وَفَضْلُ الْعَرْشِ عَلَى الْكُرْسِيِّ كَفَضْلِ تلك الْفَلَاةِ عَلَى تلك الْحَلْقَةِ " (السلسلة الصحيحة / ١٠٩) . إذًا فهو مخلوق عظيم لا يعلم قدره إلا الله عز وجل .

– فالمؤمن إذا آمن بأنَّ عرش الله حق ، وأنَّ هذه التي ذُكرت هي صفة العرش ، وأنَّ عرش الله عظيم جدًا وأنه مجيد ، قَالَ تَعَالَى : (ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ، فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ) (البروج / ١٥، ١٦) قرأ حمزة والكسائي بخفض الدال من كلمة (المجدِ) ، وأنه كريم (فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إلا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ) (المؤمنون / ١١٥، ١١٦) ، وحملة العرش ملائكة عِظام ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ، عَنِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ : " أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللَّهِ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ ، إِنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِ مِائَةِ عَامٍ " (صحيح أبي داود / ٤٧٢٧) ، وأنَّ السموات بالنسبة للكرسي كحلقة ملقاة في فلاة من الأرض ، وأنَّ الكرسي بالنسبة إلى العرش كذلك ، وأنَّ الكرسي موضع قدمي الرحمن ، فلا شك أنَّ هذا يَؤُولُ بالمؤمن الحق إلى اعتقاد عظمة الله ، وإلى أنَّ الله سبحانه تتناهى المخلوقات عنده في الصِّغَر ، وأنه كما وصف نفسه بقوله (وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) ، وجاء في الأثر في تفسير ذلك أنه يرمي بها يوم القيامة كما يرمي الصغير بالكرة فيقول أنا الله الواحد أنا الملك إلى آخره .

فمعرفة صفة الكرسي وصفة العرش ، ويبتدئ المرء من نفسه التي يُعَظِّمُهَا وكيف هو على هذه الأرض العظيمة جدًا وهو صغير جدًا جدًا ، هذه الأرض ، حتى إنَّ المدن الكبار إذا صعدت بالطائرة تراها صغيرة جدًا وهي تحوي ملايين الناس ، فكيف بالفرد والأرض هذه بالنسبة للسماوات صغيرة ، والسماوات السبع على سعتها وعِظم ما فيها من الأفلاك والنجوم والسيارات بالنسبة للكرسي صغيرة كحلقة ملقاة في فلاة من الأرض ، والكرسي بالنسبة إلى العرش كذلك ، والله فوق العرش مستغن عن العرش ، وكل شيء محتاج إليه ، والله سبحانه محيط بكل شيء إحاطة سعة وقدرة وذات وشمول وتقدست أسماؤه فإنَّ المرء ولاشك يصيبه بل يحصل له في قلبه نوع عظيم من الذل لله ، ونوع عظيم من احتقار النفس ومعرفة قدر الإنسان كيف هو ، وأنه شُرِّفَ أعظم تشريف أَنْ جعله الله عبدًا له سبحانه ، ولهذا ينظر المرء إلى عِظَمْ المخلوقات هذه ويؤمن بها فيُعَظِّم الله .

– قال الذهبي في كتابه (العَرْش) :

والعرش مخلوق بدليل (ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكم لا إِلهَ إِلا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيء) (الأنعام / ١٠٢) ، فكل شيء في هذا الكون مخلوق والعرش من ضمن هذا الكون فهو مخلوق أيضًا .

وسلف الأمة وأئمتُها يقولون : إن القرآن والسنة قد دلا على أن العرش مخلوق من مخلوقات الله تعالى خلقه وأوجده ، قال تعالى : (وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ) (التوبة / ١٢٩) ، فالعرش موصوف بأنه مربوب وكل مربوب مخلوق ، فالعرش مخلوق من مخلوقات الله .

وقد دلَّت الآيات والأحاديث على أن خلق العرش مُتقَدِّم على خلق السموات والأرض ، قال تعالى (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاء) (هود / ٧) ، فالآية تدل على أن العرش كان موجودًا على الماء قبل خلق السموات والأرض ويؤيد تفسير الآية بهذا المعنى حديث عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – عن النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ : " كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ وَخَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ " (خ / ٣١٩١) .

هذه الأدلة التي استدل بها السلف على إثبات خلق العرش ، فيها أبلغ الرد على من زعم من الفلاسفة أن العرش هو الخالق الصانع ، أو أنه لم يزل مع الله تعالى .

ولقد خالف السلف في قولهم هذا بعض أهل الكلام الذين زعموا أن السموات والأرض كانتا مخلوقتين قبل العرش ، وهم بزعمهم هذا الذي لا دليل لهم عليه إنما يحاولون به إخراج الاستواء عن حقيقته في قوله تعالى : (إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ) (الأعراف / ٥٤) ، ليكون معنى الاستواء في الآية على زعمهم بمعنى القدرة على العرش والاستيلاء عليه ، ذلك لأنهم لو سلموا أن العرش مخلوق قبل السموات والأرض لقيل لهم إنكم تزعمون أن (استوى) بمعنى استولى ، فلماذا تأخر الاستيلاء إلى ما بعد خلق السموات مع أنه كان موجودًا قبل ذلك ، فهم فرارًا من هذا الأمر ادّعوا أن العرش مخلوق بعد السموات والأرض .

وقد ردّ ابنُ القيم – يرحمه الله – على زعمهم هذا بقوله : " إن هذا لم يقله أحد من أهل العلم أصلًا ، وهو مناقض لما دلَّ عليه القرآن والسنة وإجماع المسلمين أظهر مناقضة ، فإنه تعالى أخبر أنه خلق السموات والأرض في ستة أيام وعرشه حينئذ على الماء ، وهذه واو الحال ، أي خلقها في هذه الحال ، فدل على سبق العرش والماء للسموات والأراضين وفي الصحيح عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ ، قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يَقُولُ : " كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ، قَالَ : وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ " (م / ٢٦٥٣) .

وكذلك فيما ذكرناه من أدلة على سبق خلق العرش للسموات والأرض فيه ردّ على زعم هؤلاء ومدى مخالفة قولهم للكتاب والسنة .

(١٨) وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ : الْمِدَادُ مَصْدَرٌ مِثْلُ الْمَدَدِ ، وَهُوَ الزِّيَادَةُ وَالْكَثْرَةُ ، أَيْ : بِمِقْدَارِ مَا يُسَاوِيهَا فِي الْكَثْرَةِ بِمِعْيَارٍ أَوْ كَيْلٍ أَوْ وَزْنٍ ، أَوْ مَا أَشْبَهُهُ مِنْ وُجُوهِ الْحَصْرِ ، وَالتَّقْدِيرِ : وَهَذَا تَمْثِيلٌ يُرَادُ بِهِ التَّقْرِيبُ ، لِأَنَّ الْكَلَامَ لَا يَدْخُلُ فِي الْكَيْلِ ، وَكَلِمَاتُهُ تَعَالَى هُوَ كَلَامُهُ وَصِفَتُهُ لَا تَعُدُّ وَلَا تَنْحَصِرُ ، فَالْمُرَادُ مُبَالَغَةٌ فِي الْكَثْرَةِ ، لِأَنَّهُ ذَكَرَ أَوَّلًا مَا يَحْصُرُهُ الْعَدَدُ الْكَثِيرِ مِنْ عَدَدِ الْخَلْقِ ، ثُمَّ ارْتَقَى إِلَى مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ أَيْ : مَا لَا يُحْصِيهِ عَدٌّ كَمَا لَا تُحْصَى كَلِمَاتُ اللَّهِ .

وَقَالَ الطِّيبِيُّ : نَصْبُ هَذِهِ الْأَلْفَاظِ عَلَى الْمَصْدَرِ أَيْ : أَعِدُّ تَسْبِيحَهُ الْمَقْرُونَ بِحَمْدِهِ عَدَدَ خَلْقِهِ ، وَأُقَدِّرُ مِقْدَارَ مَا يَرْضَى لِنَفْسِهِ وَزِنَةَ عَرْشِهِ ، وَمِقْدَارَ كَلِمَاتِهِ ، وَمِدَادُ الشَّيْءِ وَمَدَدُهُ مَا يُمَدُّ بِهِ وَيُزَادُ وَيَكْثُرُ ، وَالْمُرَادُ الْمِقْدَارُ ، أَيْ : أُسَبِّحُهُ وَأَحْمَدُهُ بِمِقْدَارِ كَلِمَاتِهِ أَيْ : كُتُبِهِ وَصُحُفِهِ الْمُنَزَّلَةِ ، وَكَلِمَاتُهُ أَيْضًا تُطْلَقُ عَلَى جَمِيعِ أَمْرِهِ ، وَعَلَى جَمِيعِ الْمَوْجُودَاتِ .

أَقُولُ : دَلَّ الْحَدِيثُ عَلَى أَنَّ الْكَيْفِيَّةَ فِي الذِّكْرِ بِاعْتِبَارِ تَصَوُّرِ الْمَذْكُورِ فِي ذِهْنِ الذَّاكِرِ أَرْجَحُ عَلَى الْكَمِّيَّةِ الْمُجَرَّدَةِ عَنْ تِلْكَ الْكَيْفِيَّةِ ، وَعَلَى هَذَا الْقِيَاسِ قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ مَعَ التَّدَبُّرِ وَالتَّفَكُّرِ وَالْحُضُورِ وَالتَّذَكُّرِ ، وَلَوْ فِي آيَةٍ تُفَصَّلُ عَلَى الْقِرَاءَةِ الْكَثِيرَةِ الْخَالِيَةِ عَمَّا ذُكِرَ ، فَالْمُرَادُ حَثُّ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ وَتَرْغِيبُهَا عَلَى التَّذَكُّرِ فِي الذِّكْرِ ، وَإِلَّا فَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْكَلِمَاتِ الْوَارِدَةَ عَلَى لِسَانِهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أَفْضَلُ مِنْ جَمِيعِ الْأَذْكَارِ الْوَارِدَةِ عَلَى لِسَانِ غَيْرِهِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

والمداد ما يكتب به الشيء وكلمات الله تعالى لا يقارن بها شيء قال الله تعالى : (وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (لقمان / ٢٥ – ٢٧) .

وقال تعالى : (قُلْ لَوْ كانَ الْبَحْرُ مِدادًا لِكَلِماتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِماتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنا بِمِثْلِهِ مَدَدًا) (الكهف / ١٠٩) . فكلمات الله تعالى لا نهاية لها .

وقيل : معناه مثلها في العدد ، وقيل مثلها في عدم النفاد ، وقيل مثلها في الكثرة .

فالمهم أنه ينبغي لنا أن نحافظ على هذا الذكر .

– قلت : (والقائل / عماد) : فائدة في إثبات صفة الكلام لله :

وكذلك (الْكَلامُ ، وَالْقَوْلُ ، وَالْحَدِيثُ ، وَالنِّدَاءُ ، وَالصَّوْتُ ، وَالْحَرْفُ) ، يعتقد أهل السُّنَّة والجماعة أنَّ الله عَزَّ وجَلَّ يتكلم ويقول ويتحدث وينادي ، وأنَّ كلامه بصوت وحرف ، وأنَّ القرآن كلامه ، مُنَزَّلٌ غير مخلوق ، وكلام الله صفةٌ ذاتيةٌ فعليةٌ (ذاتيةٌ باعتبار أصله و فعليةٌ باعتبار آحاده) .

الدليل من الكتاب :

١– قوله تعالى : (وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا) (النساء / ١٦٤) ،

(وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ) (الأعراف / ١٤٣) .

٢– وقوله : (فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِي الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنْ الشَّجَرَةِ أَنْ يَامُوسَى إِنِّي أَنَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) (القصص / ٣٠) (نداء بصوت مسموع) .

٣– وقوله : (قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا) (الكهف / ١٠٩) (كلام مكتوب) .

٤– وقوله : (وَإِنْ أَحَدٌ مِنْ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ) (التوبة : ٦) . (كلام يُسمع) .

٥– وقوله : (وَمَنْ أَصْدَقُ مِنْ اللَّهِ حَدِيثًا) (النساء / ٨٧) .

الدليل من السُّنَّة :

١– حديث احتجاج آدم وموسى وفيه :

" قَالَ لَهُ آدَمُ : يَا مُوسَى اصْطَفَاكَ اللَّهُ بِكَلامِهِ " (خ / ٦٦١٤ ، م / ٢٦٥٢) .

٢- حديث قصة الإفك وقول عائشة - رضي الله عنها - :

" وَلَشَأْنِي فِي نَفْسِي كَانَ أَحْقَرَ مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ اللَّهُ فِيَّ بِأَمْرٍ يُتْلَى " (خ / ٤١٤١ ، م / ٢٧٧٠) .

٣- حديث أبي سَعيدٍ الخُدْرِيّ - رضي الله عنهُ - قالَ : قالَ النبيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - :

" إنَّ الله يَقُولُ لأهلِ الجَنَّةِ : يا أهْلَ الجَنَّة ! فَيَقُولون : لبَّيْكَ ربَّنا وسعْدَيكَ ، والخَيْرُ في يَدَيْكَ ، فيَقُولُ : هَلْ رضيتُم ؟ " (خ / ٧٥١٨ ، م / ٢٨٢٩) .

٤- قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - :

" يَقُولُ اللَّهُ : يَا آدَمُ ، فَيَقُولُ : لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالخَيْرُ فِي يَدَيْكَ ، قَالَ : يَقُولُ : أَخْرِجْ بَعْثَ النَّارِ : (خ / ٧٤٨٣) .

ومن أقوال العلماء في ذلك :

١- وقال أبو بكر الخلال : (أخبرني علي بن عيسى أنَّ حنبلًا حدثهم ؛ قال : قلت لأبي عبد الله : الله يكلم عبده يوم القيامة ؟ قال : نعم ؛ فَمَن يقضي بين الخلائق إلا الله عَزَّ وجَلَّ ؟! يُكلِّم عبده ويسأله ، الله متكلم ، لم يزل الله متكلمًا ؛ يأمر بما يشاء ، ويحكم بما يشاء ، وليس له عدل ولا مثل ، كيف شاء وأين شاء) . انظر : (المسائل والرسالة المروية عن الإمام أحمد) (١/ ٢٨٨) .

٢- وقال عبد الله ابن الإمام أحمد - يرحمهما الله - : (سألت أبي رحمه الله عن قوم يقولون : لما كلم الله عَزَّ وجَلَّ موسى ؛ لم يتكلم بصوت ، فقال أبي : بلى ؛ إن ربك عَزَّ وجَلَّ تكلم بصوت ، هذه الأحاديث نرويها كما جاءت) .

(المصدر السابق) (١/٣٠٢) .

٣- وقال ابن أبي عاصم في (السُّنَّة) (١/ ٢٢٥) : (باب : ذكر الكلام والصوت والشخص وغير ذلك) .

٤ - وقال أبو الحسن الأشعري في (رسالة إلى أهل الثغر) (ص ٢١٤) : (وأجمعوا على إثبات حياة الله عَزَّ وجَلَّ ، لم يزل بها حيًّا ... وكلامًا لم يزل به متكلمًا ...) اهـ .

٥- وقال قَوَّام السُّنَّة الأصبهاني في (الحجة) (١ /٣٣١ و٣٣٢) :

(وخاطر أبو بكر - رضي الله عنه - (أي : راهن قومًا من أهل مكة) ، فقرأ عليهم القرآن ، فقالوا : هذا من كلام صاحبك . فقال : ليس بكلامي ولا كلام صاحبي ، ولكنه كلام الله تعالى ، ولم ينكر عليه أحد من الصحابة .

وقال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - على المنبر : (إنَّ هذا القرآن كلام الله) .

فهو إجماع الصحابة وإجماع التابعين بعدهم ، مثل : سعيد بن المسيب ، وسعيد بن جبير ، والحسن ، والشعبي ، وغيرهم ممَّن يطول ذكرهم ، أشاروا إلى أنَّ كلام الله هو المتلوّ في المحاريب والمصاحف .

وذكر : صالح بن أحمد بن حنبل ، وحنبل ؛ أنَّ أحمد يرحمه الله ؛ قال : (جبريل سمعه من الله تعالى ، والنبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - سمعه من جبريل ، والصحابة سمعته من النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -) .

وفي قول أبي بكر - رضي الله عنه - (ليس بكلامي ، ولا كلام صاحبي ، إنما هو كلام الله تعالى) : إثبات الحرف والصوت ؛ لأنه إنما تلا عليهم القرآن بالحرف والصوت) اهـ .

٦- وبوَّب يرحمه الله في (الحجة) (٢٦٩/١) (فصل في إثبات النداء صفة لله عَزَّ وجَلَّ) . ثم سرد جملة من الآيات والأحاديث .

٧- وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في (مجموع الفتاوى) (١٢/ ٣٠٤) : (واستفاضت الآثار عن النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – والصحابة والتابعين ومن بعدهم من أئمة السُّنَّة ؛ أنه سبحانه ينادي بصوت ؛ نادى موسى ، وينادي عباده يوم القيامة بصوت ، ويتكلم بالوحي بصوت ، ولم ينقل عن أحد من السلف أنه قال : إنَّ الله يتكلم بلا صوت أو بلا حرف ، ولا أنَه أنكر أن يتكلم الله بصوت أو بحرف). وانظر أيضًا : (مجموع الفتاوى) (٦ / ٥١٣- ٥٤٥) .

٨- وقال ابن القيم في (النونية) (١ / ٨٠) على لسان مُعَطِّلٍ يعترض على ما يثبته سُنِّي :

وزَعَمْتَ أنَّ الله كَلَّمَ عَبْدَهُ ... مُوسَى فَأَسْمَعَهُ نِدَا الرَّحْمنِ

أَفَتَسْمَعُ الآذَانُ غَيرَ الحَرْفِ وَالصَّـ ... ـوْتِ الَّذي خُصَّتْ بِهِ الأُذُنانِ

وَكَذا النِّداءُ فَإنَّهُ صَوْتٌ بِإجْمـ ... ـمَاعِ النُّحَاةِ وأهْلِ كُلِّ لِسَانِ

لَكنَّهُ صَوْتٌ رَفِيعٌ وَهُوَ ضِـ ... ـدٌّ للنِّجَاءِ كِلاهُمَا صَوْتَانِ

وأجمع السلف على ثبوت الكلام لله فيجب إثباته له من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل . وهو كلام حقيقي يليق بالله يتعلق بمشيئته بحروف وأصوات مسموعة .

والدليل على أنه بمشيئته قوله تعالى : (وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ) (الأعراف / ١٤٣) .

فالتكليم حصل بعد مجيء موسى فدل على أنه متعلق بمشيئته تعالى .

– المخالفون لأهل السنة في كلام الله تعالى : خالف أهلَ السنة في كلام الله طوائفٌ نذكر منهم طائفتين :

الطائفة الأولى : الجهمية ، قالوا ليس الكلام من صفات الله وإنما هو خلق من مخلوقات الله يخلقه الله في الهواء أو في المحل الذي يُسمع منه وإضافته إلى الله إضافة خلق أو تشريف مثل : ناقة الله وبيت الله . ونرد عليهم بما يلي :

١- إنه خلاف إجماع السلف .

٢- خلاف المعقول ؛ لأن الكلام صفة للمتكلم وليس شيئًا قائمًا بنفسه منفصلا عن المتكلم .

(راجع : فصل : كشف تلبيس الجهمية المعتزلة في كلام الله تعالى ، وفصل : كشف تلبيس الأشعرية في إثبات صفة الكلام لله تعالى . من كتاب العقيدة السلفية في كلام رب البرية وكشف أباطيل المبتدعة الردية لأخينا الفاضل / عبد الله بن يوسف الجديع – حفظه الله – فقد أجاد فيه وأفاد) .

٣- إن موسى سمع الله يقول : (إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي) (طه / ١٤) .

ومحال أن يقول ذلك أحد إلا الله سبحانه وتعالى .

الطائفة الثانية : الأشعرية قالوا : كلام الله معنى قائم بنفسه لا يتعلق بمشيئته وهذه الحروف والأصوات المسموعة مخلوقة للتعبير عن المعنى القائم بنفس الله ونرد عليهم بما يلي :

١- إنه خلاف إجماع السلف .

٢- خلاف الأدلة ؛ لأنها تدل على أن كلام الله يسمع ولا يسمع إلا الصوت لا يسمع المعنى القائم بالنفس .

٣- خلاف المعهود ؛ لأن الكلام المعهود هو ما ينطق به المتكلم لا ما يضمره في نفسه .

والدليل على أنه حروف قوله تعالى : (يَا مُوسَى ، إِنِّي أَنَا رَبُّكَ) (طه / ١١ ، ١٢)

فإن هذه الكلمات حروف وهي كلام الله .

والدليل على أنه بصوت قوله تعالى : (وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا) (مريم / ٥٢) .

والنداء والمناجاة لا تكون إلا بصوت . قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " يَحْشُرُ اللَّهُ الْعِبَادَ فَيُنَادِيهِمْ بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مَنْ بَعُدَ كَمَا يَسْمَعُهُ مَنْ قَرُبَ أَنَا الْمَلِكُ أَنَا الدَّيَّانُ ". وقال الألباني في الأدب المفرد / ٩٧٠/٥٧٠ : (حسن) .

وكلام الله تعالى قديم النوع حادث الآحاد ، ومعنى قديم النوع : أن الله لم يزل ولا يزال متكلمًا ليس الكلام حادثًا منه بعد أن لم يكن ، ومعنى حادث الآحاد : أن آحاد كلامه أي : الكلام المعين المخصوص حادث ؛ لأنه متعلق بمشيئته متى شاء تكلم بما شاء كيف شاء .

تعليق على كلام المؤلف في فصل الكلام :

قوله : متكلم بكلام قديم يعني : قديم النوع حادث الآحاد لا يصلح إلا هذا المعنى على مذهب أهل السنة والجماعة ، وإن كان ظاهر كلامه أنه قديم النوع والآحاد ، فالله جل وعلا وصف نفسه بأنه يتكلم ، ولا شك أن الوحي والأمر والنهي كلام ، فالله يوحي إلى ملائكته بأمره الذي يأمرهم به ، ويُوحي إلى رسله من البشر بواسطة جبريل عليه السلام ، والذي يأتي به هو كلام الله إليهم ، وكتبه التي أنزلها هي من كلامه ، وكذلك سائر شرعه الذي يشرعه لعباده ؛ لأنها كلها أمر ونهي ، والأمر والنهي يكون بالكلام ، والكلام صفة كمال ، والله جل وعلا له الكمال المطلق ، وكل كمال في المخلوق فالله هو الذي وهبه ، وواهب الكمال أحق به جلّ وتقدّس ، وإنما جاءت الشُبَه ممن دخل في الإسلام مُريدًا إفساده ، أما المسلمون فلم يُنكر ذلك أحد منهم إلا من ضل عقلُه وفكرُه ، فإن من ضل ينكر ما هو كثير الورود في كتاب الله ، وما هو موروث عن رسل الله من كون الرب جل وعلا يتكلم .

ومن أنكر كلام الله جل وعلا فهو في الواقع ينكر الرسالة ، وينكر الشرع ينكر كونه سبحانه أرسل الرسل ، وشرع الشرائع ؛ لأن الرسل تُرسَل بالأمر والنهي ، وإذا لم يكن الأمر والنهي من الله فمن أين يكون ؟ إذًا : عطَّلوا الله جل وعلا عن كونه يأمر وينهى ويتكلم ، فقد وصفوه بالنقص ، وقد قال الله جل وعلا : (وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ) (التوبة / ٦) ، ومعلوم أن المبلَّغ لا يسمع كلام الله من الله وإنما يسمعه ممن يبلِّغه ، والمقصود بكلام الله هنا القرآن ، فإذا طلب كافر من المسلمين أن يَطَّلِع على شرعهم وجب عليهم أن يؤمِّنوه حتى يسمعوه كلام الله جل وعلا الذي تكلم به .

والأدلة على هذا متكاثرة جدًا ، فالذي يُنكر كلام الله يلزمه إنكار الرسالة ، وإنكار الشرع ، بل إنكار الكمال لله جل وعلا . والله جل وعلا توعد هؤلاء الثلاثة وغيرَهم بأنه لا يكلمهم ، فَتْرُكُ كلامِهم من العذاب الذي توعدهم به جل وعلا ، فيلزم من هذا أنه جل وعلا يكلم أولياءه من المؤمنين ويخاطبهم ، وهم الذين اتَّبعوا شرعه وآمنوا بكلامه ،

والأدلة على هذا من كتاب الله ومن أحاديث رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أكثر من أن تحصر .

إنكار الجهمية لصفة الكلام لله عز وجل :

لم يكن أحد من المسلمين يُنكر شيئًا من صفات الله ، حتى جاءت فِرقة يقال لها : الجهمية ، وأول من عُرِف بإنكار ذلك رجل مشبوه دخيل في الإسلام ، يُظن أنه من اليهود ، وإن لم يكن من اليهود فهو تلميذ لهم تَربَّى في أحضانهم ،

فأول من عُرف عنه إنكار هذا ، رجل يقال له : الجعد بن درهم ، وأخذ عن أبان بن سمعان ، و أبان بن سمعان هذا أخذ

عن يهودي ابن ساحر من سحرة اليهود ، ولشناعة قوله وقُبْحِه ، لما أظهره نفرت النفوس والفطر عنه ، وأنكره كل الناس ، بل استعظموا ذلك ، ورفعوا أمره إلى أحد قواد بني أمية في آخر دولتهم ، وهو خالد بن عبد الله القَسري ، فأخذه وقيَّده ، وكان في عيد الأضحى ، فجاء به مُقيدًا إلى المصلَّى ، وقد جرت العادة أن القائد الذي يتولى قيادة الجيش لا بدَّ أن يستطيع أن يفصل الأمور ويقضي ويخطب ويصلي بالناس وإلا لا يصلح للقيادة ، فلما حضرت صلاة العيد قام يخطب الناس ، وفي آخر خطبته قال : أيها المسلمون ! ضَحُّوا تَقبَّل الله ضحاياكم ، فإني مُضحٍ بـ الجعد بن دِرْهم ؛ لأنه يزعم أن الله لم يكلِّم موسى تكليمًا ، ولم يتخذ إبراهيم خليلًا ، تعالى الله عن قوله علوًا كبيرًا ، ثم نزل من على المنبر وقتله ، فضحى به ، فشكره الناس على ذلك ، وأثنوا على صنيعه ؛ لأن هذا مُلحد خارج من دين الله وشرعه ، مخالف للفطر والعقول .

ثم بعد ذلك نبغ تلميذ له يقال له : الجهم بن صفوان ، ونشر فساده ثم أُدرِك وقُتِل ، فهذه العقيدة الفاسدة جاءت من هؤلاء ، ثم نمت الفتن وازدادت لمن يربيها وينميها قاصدًا بها إفساد العقيدة ، وقد عُلِم من التاريخ أن الكفار لم يعجبهم الإسلام ولا عقائده ، وما استطاعوا أن يواجهوا الإسلام بالقوة أو بالجيوش فأصبحوا مقهورين مهزومين مدحورين ، من أجل ذلك ذهبوا إلى تأسيس المؤسسات التخريبية لإفساد العقيدة ومحاربتها من داخل المسلمين ، فيدخل في المسلمين من ليس منهم ؛ لأجل بث الفساد ، وإفساد عقائدهم التي صاروا أقوياء بها ، فدخل الكثير في دينهم تَستُّرًا وخِفية وقصدهم الإفساد ، وإلى الآن وهذه المؤسسات التخريبية تبث سمومها في أوساط المسلمين ، ولكن أساليبهم وطرقهم تختلف حسب مقتضيات الحال .

والواقع أن من المسلمين المغرَّر بهم من يُنكر كلام الله جل وعلا ، ومع ذلك فالأمر واضح وجلي ، يقول الرسول – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – كما في الحديث عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ ، وَلا حِجَابٌ يَحْجُبُهُ " (خ / ٧٤٤٣) ، والله جل وعلا أخبرنا أنه يحاسب عباده ، وأنه سريع الحساب ، فهو الذي يتول حسابهم جل وعلا .

وما أظن أنه يخلو حديث من أحاديث رسول الله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ولا مقطع من آيات الله جل وعلا وكتابه من إثبات أن الله يتكلم ويكلم ويخاطب ويفعل ما يريد جل وعلا ، وهو فعَّال لما يريد ، فكيف يُنكر مثل هذا ؟ وإذا أنكرت مثل هذا فمعنى ذلك أن تنكر عبادته وأنه هو المعبود الحق الواحد ، وقد عاب الله جل وعلا على الذين عبدوا العجل والأصنام بأن هذه المعبودات لا تملك ردّ الخطاب إذا خاطبوها ، فهذا دليل على أن المعبود الذي يجب أن تكون العبادة له يسمع من دعاه ، ويخاطبه إذا شاء .

– كيف نجمع بين هذا الحديث ، وبين ما ورد بأن الله سيكلم كل الناس مؤمنهم وكافرهم ؟

فقد جاء في حديث عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – :

" مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ ، وَلا حِجَابٌ يَحْجُبُهُ " (خ / ٧٤٤٣)

الجواب :

قد جاء في حديث عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – :

" مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ ، وَلا حِجَابٌ يَحْجُبُهُ " (خ / ٧٤٤٣) ، فهذا عند المحاسبة .

وجاء عَنْ صَفْوَانَ بْنِ مُحْرِزٍ الْمَازِنِيِّ قَالَ بَيْنَمَا أَنَا أَمْشِي مَعَ ابْنِ عُمَرَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا – آخِذٌ بِيَدِهِ إِذْ عَرَضَ رَجُلٌ فَقَالَ كَيْفَ سَمِعْتَ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فِي النَّجْوَى فَقَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يَقُولُ : " إِنَّ اللَّهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ فَيَقُولُ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا فَيَقُولُ نَعَمْ أَيْ رَبِّ حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ قَالَ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ وَأَمَّا الْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُونَ فَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ " (خ / ٢٤٤١) .

– المراد بنفي الكلام : كلام الإكرام ؛ لأن الله جل وعلا إذا كلم عبده فهو من النعيم العظيم ، وليس المقصود نفي كلام التوبيخ أو كلام التعذيب والتهديد كقوله جل وعلا : (اخْسَئُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ) (المؤمنون / ١٠٨) ، فالله يخاطب أهل النار ، فيكلم من شاء : لماذا فعلت كذا ؟ ولماذا لم تفعل كذا ؟ من باب التوبيخ والمحاسبة ، وهذا من العذاب ، وإنما المراد : نفي الكلام الذي فيه إكرام ، وهذا يدلنا على أن الله يكلم عباده المؤمنين إكرامًا لهم ، وهؤلاء خصوا بأنهم لا يُكلمون .

– وممن خالفوا عقيدة أهل السنة والجماعة في صفة الكلام ، الإمام النووي حيث قال : قِيلَ مَعْنَى لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ تَكْلِيمُ مَنْ رَضِيَ عَنْهُ بِإِظْهَارِ الرِّضَا بَلْ بِكَلَامٍ يَدُلُّ عَلَى السُّخْطِ ، وَقِيلَ الْمُرَادُ أَنَّهُ يُعْرِضُ عَنْهُمْ وَقِيلَ لَا يُكَلِّمُهُمْ كَلَامًا يَسُرُّهُمْ وَقِيلَ لَا يُرْسِلُ إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ بِالتَّحِيَّةِ .

وهذا تأويل لصفة الكلام ، ومخالف لما ذُكر أعلاه .

وقد سئل شيخ الإسلام عن القرآن : هل هو حرف وصوت ؟ فأجاب بأن إطلاق هذا الجواب – نفيًا وإثباتًا – من البدع المولدة ، الحادثة بعد المئة الثالثة ، ثم قال : " والصواب ما عليه سلف الأمة ، كالإمام أحمد والبخاري صاحب الصحيح في كتاب خلق أفعال العباد ، وغيره ، وسائر الأئمة قبلهم وبعدهم – اتباع النصوص الثابتة ، وإجماع سلف الأمة وهو أن القرآن جميعه كلام الله ، حروفه ومعانيه ، ليس شيء من ذلك كلامًا لغيره ... وأن الله يتكلم بصوت كما جاءت به الأحاديث الصحاح ... "

وهذا من دِقَّة السلف – يرحمهم الله – في مسائل العقيدة ، وخاصة ما يتعلق منها بالله وصفاته . حيث إنهم لا يبتدعون كلامًا جديدًا ، بل يصفون الله بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، ولَمَّا لم يَرِدْ إطلاق أن القرآن بحرف وصوت لم يطلقوه عليه كما يفعله البعض ، وإنما يقولون : القرآن كله حروفه ومعانيه كلام الله ، كما يقولون إن الله نادى موسى ، والنداء لا يكون إلا بصوت ، والرسول – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ذكر أن الله ينادي بصوت .

ومن المعلوم أن الكلام إذا أطلق فإنه يشمل الحروف والمعاني وهذا هو الذي فهمه السلف من صفة الكلام لله تعالى – على ما يليق بجلاله وعظمته – .

ولكن لَمَّا وُجِدَ – في أهل البدع – من ينكر الحرف والصوت لينكروا كلام الله ، بَيَّن السلف أن كلام الله شامل للحروف والمعاني ، وأنه تعالى يتكلم بصوت ، كما يصفونه بما ورد من التكليم والمناداة والمناجاة .

وقد احتج شيخ الإسلام بحديث : إن الله ينادي بصوت ، على إثبات أن الله يتكلم بصوت ، ورد على من قال من الأشاعرة إنه حديث آحاد – من وجوه عديدة . كما احتجّ بالآيات على ذلك مثل آيات النداء لموسى وغيره .

– أما السلف فإنهم يرون أن الله تعالى متكلم بحرف وصوت إلا أن كلامه سبحانه وتعالى لا يشبه كلام خلقه ،

ولا صوته يشبه أصواتهم كما ذكر ذلك عنهم شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – حيث قال :

" وقد نص أئمة الإسلام ، أحمد ومَنْ قَبْله من الأئمة على ما نطق به الكتاب والسنة من أن الله ينادي بصوت ، وأن القرآن كلامه تكلم به بحرف وصوت وليس منه شيء كلامًا لغيره ، لا جبريل ولا غيره ، وأن العباد يقرؤونه بأصوات أنفسهم ، وأفعالهم ، فالصوت المسموع من العبد صوت القاري ، والكلام كلام الباري " .

– قال الشيخ عبد الله بن محمد الغنيمان في شرح العقيدة الواسطية :

إثبات النداء والصوت والكلام له سبحانه

(النداء في لغة العرب لا يكون إلا بحرف وصوت ؛ لأن النداء هو كلام من بعد ؛ ولهذا خص العرب له حروفًا معينة ، التي تقتضي مد الصوت كالياء والألف والواو ؛ لأن مد الصوت يقتضي ذلك ، وهذا أمر متفق عليه عند أهل اللغة ولا إشكال فيه .

ومما يزيد المقام بيانًا قوله تعالى : (قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا) ، وقوله تعالى : (وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) .

هذه المعاني هي التي يريد الإمام أبو الحسن إثباتها ليحاجج الجهمية ، ومن يوافقهم في اعتقادهم بأن كلام الله مخلوق ، وقد سبقه إلى مثل هذا الحوار إمام أهل السنة وقامع البدعة الإمام أحمد بن حنبل حيث ألَّف كتابًا مُستَقِلًا في الرد على الجهمية ، ونود أن ننقل هنا نموذجًا من حواره مع الجهمية في كلام الله تعالى ، فيبدأ الحوار هكذا :

قالت الجهمية : إن الله لا يُكلِّم ولا يَتكلَّم ، إنما كون شيئًا فعبَّر عن الله ، وخلق أصواتًا فأسمع . وزعموا أن الكلام " اللفظي " لا يكون إلا من جوف ولسان وشفتين .

فيقول الإمام أحمد : قلنا : هل يجوز لمُكَوّن أو لغير الله أن يقول : (يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا رَبُّك) ؟ أو يقول : (إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي) (طه) ، فمن زعم ذلك فقد زعم أن غير الله ادَّعى الربوبية كما زعم الجهم أن الله كوّن شيئًا كأن يقول ذلك المكوّن : (يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) (القصص / ٣٠) ، وقال جل ثناؤه : (وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا) (النساء / ١٦٤) ، إلى تلك الآيات التي ساقها ، وهو يحاورهم ، ثم قال : فهذا منصوص القرآن ، ثم قال : فأما ما قالوا : " إن الله لا يتكلم " فكيف يصنعون بحديث عَدِيّ بْنِ حَاتِمٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : " مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ ، وَلا حِجَابٌ يَحْجُبُهُ " (خ / ٧٤٤٣ ، م / ١٠١٦) .

ثم قال الإمام أحمد أما قولهم : إن الكلام لا يكون إلا من جوف ، وفم وشفتين ، ولسان ، أليس الله قال للسموات والأرض : (ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ} (فصلت / ١١) ، أتراها قالت : بجوف وفم وشفتين ولسان وأدوات ؟!! وقال : (وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ) (الأنبياء / ٧٩) ، أتراها يُسَبِّحْنَ بجوف وفم ولسان وشفتين " ؟!! الجواب الذي لا بد منه " لا " في جميع هذه الاستفهامات ، ولكن الله القادر على كل شيء هو الذي أنطق تلك الجمادات ، فجعلها تتكلم حقيقة دون آلات معهودة للتكلم عادة تسمى " مخارج الحروف " ، فهل الذي مَكَّن لهذه المخلوقات من التكلم يعجز عن الكلام ؟ أو يمتنع عليه الكلام " اللفظي " – كما زعمت الجهمية – لماذا يمتنع عليه ؟!!

هل لأن الكلام نقص ؟!! أو بعبارة أخرى : هل الكلام من صفات النقص أو من صفات الكمال ؟!! أليس المخلوق الذي يتصف بالكلام خير وأجمل من الذي لا يتكلم ؟ الجواب " بلى " بإجماع العقلاء .

فهل تُسوِّغ عقول الجهمية أن يكون المخلوق أكمل من الخالق ؟ لأن كثيرًا من المخلوقات تَتَصف بالكلام – وهو صفة كمال – والخالق يمتنع عليه الكلام ؟!!

أفليس الذي يُعطي الكمال أولى بأن يتصف بالكمال على أكمل وجه بحيث لا يشاركه أحد في خصائص ذلك الكمال ؟!! الجواب " بلى " لدى جميع العقلاء .

هذا المعنى هو الذي يدور حوله حوار الإمام أحمد ، والزاماته للجهمية لو كانوا منصفين وطلاب حق ، وأخيرًا هو الذي يريد إثباته أبو الحسن الأشعري في كتابه الإبانة .

قَالَ أَحْمد وَغَيره وَلَا يجوز أَن يُقَال أُعِيذك بالسماء أَو بالجبال أَو بالأنبياء أَو بِالْمَلَائِكَةِ أَو بالعرش أَو بالأرض أَو بشيئ مِمَّا خلق الله وَلَا يتَعَوَّذ إِلَّا بِاللَّه أَو بكلماته قَالَ الْبَيْهَقِيّ وَلَا يَصح أَن يستعيذ مَخْلُوق بمخلوق فَدلَّ على أَنه استعاذ بِصفة من صِفَات ذَاته ، وذاته غير مخلوقة ثمَّ قَالَ وَبَلغنِي عَن أَحْمد بن حَنْبَل أَنه كَانَ يَسْتَدلّ بذلك على أَن الْقُرْآن غير مَخْلُوق .

وَقَول : (هُوَ قَول رَبِّي كُلُّه لَا بعضه) إِلَخ هَذَا إِشَارَة إِلَى قَول أبي مُحَمَّد عبد الله بن سعيد بن كُلّاب وَمن اتبعهُ كالقلانسي وَأبي الْحسن الْأَشْعَرِيّ وَغَيرهم ، إِن كَلَام الله معنى قَائِم بِذَات الله ، هُوَ الْأَمر بِكُل مَأْمُور أَمر بِهِ وَالْخَبَر عَن كل مخبر أخبر الله عَنهُ إِن عبَّر عَنهُ بِالْعَرَبِيَّةِ كَانَ قُرْآنًا وَإِن عبَّر عَنهُ بالعبرية كَانَ توراة وَإِن عبَّر عَنهُ بالسُّرْيَانِيَّة كَانَ إنجيلا وَالْأَمر وَالنَّهْي وَالْخَبَر لَيست أنواعًا لَهُ يَنْقَسِم الْكَلَام إِلَيْهَا وَإِنَّمَا كلهَا صِفَات لَهُ إضافيه كَمَا يُوصف الشَّخْص وَاحِد بِأَنَّهُ ابْن لزيد وَعم لعَمْرو وخال لبكر والقائلون بِهَذَا الْقول موافقون للمعتزلة فِي أَن هَذَا الْقُرْآن الَّذِي بَين دفتي الْمُصحف مَخْلُوق ، وَإِنَّمَا الْخلاف بَين الطائفتين أَن الْمُعْتَزلَة لم تُثبت لله كَلَاما سوى هَذَا ، والأشعرية أَثْبَتَت الْكَلَام النَّفْسِيّ الْقَائِم بِذَاتِهِ تَعَالَى ، وَأَن الْمُعْتَزلَة يَقُولُونَ إِن الْمَخْلُوق كَلَام الله والأشعرية لَا يَقُولُونَ إِنَّه كَلَام الله نعم يسمونه كَلَام الله مجَازًا هَذَا قَول جُمْهُور متقدميهم ، وَقَالَت طَائِفَة من متأخريهم لفظ الْكَلَام يُقَال على هَذَا الْكَلَام الْمُنزل الَّذِي نقرؤه ونكتبه فِي مَصَاحِفنَا وعَلى الْكَلَام النَّفْسِيّ بالاشتراك اللَّفْظِيّ .

قَالَ شيخ الْإِسْلَام ابْن تَيْمِية لَكِن هَذَا ينقض أصلهم فِي إبطَال قيام الْكَلَام بِغَيْر الْمُتَكَلّم بِهِ وهم مَعَ هَذَا لَا يَقُولُونَ إِن الْمَخْلُوق كَلَام الله حَقِيقَة كَمَا يَقُوله الْمُعْتَزلَة مَعَ قَوْلهم إِن كَلَامه حَقِيقَة بل يجْعَلُونَ الْقُرْآن الْعَرَبِيّ كلامًا لغير الله وَهُوَ كَلَامه حَقِيقَة .

قَالَ شيخ الْإِسْلَام وهذا من قَول الْمُعْتَزلَة وَهَذَا حَقِيقَة قَول الْجَهْمِية وَمن هَذَا الْوَجْه فَقَوْل الْمُعْتَزلَة أقرب .

وَجُمْهُور الْعُقَلَاء يَقُولُونَ إِن فَسَاد هَذَا مَعْلُوم بِالضَّرُورَةِ بعد التَّصَوُّر التَّام فَإِنَّا إِذا عرَّبنا التَّوْرَاة والانجيل لم يكن مَعْنَاهُمَا معنى الْقُرْآن بل مَعَانِي هَذَا لَيست مَعَانِي هَذَا وَكَذَلِكَ (قل هُوَ الله أحد) لَيْسَ هُوَ معنى (تبت يدا أبي لَهب) وَلَا معنى آيَة الْكُرْسِيّ آيَة الدَّين ، وَقَالُوا إِذا جوزتم أَن تكون الْحَقَائِق المتنوعة شَيْئا وَاحِدًا فجوزوا أَن يكون الْعلم وَالْقُدْرَة الْكَلَام والسمع وَالْبَصَر صفة وَاحِدَة فالتزم أَئِمَّة هَذَا القَوْل بِأَن هَذَا الالزام لَيْسَ لَهُم عَنهُ جَوَاب عَقْلِي ، ثمَّ مِنْهُم من قَالَ : النَّاس فِي الصِّفَات إِمَّا مُثبت لَهَا وَإِمَّا ناف لَهَا ، وَأما إِثْبَاتهَا واتحادها فخلاف الْإِجْمَاع ، وَمِمَّنْ اعْترف بِأَن لَيْسَ لَهُ جَوَاب أَبُو الْحسن الْآمِدِيّ .

وَقَول : (لَكِن أصوات الْعباد وفعلهم) الخ أَي إِن مَذْهَب أَئِمَّة أهل الحَدِيث كَالْإِمَامِ أَحْمد وَالْبُخَارِيّ وَغَيرهمَا أَن الْقُرْآن كَلَام الله غير مَخْلُوق وَالسَّلَف وَالْأَئِمَّة متفقون على أَن الْقُرْآن كَلَام الله غير مَخْلُوق وَالْقُرْآن بلَّغَه جِبْرِيل عَن الله إِلَى مُحَمَّد وبلَّغه مُحَمَّد إِلَى الْخلق وَالْكَلَام الْمبلَّغ عَن قَائِله لَا يخرج عَن كَونه كَلَام الْمبلّغ عَنهُ بل هُوَ كَلَام لمن قَالَه مبتدِئًا لَا كَلَام من بلَّغه عَنهُ مُؤديًا ، فالنبي صلى الله عَلَيْهِ وَسلم إِذا قَالَ (إِنَّمَا الْأَعْمَال بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لكل إمرئ مانوى) وَبلَّغ هَذَا الحَدِيث عَنهُ وَاحِد بعد وَاحِد حَتَّى وصل إِلَيْنَا كَانَ من الْمَعْلُوم أَنا إِذا سمعناه من الْمُحدّث بِهِ إِنَّمَا سمعنَا كَلَام رَسُول الله صلى الله عَلَيْهِ وَسلم الَّذِي تكلَّم بِهِ بِلَفْظِهِ وَمَعْنَاهُ وَإِنَّمَا سمعناه من الْمبلّغ عَنهُ بِفِعْلِهِ وصوته وَنَفس الصَّوْت الَّذِي تكلَّم بِهِ النَّبِي صلى الله عَلَيْهِ وَسلم لم نَسْمَعهُ وَإِنَّمَا سمعنَا صَوت الْمُحدّث عَنهُ وَالْكَلَام كَلَام رَسُول الله صلى الله عَلَيْهِ وَسلم لَا كَلَام الْمُحدّث فَمن قَالَ إِن هَذَا الْكَلَام لَيْسَ كَلَام رَسُول الله صلى الله عَلَيْهِ وَسلم كَانَ مُفتريًا وَكَذَلِكَ من قَالَ إِن هَذَا لم يتَكَلَّم بِهِ رَسُول الله صلى الله عَلَيْهِ وَسلم وَإِنَّمَا أحدثه فِي غَيره وَإِن النَّبِي صلى الله عَلَيْهِ وَسلم لم يتَكَلَّم بِلَفْظِهِ وحروفه بل كَانَ ساكتًا أَو عَاجِزًا عَن التَّكَلُّم بذلك فَعلَّم غَيره مَا فِي نَفسه فنظم هَذِه الْأَلْفَاظ ليعبّر عَمَّا فِي نفس النَّبِي صلى الله عَلَيْهِ وَسلم أَو نَحْو هَذَا الْكَلَام فَمن قَالَ هَذَا كَانَ مُفتريًا ، وَمن قَالَ إِن هَذَا الصَّوْت المسموع صَوت النَّبِي صلى الله عَلَيْهِ وَسلم كَانَ مُفتريًا ، فَإِذا كَانَ هَذَا معقولا فِي كَلَام الْمَخْلُوق فَكَلَام الْخَالِق أولى باثبات مَا يسْتَحقّهُ من صِفَات الْكَمَال ، وتنزيه الله أَن تكون صِفَاته وأفعاله هِيَ صِفَات الْعباد وأفعالهم أَو مثل صِفَات الْعباد وأفعالهم ، فالسلف وَالْأَئِمَّة كَانُوا يعلمُونَ أَن هَذَا الْقُرْآن الْمنزل المسموع من القارئين كَلَام الله كَمَا قَالَ تَعَالَى :

(وَإِن أحد من الْمُشْركين استجارك فَأَجره حَتَّى يسمع كَلَام الله) (التَّوْبَة / ٦) لَيْسَ هُوَ كلَاما لغيره لَا لَفظه وَلَا مَعْنَاهُ وَلَكِن بلَّغه عَنهُ جِبْرِيل وبلَّغه مُحَمَّد عَن جِبْرِيل وَلِهَذَا أَضَافَهُ الله إِلَى كل من الرسولين لِأَنَّهُ بلَّغه وَأَدَّاهُ لَا لِأَنَّهُ أحدث لَا لَفظه وَلَا مَعْنَاهُ ، إِذْ لَو كَانَ أَحدهمَا هُوَ الَّذِي أحدث ذَلِك لم يَصح إضافة الإحداث إِلَى الآخر فَقَالَ تَعَالَى (إِنَّه لقَوْل رَسُول كريم وَمَا هُوَ بقول شَاعِر قَلِيلًا مَا تؤمنون وَلَا بقول كَاهِن قَلِيلًا مَا تذكرُونَ) (الحاقة / ٤٠ ٤٢) فَهَذَا مُحَمَّد صلى الله عَلَيْهِ وَسلم ، وَقَالَ تَعَالَى (إِنَّه لقَوْل رَسُول كريم ذِي قُوَّة عِنْد ذِي الْعَرْش مكين مُطَاع ثمَّ أَمِين) (التكوير / ١٩ ٢١) فَهَذَا جِبْرِيل عَلَيْهِ السَّلَام وَقد توعد تَعَالَى من قَالَ (إِنْ هَذَا إِلَّا قَول الْبشر) (المدثر / ٢٥) وَمن قَالَ إِن هَذَا الْقُرْآن قَول الْبشر فقد كفر وَقَالَ بقول الوحيد الَّذِي أوعده سقر ، وَمَنْ قَالَ إِن شَيْئًا مِنْهُ فَوق الْبشر فقد قَالَ بِبَعْض قَوْله ، وَمن قَالَ إِنَّه لَيْسَ بقول رَسُول كريم وَإِنَّمَا هُوَ قَول شَاعِر أَو مَجْنُون أَو مُفْتَر أَو قَالَ هُوَ قَول شَيْطَان نزل بِهِ عَلَيْهِ وَنَحْو ذَلِك فَهُوَ أَيْضًا كَافِر مَلْعُون ، وَقد علم الْمُسلمُونَ الْفرق بَين أَن يسمع كَلَام الْمُتَكَلّم مِنْهُ أَو من الْمبلّغ عَنهُ وَأَن مُوسَى سمع كَلَام الله من الله بِلَا وَاسِطَة وَنَحن إِنَّمَا نسْمع كَلَام الله من المبلّغين عَنهُ وَإِذا كَانَ الْفرق ثَابتًا بَين من سمع كَلَام النَّبِي صلى الله عَلَيْهِ وَسلم مِنْهُ وَمن سَمعه من الصاحب الْمبلّغ عَنهُ فَالْفرق هُنَا أولى لِأَن أَفعَال الْمَخْلُوق وَصِفَاته أشبه بِأَفْعَال الْمَخْلُوق وَصِفَاته من أَفعاله وَصِفَاته بِأَفْعَال الله وَصِفَاته .

ومن عجيب استدلالات الأشاعرة ، أنهم يستدلون ببيت شعرٍ منسوب لشاعرٍ نصراني وهو :

إِن الْكَلَام لفي الْفُؤَاد وَإِنَّمَا ... جُعل اللِّسَان على الْفُؤَاد دَلِيلا

وأمَّا شِعْرُ الأخْطَلِ ، فالجَواب عنه من وجوهٍ :

الأوَّل : أنكرَ بعضُ العلماء كونَه من شعرهِ ، وذلك أنَّهم فتّشوا دواوينَه فلم يَجِدوه فيه .

قال أبو محمَّد الخشّابُ نَحْويُّ العراقِ : " فتشتُ شِعْرُ الأخطلِ المدوّن كثيرًا فما وجَدْتُ هذا البيتَ " .

والثاني : أنَّه لم يَثْبُت نقلُه عن قائلهِ بإسنادٍ ، لا صَحيحٍ ولا ضعيفٍ .

والثالث : لم يتلقَّه أهلُ العَربية بالقَبول .

والرابع : أورَدَه بعضُهم بلفظ : إنَّ البَيانَ لَفي الفُؤادِ ... ...

وهذا يُفْسِدُ المَعْنى الذي أرادوا – كما لا يَخْفى – .

والخامس : الأخطلُ شاعرٌ مولَّدٌ ، لا يُحْتَجُّ بشعرهِ في اللُّغة ، وهذا معلومٌ عندَ أهل التَّحقيق .

والسادس : أنَّه نَصْرانيٌّ مُثَلِّثٌ كافِرٌ ، وقد ضَلَّت النَّصارى في معنى كلام الله تعالى ومُسَمَّاه ، فجعَلوا المسيحَ نَفْسَ كلمة الله .

والسابع : أكثرُ من يحتَجُّ من أهل البِدَع بهذا الشِّعْر يُخْفي البيت الأوَّل ، لأنه عندَ التَّحقيق حُجَّةٌ عليهم ، وذلكَ أنَّ الشاعرَ حين ذكرَ الكلامَ في البيت الأوَّل ذكَره مطلقًا ، ليشمَلَ اللفظَ والمَعنى ، إذ الذي يُسمَعُ من الخَطيب ألفاظهُ ، فأبانَ الشاعِرُ عن حقيقةِ الكلام المؤثّر الذي يقَعُ من النُّفوس مَوْقعًا بأنَّه ما اشْتَمَلَ على المَعاني التي مَوْضِعُها القَلْبُ ، لا مُجَرَّدُ الألفاظ التي تُسْمَعُ من المتكلِّم ، ولم يُرِدْ تعريفَ الكلام وَوَضْعَ حدٍّ له بكونه المَعاني المجرَّدة .

والثامن : مُسمَّى (الكلام) و (القول) ونحوهما ليسَ ممَّا يُحتاج في تفسيره إلى قولِ شاعر ، بل ولا ألْفِ شاعر ، فإنَّه ممَّا قد عُلِمَ ضرورةً ، إذ هو ممَّا تكلَّمَ به الأوّلونَ والآخرونَ من أهْل اللّسانِ ، وعَرَفوا معناه في لُغتهم .

واللُّغة إنَّما تُسْتفَاد من استعمالِ أهلِها لها في كلَامهم ، لا تُسْتَفاد مِمَّا يُذْكَر من الحُدودِ والتَّعريفات ، بأن يقال : (الرأس كذا ... الكلام كذا) .

فالحاصِلُ : أنّ الاحتجاجَ بهذا الشِّعْر ظاهرُ الفَسادِ ، وفَسادُهُ أبْيَنُ وأظهرُ من تكلّفِ التفصيل له ، والقومُ استبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خَيْرٌ ، فتركوا نصوصَ الوَحْي الصَّريحةَ لقَوْلِ نَصْرانيٍّ كافرٍ ، لم يُحَقِّقوه صِحَّةً ، لا رِوايةً ولا دِرايةً .

قال الإمام أبو المَعالي أسْعَدُ بن المُنَجّا شيخُ الحَنابلة :

كنتُ يومًا عندَ الشَّيخ أبي البَيان (نَبأ بن محمَّد بن مَحفوظ القُرَشي الشّافعي) رحمه الله تعالى ، فجاءَه ابن تَميم الذي يُدعى الشيخ الأمين ، فقالَ له الشيخ بعدَ كلام جَرى بينهما : " ويحَكَ ، الحنابلة إذا قيل لهم : ما الدَّليلُ على أنَّ القرآنَ بحَرْفٍ وصَوْتٍ ؟ قالوا : قال الله كذا ، وقال رسولُهُ كذا – وسرد الشيخُ الآياتِ والأخبارَ – وأنتم إذا قيل لكم : ما الدَّليلُ على أنَّ القرآنَ معنى قائم في النَّفس ؟ قلتُم : قالَ الأخطل : إنَّ الكلامَ لَفي الفؤادِ ...

أيش هذا الأخطل ؟ نَصْرانيٌّ خَبيثٌ ، بَنَيْتُم مذهَبَكم على بيتِ شعرٍ من قولِهِ ، وتركْتُم الكتابَ والسُّنَّة ؟! " .

وقال شيخُ الإسلام : "كانَ مِمَّا يُشَنَّعُ به على هؤلاء أنَّهم احتجّوا في أصْلِ دينهم ومعرفةِ حقيقةِ الكلام – كلام الله ، وكلام جميعِ الخَلْق – بقول شاعر نَصْرانيّ يُقال له : الأخطل :

إنَّ الكلامَ لَفِي الفؤادِ وإنَّما ... جُعِلَ اللسانُ على الفؤادِ دليلا

وقد قالَ طائفةٌ : إنَّ هذا ليسَ من شِعْرِهِ ، وبتقدير أن يكونَ من شعرهِ فالحَقائقُ العقليةُ ، أومسمَّى لفظ (الكلام) الذي يتكلَّم به جميعُ بني آدم ، لا يُرْجَعُ فيه إلى قولِ ألفِ شاعرٍ فاضِل ، دَعْ أنْ يكونَ شاعرًا نَصْرانيًّا اسمُه : الأخْطَل ، والنَّصارى قد عُرِفَ أنّهم يتكلَّمونَ في كلمةِ الله بما هو باطلٌ ، والخَطَل في اللُّغة : هو الخَطَأ في الكَلام .

وقد أنشَدَ فيهم المُنْشِد :

قُبْحًا لِمَنْ نَبَذَ القرانَ وَراءَه ... فإذا استدلَّ يقولُ : قال الأخطلُ

وقال شيخ الإسلام أيضا : " ولو احتجَّ مُحْتجٌّ في مسألةٍ بحديثٍ أخرَجاه في الصَّحيحين عن النَّبِيّ – صلى الله عليه وسلم – لَقالوا : هذا خبرُ واحدٍ ، ويكون مِمَّا اتّفقَ العلماءُ على تصديقهِ وتلقّيهِ بالقَبول ، وهذا البيتُ لم يَثْبُت نقلُهُ عن قائلهِ بإسنادٍ صَحيح لا واحدٍ ولا أكثرَ من واحدٍ ، ولا تلقَّاهُ أهلُ العربيَّة بالقَبول ، فكيفَ يثْبُتُ به أدنى شَيْءٍ من اللغة فَضْلًا عن مسمَّى الكلام " .

قَالَ شيخ الْإِسْلَام فِي (الفتاوى الكبرى) بعد كَلَام سبق ، فَهُم – يعْنى الأشاعرة – الَّذِينَ يَقُولُونَ : الْكَلَامُ مَعْنًى وَاحِدٌ قَائِمٌ بِذَاتِ الرَّبِّ ؛ فَيُقَالُ : أَنْتُمْ قُلْتُمْ الْكَلَامَ مَعْنًى وَاحِدٌ لَا يَنْقَسِمُ وَلَا يَخْتَلِفُ ، وَهَذَا الْمَعْنَى الْوَاحِدُ هُوَ بِعَيْنِهِ أَمْرٌ وَنَهْيٌ وَخَبَرٌ ، فَجَعَلْتُمْ الْوَاحِدَ ثَلَاثَةً ، وَجَعَلْتُمْ الْوَاحِدَ الَّذِي لَا اخْتِلَافَ فِيهِ ثَلَاثَ حَقَائِقَ مُخْتَلِفَةً ، وَهَذَا مُضَاهَاةٌ قَوِيَّةٌ لِقَوْلِ النَّصَارَى : الرَّبُّ إلَهٌ وَاحِدٌ ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ ثَلَاثَةُ جَوَاهِرَ ، فَجَعَلُوهُ وَاحِدًا .

وَجَعَلُوهُ ثَلَاثَةً ، ثُمَّ قُلْتُمْ : هَذَا الْكَلَامُ الَّذِي هُوَ وَاحِدٌ وَهُوَ أَمْرٌ وَنَهْيٌ وَخَبَرٌ ، يَنْزِلُ تَارَةً فَيَكُونُ أَمْرًا ؛ وَتَارَةً فَيَكُونُ خَبَرًا ، وَتَارَةً فَيَكُونُ نَهْيًا ؛ وَإِذَا نَزَلَ فَكَانَ أَمْرًا ، لَمْ يَكُنْ خَبَرًا ، وَإِنَّمَا نَزَلَ فَكَانَ خَبَرًا لَمْ يَكُنْ أَمْرًا ؛ فَإِنَّهُ إذَا أَنْزَلَهُ اللَّهُ فَكَانَ آيَةَ الْكُرْسِيِّ وَهِيَ خَبَرٌ لَمْ يَكُنْ آيَةَ الدَّيْنِ الَّتِي هِيَ أَمْرٌ ، وَهَذَا لَعَلَّهُ مِنْ أَعْظَمِ الْمُضَاهَاةِ كَقَوْلِ النَّصَارَى : إنَّ الْجَوْهَرَ الْوَاحِدَ الَّذِي هُوَ ثَلَاثَةُ جَوَاهِرَ ثَلَاثَةُ أَقَانِيمَ ، وَإِذَا اتَّحَدَ فَإِنَّمَا يَكُونُ كَلِمَةً وَابْنًا لَا يَكُونُ أَبًا وَلَا رُوحَ قُدُسٍ ، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ كَمَا جَعَلُوا الشَّيْءَ الَّذِي هُوَ وَاحِدٌ يَتَّحِدُ وَلَا يَتَّحِدُ مَا يَتَّحِدُ مِنْ جِهَةِ كَوْنِهِ كَلِمَةً ، وَلَا يَتَّحِدُ مِنْ جِهَةِ كَوْنِهِ وُجُودًا ، أَجَعَلَ أُولَئِكَ الَّذِي هُوَ كَلَامٌ وَاحِدٌ يَنْزِلُ وَلَا يَنْزِلُ ، يَنْزِلُ مِنْ جِهَةِ كَوْنِهِ أَمْرًا ، وَلَا يَنْزِلُ مِنْ جِهَةِ كَوْنِهِ خَبَرًا .

وَأَيْضًا فَإِنَّهُمْ ضَاهَوْا النَّصَارَى فِي تَحْرِيفِ مُسَمَّى الْكَلِمَةِ وَالْكَلَامِ . فَإِنَّ الْمَسِيحَ سُمِّيَ كَلِمَةَ اللَّهِ لِأَنَّ اللَّهَ خَلَقَهُ بِكَلِمَتِهِ : (كُنْ فَيَكُونُ) ، كَمَا يُسَمَّى مُتَعَلِّقُ الصِّفَاتِ بِأَسْمَائِهَا فَيُسَمَّى الْمَقْدُورُ قُدْرَةً ، وَالْمَعْلُومُ عِلْمًا ، وَمَا يُرْحَمُ بِهِ رَحْمَةً ، وَالْمَأْمُورُ بِهِ أَمْرًا وَهَذَا كَثِيرٌ قَدْ بَسَطْنَاهُ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ ، لَكِنْ هَذِهِ الْكَلِمَةُ نَادِرَةٌ يَجْعَلُونَهَا صِفَةً لِلَّهِ ، وَيَقُولُونَ هِيَ الْعِلْمُ ، وَتَارَةً يَجْعَلُونَهَا جَوْهَرًا قَائِمًا بِنَفْسِهِ ، وَهِيَ الْمُتَّحِدُ بِالْمَسِيحِ ، وَهَؤُلَاءِ حَرَّفُوا مُسَمَّى الْكَلِمَةِ فَزَعَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ إلَّا مُجَرَّدَ الْمَعْنَى ، وَأَنَّ ذَلِكَ الْمَعْنَى لَيْسَ هُوَ الْعِلْمَ وَلَا الْإِرَادَةَ ، وَلَا هُوَ مِنْ جِنْسِ ذَلِكَ ، وَلَكِنْ هُوَ شَيْءٌ وَاحِدٌ ، وَهُوَ حَقَائِقُ مُخْتَلِفَةٌ ، لَكِنْ لَيْسَ فِي غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ مَنْ يَقُولُ الْكَلَامُ جَوْهَرٌ قَائِمٌ بِنَفْسِهِ ؛ إلَّا مَا يُذْكَرُ عَنْ النَّظَّامِ أَنَّهُ قَالَ : الْكَلَامُ الَّذِي هُوَ الصَّوْتُ جِسْمٌ مِنْ الْأَجْسَامِ .

وَأَيْضًا فَهُمْ فِي لَفْظِ الْقُرْآنِ الَّذِي هُوَ حُرُوفُهُ وَاشْتِمَالُهُ عَلَى الْمَعْنَى لَهُمْ مُضَاهَاةٌ قَوِيَّةٌ بِالنَّصَارَى فِي جَسَدِ الْمَسِيحِ الَّذِي هُوَ مُتَدَرِّعٌ لِلَّاهُوتِ ، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ حُرُوفَ الْقُرْآنِ لَيْسَتْ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ بَلْ هِيَ مَخْلُوقَةٌ ، كَمَا أَنَّ النَّصَارَى مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ جَسَدَ الْمَسِيحِ لَمْ يَكُنْ مِنْ اللَّاهُوتِ بَلْ هُوَ مَخْلُوقٌ ، ثُمَّ يَقُولُونَ : الْمَعْنَى الْقَدِيمُ لَمَّا أُنْزِلَ بِهَذِهِ الْحُرُوفِ الْمَخْلُوقَةِ ، فَمِنْهُمْ مَنْ يُسَمِّي الْحُرُوفَ كَلَامَ اللَّهِ حَقِيقَةً كَمَا يُسَمِّي الْمَعْنَى كَلَامَ اللَّهِ حَقِيقَةً ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ بَلْ هِيَ كَلَامُ اللَّهِ مَجَازًا ، كَمَا أَنَّ النَّصَارَى مِنْهُمْ مَنْ يَجْعَلُ جَسَدَ الْمَسِيحِ لَاهُوتًا حَقِيقَةً لِاتِّحَادِهِ بِاللَّاهُوتِ ، وَاخْتِلَاطِهِ بِهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : هُوَ مَحَلُّ اللَّاهُوتِ وَوِعَاؤُهُ .

ثُمَّ النَّصَارَى تَقُولُ : هَذَا الْجَسَدُ إِنَّمَا عُبِدَ لِكَوْنِهِ مَظْهَرَ اللَّاهُوتِ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ هُوَ إِيَّاهُ ، وَلَكِنْ صَارَ هُوَ إِيَّاهُ بِطَرِيقِ الِاتِّحَادِ ، وَهُوَ مَحَلُّهُ بِطَرِيقِ الْحُلُولِ ، فَعُظِّمَ كَذَلِكَ .

وَهَؤُلَاءِ يَقُولُونَ : هَذِهِ الْحُرُوفُ لَيْسَتْ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَتَكَلَّمَ اللَّهُ بِهَا ، وَلَكِنْ خَلَقَهَا وَأَظْهَرَ بِهَا الْمَعْنَى الْقَدِيمَ وَدَلَّ بِهَا عَلَيْهِ ، فَاسْتَحَقَّتْ الْإِكْرَامَ وَالتَّحْرِيمَ لِذَلِكَ ، حَيْثُ يَدْخُلُ فِي حُكْمِهِ بِحَيْثُ لَا يُفْصَلُ بَيْنَهُمَا ، أَوْ يُفْصَلُ بِأَنْ يُقَالَ : هَذَا مُظْهَرٌ هَذَا دَلِيلُهُ ، وَجَعَلُوا مَا لَيْسَ هُوَ كَلَامَ اللَّهِ وَلَا تَكَلَّمَ اللَّهُ بِهِ قَطُّ كَلَامًا لِلَّهِ مُعَظَّمًا تَعْظِيمَ كَلَامِ اللَّهِ ، كَمَا جَعَلَتْ النَّصَارَى النَّاسُوتَ الَّذِي لَيْسَ هُوَ بِإِلَهٍ قَطُّ ، وَلَا هُوَ الْكَلِمَةُ إلَهًا وَكَلِمَةً ، وَعَظَّمُوهُ تَعْظِيمَ الْإِلَهِ الَّذِي هُوَ كَلِمَةُ اللَّهِ عِنْدَهُمْ .

وَمِنْهَا : أَنَّ النَّصَارَى عَلَى مَا حَكَى عَنْهُمْ الْمُتَكَلِّمُونَ كَابْنِ الْبَاقِلَّانِيِّ أَوْ غَيْرِهِ يَنْفُونَ الصِّفَاتِ وَيَقُولُونَ : إنَّ الْأَقَانِيمَ الَّتِي هِيَ الْوُجُودُ وَالْحَيَاةُ وَالْعِلْمُ ، هِيَ خَوَاصُّ ، هِيَ صِفَاتٌ نَفْسِيَّةٌ لِلْجَوْهَرِ ، لَيْسَتْ صِفَاتٍ زَائِدَةً عَلَى الذَّاتِ ، وَيَقُولُونَ : إنَّ الْكَلِمَةَ هِيَ الْعِلْمُ ، لَيْسَتْ هِيَ كَلَامَ اللَّهِ ، فَإِنَّ كَلَامَهُ صِفَةُ فِعْلٍ ، وَهُوَ مَخْلُوقٌ ، فَقَوْلُهُمْ فِي هَذَا كَقَوْلِ نُفَاةِ الصِّفَاتِ مِنْ الْجَهْمِيَّةِ ، الْمُعْتَزِلَةِ وَغَيْرِهِمْ ، وَهَذَا يَكُونُ قَوْلَ بَعْضِهِمْ مِمَّنْ خَاطَبَهُمْ مُتَكَلِّمُو الْجَهْمِيَّةِ مِنْ النَّسْطُورِيِّينَ وَغَيْرِهِمْ ، وَمِمَّنْ تَفَلْسَفَ مِنْهُمْ عَلَى مَذْهَبِ نُفَاةِ الصِّفَاتِ مِنْ الْمُتَفَلْسِفَةِ ، وَنَحْوِ هَؤُلَاءِ ، وَإِلَّا فَلَا رَيْبَ أَنَّ فِي النَّصَارَى مُثْبِتَةً لِلصِّفَاتِ ، بَلْ غَالِبَةً فِي ذَلِكَ ، كَمَا أَنَّ الْيَهُودَ أَيْضًا فِيهِمْ الْمُثْبِتَةُ وَالنُّفَّات .

وَالْمَقْصُودُ هُنَا أَنَّ تَسْمِيَتَهُمْ لِلْعِلْمِ كَلِمَةً دُونَ الْكَلَامِ الَّذِي هُوَ الْكَلَامُ ، ثُمَّ ذَلِكَ الْعِلْمُ لَيْسَ هُوَ أَمْرًا مَعْقُولًا ، كَمَا تُعْقَلُ الصِّفَاتُ الْقَائِمَةُ بِالْمَوْصُوفِ ، ضَاهَاهُمْ فِي ذَلِكَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَقُولُونَ : الْكَلَامُ هُوَ ذَلِكَ الْمَعْنَى الْقَائِمُ بِالنَّفْسِ دُونَ الْكَلَامِ الَّذِي هُوَ الْكَلَامُ ، ثُمَّ ذَلِكَ الْمَعْنَى لَيْسَ هُوَ الْمَعْقُولَ مِنْ مَعَانِي الْكَلَامِ ، فَحَرَّفُوا اسْمَ الْكَلَامِ وَمَعْنَاهُ ، كَمَا حَرَّفَتْ النَّصَارَى اسْمَ الْكَلِمَةِ وَمَعْنَاهَا ، وَهَذَا الْكَلَامُ ذَكَرْته مِنْ مُضَاهَاةِ هَؤُلَاءِ النَّصَارَى مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ .

قال شيخُ الإسلام : " ولَمْ يكن في مسمَّى الكلام نزاعٌ بين الصَّحابة والتابعينَ لهم بإحسانٍ ، وتابعيهم ، لا من أهل السُّنَّة ، ولا مِن أهل البدعةِ ، بل أوَّل من عُرِفَ في الإسلام أنَّه جعلَ مسمَّى الكلام المعنى فقط هو عبد الله بن سعيد بن كُلّاب ، وهو متأخِّرُ في زمَن محنةِ أحمد بن حنبل ، وقد أنكر ذلكَ عليه علماءُ السُّنَّةِ وعلماءُ البدعةِ ، فيمتنعُ أن يكونَ الكلام الذي هو أظهرُ صفاتِ بني آدم ، كما قال تعالى : (فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ) (الذاريات / ٢٣) ولفظُه لا تُحْصى وجوهُه كثرةً ، لَمْ يعرفْهُ أحدٌ من الصحابةِ والتابعين وتابعِيهم ، حتى جاءَ مَن قالَ فيه قولًا لم يَسْبِقْهُ إليه أحدٌ من المسلمينَ ولا غيرِهم " .

وقال الحافظ أبو نَصْر السِّجْزيُّ : " رَكِبوا مُكابَرَةَ العِيانِ ، وخَرَقوا الإجماعَ المُنْعَقِدَ بين الكافَّة : المُسْلم والكافِر " بلْ أجأهم الضِّيقُ مِمَّا دخَلَ عليهم في مقالَتهم إلى أنْ قالوا : الأخرَسُ متكَلِّمٌ ، وكذلك السَّاكتُ والنائمُ ، ولهم في حال الخَرَس والسُّكوت والنَّوم كلامٌ هم متكلِّمونَ به ، ثمَّ أفصَحوا بأنَّ الخرَسَ والسُّكوتَ والآفات المانعة من النّطق لَيْسَتْ بأضْداد الكلام " .

قال : " وهذه مقالةٌ تُبَيِّنُ فضيحةَ قائلها في ظاهِرها من غير رَدٍّ عليه ، ومَن عُلِمَ منه خَرْقُ إجماع الكافّة ، ومخالَفَةُ كلّ عَقْليّ وسَمْعيّ قبلَه لم يُناظَرْ ، بل يُجانَبُ وَيُقْمَعُ " .

والمقصود من هذا أن الله جل وعلا يتكلم بصوت يُسمع ، والكلام صفة كمال ، فالذي يتكلم أكمل من الذي لا يتكلم ، ولكن كلام الله جل وعلا لا يشبه كلام الخلق ؛ ولهذا قال في حديث أنس : (يَحْشُرُ اللَّهُ الْعِبَادَ فَيُنَادِيهِمْ بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مَنْ بَعُدَ كَمَا يَسْمَعُهُ مَنْ قَرُبَ) ، قال البخاري : هذا صفة كلام الله ، فهو لَا يُشْبِهُ أَصْوَاتَ الْخَلْقِ ، لِأَنَّ صَوْتَ اللَّهِ جَلَّ ذِكْرُهُ يُسْمَعُ مِنْ بُعْدٍ كَمَا يُسْمَعُ مِنْ قُرْبٍ ، ثم إن كلامه جل وعلا لا يلزم منه اللوازم الباطلة التي سبق أن ذكرنا أنها من شبهات وتغبير أهل البدع في وجه الحق ، وأنه لا يضر الحق شيئًا ، وهذا فقط من باب تضافر الأدلة .

قلتُ : ولقد كانت هذه البدعةُ جَديرةً بالإعراض عنها لولا ما عمَّ بها من فَساد الاعتقاد ، ولَبْسِ الحَقّ بالباطل ، فلا حولَ ولا قوة إلاَّ بالله .

ما يستفاد من الحديث

(خَرَجَ مِنْ عِنْدِهَا بُكْرَةً)

– فضل وأهمية البكور ، ودلّ عليه حديث صَخْرٍ الغَامِدِيّ – رَضِيَ اللهُ عَنْه – قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " اللَّهُمَّ بَارِكْ لأُمَّتِي فِي بُكُورِهَا " .

(حِينَ صَلَّى الصُّبْحَ)

– فضل وأهمية صلاة الصبح .

– حِرْص النَّبِيّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : على الطاعة .

(وَهِيَ فِي مَسْجِدِهَا)

– أهمية أن تُهَيئ المرأة مكانًا لها للصلاة في البيت .

– فضل الصلاة في البيت للمرأة وأنه أفضل من صلاتها فِي مَسْجِدِ النَّبِيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –

عَنْ أُمِّ حُمَيْدٍ امْرَأَةِ أَبِي حُمَيْدٍ السَّاعِدِيّ أَنَّهَا جَاءَتْ إِلَى النَّبِيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَقَالَتْ : يَا رَسُولَ اللهِ ، إِنِّي أُحِبُّ الصَّلاَةَ معك . قَالَ : " قَدْ عَلِمْتُ أَنَّكِ تُحِبِّينَ الصَّلاَةَ مَعِي ، وَصَلاتُكِ فِي بَيْتِكِ خَيْرٌ مِنْ صَلاَتِكِ فِي حُجْرَتِكِ ، وَصَلاتُكِ فِي حُجْرَتِكِ خَيْرٌ مِنْ صَلاَتِكِ فِي دَارِكِ ، وَصَلاتُكِ فِي دَارِكِ خَيْرٌ مِنْ صَلاَتِكِ فِي مَسْجِدِ قَوْمِكِ ، وَصَلاَتُكِ فِي مَسْجِدِ قَوْمِكِ خَيْرٌ مِنْ صَلاتِكِ فِي مَسْجِدِي " قَالَ : فَأَمَرَتْ فَبُنِيَ لَهَا مَسْجِدٌ فِي أَقْصَى شَيْءٍ مِنْ بَيْتِهَا وَأَظْلَمِهِ ، وَكَانَتْ تُصَلِّي فِيهِ حَتَّى لَقِيَتِ اللهَ جَلَّ وعَلا . (رواهُ أحمد ، وصحيح ابن حِبَّان ، صحيح الترغيب / ٣٤٠) .

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بنِ عَبَّاس – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما – عَنِ النَّبِيّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ : " صَلاَةُ الْمَرْأَةِ فِي بَيْتِهَا أَفْضَلُ مِنْ صَلاَتِهَا فِي حُجْرَتِهَا ، وَصَلاَتُهَا فِي مَخْدَعِهَا أَفْضَلُ مِنْ صَلاَتِهَا فِي بَيْتِهَا " (صحيح أبي داود / ٥٧٠) ، فَبَيَّنَ أنه كلما كان المكان أستر لها ؛ فصلاتها فيه أفضل ، فالمخْدَع أستر من البيت الذي تقعد فيه ، والبيت أستر من الحجرة التي هي أقرب إلى الباب والطريق " ، فالظاهر من الحجرة في حديث ابن عباس هذا : هذه الحجرة التي عند الباب ، لا البيت ؛ لأنه خلاف الحجرة بنص هذا الحديث .

ومعلوم أن الصلاة فِي مَسْجِدِ النَّبِيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ صَلاةٍ فِيمَا سِوَاهُ إِلَّا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ لحديث أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – أَنَّ النَّبِيَّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ :

" صَلاةٌ فِي مَسْجِدِي هَذَا خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ صَلاةٍ فِيمَا سِوَاهُ إِلَّا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ " (خ / ١١٩٠ ، م / ١٣٩٤) .

(ثُمَّ رَجَعَ بَعْدَ أَنْ أَضْحَى)

– فضل وأهمية هذا الوقت واستغلاله في أفضل وظائفه وهو الذِّكر ، فعَنْ سِمَاكِ بْنِ حَرْبٍ ، قَالَ : قُلْتُ لِجَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ : أَكُنْتَ تُجَالِسُ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ؟ قَالَ : نَعَمْ كَثِيرًا ،

" كَانَ لَا يَقُومُ مِنْ مُصَلَّاهُ الَّذِي يُصَلِّي فِيهِ الصُّبْحَ ، أَوِ الْغَدَاةَ ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ ، فَإِذَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ قَامَ ، وَكَانُوا يَتَحَدَّثُونَ فَيَأْخُذُونَ فِي أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ ، فَيَضْحَكُونَ وَيَتَبَسَّمُ " (م / ٦٧٠) .

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " لَأَنْ أَقْعُدَ مَعَ قَوْمٍ يَذْكُرُونَ اللَّهَ تَعَالَى مِنْ صَلَاةِ الْغَدَاةِ ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ أَحَبُّ إِلَيَّ ، مِنْ أَنْ أَعْتِقَ أَرْبَعَةً مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ ، وَلَأَنْ أَقْعُدَ مَعَ قَوْمٍ يَذْكُرُونَ اللَّهَ مِنْ صَلَاةِ الْعَصْرِ إِلَى أَنْ تَغْرُبَ الشَّمْسُ أَحَبُّ إِلَيَّ مَنْ أَنْ أَعْتِقَ أَرْبَعَةً " (صحيح أبي داود / ٣٦٦٧) .

عَنْ أَنَسٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – :

" مَنْ صَلَّى الغَدَاةَ فِي جَمَاعَةٍ ثُمَّ قَعَدَ يَذْكُرُ اللَّهَ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ ، ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ كَانَتْ لَهُ كَأَجْرِ حَجَّةٍ وَعُمْرَةٍ " ،

قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " تَامَّةٍ تَامَّةٍ تَامَّةٍ " (صحيح التِّرْمِذِيّ / ٥٨٦)

(وَهِيَ جَالِسَةٌ)

– فضل أم المؤمنين جُوَيْرِيَةَ بنت الحارث – رَضِيَ اللهُ عَنْهَا – وبيان بعض عبادتها واجتهادها في العبادة .

– حرص أم المؤمنين جُوَيْرِيَةَ بنت الحارث – رَضِيَ اللهُ عَنْهَا – على استغلال هذا الوقت في الذِّكر مما يبين فضله .

(مَا زِلْتِ عَلَى الْحَالِ الَّتِي فَارَقْتُكِ عَلَيْهَا)

– تَفقُّد النَّبيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لأهل بيته .

– تَلطُّف النَّبيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مع أهل بيته .

– بيان طريقة من طرق التعلُّم من أفضل معلم وما تحويه من سؤال وتحفيز وجذب انتباه ، والترفق واللين مع المتعلم .

– البدء بتعليم الزوجات والأقربين استجابة لقوله تعالى : (قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نارًا) (التحريم / ٦) ،

وأُحِب أن أُنَبِّه على جملة يظن كثير من العوام أنها آية أو حديث صحيح وهي " الأقربون أولى بالمعروف " قال الشيخ الألباني في (السلسلة الضعيفة / ٣٧٦) : لا أصل له بهذا اللفظ ،كما أشار إليه السخاوي في " المقاصد الحسنة " ، وبعضهم يتوهم أنه آية ! وإنما في القرآن قوله تعالى : (قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين) .

(لَقَدْ قُلْتُ بَعْدَكِ أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، لَوْ وُزِنَتْ بِمَا قُلْتِ مُنْذُ الْيَوْمِ لَوَزَنَتْهُنَّ)

– طريقة تشويق المستمع لما سيأتي من كلام .

– النَّبيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أُوتِيَ جوامع الكلم ؛ فيتكلم بكلمات يسيرة ، فيها فوائد كثيرة .

– فضل العالم على العابد ؛ فالعلم يختصر الزمن والجهد ، إذ قد يفعل العالم في أوقات يسيرة بأجور كثيرة ما لا يقدر العابد على فعله في سنوات طويلة ، وكذلك ما يقع في قلب العالم من فهم وتدبُّر للعبادة يكن أكثر أجرًا من غيره .

– مشروعية ذكرِ الله بأعداد معينة .

– مشروعية التكرار والإلحاح بالدعاء .

– أن هناك أذكار مخصوصة تقال بأعداد مقيدة .

– العبادة توقيفية فلا يزاد عليها ولا ينقص منها إلا بدليل .

– فضل هذا الذِّكر وأنه أفضل وأكثر أجرًا من غيره .

– بيان أن الأعمال توزن بميزان حقيقي له كفتان ، توضع الحسنات في كفة ومنها الأذكار ، والسيئات في كفة .

– فيه دليل واضح ، على أن تكلم العبد بالذكر وبالقرآن ، عمل له يثاب عليه ، ويوضع في ميزانه ، ليعطيه الله أجره عليه وافرًا غير منقوص .

– كلُّ عملٍ عملَه في هذه الحياة يوزن ، فإذا آمن بذلك إيمانًا جازمًا فإنه لا ريب سيزداد إقباله على الحسنات ، ويشتد بعده عن السيئات .

– فقه الأولويات ؛ فيُقَدَّم الأولى والأهم فالمهم .

– الإيمان بالبعث والنشور ووزن الأعمال .

(سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ)

– فضل وأهمية التسبيح .

– فضل وأهمية التحميد .

– فضل وأهمية التسبيح والتحميد مقترنين ومن فضائلهما ما يلي :

١– أحب الكلام إلى الله : فعَنْ أَبِي ذَرٍّ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " أَلَا أُخْبِرُكَ بِأَحَبِّ الْكَلَامِ إِلَى اللهِ ؟ " قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ أَخْبِرْنِي بِأَحَبِّ الْكَلَامِ إِلَى اللهِ ، فَقَالَ : " إِنَّ أَحَبَّ الْكَلَامِ إِلَى اللهِ : سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ " (م / ٢٧٣١) .

٢– ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – عَنِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ : "كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ ، سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ ، سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ " (خ / ٦٤٠٦ ، م / ٢٦٩٤) .

٣– أفضل الكلام واصطفاهما اللهُ لِمَلَائِكَتِهِ أَوْ لِعِبَادِهِ : عَنْ أَبِي ذَرٍّ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – أَنَّ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – سُئِلَ أَيُّ الْكَلَامِ أَفْضَلُ ؟ قَالَ : " مَا اصْطَفَى اللهُ لِمَلَائِكَتِهِ أَوْ لِعِبَادِهِ : سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ " (م / ٢٧٣١) .

٤– أَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنْ جَبَلِ ذَهَبٍ وَفِضَّةٍ يُنْفَقَانِ فِي سَبِيلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ : عَنْ أَبِي أُمَامَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – أَنَّ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ : " مَنْ هَالَهُ اللَّيْلُ أَنْ يُكَابِدَهُ ، وَبَخِلَ بِالْمَالِ أَنْ يُنْفِقَهُ ، وَجَبُنَ عَنِ الْعَدُوِّ أَنْ يُقَاتِلَهُ ، فَلْيُكْثِرْ أَنْ يَقُولَ : سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ ، فَإِنَّهَا أَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنْ جَبَلِ ذَهَبٍ وَفِضَّةٍ يُنْفَقَانِ فِي سَبِيلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ " (رواهُ الفِرْيابِيُّ والطَّبرانيُّ واللفظ له ، صحيح الترغيب والترهيب / ١٥٤١وقال : (صحيح لغيره)) .

٥– عَنْ أَبِي أُمَامَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – قَالَ : رَآنِي النَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَأَنَا أُحَرِّكُ شَفَتَيَّ ، فَقَالَ : " مَا تَقُوْلُ يَا أَبَا أُمَامَةَ ؟ " . قُلْتُ : أَذْكُرُ اللهَ ، قَالَ : " أَفَلا أَدلُّكَ عَلَى مَا هُوَ أَكْثَرُ مِنْ ذِكْرِكَ اللهِ اللَّيْلَ مَعَ النَّهَارِ ، تَقُولُ : الْحَمْدُ للهِ عَدَدَ مَا خَلَقَ ، وَالْحَمْدُ للهِ مِلءَ مَا خَلَقَ ، وَالْحَمْدُ للهِ عَدَدَ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ، وَالْحَمْدُ للهِ عَدَدَ مَا أَحْصَى كِتَابُهُ ، وَالْحَمْدُ للهِ مِلءَ مَا أَحْصَى كِتَابُهُ ، وَالْحَمْدُ للهِ عَدَدَ كُلِّ شَيْءٍ ، وَالْحَمْدُ للهِ مِلءَ كُلِّ شَيْءٍ ، وَتُسَبِّحُ اللهَ مِثْلَهُنَّ " . ثُمَّ قَالَ : " تُعَلِّمُهُنَّ عَقِبَكَ مِنْ بَعْدِكَ "

(رواهُ الطَّبرانيُّ في الكبير ، تعليق الألبانيّ " صحيح " ، صحيح الجامع (٢٦١٥)) .

٦- تَحُطُّ الخطايا وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – : أَنَّ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ : " مَنْ قَالَ : سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ ، حُطَّتْ عَنْهُ خَطَايَاهُ وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ " . (خ / ٦٤٠٥ ، م / ٢٦٩١) .

(عَدَدَ خَلْقِهِ)

– بيان وإثبات الخلق لله وأنه هو الخالق سبحانه .

– بيان عِظَم وكثرة خلق الله وأنهم لا يُحْصون عددًا .

(وَرِضَا نَفْسِهِ)

– فيه إثبات لصفة الرِّضا لله وأنه يرضى .

– فيه إثبات لصفة النَّفْس لله .

(وَزِنَةَ عَرْشِهِ)

– بيان شرف العرش إذ أضيف إلى الله إضافة تشريف .

– إثبات عظمة العرش وأنه أثقل المخلوقات ، ولو هناك ما هو أثقل منه لذُكِر .

– إثبات أن الله مستوٍ على العرش ، إذ لا يعقل وجود عرش بهذه العظمة ويكون فارغ أو خالٍ .

(وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ)

– إثبات صفة الكلام لله .

– صفة الكلام ذاتية فعلية ، وكونها فعلية تدل على أنه ما زال متكلم بالأوامر والنواهي ، والأحكام ، والتقدير .

– كلام الله لا متناهي – لا نهاية له – ولذلك جعل التسبيح والتحميد بمقدار الكلام اللامتناهي للدلالة على الكثرة .

– الردّ على منكري إثبات صفة الكلام لله كالجهمية والأشاعرة وغيرهما ممن خالف عقيدة أهل السنة والجماعة .

٢٣- عَنِ الْمُنَيْذِرِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - صَاحِبِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَكَانَ يَكُونُ بِإِفْرِيقِيَّةَ ، قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ :

" مَنْ قَالَ إِذَا أَصْبَحَ (١) : رَضِيتُ بِاللَّهِ رَبًّا (٢) ، وَبِالإِسْلامِ دِينًا (٣) ، وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا (٤) ، فَأَنَا الزَّعِيمُ (٥) لآخُذَ بِيَدِهِ حَتَّى أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ "

(رواهُ الطَّبرانِيُّ في الكبير ، السلسلة الصحيحة / ٢٦٨٦ ، صحيح الترغيب / ٦٥٧ : حسن لغيره) .

المعنى الإجمالي

هذا الحديث يدلنا على فضل هذا الذكر ، وهو مشتمل على الأمور الثلاثة التي يُسأل عنها في القبر ؛ لأن الإنسان في القبر يُسأل عن ربه ودينه ونبيه ، فهو مشتمل على الأصول التي يُسأل عنها الإنسان في القبر .

وشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب - يرحمه الله - ألَّف رسالة (الثلاثة الأصول) وهي مبنية على هذه الأصول التي هي : (معرفة العبد ربه ، ودينه ، ونبيه) وهي رسالة قيمة يسيرة لا يَستغني عنها العامي ولا طالب العلم ؛ لأنها جمعت الكلام حول هذه الأصول الثلاثة ، وهي الأمور التي يُسأل عنها الإنسان في القبر ، ومن قالها إذا أصبح ، فَالنبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - هو الكفيل والضامن أن يأخذ بِيَدِهِ حَتَّى يدْخِلَهُ الْجَنَّةَ .

معاني الكلمات

(١) إِذَا أَصْبَحَ : تقدَّم كثيرًا .

(٢) رَضِيتُ بِاللَّهِ رَبًّا : أي : قَنَعْتُ به ، واكتفيتُ به ، ولم أطلب معه غيرَه .

أي : مالِكًا ومُرَبيًا ، والرضى خلاف السخط ، فإن على العبد أن يرضى بالله ربًّا وكلما آتاه بالرضى من السراء والضراء ، وأفرده بالربوبية ، ولم يتخذ من دونه ربًّا ، فهذا الذي يرضى ؛ فإن العبد الذي اتخذ مَنْ انقاد له في غير طاعة ربًّا وصيره معبودًا ورضي بغير الله ربًّا ، فلا يتم له رضى بالله أن يؤثِر على أوامره ونواهيه وطاعته أراء غيره ، ويعلم أن كل ما آتاه من مولاه وربه ، فهو الخير كله وبهذا تتحقق عبوديته لربه الذي إنْ كلُ من في السماوات والأرض إلا آتيه عبدًا .

وبالجملة : فالعبد لا زال خائفًا من مولاه راجيًا له قائمًا بالخدمة ممتثلًا لأمره منتهيًا عن نهيه وزجره ، راضيًا بقسمته مُقرًّا بحكمته خائفًا من عذابه راجيًا لرحمته ، مفتقرًا إليه في جميع حالاته ، منكسرًا خاضعًا في حركاته وسكناته .

وقال القاري : وَهُوَ يَشْمَلُ الرِّضَاءَ بِالْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ وَالْقَضَايَا الْكَوْنِيَّةِ ، ورضي بِرُبُوبِيَّتِهِ وَبِجَمِيعِ قَضَائِهِ وَقَدَرِهِ ، فَإِنَّ الرِّضَا بِالْقَضَاءِ بَابُ اللَّهِ الْأَعْظَمُ ، وَقِيلَ : أَيْ : مُرَبِّيًا وَمَالِكًا وَسَيِّدًا وَمُصْلِحًا ، فلا إله غيره ولا رب سواه فهو ربي ومعبودي .

(٣) وَبِالإِسْلامِ دِينًا : أَيْ : بِجَمِيعِ أَحْكَامِ الْإِسْلَامِ مِنَ الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي ، والإِسْلامُ لغةً : الاستسلام ، هُوَ : الاسْتِسْلامُ للهِ بِالتَّوْحِيدِ ، وَالانْقِيَادُ لَهُ بِالطَّاعَةِ ، وَالْبَرَاءَةُ مِنَ الشِّرْكِ وَأَهْلِهِ ، وَهُوَ ثَلاثُ مَرَاتِبَ : الإِسْلامُ ، وَالإِيمَانُ ، وَالإِحْسَانُ . وَكُلُّ مَرْتَبَةٍ لَهَا أَرْكَانٌ .

وَأَرْكَانُ الإِسْلامِ خَمْسَةٌ : شَهَادَةُ أَنْ لا إله إلا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ، وَإِقَامُ الصَّلاةِ ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ ، وَصَوْمُ رَمَضَانَ ، وَحَجُّ بَيْتِ اللهِ الْحَرَامِ .

(دِينًا) أَيِ : اعْتِقَادًا أَوِ انْقِيَادًا ، وَفِيهِ التَّبَرُّؤُ عَنْ جميع ما سوى الإسلام من الأديان نَحْوِ الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ وغيرِهما . أو بمعنى : لم أسْعَ في غير طريق الإسلام ، ولم أسْلُك إلا ما يوافق شريعة نبينا محمد – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، أو لم أبتغ غير الإسلام دينًا . أي : أتَدَيْن بأحكامه دون غيره من الأديان ، فإذا قال ذلك بلسانه أُجريت عليه أحكام الإيمان من عصمة الدم والمال وغير ذلك من الأحكام الدنيوية ، فإن اقترن بذلك التصديق القلبي صار مؤمنًا إيمانًا حقيقيًا موجبًا لدخول الجنة .

(٤) وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا : (وَبِمُحَمَّدٍ) : أي بمتابعته : أَيْ : وَبِرِسَالَتِهِ الْمُورِثَةِ لِمُتَابَعَتِهِ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَأَحْوَالِهِ الْمُعَبَّرِ عَنْهَا بِالشَّرِيعَةِ وَالطَّرِيقَةِ وَالْحَقِيقَةِ ، (نَبِيًّا) : أَيْ : بِجَمِيعِ مَا أُرْسِلَ بِهِ وَبَلَّغَهُ إِلَيْنَا مِنَ الْأُمُورِ الِاعْتِقَادِيَّةِ وَغَيْرِهَا ، وَيَلْزَمُ مِنْهُ قَبُولُ مَرَاتِبِ الْإِيمَانِ الْإِجْمَالِيَّةِ .

قال القاضي عياض : في شرح حديث مسلم : معنى الحديث : صح إيمانه .

– فالحاصل أنه لا بد في الإيمان من الرضاء بكل واحد من الباعث والمبعوث له بنعوتها الثلاثة ؛ أعني : الربوبية والرسالة والدينية .

والرضا بربوبية الله يستلزم القبول لكل ما كان من عنده من الأوامر الشرعية والأمور القدرية . وَالرضا بـ (بِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا) والرضا برسالته – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مستلزم الإيمان لجميع ما جاء به واتباعه في كل شرعة . وَالرضا بـ (بِالإِسْلامِ دِينًا) يستلزم التدين بأحكامه دون غيره من الأديان ، والحديث ظاهر في أنه لهذا القول حصان الدم ويُحكَم لقائله بالإسلام .

(٥) فَأَنَا الزَّعِيمُ : قَالَ السُّيُوطِيُّ : زَعِيمُ الْقَوْمِ رَأْسُهُمْ . وَفِي الْقَامُوسِ : الزَّعِيمُ الْكَفِيلُ ، وَسَيِّدُ الْقَوْمِ رَأْسُهُمْ وَالْمُتَكَلِّمُ عَنْهُمْ ، والزعامة الكفالة ومنه قيل لرئيس القوم الزعيم لأنه هو المتكفل بأمورهم . والزَّعِيمُ : الضامن ، ومنه قوله تعالى : (قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ) (يوسف / ٧٢) .

ما يستفاد من الحديث

(وَكَانَ يَكُونُ بِإِفْرِيقِيَّةَ)

– التحرك لنشر الدين بالجهاد والدعوة .

– فضل الصحابي الجليل الْمُنَيْذِرِ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – في نشر الدين .

– فضل الصحابة – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم – في نشر الدين ، وفي جهادهم وتضحيتهم بأنفسهم وأموالهم وأوقاتهم لرفعة هذا الدين .

– أخذ العبرة من هؤلاء الصحابة الذين ضَحّوا بالنفس والنفيس لكي يصل إلينا هذا الدين .

– النظر بعين الإجلال لهؤلاء الصحابة ومعرفة فضلهم علينا .

– ما يجب علينا في اتِّباع نهجهم وإيصال الدِّين غير منقوص إلى مَنْ بعدنا .

– التحرك لنشر الدين بالدعوة أيضًا .

(مَنْ قَالَ)

– التشويق والتحفيز ، وهذا من براعة الاستهلال ، حتى يهتم المستمِع لما سيأتي .

(إِذَا أَصْبَحَ)

– استفتاح اليوم بذكر الله .

– أهمية أذكار الصباح والمساء .

– فضل وأهمية أذكار الصباح .

– حرص النَّبيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على الطاعة .

– مداومة النَّبيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على الأذكار .

– التأكيد على عبادة الوقت ، وهي أن كل عبادة في وقتها هي الأفضل .

– الحثّ على مداومة الذِّكر .

– أهمية أن يكون بداية اليوم بذكر الله .

– التأكيد على الذِّكر بها صباحًا .

(رَضِيتُ بِاللَّهِ رَبًّا)

– أن يقنع المسلم ويكتفي بِاللَّهِ رَبًّا ، ولا يطلب معه غيره .

– على العبد أن يعتقد ويقرّ ويعترف بقلبه وبلسانه ، بأن الله مالِكًا ومُرَبيًا ، ويرضى بالله وبكل ما آتاه من السراء والضراء ، وألا يؤثِر على أوامره ونواهيه وطاعته أراء غيره ، ويعلم أن كل ما آتاه من مولاه وربه ، فهو الخير كله .

– أهمية الإقرار باللسان بعد الاعتقاد بالجَنان .

– أهمية عمل الجوارح والأركان ، فلا يُكتفى بعمل القلب ؛ بل لا بدّ من أعمال الجوارح .

(وَبِالإِسْلامِ دِينًا)

– على العبد أن يرضى بِجَمِيعِ أَحْكَامِ الْإِسْلَامِ مِنَ الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي ، ويعلن بلسانه بعد جَنانه التَّبَرُّؤُ عَنْ جميع ما سوى الإسلام من الأديان نَحْوِ الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ وغيرِهما .

– أهمية الإقرار باللسان بعد الاعتقاد بالجنان .

– أهمية عمل الجوارح والأركان ، فلا يُكتفى بعمل القلب ؛ بل لا بدّ من أعمال الجوارح .

(وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا)

– على العبد أن يعتقد ويقرّ ويعترف بقلبه وبلسانه بنبوة النَّبيّ محمد – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – .

– على العبد أن يعلن بقلبه وبلسانه متابعة النَّبيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَأَحْوَالِهِ الْمُعَبَّرِ عَنْهَا بِالشَّرِيعَةِ وَالطَّرِيقَةِ وَالْحَقِيقَةِ .

– على العبد أن يعلن بقلبه وبلسانه ويقرّ بِجَمِيعِ مَا أُرْسِلَ بِهِ وَبَلَّغَهُ إِلَيْنَا مِنَ الْأُمُورِ الِاعْتِقَادِيَّةِ وَغَيْرِهَا .

(فَأَنَا الزَّعِيمُ لآخُذَ بِيَدِهِ حَتَّى أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ)

– فضل ومكانة النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – إذ يكون هو الْكَفِيلُ ، والضامن لمن قال هذا الذِّكر بدخول الجنة .

– فضل هذا الذِّكر وأنه من أسباب دخول الجنة .

٢٤ – عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ عَطَاءٍ ، قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لِسَوْدَةَ [١] :
" سَبِّحِي اللَّهَ [٢] كُلَّ غَدَاةٍ [٣] عَشْرًا [٤] ، وَكَبِّرِي [٥] عَشْرًا ، وَاحْمَدِي [٦] عَشْرًا ، وَقُولِي : اغْفِرْ لِي [٧] عَشْرًا ، فَإِنَّهُ يَقُولُ [٨] : قَدْ فَعَلْتُ [٩] قَدْ فَعَلْتُ "

(أخرجه ابن أبي شَيْبَة في المصَنّف ، السلسلة الصحيحة شاهدًا لحديث / ٣٣٣٨ ، قال الألباني : صحيح مُرْسَل) .

المعنى الإجمالي

في هذا الحديث يَحثُّ النَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أمَّ المؤمنين سَوْدَة بنت زمعة – رَضِيَ اللَّهُ عَنْها – على أن تُسبِّح الله وتُكبِّره وتحمده عشر مرات لكل ذِكر ، وكذا أن تدعوا الله أن يغفر لها عشر مرات ، وذلك كل صباح ، فإذا فعلت ذلك يقول الله قد فعلت ؛ أي قد غفرت ، وليس ذلك خاصًّا بها ، وإنما هو تعليم للأمة بأسرها .

معاني الكلمات

(١) لِسَوْدَةِ : هي سَوْدَةُ بِنْتُ زَمْعَةَ بْنِ قَيْسِ بْنِ عَبْدِ شَمْسِ بْنِ عَبْدِ وُدِّ بْنِ نَصْرِ بْنِ مَالِكِ بْنِ حَسَلِ بْنِ عَامِرِ بْنِ لُؤَيِّ بْنِ غَالِبِ بْنِ فِهْرٍ ، أم المؤمنين – رَضِيَ اللَّهُ عَنْها – ، تَزَوَّجَهَا النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بِمَكَّةَ بَعْدَ مَوْتِ خَدِيجَةَ ، وَبَعْدَ أَنْ عَقَدَ عَلَى عَائِشَةَ ، وَكَانَتْ تَحْتَ ابْنِ عَمٍّ لَهَا ، يُقَالُ لَهُ : سَكْرَانُ بْنُ عَمْرٍو مِنْ بَنِي عَامِرِ بْنِ لُؤَيٍّ ، أخو سُهَيل بن عَمْرٍو ، توفي عنها فتزوجها رسول الله – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وكانت أول امرأة تزوجها بعد خديجة رواه ابن إسحاق وأخرج ابن سعد بسند مُرسل رجاله ثقات قال : جَاءَتْ خَوْلَةُ بِنْتُ حَكِيمِ بْنِ الأَوْقَصِ السُّلَمِيَّةُ امْرَأَةُ عُثْمَانَ بْنِ مَظْعُونٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَقَالَتْ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، كَأَنِّي أَرَاكَ قَدْ دَخَلَتْكَ خَلَّةٌ لِفَقْدِ خَدِيجَةَ فَقَالَ : أَجَلْ ، كَانَتْ أُمَّ الْعِيَالِ وَرَبَّةَ الْبَيْتِ قَالَتْ : أَفَلا أَخْطِبُ عَلَيْكَ ؟ قَالَ : بَلَى ، فَإِنَّكُنَّ مَعْشَرَ النِّسَاءِ أَرْفَقُ بِذَلِكَ فَخَطَبْتُ عَلَيْهِ سَوْدَةَ بِنْتَ زَمْعَةَ مِنْ بَنِي عَامِرِ بْنِ لُؤَيٍّ وَخَطَبْتُ عَلَيْهِ عَائِشَةَ بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ فَتَزَوَّجَهَا فَبَنَى بِسَوْدَةَ بِمَكَّةَ وَعَائِشَةُ يَوْمَئِذٍ بِنْتَ سِتِّ سِنِينَ ، حَتَّى بَنَى بِهَا بَعْدَ ذَلِكَ حِينَ قَدِمَ الْمَدِينَةَ ، وقال ابن أبي خيثمة توفيت سَوْدَةُ بِنْتُ زَمْعَةَ في آخر زمان عمر بن الخطاب – رَضِيَ اللَّهُ عَنْه – ويقال تُوُفِّيَتْ سَوْدَةُ بِنْتُ زَمْعَةَ بِالْمَدِينَةِ فِي شَوَّالٍ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَخَمْسِينَ فِي خِلافَةِ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْه – ، ورجحه الواقدي .

(٢) سَبِّحِي اللَّهَ : أي قولي : سبحان الله ، أَيِ : الْمُنَزَّهُ عَنْ كُلِّ عَيْبٍ وَآفَةٍ ، وتَنْزِيهُهُ عَمَّا لَا يَلِيقُ بِهِ مِنْ نَقْصٍ فَيَلْزَمُ مِنْهُ نَفْيُ الشَّرِيكِ وَالصَّاحِبِ وَالْوَلَدِ وَجَمِيعِ مَا لَا يَلِيقُ .

وأما معنى (سُبْحَانَ) ؛ فيقول علماء فقه اللغة : الأصل في وضع الألفاظ للمعاني الأشياء المحسوسة الملموسة ، ثم ينتقل بها إلى المعنويات ، نعلم أن سبحان الله هو تنزيه الله عما لا يليق بجلاله ، ومادة (سُبْحَانَ) أصلها من سَبَحَ ، وسبح المحسوس الذي يسبح في الماء ، ولماذا يسبح الإنسان في الماء ؟ لئلا يغرق ، فكذلك المسبّح لله ؛ لئلا يغرق في بحار الشرك ، ولينزه الله ويبعده عما لا يليق بجلاله كما يُبعد نفسه عن مهالك الغرق .

(٣) كُلَّ غَدَاةٍ : أَي بَعْدَ صلاةِ الفَجْرِ ، غَدَاةٍ : أَيْ : صَبَاحٍ ، أَوْ كُلَّ يَوْمٍ ، وَفِي المِصْباح : الغَداةُ الضّحْوَةُ ، وَهِي مُؤَنَّثَة . قالَ ابنُ الأَنْبارِي : وَلَم يُسْمَع تَذْكِيرها ، وَلَو حَمَلَها حامِلٌ على مَعْنى أَوَّل النَّهارِ جازَ لَهُ التَّذْكِير ؛ وقولُه تَعَالَى : (بالغَدَاةِ والعَشِيّ) ؛ أَي بَعْدَ صلاةِ الفَجْرِ وصَلاةِ العَصْر .

(٤) عَشْرًا : أي تكرر قول سبحان الله عشر مرات .

(٥) وَكَبِّرِي عَشْرًا : أي قولي : اللَّهُ أَكْبَرُ : أَيْ : أَكْبَرُ مِنْ أَنْ يُعْرَفَ كُنْهُ كِبْرِيَائِهِ وَعَظَمَتِهِ ، أَوْ مِنْ أَنْ يُنْسَبَ إِلَيْهِ مِمَّا لَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ ، أَوْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، وكرري هذا القول عشر مرات .

(٦) وَاحْمَدِي : أي قولي : الْحَمْدُ لِلَّهِ : والْحَمْدُ : عرَّفه شيخ الإسلام فقال : هو الإخبار عن صفة المحمود على وجه المحبة والتعظيم ، فلا بدّ من اجتماع شيئين :

١ – الإخبار عن صفات المحمود . ٢ – على وجه المحبة وتعظيم .

والْحَمْدُ ثَابِتٌ لَهُ حُمِدَ أَوْ لَمْ يُحْمَدْ ، أَوْ لَهُ الْحَامِدِيَّةُ وَالْمَحْمُودِيَّةُ ، فَهُوَ الْحَامِدُ ، وَهُوَ الْمَحْمُودُ ، وَله حمد أهل السَّمَوَات وَالْأَرْض ، وَجَمِيع أَصْنَاف المحامد الَّتِي بالأعيان والأعراض ، بِنَاء على أَن الْألف وَاللَّام لاستغراق الْجِنْس عندنَا ، وَلما كَانَ الله مَالك الْملك كُله اسْتحق أَن تكون جَمِيع المحامد لَهُ دون غَيره ، فَلَا يجوز أَن يُحمَد غَيره .

(٧) اغْفِرْ لِي : غَفَرَ : أَي سَتر الله ذنوبه وَلم يَفْضَحهُ بهَا على رُؤُوس الْمَلأ . وكلُّ شَيْء سترتَه فقد غفرتَه ، وأصل الغفر التَّغْطِيَةُ وَالسَّتْرُ وهو ستر الشيء ، بما يصونه ، فالله غافر لذنوب عباده ساتر لها بترك العقوبة عليها ، ومعناه أنه يستر القبائح والذنوب ، بإسبال الستر عليها في الدنيا ، وترك المؤاخذة بالعفو عنها في العقبى ، ويصون العبد من أوزارها .

(٨) فَإِنَّهُ يَقُولُ : فيه إثبات صفة الكلام لله عز وجل وقد تقدَّم في حديث أُمِّ المؤمنين جُوَيْرِيَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهَا – أَنَّ النَّبِيَّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – خَرَجَ مِنْ عِنْدِهَا بُكْرَةً حِينَ صَلَّى الصُّبْحَ ... " عند شرح " وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ " .

(٩) قَدْ فَعَلْتُ : وهو إخبار من الله تعالى أنَّه أجاب تلك الدعوات ، أن قد فعلت وغفرت .

ما يستفاد من الحديث

(قَالَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لِسَوْدَةِ)

– حرص النَّبِيّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على تعليم أهله والأمة .

– حسن عشرة النَّبِيّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لأهله .

– محبة الخير لأهله وللأمة .

(سَبِّحِي اللَّهَ)

– فضل وأهمية التسبيح .

– التأكيد على الذِّكر به صباحًا ومساءً .

– الحث على أن يبدأ اليوم به .

(كُلَّ غَدَاةٍ)

– فضل المحافظة والمداومة على الأذكار ، وأنها من أسباب الوقاية والفلاح .

– استفتاح اليوم بذكر الله .

– فضل وأهمية أذكار الصباح .

– حرص النَّبيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على الطاعة .
– مداومة النَّبيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على الأذكار .
– التأكيد على عبادة الوقت ، وهي أن كل عبادة في وقتها هي الأفضل .
– الحثّ على مداومة الذِّكر .
– أهمية أن يكون بداية اليوم بذكر الله .
– التأكيد على الذِّكر بها صباحًا .

(عَشْرًا)

– مشروعية ذكرِ الله بأعداد معينة .
– مشروعية التكرار والإلحاح بالدعاء .

(وَكَبِّرِي عَشْرًا)

– فضل وأهمية التكبير .
– التأكيد على الذِّكر به صباحًا ومساءً .
– الحث على أن يبدأ اليوم به .

(وَاحْمَدِي عَشْرًا)

– فضل وأهمية التحميد .
– التأكيد على الذِّكر به صباحًا ومساءً .
– الحث على أن يبدأ اليوم به .

(وَقُولِي : اغْفِرْ لِي عَشْرًا)

– طلب المغفرة ممن يملكها وحده .
– أهمية طلب المغفرة وأنها من أعلى وأغلى المطالب .
– ختم الأعمال الصالحة بالدعاء ومنه طلب المغفرة .

(فَإِنَّهُ يَقُولُ)

– إثبات صفة الكلام لله ومنه القول .
– سرعة استجابة الله للعبد .

(قَدْ فَعَلْتُ قَدْ فَعَلْتُ)

– كرم الله واستجابته لسؤال العبد .

– الأعمال الصالحة سبب في إجابة الدعاء .

مُقَيَّد بالمساء أو الليل

٢٥- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – أَنَّهُ قَالَ : جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ مَا لَقِيتُ (١) مِنْ عَقْرَبٍ (٢) لَدَغَتْنِي (٣) الْبَارِحَةَ (٤) ، قَالَ : " أَمَا (٥) لَوْ (٦) قُلْتَ ، حِينَ أَمْسَيْتَ (٧) : أَعُوذُ (٨) بِكَلِمَاتِ اللهِ (٩) التَّامَّاتِ (١٠) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (١١) ، لَمْ تَضُرَّكَ (١٢) " (م / ٢٧٠٩) .

المعنى الإجمالي

جَاءَ أحد الصحابة إِلَى النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يشتكي مِنْ عَقْرَبٍ لَدَغَتْه ، فأرشده النَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – إلى هذا الذِّكر العظيم ، والذي فيه الاعتصام والتحصُّن بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ خلقه ومن سائر المؤذيات من الخلق ، ويعلمنا النَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أنَّ الذي يقول هذا الذِّكر العظيم ، يُحال بينه وبين الشرور والمؤذيات ، وتمنع من وقوعه وإن وقع لم يضره .

معاني الكلمات

(١) مَا لَقِيتُ : مَا اسْتِفْهَامِيَّةٌ أَيْ : أَيَّ شَيْءٍ لَقِيتُ ؟ أَيْ : وَجَعًا شَدِيدًا ، أَوْ لِلتَّعَجُّبِ أَيْ : أَمْرًا عَظِيمًا ، أَوْ مَوْصُولَةٌ وَالْخَبَرُ مَحْذُوفٌ أَيْ : الَّذِي لَقِيتُهُ لَمْ أَصِفْهُ لِشَدَّتِهِ ، وَالْمَعْنَى لَقِيتُ شِدَّةً عَظِيمَةً .

(٢) عَقْرَبٍ : (الْعَقْرَب) دُوَيْبَة من العَنْكَبيات ذَات سُمّ تَلْسَع ، (الْعَقْرَبُ) مُؤَنَّثَةٌ ، وَالْأُنْثَى (عَقْرَبَةٌ) وَ (عَقْرَبَاءُ) مَفْتُوحٌ مَمْدُودٌ غَيْرُ مَصْرُوفٍ ، وَالذَّكَرُ (عُقْرُبَانٌ) بِضَمِّ الْعَيْنِ وَالرَّاءِ ، وَرُبَّمَا قِيلَ عَقْرَبَةٌ بِالْهَاءِ لِلْأُنْثَى قَالَ الشَّاعِرُ :

كَأَنَّ مَرْعَى أُمِّكُمْ إِذْ غَدَتْ ... عَقْرَبَةٌ يَكُومُهَا عُقْرُبَانُ

فَجَمَعَ بَيْنَ اسْمِ الذَّكَرِ الْخَاصِّ وَأَنَّثَ الْمُؤَنَّثَةَ بِالْهَاءِ .

(٣) لَدَغَتْنِي : قَالَ ابْنُ حَجَرٍ – رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى – لَدَغَتْنِي بِالذَّالِ الْمُصَحَّحَةِ وَالْغَيْنِ الْمُصَحَّحَةِ وَلَذَغَتْنِي النَّارُ بِالْمُعْجَمَةِ ثُمَّ الْمُهْمَلَةِ .اهـ . وَهُوَ مُخَالِفٌ لِلنُّسَخِ الْمُصَحَّحَةِ وَالْأُصُولِ الْمُعْتَمَدَةِ فَإِنَّهُ مَضْبُوطٌ بِالدَّالِ الْمُهْمَلَةِ وَالْغَيْنِ الْمُصَحَّحَةِ وَهُوَ الْمُوَافِقُ لِمَا فِي كُتُبِ اللُّغَةِ كَالْقَامُوسِ وَالنِّهَايَةِ ، وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ سَهْوَ قَلَمٍ مِنْ صَاحِبِ الْكِتَابِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ .

– قلت : (والقائل / عماد) : فائدة في الفرق بين اللَّسْع واللَّدْغ :

قَالَ اللَّيْثُ اللَّسْعُ لِلْعَقْرَبِ تَلْسَعُ بِالْحُمَةِ وَيُقَالُ إِنَّ الْحَيَّةَ أَيْضًا تَلْسَعُ ، وَزَعَمَ أَعْرَابِيٌّ أَنَّ مِنَ الْحَيَّاتِ مَا يَلْسَعُ بِلِسَانِهِ كَلَسْعِ الْعَقْرَبِ بِالْحُمَةِ وَلَيْسَتْ لَهُ أَسْنَانٌ ، أَوِ اللَّسْعُ لِذَوَاتِ الْإِبَرِ مِنَ الْعَقَارِبِ وَالزَّنَابِيرِ ، وَأَمَّا الْحَيَّاتُ فَإِنَّهَا تَنْهَشُ وَتَعَضُّ وَتَجْذِبُ ، وَقَالَ اللَّيْثُ وَيُقَالُ اللَّسْعُ لِكُلِّ مَا ضَرَبَ بِمُؤَخَّرَةٍ وَاللَّدْغُ بِالْفَمِ انْتَهَى مُخْتَصَرًا .

الفرق بينهما أن اللدغ : يقال لما يَضرِب بفيه كالحيَّة . ومنه قول بعض الرجاز .

إن العجوز حين شاب صدغها كالحيَّة الصماء طال لدغها

واللسع : يقال لكل ما يضرب بمؤخّره كالزنبور والعقرب قَالَ أَبُو ذُؤَيْب :

إذا لسَعَتْهُ النحْل لم يَرْجُ لَسْعَتَها وحَالَفها فِي بَيْتِ نُوبٍ عَوامِل

قال الحريري : وأكثر أهل اللغة لم يُفرّقوا بينهما .

(٤) الْبَارِحَةَ : أَيِ : اللَّيْلَةَ الْمَاضِيَةَ .

(٥) أَمَا : (أَمَا) – بفتح الهمزة وخفة الميم – لِلتَّنْبِيهِ .

(٦) لَوْ : – قلت : (والقائل / عماد) : فائدة في (لو) :

قال الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد في معجم المناهي اللفظية : (لو) حرف امتناع لامتناع ، بخلاف : (لولا) فهي حرف امتناع للوجود وتأتي : (لو) لمعانٍ وأغراض أخرى ، منها : التمني ، والعَرْض ، والطلب ، والحضّ ، والتعليل .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – :

" الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ ، خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجَزْ ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ ، فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا ، وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ " (م / ٢٦٦٤) ومن كمال التوحيد الاستسلام لقضاء الله وقدره ، واللو : تَحسُّر يُوحي بمنازعة للقدر ، والله المستعان ، واستثنى العلماء من ذلك جواز (لو) في الأُمور الشرعية التي لم تمكنه ؛ لأنه من باب تمني الخير وفعله ، وعليه عقد البخاري في (الصحيح) : (باب ما يجوز من اللو) . وجوازها فيما يُستقبل مثل :

لو اشتريت كذا فأنا شريكك .

وقال الشيخ العثيمين في القول المفيد على كتاب التوحيد : (لو) تستعمل على عدة أوجه :

الوجه الأول : أن تستعمل في الاعتراض على الشرع ، وهذا مُحرَّم ، قال الله تعالى : (لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا) في غزوة أحد حينما تخلَّف أثناء الطريق عبد الله بن أُبيّ في نحو ثلث الجيش ، فلما استُشهد من المسلمين سبعون رجلًا اعترض المنافقون على تشريع الرسول – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، وقالوا : لو أطاعونا ورجعوا كما رجعنا ما قُتِلوا ، فرأْيُنا خيرٌ من شرع محمد ، وهذا مُحرَّم وقد يصل إلى الكفر .

الثاني : أن تستعمل في الاعتراض على القدر ، وهذا مُحرَّم أيضًا ، قال الله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزّىً لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا) أي : لو أنهم بقوا ما قتلوا ؛ فهم يعترضون على قدر الله .

الثالث : أن تستعمل للندم والتحسُّر ، وهذا مُحرَّم أيضًا ؛ لأن كل شيء يفتح الندم عليك فإنه منهي عنه ؛ لأن الندم يُكسب النفس حُزنًا وانقباضًا ، والله يريد مِنَّا أن نكون في انشراح وانبساط ، قال – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – :

" احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجَزْ ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ ، فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا ، وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ " (م / ٢٦٦٤) مثال ذلك : رجل حرص أن يشتري شيئًا يظن أن فيه ربحًا فخسر ، فقال : لو أني ما اشتريته ما حصل لي خسارة ؛ فهذا ندم وتحسر ، ويقع كثيرًا ، وقد نُهي عنه .

الرابع : أن تستعمل في الاحتجاج بالقدر على المعصية ؛ كقول المشركين : (لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا) وقولهم : (لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ) وهذا باطل .

الخامس : أن تستعمل في التَّمنِّي ، وحكمه حسب المتمَنَّى : إن كان خيرًا فخير ، وإن كان شرًا فشر ، وفي الحديث عن النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – في قصة النفر الأربعة قال أحدهم : " لَوْ أَنَّ لِي مَالًا لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلانٍ فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ " فهذا تَمَنَّى خيرًا ، وقال الثاني : " لَوْ أَنَّ لِي مَالًا لَعَمِلْتُ فِيهِ بِعَمَلِ فُلانٍ فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَوِزْرُهُمَا سَوَاءٌ " ، فهذا تَمَنَّى شَرًّا . فقال النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – في الأول : " فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ " وقال في الثاني : " فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَوِزْرُهُمَا سَوَاءٌ " . (صحيح الترمذي / ٢٣٢٥) .

السادس : أن تستعمل في الخبر المحض . وهذا جائز ، مثل : لو حضرت الدرس لاستفدت ، ومنه قوله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – " فَلَوِ اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبَرْتُ مَا أَهْدَيْتُ " (خ / ١٦٥١ ، م / ١٢١١) فأخبر النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أنه لو علم أن هذا الأمر سيكون من الصحابة ما ساق الهَدْي ولأَحَلّ ، وهذا هو الظاهر لي . وبعضهم قال : إنه من باب التمني ، كأنه قال : ليتني استقبلت من أمري ما استدبرت حتى لا أسوق الهَدْي . لكن الظاهر : أنه خبر لما رأى من أصحابه ، والنبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لا يتمنى شيئًا قدَّر الله خلافه .

(٧) حِينَ أَمْسَيْتَ : أي : دخلت في المساء .

(٨) أَعُوذُ : أعتصم وأتحصَّن وألجأ ، والاستعاذة : من العوذ وهي طلب العوذ ، العوذ : الالتجاء والتحصن : أي : طلب ما يَحمِي من المكروه ، الاستعاذة : طلب الإعاذة والإعاذة الحماية من مكروه فالمستعيذ محتمٍ بمن استعاذ به ومُعتصم به . والْعَوْذُ : اللَّجْأُ إِلَى شَيْءٍ يَقِي مَنْ يَلْجَأُ إِلَيْهِ مَا يَخَافُهُ ، يُقَالُ : عَاذَ بِفُلَانٍ ، وَعَاذَ بِحِصْنٍ ، وَيُقَالُ : اسْتَعَاذَ ، إِذَا سَأَلَ غَيْرَهُ أَنْ يُعِيذَهُ قَالَ تَعَالَى : (فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) (الْأَعْرَاف / ٢٠٠) .

وَعَاذَ مِنْ كَذَا ، إِذَا صَارَ إِلَى مَا يُعِيذُهُ مِنْهُ قَالَ تَعَالَى : (فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ) (النَّحْل / ٩٨) .

– فائدة في الاستعاذة :

س : ما أنواع الاستعاذة ؟ مع بيان الجائز منها وغير الجائز ؟

ج : قال الشيخ محمد بن صالح العثيمين في (شرحه / ٥٩) :

(الاستعاذة أنواع : الأول : الاستعاذة بالله تعالى وهي المتضمنة لكمال الافتقار إليه والاعتصام به واعتقاد كفايته وتمام حمايته من كل شيء حاضر أو مستقبل ، صغير أو كبير ، بشر أو غير بشر ودليلها قوله تعالى : (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِن شَرِّ مَا خَلَقَ) إلى آخر السورة وقوله تعالى : (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاس) إلى آخر السورة .

الثاني : الاستعاذة بصفة ، ككلام الله وعظمته وعزته ونحو ذلك ودليل ذلك قوله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ " (م / ٧٠٥٣) وقوله : " أَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي " (صحيح أبي داود / ٥٠٧٤) وقوله : في دعاء الألم " أَعُوذُ بِعِزَّةِ اللهِ وَقُدْرَتِهِ ، مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَاذِرُ " (صحيح ابن ماجة / ٣٥٢٢) ، وقوله : " أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ " (م / ١١١٨) ، وقوله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – حين نزل قوله تعالى : (قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ) (الأنعام / ٦٥) .

فقال : " أَعُوذُ بِوَجْهِكَ " (خ / ٤٦٢٨) .

الثالث : الاستعاذة بالأموات أو الأحياء غير الحاضرين القادرين على العوذ فهذا شرك ، ومنه قوله تعالى :

(وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا) (الجن / ٦) .

الرابع : الاستعاذة بما يمكن العوذ به من المخلوقين من البشر أو الأماكن أو غيرها فهذا جائز ودليله قوله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – في ذكر الفتن : " مَنْ تَشَرَّفَ لَهَا تَسْتَشْرِفْهُ فَمَنْ وَجَدَ فِيهَا مَلْجَأً ، أَوْ مَعَاذًا فَلْيَعُذْ بِهِ "

(خ / ٧٠٨١ ، م / ٧٤٢٩) وقد بيَّن – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – هذا الملجأ والمعاذ بقوله : " فَمَنْ كَانَ لَهُ إِبِلٌ فَلْيَلْحَقْ بِإِبِلِهِ " (م / ٧٤٣٢) ، وفي صحيحه أيضًا عن جابر – رَضِيَ اللَّهُ عَنْه – " أَنَّ امْرَأَةً مِنْ بَنِي مَخْزُومٍ سَرَقَتْ فَأُتِيَ بِهَا النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَعَاذَتْ بِأُمِّ سَلَمَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ " (م / ٤٥٠٨) الحديث ، وفي صحيحه أيضًا عن أُمِّ سَلَمَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا – عن النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قال : " يَعُوذُ عَائِذٌ بِالْبَيْتِ فَيُبْعَثُ إِلَيْهِ بَعْثٌ " (م / ٧٤٢١) الحديث . ولكن إن استعاذ من شر ظالم وجب إيواؤه وإعاذته بقدر الإمكان ، وإن استعاذ ليتوصل إلى فعل محظور أو الهرب من واجب حرم إيواؤه .

ويمكن تلخيص حكمها إلى :

١ – إستعاذة شركية : كأن يستعيذ بغير الله مما لا يقدر عليه إلا الله .

٢ – غير شركية : ما دون الشركية ، وهي مراتب منها أن يستعيذ بذي سلطان وغيره .

(٩) بِكَلِمَاتِ اللهِ : فيه إثبات صفة الكلام لله ، وتقدَّم الكلام عنها في الحديث قبله .

(١٠) التَّامَّاتِ : الكاملة التي لا يدخلها نقص ولا عيب كما يدخل كلام البشر . وقيل : التامة : النافعة الشافية ، وقيل : الكلمات هنا : القرآن .

(١١) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ : أي من شر خلقه وهو ما يفعله المكَلَّفون من إثم ومضارة بعضهم لبعض من نحو ظلم وبغي وقتل وضرب وشتم وكذا من نحو لدغ ونهش وعض ، و(ما) عام يدخل فيه سائر المؤذيات من الخلق ، ومنه الهوى والشهوات.

– فائدة في (من شر ما خلق) – إشكال وشُبْهَة ، والردّ عليها :

س : هل في مخلوقات الله شر ؟ أو هل يخلق الله الشر ؟ وهل يضاف الشر إلى الله ، وهل يجوز أن يقال عن الله (بيده الخير والشر) ، وهل من الأسماء الحسنى ما يتضمن الشر ،

وكيف نجمع بين (من شر ما خلق) وبين (وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ) (م / ٧٧١) .

ج : لَا يَخْلُقُ اللَّهُ شَرًّا مَحْضًا وَلِهَذَا كَانَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يَقُولُ فِي الِاسْتِفْتَاحِ :

" وَالْخَيْرُ كُلُّهُ بِيَدَيْكَ ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ " (م / ٧٧١) . أَيْ : فَإِنَّكَ لَا تَخْلُقُ شَرًّا مَحْضًا ، بَلْ كُلُّ مَا يَخْلُقُهُ فَفِيهِ حِكْمَةٌ ، هُوَ بِاعْتِبَارِهَا خَيْرٌ ، وَلَكِنْ قَدْ يَكُونُ فِيهِ شَرٌّ لِبَعْضِ النَّاسِ ، فَهَذَا شَرٌّ جُزْئِيٌّ إِضَافِيٌّ ، فَأَمَّا شَرٌّ كُلِّيٌّ ، أَوْ شَرٌّ مُطْلَقٌ – : فَالرَّبُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُنَزَّهٌ عَنْهُ . وَهَذَا هُوَ الشَّرُّ الَّذِي لَيْسَ إِلَيْهِ .

وَلِهَذَا لَا يُضَافُ الشَّرُّ إِلَيْهِ مُفْرَدًا قَطُّ ، بَلْ إِمَّا أَنْ يَدْخُلَ فِي عُمُومِ الْمَخْلُوقَاتِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : (اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ) (الزُّمَر / ٦٢) (كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ) (النِّسَاء / ٧٨) ، وَإِمَّا أَنْ يُضَافَ إِلَى السَّبَبِ ، كَقَوْلِهِ : (مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ) (الْفَلَق / ٢) وَإِمَّا أَنْ يُحْذَفَ فَاعِلُهُ ، كَقَوْلِ الْجِنِّ : (وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا)

(الْجِنّ / ١٠) وَلَيْسَ إِذَا خَلَقَ مَا يَتَأَذَّى بِهِ بَعْضُ الْحَيَوَانِ لَا يَكُونُ فِيهِ حِكْمَةٌ ، بَلْ لِلَّهِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَالْحِكْمَةِ مَا لَا يُقَدِّرُ قَدْرَهُ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى ، وَلَيْسَ إِذَا وَقَعَ فِي الْمَخْلُوقَاتِ مَا هُوَ شَرٌّ جُزْئِيٌّ بِالْإِضَافَةِ يَكُونُ شَرًّا كُلِّيًّا عَامًّا ، بَلِ الْأُمُورُ الْعَامَّةُ الْكُلِّيَّةُ لَا تَكُونُ إِلَّا خَيْرًا أَوْ مَصْلَحَةً لِلْعِبَادِ ، كَالْمَطَرِ الْعَامِّ ، وَكَإِرْسَالِ رَسُولٍ عَامٍّ .

وَهَذَا مِمَّا يَقْتَضِي أَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يُؤَيِّدَ كَذَّابًا عَلَيْهِ بِالْمُعْجِزَاتِ الَّتِي أَيَّدَ بِهَا الصَّادِقِينَ ، فَإِنَّ هَذَا شَرٌّ عَامٌّ لِلنَّاسِ ، يُضِلُّهُمْ ، فَيُفْسِدُ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَدُنْيَاهُمْ وَأُخْرَاهُمْ .

فمثلًا ، نحن نجد في المخلوقات المقدورات شرًا ، ففيها الحيات والعقارب والسباع والأمراض والفقر والجدب وما أشبه ذلك ، وكل هذه بالنسبة للإنسان شر ، لأنها لا تلائمه ، وفيها أيضًا المعاصي والفجور والكفر والفسوق والقتل وغير ذلك ، وكل هذه شر ، لكن باعتبار نسبتها إلى الله هي خير ، لأن الله عز وجل لم يقدرها إلا لحكمة بالغة عظيمة ، عرفها من عرفها وجهلها من جهلها .

وعلى هذا يجب أن تعرف أن الشر الذي وصف به القدر (وتؤمن بالقدر خيره وشره) إنما هو باعتبار المقدورات والمفعولات ، لا باعتبار التقدير الذي هو تقدير الله وفعله .

ثم اعلم أيضًا أن هذا المفعول الذي هو شر قد يكون شرًا في نفسه ، لكنه خير من جهة أخرى ، قال الله تعالى : (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) (الروم / ٤١) ، النتيجة طيبة ، وعلى هذا فيكون الشر في هذا المقدور شرًا إضافيًا يعنى : لا شرًا حقيقيًا ، لأن هذا ستكون نتيجته خيرًا .

ولنفرض حد الزاني مثلًا إذا كان غير محصن أن يجلد مئة جلدة ويسفَّر عن البلد لمدة عام ، هذا لا شك أنه شر بالنسبة إليه ، لأنه لا يلائمه ، لكنه خير من وجه آخر لأنه يكون كفارة له ، فهذا خير ، لأن عقوبة الدنيا أهون من عقوبة الآخرة ، فهو خير له ، ومن خيره أنه ردع لغيره ونكال لغيره ، فإن غيرَه لو هَمَّ أن يَزني وهو يعلم أنه سَيُفعَل به مثل ما فُعِل بهذا ، ارتدع ، بل قد يكون خيرًا له هو أيضًا ، باعتبار أنه لن يعود إلى مثل هذا العمل الذي سبب له هذا الشيء .

كذلك قطع يد السارق لا شك أنه شر عليه ، لكنه خير بالنسبة له وبالنسبة لغيره ، أما بالنسبة له ؛ فلأن قطعها يسقط عنه العقوبة في الآخرة وعذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة ، وهو أيضًا خير في غير السارق ؛ فإن فيه ردعًا لمن أراد أن يسرق ، وفيه أيضًا حفظ للأموال ؛ لأن السارق إذا عرف أنه إذا سرق ستقطع يده ؛ امتنع من السرقة ، فصار في ذلك حفظ لأموال الناس ، ولهذا قال – أبو العلاء المعرّي – :

يدٌ بِخمْس مِئينَ عَسْجدٍ وُدِيَتْ ... مَا بالُهَا قُطعتْ فِي رُبعِ دِينارِ

تَناقضٌ مَا لنا إِلَّا السُّكوتُ لهُ ... وَأنْ نَعُوذَ بِمولانا منَ النَّار

لكنه أجيب في الرد عليه ردًّا مفحمًا ؛ فقيل فيه :

قل للمعري عار أيما عاري ... جهل الفتى وهو من ثوب التُّقَى عاري

يد بخمس مئين عسجدا وديت ... لكنها قطعت في ربع دينار

حماية النفس أغلاها ، وأرخصها ... حماية المال فافهم حكمة الباري

وأجاب أيضًا شمس الأئمة الكردري :

قل للمعرّي عار أيّما عار ... جهل الفتى وهو عن ثوب التّقى عاري

لا تقدحنّ زناد الشعر من حِكَم ... شعائر الشرع لم تقدح بأشعار

فقيمة اليد نصف الألف من ذهب ... ولو تعدّت فلا تسوى بدينار

وأَجَابَهُ علم الدّين السخاوي بقوله

(عِزُّ الأمانةِ أغْلاها ، وَأرْخصها ... ذُلُّ الخِيانةِ فافْهمْ حِكمةَ الْباري)

وأجيب عنه :

هناك مظلومة عزّت بقيمتها ... وههنا ظَلَمت هانت على الباري

أما بالنسبة للأمور الكونية القدرية ، فهناك شيء يكون شرًا باعتباره مقدورًا ، كالمرض مثلًا ، فالإنسان إذا مرض ، فلا شك أن المرض شر بالنسبة له ، لكن فيه خير له في الواقع ، وخيره تكفير الذنوب ، قد يكون الإنسان عليه ذنوب ما كفَّرها الاستغفار والتوبة ، لوجود مانع ، مثلًا لعدم صدق نيته مع الله عز وجل فتأتي هذه الأمراض والعقوبات ، فتكفر هذه الذنوب .

ومن خيره أن الإنسان لا يعرف قدر نعمة الله عليه بالصحة ، إلا إذا مرض ، نحن الآن أصحاء ولا ندري ما قدر الصحة لكن إذا حصل المرض ، عرفنا قدر الصحة فالصحة تاج على رؤوس الأصحاء لا يعرفها إلا المرضى .. هذا أيضًا خير ، وهو أنك تعرف قدر النعمة .

ومن خيره أنه قد يكون في هذا المرض أشياء تقتل جراثيم في البدن لا يقتلها إلا المرض ، يقول الأطباء : بعض الأمراض المعينة تقتل هذه الجراثيم التي في الجسد وأنك لا تدري .

فالحاصل أننا نقول :

أولًا : الشر الذي وصف به القدر هو شر بالنسبة لمقدور الله ، أما تقدير الله ، فكله خير والدليل قول النبي صلى الله عليه وسلم " والشر ليس إليك " .

ثانيًا : أن الشر الذي في المقدور ليس شرًا محضًا بل هذا الشر قد ينتج عنه أمور هي خير ، فتكون الشرية بالنسبة إليه أمرًا إضافيًا .

قال ابن القيم : فتبارك وتعالى عن نسبة الشر إليه ، بل كلُّ ما نُسب إليه فهو خير ، والشر إنما صار شرًا لانقطاع نسبته وإضافته إليه ؛ فلو أضيف إليه لم يكن شرًا ، وهو – سبحانه – خالق الخير والشر ؛ فالشر في بعض مخلوقاته لا في خلقِه وفِعْلِه .

وخلقُه وفعلُه ، وقضاؤه وقدره خير كله ؛ ولهذا تنزه – سبحانه – عن الظلم الذي حقيقته وضع الشيء في غير موضعه ؛ فلا يضع الشيء في غير محلّه ؛ فإذا وُضِع في محله لم يكن شرًا ؛ فعُلِم أن الشر ليس إليه ، وأسماؤه الحسنى تشهد بذلك .

(للمزيد يراجع / شفاء العليل ، وبدائع الفوائد ، والتفسير القيّم) .

– والقدرية تقول ما خلق الله شرًا كما يقول المجوس ولهذا جاء في حديث ابْنِ عُمَرَ ، عَنِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ : " الْقَدَرِيَّةُ مَجُوسُ هَذِهِ الْأُمَّةِ " (صحيح أبي داود / ٤٦٩١) وذلك أن من المجوس من يقول بالتثنية فيقولون للعالَم إلاهان أحدهما يَخلُق الخير والأنوار وهو الرحمن ، والآخر يَخلق الشر والظلمة وهو الشيطان ، وأنهما اختلفا ثم تهادنا إلى وقت مخصوص معلوم يعبرون عنه بالقيامة ، ويُسمُّون بالثنوية والمانوية ، يُنسَبون إلى ماني المجوسي الذي كان في زمان كسرى ، وهم الذين عناهم المتنبي بقوله

وكمْ لِظَلامِ اللَّيلِ عِندَكَ مِن يَدٍ ... تُخَبّرُ أنَّ المَانَوِيَّةَ تَكذِبُ

وَقَاكَ رَدَى الأعداءِ تَسْري إلَيْهِمُ وَزَارَكَ فيهِ ذو الدّلالِ المُحَجَّبُ

فالمتنبي يقول : إنك تعطي في الليل العطايا الكثيرة التي تدل على أن المانوية تكذب ، لأن ليلك يأتي بخير .

و تفعل الخيرات في ظلام الليل وتنال الظفر بأعدائك في الليل ومن مذهب الثنوية أن الظلام ليس فيه ولا عنده خير وأنت أيها الممدوح قد نُصرت على أعدائك ونلت المطلوب من مرادك في ظلام الليل وهذه الأحوال تكذب المانوية الذين يقولون تلك المقالة ، وشر الشرور إبليس اللعين والله خالقه وبث الشر منه ، وقيل لقدري كيف يقول ما خلق الله شرا وهو سبحانه يقول (من شر ما خلق) فقال لست أقرؤها هكذا قيل له فكيف تقرؤها فقال (من شرٍ ما خلق) فينون شرا ويجعل ما نفيًا ، فتعجبوا يا أولي الألباب من هذا العجب العجاب يُفسدون القرآن ويُخالفون ربهم حتى يُصلحوا اعتقادهم ومذهبهم .

والشر الذي في المخلوقات لا يضاف إلى الله مفردًا أبدًا ؛ بل إما يدخل في عموم المخلوقات كقوله تعالى : (قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ) (النساء / ٧٨) ، وكقوله : (اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ) (الرعد / ١٦) ، يعني : الخير والشر .

وإما بصيغة البناء للمفعول ، كقوله تعالى عن الجن : (وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الأَرْضِ) (الجن / ١٠) ،

وإما أن يضاف إلى خلقه سبحانه ، كقوله تعالى : (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ) (الفلق / ٢) .

هذه الوجوه التي يعبر بها في إضافة الشر المخلوق .

وعلى هذا فلا ينبغي أن تقول : الله خالق الشر ، لكن قل : الله خالق كل شيء ، وهذا معنى التعبير بالعموم ، وقل : فلان أريد به السوء ، ولا تقل : أراد الله به .

وكذلك إذا أردت أن تخبر عن خلق الله للمخلوقات ، قل : الله خالق كل شيء ، الله خالق السماوات والأرض ومن فيهن ، ولا تقل : الله خالق الحشرات وخالق الكلاب ، أو : الله رب الكلاب ، هذا منكر ؛ بل قل : رب السماوات والأرض وما فيهن ، رب كل شيء ، هذا الذي فيه التعظيم ، كما تَمَدَّح سبحانه وتعالى بذلك (رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ) (المؤمنون / ٨٦) .

وهكذا في النفع والضر فلا تقل : الله هو الضار ؛ بل قل : الله هو النافع الضار ، وهذا من جنس الأول في التعبير بالعموم .

ومن هذا ما ذَكَر الله من قول إبراهيم عليه السلام : (فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ * الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ) (الشعراء / ٧٧ – ٨٠) ولم يقل : وإذا أمرضني شفاني ، وهذا من الأدب في الإخبار عن الله سبحانه وتعالى .

ومما يتعلق بهذا الجمعُ بين آيتي سورة النساء ، وهي قوله سبحانه وتعالى : (وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَذِهِ مِنْ عِندِ اللهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَذِهِ مِنْ عِندِكَ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ) (النساء / ٧٨) وقوله تعالى في الآية التي تليها : (مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ) (النساء / ٧٩) فظاهر الآية الأولى أن الحسنة والسيئة كلها من عند الله ، ومعنى أن الحسنة والسيئة من عند الله أنهما بمشيئته وتقديره وتدبيره ، وليس في تقديره شر سبحانه وتعالى ؛ بل حكمة وعدل .

وأما قوله تعالى : (مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ) (النساء / ٧٩)

فالمعنى : بسبب نفسك ، والحسنة والسيئة تطلق في القرآن إطلاقين :

١ – حسناتُ وسيئات الجزاء ، وهي : النعم والمصائب ، ومنه قوله تعالى :

(وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ) (الأعراف / ١٦٨) .

٢ – حسناتُ وسيئات الأعمال ، ومنه قوله تعالى : (إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ) (هود / ١١٤) .

وأما الحسنة والسيئة في الآيتين :

ففي الآية الأولى : النعمة والمصيبة .

وفي الثانية : كذلك على الصحيح ، وفسرت الحسنة بالنصر والخصب ، والسيئة بالهزيمة أو بالمصيبة وبالجدب وما أشبه ذلك ، فتكون الآية : (وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ) (النساء / ٧٩) من جنس (أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ) (آل عمران / ١٦٥) وقوله تعالى : (وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ) (الشورى / ٣٠) .

وكل ما وقع للإنسان من خير أو شر فهو مقدر من الله ، وإضافة الشر إلى القدر ليس معنى ذلك أن الشر يضاف إلى الله جل وعلا ولكنه يضاف إلى المفعولات وإلى المخلوقات ، وليست المفعولات أفعاله بل المفعول غير الفعل ، ففعل الله يوصف به ، ولكن المفعول هو المخلوق المحدث ، كما قال الله جل وعلا : (مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ) (الفلق / ٢)

يعني : من شر الذي خلقه ، فالشر في المخلوق ؛ لأن الشر يكون من مخالفة أمر الله وعدم امتثاله هذا هو مصدره ، أما الشيء الذي يفعله الله : خلقًا وإيجادًا وأمرًا فليس فيه شر وإنما فيه خير ، وله فيه حكمة وعدل ، ولهذا لا يكون شرًا ، والشر يكون إضافيًا ؛ ولهذا لم تأت إضافة الشر إلى الله جل وعلا في شيء من النصوص ، بل جاء نفي ذلك كما قال أعلم الخلق به صلوات الله وسلامه عليه : (وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ) (م / ٧٧١) ، يعني : لا نسبة ولا فعلًا فلا ينسب إليه ، وليس هو من أفعاله ، فأفعاله كلها خير ، وإنما الشر يكون بسبب فعل المخلوق ، ويكون ذلك داخلًا في تقديره تعالى وتقدس ؛ لأن كل شيء ملك له وتحت تصرفه .

– أقسام الشر في القرآن :

والشر في كتاب الله جل وعلا جاء على ثلاثة أقسام : القسم الأول : دخول الشر في عموم خلق الله جل وعلا :

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ) (الرعد / ١٦) ، يعني : الخير والشر .

فلم يأت أن الله خلق الشر أبدًا ، وإنما دخل في العموم : (اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ) .

القسم الثاني : أن الشر إذا جاء في كتاب الله حذف فاعله كما قال مؤمن الجن :

(وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا) (الجن / ١٠) ، ولما جاء الرَّشَد والخير أضافه إلى الله والشر حذف فاعله ؛ لأنه من المخلوق .

القسم الثالث : أن يضاف إلى المخلوق كقوله جل وعلا : (مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ) (الفلق / ٢) . وهذا هو الأدب الذي يجب أن يُسلك ؛ ولهذا يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ) (م / ٧٧١) ، يُنزِه ربه أن يكون الشر مضافًا إليه لا وصفًا ولا فعلًا .

قال ابن القيم – يرحمه الله – : قوله : (من شر ما خلق) ، أي : من كل شر في أي مخلوق قام به الشر من حيوان أو غيره ، إنسيًا كان أو جنيًا أو هامة أو دابة أو ريحًا أو صاعقة ، أو أي نوع من أنواع البلاء في الدنيا والآخرة .

و(ما) هنا موصولة وليس المراد بها العموم الإطلاقي ، بل المراد التقييدي الوصفي ، والمعنى : من شر كل مخلوق فيه شر ، لا من شر كل ما خلقه الله ، فإن الجنة والملائكة والأنبياء ليس فيهم شر ، والشر يقال على شيئين : على الألم ، وعلى ما يُفضى إليه .

فجعل الشر للمخلوق ، ولا يضاف إلى الله جل وعلا ؛ وذلك أن أوصاف الله جل وعلا وأفعاله ليس فيها شر ، والشر إضافي بمخلوقاته ، بمعنى أنه ما كان شرًا لقوم يكون خيرًا للآخرين ، فمثلا : المطر إذا جاء قد يَغرق مَنْ يَغرق فيه ، ويَهلك مالُه ، فيكون بالنسبة إليه فيه شر ، ولكن أكثر الناس هو خير لهم وللأرض ، ومثل ذلك الشمس والليل والنهار وغير ذلك .

فالمقصود أن الشر يكون في مخلوقات الله ، ولا يكون في فعل الله جل وعلا ولا في وصفه ، وليس الشر إليه ؛ ولهذا قال : (مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ) يعني : لما أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق فهو الشر الذي يكون في المخلوق .

والشر أصله الخلو من الخير ، فإذا وجد الخير يكون هذا الخير الذي وجد أصله من الله ، فهو الذي أوجد الخير ، وهو الذي وضعه في هذا المحل ، وإذا أخلى الله جل وعلا فضله من هذا المكان جاء الشر من قِبل المخلوق ، فلهذا ما يصيب الإنسان شيء إلا من جرّاء فعله ومن جراء ذنبه الذي يفعله ، (مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ) (النساء / ٧٩) فكل الخير يكون من الله ، أما المصائب والشرور وما يترتب على ذلك فهو من أفعال الإنسان ومعاصيه ومخالفاته ، وكون الله جل وعلا يخلق هذا وهذا لا يدل على أنه يتصف به تعالى وتقدس ؛ لأن كونه قدر هذا الشيء ودخل في مخلوقاته هو وصف لمن قام به ، فالشر وصف لمن قام به وهو المخلوق .

ومنه قول الله تعالى : (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ) (الفاتحة / ٦–٧) ،

ثم قال في المغضوب عليهم والضالين : (غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ) (الفاتحة / ٧) ، فلم يذكر فاعل ذلك وذكر المفعول والواقع ، وهو الغضب والضلال .

إذًا : ليس في كلام الله ولا كلام الرسول صلى الله عليه وسلم إضافة الشر إلى الرب جل وعلا ، وإنما يرد على هذه الصيغ أو الصور التي ذكرناها قبل قليل ، فالشر ليس من فعله ، إنما يكون في المقضي المقدر ، وإنما أضفناه للمقضي المقدر لأنه شر ، فالمرض شر ، والمعصية شر ، ولكنها شر نسبي وليس شرًا محضًا ، فهي شر من جهة وخير من جهة : شر من جهة

المخالفة أو من جهة ما يلحق الإنسان من ضرر ، وأما ما يترتب على وجود هذه الأشياء ، فإنه يترتب على وجودها الحكمة البالغة والرحمة الواسعة .

ومن مذهب أهل السنة وطريقتهم مع قولهم إن الخير والشر من الله وبقضائه ، لا يضاف إلى الله ما يتوهم منه نقص على الانفراد ، فلا يقال : يا خالق القردة والخنازير والخنافس والجعلان ، وإن كان لا مخلوق إلا والرب خالقه ، وفي ذلك ورد قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في دعاء الاستفتاح : (وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ) (م / ٧٧١) ، ومعناه – والله أعلم – والشر ليس مما يضاف إليك إفرادًا وقصدًا حتى يقال لك في المناداة : يا خالق الشر أو يا مقدر الشر ، وإن كان هو الخالق والمقدر لهما جميعًا ، ولذلك أضاف الخضر عليه السلام إرادة العيب إلى نفسه فقال فيما أخبر الله تعالى عنه في قوله : (أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا) ولما ذكر الخير والبر والرحمة أضاف إرادتها إلى الله عز وجل فقال : (فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ) ولذلك قال مخبرًا عن إبراهيم عليه السلام أنه قال : (وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ) فأضاف المرض إلى نفسه والشفاء إلى ربه ، وإن كان الجميع منه جل جلاله .

– قلت : والقائل / (عماد) : قد مَنَّ الله عليَّ وكَتَبْتُ رسالةً بعنوان :

(الأَرْبَعُونَ العِمَادِيَّة فِيمَا تَعَوَّذ مِنْه خَيرُ البَرِيَّة) وفيها عِدَّة أحاديث للتعوذ من الشرور ومنها :

(شَرّ بَصَرِي ، شر جار السوء ، شر جار المقام ، شر الريح ، شر الرُّؤْيَا وَإِذَا رَأَى مَا يَكْرَهُ فَلْيَتَعَوَّذْ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّهَا ، شر الزواج ، من شَرّ سَمْعِي ، شر الشيطان ، شر عباده ، شَرِّ فِتَنِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْغِنَى ، شَرِّ فِتْنَةِ الْفَقْرِ ، ومن شَرِّ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ ، وَشَرِّ قَلْبِي ، شَرِّ كُلِّ طَارِقٍ إِلَّا طَارِقًا يَطْرُقُ بِخَيْرٍ ، مِنَ الشَّرِّ كُلِّهِ عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ ، مَا عَلِمْتُ مِنْهُ وَمَا لَمْ أَعْلَمْ ، وَشَرِّ لِسَانِي ، شر الليلة (وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا ، وَشَرِّ مَا فِيهَا) ، مِنْ شَرِّ مَا أَنْتَ آخِذٌ بناصيته ، من شرّ ما تَعْلَم يا الله ، شَرِّ مَا خَلَقَ ، وَذَرَأَ وَبَرَأَ ، شَرِّ مَا ذَرَأَ فِي الأَرْضِ ، مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ ، مِنْ شَرِّ مَا عَاذَ بِهِ عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ ، مِنْ شَرِّ مَا عَمِلْتُ ، وَشَرِّ مَا لَمْ أَعْمَلْ ، شَرِّ مَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ ، وَمِنْ شَرِّ مَا يَعْرُجُ فِيهَا ، وَمِنْ شَرِّ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا ، شَرِّ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ ، وَشَرِّ مَنِيِّي – يعني فَرْجِه – ، شَرِّ نَفْسِي) . فليراجعها مَنْ شاء .

– ليس من أسماء الله الحسنى اسم يتضمّن الشرّ :

من الأحكام المستفادة من كون أسماء الله عز وجل كلها حسنى أنه ليس في أسماء الله الحسنى اسم يتضمن الشر .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : " وليس من أسماء الله الحسنى اسم يتضمن الشر ، وإنما يذكر الشر في مفعولاته " ، كقوله تعالى : (نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ) (الحجر / ٤٩ – ٥٠) ، وقوله تعالى : (اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (المائدة / ٩٨) ، وقوله تعالى : (إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ) (البروج) ، فبيَّن سبحانه أن بطشه شديدٌ وأنه هو الغفور الودود " .

وقال أيضًا : " وليس في أسمائه الحسنى إلا اسم يمدح به ، ولهذا كانت كلها حسنى " .

والحسنى خلاف السُّوآى ، فكلها حسنة ، والحسن محبوب ممدوح ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح حديث الاستفتاح : " والخير كله بيديك ، والشر ليس إليك " .

وقد قيل في تفسيره : لا يُتقرب به إليك بناء على أنه الأعمال المنهيُّ عنها . وقد قيل : لايضاف إليك بناء على أنه المخلوق .

ولهذا إذا ذُكر باسمه الخاص قُرن بالخير ، كقوله في أسمائه الحسنى : الضارُّ النافع – المعطي المانع – الخافض الرافع – المعزُّ المُذلُّ .

فجمع بين الاسمين لما فيه من العموم والشمول الدَّال على وحدانيته ، وأنه وحده يفعل جميع الأشياء .

ولهذا لا يدعى بأحد الاسمين : كالضار والنافع ، والخافض والرافع ، بل يذكران جميعًا . ولهذا كان كل نعمة منه فضلا ، وكل نقمة منه عدلا " .

وقال ابن القيم : إن أسماءه كلها حُسنى ليس فيها اسم غير ذلك أصلا ؛ ومن أسمائه ما يطلق عليه باعتبار الفعل نحو الخالق الرازق المحيي المميت .

وهذا يدل على أن أفعاله كلها خيرات محض لا شر فيها ؛ لأنه لو فعل الشر لاشتُق له منه اسم ولم تكن أسماؤه كلها حُسنى ، وهذا باطل ، فالشرُّ ليس إليه ، فكما لا يدخل في صفاته ولا يلحق ذاته لا يدخل في أفعاله ، فالشر ليس إليه ، لا يضاف إليه فعلًا ولا وصفًا وإنما يدخل في مفعولاته .

وفرق بين الفعل والمفعول : فالشر قائم بمفعوله المباين له ، لا بفعله الذي هو فعله .

فتأمل هذا فإنه خَفيَ على كثير من المتكلمين وزلَّت فيه أقدام وضلت فيه أفهام ، وهدى الله أهل الحق لما اختلفوا فيه بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم " .

وقال ابن القيم : " إن النعيم والثواب من مقتضى رحمته ومغفرته وبرّه وكرمه ، ولذلك يضيف ذلك إلى نفسه ، وأما العذاب والعقوبة فإنما هو من مخلوقاته ، ولذلك لا يُسمَّى بالمعاقِب والمعذِّب ، بل يُفرَّقُ بينهما ، فيجعل ذلك من أوصافه ، وهذا من مفعولاته حتى في الآية الواحدة كقوله تعالى :(نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ) (الحجر / ٤٩ – ٥٠) ، وقال تعالى : (اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) ، وقال تعالى : (إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) ومثلها في آخر الأنعام ، فما كان من مقتضى أسمائه وصفاته ، فإنه يدوم بدوامها ، ولا سيما إذا كان محبوبًا له ، وهو غاية مطلوبة في نفسها ، وأما الشر الذي هو العذاب ، فلا يدخل في أسمائه وصفاته ، وإن دخل في مفعولاته لحكمة إذا حصلت زال وفنى ؛ بخلاف الخير ، فإنه سبحانه دائم المعروف لا ينقطع معروفه أبدًا ، وهو قديم الإحسان أبديُّ الإحسان ، فلم يزل ولا يزال محسنًا على الدوام .

فلو قلتَ : يا مُذل ، يا ضار ، يا مانع ، وأخبرت بذلك لم تكن مثنيًا عليه ولا حامدًا له حتى تذكر مقابلها .

– ويستفاد من كلام ابن القيم السابق أن الأسماء الحسنى تنقسم باعتبار إطلاقها على الله إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : الأسماء المفردة :

وضابطها : ما يسوغ أن يطلق عليه مفردًا .

وهذا يقع في غالب الأسماء . مثالها : الرحمن ، السميع ، الرحيم ، القدير ، الملك .

القسم الثاني : الأسماء المقترنة :

وضابطها : ما يُطلق عليه مقترنًا بغيره من الأسماء .

وهذا أيضًا يقع في غالب الأسماء .

مثالها : العزيز الحكيم ، الغفور الرحيم ، الرحمن الرحيم ، السميع البصير .

وكل من القسم الأول والثاني يسوغ أن يُدعى به مفردًا ، ومقترنًا بغيره ، فتقول : يا عزيز ، أو يا حكيم ، أو يا غفور ، أو يا رحيم .

وهكذا في حال الثناء عليه أو الخبر عنه بما يسوغ لك الإفراد أو الجمع .

القسم الثالث : الأسماء المزدوجة :

وضابطها : ما لا يُطلق عليه بمفرده بل مقرونًا بمقابله ؛ لأن الكمال في اقتران كل اسم منها بما يقابله .

مثالها : الضار النافع ، المعز المذل ، المعطي المانع .

فهذه الأسماء المزدوجة تجري الأسماء منها مجرى الاسم الواحد الذي يُمتنع فصل بعض حروفه عن بعض ، فهي وإن تعددت جارية مجرى الاسم الواحد ، ولذلك لم تجيء مفردة ، ولم تطلق عليه إلا مقترنة .

والسبب في ذلك ؛ أن الكمال إنما يحصل في الجمع بين الاسمين لما فيه من العموم والشمول الدال على وحدانيته ، وأنه وحده يفعل جميع الأشياء . فهو سبحانه المنفرد بالربوبية وتدبير الخلق والتصرف فيهم عطاء ومنعًا ، ونفعًا وضرًا .

ولذلك لو قلت : يا مذلُّ ، يا ضار ، يا مانع ، وأخبرت بذلك لم تكن مثنيًا عليه ولا حامدًا له حتى تذكر مقابلها .

قال ابن القيم في نونيته :

هذا ومن أسمائه ما ليس يُفْ ... رد بل يقال إذا أتى بِقِران

وهي التي تُدعى بمزدوجاتها ... إفرادها خطر على الإنسان

إذ ذاك موهم نوع نقص جل رب ... العرش عن عيب وعن نقصان

كالمانع المعطي وكالضار الذي ... هو نافع وكماله الأمران

ونظير هذا القابض المقرون با ... سم الباسط اللفظان مقترنان

وكذا المعزّ مع المذل وخافض ... مع رافع لفظان مزدوجان

– إذا قال قائل : ما الجمع بين قوله تعالى : (مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ) (الفلق / ٢) ، وبين قوله الله صلى الله عليه وسلم : (وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ) (م / ٧٧١) ؟

– الفرق بينهما ظاهر ، لأن (مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ) أضاف الشر إلى مَنْ ؟ إلى المخلوق أما إلى الله فلا يضاف الشر إليه ، كيف يُتَصَوَّرُ هذا ؟ يُتَصَوَّرُ لا شك أن الله هو الذي قَدَّرَ الشر لكن قَدَّرَ الشر في مفعولاته أما تقديره لهذا الشر خير حكمة ، حكمة عظيمة يترتب عليها من المصالح ما يجعلها غير مكروهة ، لكن فرق بين المفعول وبين الفعل والفاعل ، الفاعل هو الله عز وجل والمقدّر هذا لا شك نحبه على كل حال ، وفعله أيضًا خيرٌ على كل حال ومفعوله فيه خير وفيه شر .

– هل يقال : (إن الله بيده الخير والشر) ؟

لا يُعرف الجمع بينهما في كتاب ، ولا سنة ، بل القصر على الخير ، كما في قول الله تعالى :

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (آل عمران / ٢٦) .

وفي دعاء التوجه إلى الصلاة والتلبية : (لبيك وسعديك والخير في يديك والشر ليس إليك) .

فلنقصر الثناء على الله بما أثنى به على نفسه (بيده الخير) سبحانه ، مع إيماننا بأنه لا يخرج عن قدر الله شيء ، وأن جميع ما يقدره – سبحانه – من خير وشر ، كله حكمة وخير ، وإن كان الشَّرُّ شرًّا بالنسبة إلى المحل الوارد عليه ، وهذا معنى : (والشر ليس إليك) . والله أعلم .

(١٢) لَمْ تَضُرَّكَ : أَيِ : الْعَقْرَبُ . بأن يُحال بينك وبين كمال تأثيرها بحسب كمال المتعوِّذ وقُوَّتِه وضعفِه لأن الأدوية الإلهية تمنع من الداء بعد حصوله وتمنع من وقوعه وإن وقع لم يضره .

ما يستفاد من الحديث

(جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ)

– فضل الصحابة – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم – وأن جهالة عينهم لا تضرّ .

– حِرْص الصحابة – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم – على اكتساب العلم من مصدره .

– سؤال الصحابة – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم – للنبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – في كل شيئ يدل على ثقتهم في أنه الأعلم بكل شيئ ، ويدل على حبهم له ، وتواضعه معهم ، ورحمته وشفقته بهم .

(مَا لَقِيتُ مِنْ عَقْرَبٍ لَدَغَتْنِي الْبَارِحَةَ)

– منزلة النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – في حياة الصحابة ، فكانوا يُطْلِعونه على كل صغيرة وكبيرة في مختلف شئون حياتهم .

– فضل القرب المكاني من النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ليتمكنوا من عرض مسائلهم وشكايتهم في أي وقت .

(أَمَا لَوْ قُلْتَ)

– رفق النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بالمتعلم والسائل وذي الحاجة .

– مشروعية قول (لو) إذا لم تكن من باب التسخط على القدر .

(حِينَ أَمْسَيْتَ)

– فضل وأهمية هذا الذِّكر .

– فضل وأهمية أذكار المساء .

– من الأذكار ما هو خاصّ ومقيد بوقتٍ دون وقت ، وهذا مقيد بالمساء فقط .

– فضل المحافظة والمداومة على أذكار المساء والصباح ، وأنها من أسباب الوقاية والفلاح .

(أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ)

– الاستعاذة بالله عبادة يُتقرب بها إلى الله .

– وفيه أن العبد ضعيف وفقير ويحتاج إلى القوي الغني .

– مشروعية الاستعاذة بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ ، على أنها صفة من صفات الله غير منفصلة عنه .

– إثبات صفة الكلام لله .

– فضل صدق اللُّجأ إلى الله في كل وقت وأنه لا حول ولا قوة للعبد إلا بالله .

– كلمات الله كلها تامَّة إذ هي صفة من صفاته .

– التوسل إلى الله بصفاته .

– اليقين بأن الذي يملك النفع والضر هو الله .

– الاستعاذة بكلمات الله عبادة عظيمة ، فلو كانت كلمات الله مخلوقة لما استعاذ بها – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ولما علّم أمته ، لأنه عليه الصلاة والسلام ينهى عن ذلك ، بل يعده نوعًا من الإشراك بالله .

ما يستفاد من هذه الاستعاذة :

هذه الاستعاذة المباركة تدلنا على الأمور التالية :

أولًا : جواز الاستعاذة بأسمائه وصفاته كما يستعاذ بذاته ، ويؤيد ما قلنا قوله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – :

" اللهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ " (م / ٤٨٦) .

ثانيًا : أن كلمات الله ليست مخلوقة إذ لو كانت مخلوقة لما استعاذ بها رسول الله عليه الصلاة والسلام كما تقدَّم .

ثالثًا : إن كلام الله ليس معنىً واحدًا يقوم بالذات ، ليس بحرف ، ولا صوت ، كما تزعمه الأشاعرة المتأخِّرة ، بل كلمات الله لا حدَّ لها ، لأنها من كمالاته ، فكمالاته سبحانه لا تنتهي .

(مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ)

– قد يقع في بعض المخلوقات الشر .

– الرَّدّ على مَنْ قال بأن الله لا يخلق الشر كالقدرية وغيرهم .

– الرقية من العقرب والحيَّة وغيرِهما من ذوات السموم نوعان : علاجية : تنفع من الداء بعد حصوله كالفاتحة مثلًا وكالمعوذات ، ووقائية : تحفظ صاحبَها من الإصابة بهذه الحشرات السامة كما في الحديث الذي معنا .

(لَمْ تَضُرَّكَ)

– من فوائد القرآن غير تلاوته والتعبد بذلك ، الحماية والكفاية .

– فضائل وفوائد وثمرات صدق اللُّجأ والتوكل على الله .

٢٦- عَنْ سُهَيْلِ بْنِ أَبِي صَالِحٍ ، عَنْ أَبِيهِ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ : " مَنْ قَالَ حِينَ يُمْسِي (١) ثَلاثَ مَرَّاتٍ (٢) : أَعُوذُ (٣) بِكَلِمَاتِ اللهِ (٤) التَّامَّاتِ (٥) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (٦) لَمْ يَضُرَّهُ حُمَةٌ (٧) تِلْكَ اللَّيْلَةَ "

(صحيح التِّرْمِذِيّ / ٣٦٠٤) .

قَالَ سُهَيْلٌ : فَكَانَ أَهْلُنَا تَعَلَّمُوهَا فَكَانُوا يَقُولُونَهَا كُلَّ لَيْلَةٍ فَلُدِغَتْ جَارِيَةٌ مِنْهُمْ فَلَمْ تَجِدْ لَهَا وَجَعًا .

المعنى الإجمالي

النَّبِيُّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يُعلِّم ويُرشِد الأمة إلى هذا الذِّكر العظيم ، والذي فيه الاعتصام والتحصُّن بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ خلقه ومن سائر المؤذيات من الخلق ، ويُعلِّمنا النَّبِيُّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أنَّ الذي يقول هذا الذِّكر العظيم ، يُحال بينه وبين الشرور والمؤذيات ، وتمنع من وقوعه وإن وقع لم يضره .

معاني الكلمات

(١) حِينَ يُمْسِي : أَيْ يَدْخُلَ اللَّيْلُ ؛ لِأَنَّ الْإِمْسَاءَ ضِدُّ الْإِصْبَاحِ ، كَمَا أَنَّ الْمَسَاءَ ضِدُّ الصَّبَاحِ عَلَى مَا فِي الْقَامُوسِ وَالصِّحَاحِ . والمَساء بعد الظهر إلى صلاة المغرب وقال بعضهم إلى نصف الليل .

(٢) ثَلاَثَ مَرَّاتٍ : أي : أعاد قراءتها ثلاث مرات ؛ كما هو دأبه في تبليغ الأحكام إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثًا .

(٣) أَعُوذُ : أعتصم وأتحصَّن وألجأ ، والاستعاذة : من العوذ وهي طلب العوذ ، العوذ : الالتجاء والتحصن : أي : طلب ما يَحمِي من المكروه ، الاستعاذة : طلب الإعاذة والإعاذة الحماية من مكروه فالمستعيذ محتمٍ بمن استعاذ به ومُعتصم به . والْعَوْذُ : اللَّجْأُ إِلَى شَيْءٍ يَقِي مَنْ يَلْجَأُ إِلَيْهِ مَا يَخَافُهُ ، يُقَالُ : عَاذَ بِفُلَانٍ ، وَعَاذَ بِحِصْنٍ ، وَيُقَالُ : اسْتَعَاذَ ، إِذَا سَأَلَ غَيْرَهُ أَنْ يُعِيذَهُ قَالَ تَعَالَى : (فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) (الْأَعْرَاف / ٢٠٠) .

وَعَاذَ مِنْ كَذَا ، إِذَا صَارَ إِلَى مَا يُعِيذُهُ مِنْهُ قَالَ تَعَالَى : (فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ) (النَّحْل / ٩٨) .

(٤) بِكَلِمَاتِ اللهِ : فيه إثبات صفة الكلام لله ، وتقدَّم الكلام عنها بالتفصيل في الحديث قبله .

(٥) التَّامَّاتِ : الكاملة التى لا يدخلها نقص ولا عيب كما يدخل كلام البشر . وقيل : التامة : النافعة الشافية ، وقيل : الكلمات هنا : القرآن .

(٦) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ : أي من شر خلقه وهو ما يفعله المكَلَّفون من إثم ومضارة بعضهم لبعض من نحو ظلم وبغي وقتل وضرب وشتم وكذا من نحو لدغ ونهش وعض ، و(ما) عام يدخل فيه سائر المؤذيات من الخلق ، ومنه الهوى والشهوات ، وتقدَّم الكلام عنها بالتفصيل في الحديث قبله .

(٧) حُمَةٌ : بِضَمِّ مُهْمَلَةٍ وَتَخْفِيفِ مِيمٍ أَيْ سُمٌّ مِنْ لَدْغَةِ عَقْرَبٍ ، وقيل الْمُرَادُ بِالْحُمَةِ : السُّمُّ مِنْ ذَوَاتِ السُّمُومِ . وَقَدْ تُسَمَّى إِبْرَةُ الْعَقْرَبِ أو شوكة العقرب ، وَالزُّنْبُورِ وَنَحْوُهُمَا حُمَةً لِأَنَّ السُّمَّ يَخْرُجُ مِنْهَا ، وقيل : كل هامة ذات سم ؛ والمعنى : أنه لا يضرك سمٌّ في تلك الليلة التي قلت فيها هذا الدعاء .

ما يستفاد من الحديث

(مَنْ قَالَ)

– التشويق والتحفيز ، وهذا من براعة الاستهلال ، حتى يَهْتَم المستَمِع لما سيأتي من كلام .

(حِينَ يُمْسِي)

– ختم اليوم بذكر الله .

– فضل وأهمية أذكار المساء .

– حرص النَّبيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على الطاعة .

– مداومة النَّبيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على الأذكار .

– التأكيد على عبادة الوقت ، وهي أن كل عبادة في وقتها هي الأفضل .

– الحثّ على مداومة الذِّكر .

– أهمية أن يكون ختام اليوم بذكر الله .

(ثَلاثَ مَرَّاتٍ)

– مشروعية تكرار الذِّكر .

– تكرار الذِّكر أو الدعاء أو العبادة من باب الإلحاح على الله .

– الأعداد في الذِّكر وفي العبادات توقيفية – لا يجوز الزيادة عليها ولا النقصان منها إلا بدليل – .

(أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ)

– الاستعاذة بالله عبادة يُتقرب بها إلى الله .

– وفيه أن العبد ضعيف وفقير ويحتاج إلى القوِيّ الغَنِيّ .

– مشروعية الاستعاذة بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ ، على أنها صفة من صفات الله غير مُنْفَصِلَة عنه .

– إثبات صفة الكلام لله .

– فضل صدق اللُّجأ إلى الله في كل وقت وأنه لا حول ولا قوة للعبد إلا بالله .

– كلمات الله كلها تامَّة إذ هي صفة من صفاته .

– التوسل إلى الله بصفاته .

– اليقين بأن الذي يملك النفع والضر هو الله .

– الاستعاذة بكلمات الله عبادة عظيمة ، فلو كانت كلمات الله مخلوقة لما استعاذ بها – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ولما عَلَّم أمته ، لأنه عليه الصلاة والسلام ينهى عن ذلك ، بل يعده نوعًا من الإشراك بالله .

ما يستفاد من هذه الاستعاذة :

هذه الاستعاذة المباركة تدلنا على الأمور التالية :

أولًا : جواز الاستعاذة بأسمائه وصفاته كما يستعاذ بذاته ، ويؤيد ما قلنا قوله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – :
" اللهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ " (م / ٤٨٦) .
ثانيًا : أن كلمات الله ليست مخلوقة إذ لو كانت مخلوقة لما استعاذ بها رسول الله عليه الصلاة والسلام كما تقدَّم .
ثالثًا : إن كلام الله ليس معنىً واحدًا يقوم بالذات ، ليس بحرف ، ولا صوت ، كما تزعمه الأشاعرة المتأخِّرة ، بل كلمات الله لا حدَّ لها ، لأنها من كمالاته ، فكمالاته سبحانه لا تنتهي .

(مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ)

– إطلاق الشر على بعض أفعال العباد .
– إثبات أن الفعل من كسب العبد .
– التأدب مع الله ، وأن الشر ينسب إلى المخلوق لا الخالق ، كما قال – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – في دعاء الاستفتاح :
" وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ " (م / ٧٧١) .
– فِيهِ الْإِرْشَاد إِلَى الْأَدَب فِي الثَّنَاء عَلَى اللَّه تَعَالَى ، وَمَدْحه بِأَنْ يُضَاف إِلَيْهِ مَحَاسِن الْأُمُور دُون مَسَاوِيهَا عَلَى جِهَة الْأَدَب
– الاعتصام واللجوء إلى مَنْ يملك كل شيء أن يقي شرّ هذه الليلة وما بعدها .
– ضعف الإنسان الذي لا يقدر أن يقي أو يحصن نفسه من الشرور التي تكون في الليل خاصة .
– قوة الخالق الذي يقدر على العوذ والذي يملك الدنيا وما فيها .
– الليل محل للشرور التي تَحْدُثُ فِي اللَّيْلِ مِنْ لُصُوصٍ ، وَسِبَاعٍ ، وَذَوَاتِ سُمُومٍ ، وَتَعَذُّرِ السَّيْرِ ، وَعُسْرِ النَّجْدَةِ ، وَبُعْدِ الِاسْتِغَاثَةِ وَاشْتِدَادِ آلَامِ الْمَرْضَى ، حَتَّى ظَنَّ بَعْضُ أَهْلِ الضَّلَالَةِ اللَّيْلَ إِلَهَ الشَّرِّ .
– فِي الْحَدِيثِ إِظْهَارُ الْعُبُودِيَّةِ وَالِافْتِقَارِ إِلَى تَصْرِيفَاتِ الرُّبُوبِيَّةِ ، وَأَنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ خَيْرَهُ وَشَرَّهُ بِيَدِ اللَّهِ وَأَنَّ الْعَبْدَ لَيْسَ لَهُ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ .
– وَفِيهِ تَعْلِيمٌ لِلْأُمَّةِ لِيَتَعَلَّمُوا آدَابَ الدُّعَاءِ .
– قد يقع في بعض المخلوقات الشر .
– الرَّدّ على مَنْ قال بأن الله لا يخلق الشر كالقدرية وغيرهم .
– الرقية من العقرب والحيَّة وغيرِهما من ذوات السموم نوعان : علاجية : تنفع من الداء بعد حصوله كالفاتحة مثلًا وكالمعوذات ، ووقائية : تحفظ صاحبَها من الإصابة بهذه الحشرات السامة كما في الحديث الذي معنا .

(لَمْ يَضُرَّهُ حُمَةٌ تِلْكَ اللَّيْلَةَ)

– من فوائد القرآن غير تلاوته والتعبد بذلك ، الحماية والكفاية .
– فضائل وفوائد وثمرات صدق اللُّجأ والتوكل على الله .

٢٧- عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - :
" مَنْ قَرَأَ بِالآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ [١] " (خ / ٥٠٠٩) .

المعنى الإجمالي

يحثنا النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - على قراءة آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ ويُبيّن لنا شيئًا من فضائلهما ، وأنهما تكونان سببًا في حفظ قارئهما من كل شرٍّ ، أو من كل ما يُخاف ، أو تجزءان عن قيام تلك الليلة ، أو عن قراءة القرآن ، أو غير ذلك مما ذُكر .

معاني الكلمات

(١) مَنْ قَرَأَ بِالآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ : وهما :
(ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٥) لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٨٦))
عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ : لَمَّا نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -
(لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (البقرة / ٢٨٤) ، قَالَ : فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، فَأَتَوْا رَسُولَ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ثُمَّ بَرَكُوا عَلَى الرُّكَبِ ، فَقَالُوا : أَيْ رَسُولَ اللهِ ، كُلِّفْنَا مِنَ الْأَعْمَالِ مَا نُطِيقُ ، الصَّلَاةَ وَالصِّيَامَ وَالْجِهَادَ وَالصَّدَقَةَ ، وَقَدِ أُنْزِلَتْ عَلَيْكَ هَذِهِ الْآيَةُ وَلَا نُطِيقُهَا ، قَالَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : " أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ مِنْ قَبْلِكُمْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ؟ بَلْ قُولُوا : سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ " ، قَالُوا : سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ، فَلَمَّا اقْتَرَأَهَا الْقَوْمُ ، ذَلَّتْ بِهَا أَلْسِنَتُهُمْ ، فَأَنْزَلَ اللهُ فِي إِثْرِهَا : (ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ) ، فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ نَسَخَهَا اللهُ تَعَالَى ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : (لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا) " قَالَ : نَعَمْ " (رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا) " قَالَ : نَعَمْ " (رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ) " قَالَ : نَعَمْ " (وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) (البقرة / ٢٨٦) " قَالَ : نَعَمْ " (م / ١٢٥)
تفسير الآية : - وسأكتفي بتفسير إمام المفسرين (الطبري) - :
القول في تأويل قوله تعالى : (آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ)
قال أبو جعفر : يعني بذلك جل ثناؤه : صِدق الرسول ، يعني رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، فأقرَّ

" بما أنزل إليه " ، يعني : بما أوحي إليه من ربه من الكتاب ، وما فيه من حلال وحرام ، ووعد وعيد ، وأمر ونهي ، وغير ذلك من سائر ما فيه من المعاني التي حواها . والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، يقولون : لا نفرق بين أحد من رسله . ويصدقون بجميعهم ، ويقرّون أن ما جاءوا به كان من عند الله ، وأنهم دعوا إلى الله وإلى طاعته ، ويخالفون في فعلهم ذلك اليهود الذين أقرّوا بموسى وكذبوا عيسى ، والنصارى الذين أقروا بموسى وعيسى وكذبوا بمحمد – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، وجحدوا نبوته ، ومن أشبههم من الأمم الذين كذبوا بعض رسل الله ، وأقروا ببعضه .

القول في تأويل قوله تعالى : (وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٥))

قال أبو جعفر : يعني بذلك جل ثناؤه : وقال الكل من المؤمنين : " سمعنا " قول ربنا وأمره إيانا بما أمرنا به ، ونهيه عما نهانا عنه " وأطعنا " ، يعني : أطعنا ربنا فيما ألزمنا من فرائضه ، واستعبدنا به من طاعته ، وسلمنا له ، وقوله : " غفرانك ربنا " ، يعني : وقالوا : " غفرانك ربنا " ، بمعنى : اغفر لنا ربنا غفرانك ،

كما يقال : " سبحانك " ، بمعنى : نسبحك سبحانك .

وقد بينا فيما مضى أن " الغفران " و" المغفرة " ، الستر من الله على ذنوب من غفر له ، وصفحه له عن هتك ستره بها في الدنيا والآخرة ، وعفوه عن العقوبة عليه .

وأما قوله : " وإليك المصير " ، فإنه يعني جل ثناؤه أنهم قالوا : وإليك يا ربنا مرجعنا ومعادنا ، فاغفر لنا ذنوبنا .

القول في تأويل قوله تعالى : (لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلا وُسْعَهَا)

قال أبو جعفر : يعني بذلك جل ثناؤه : لا يكلف الله نفسا فيتعبدها إلا بما يسعها ، فلا يضيق عليها ولا يجهدها .

" الوسع " اسم من قول القائل : " وسعني هذا الأمر " ، مثل " الجهد " و" الوجد " من : " جهدني هذا الأمر " و " وجدت منه "

القول في تأويل قوله تعالى : (لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ)

قال أبو جعفر : يعني بقوله جل ثناؤه : " لها " للنفس التي أخبر أنه لا يكلفها إلا وسعها . يقول : لكل نفس ما اجترحت وعملت من خير " وعليها " ، يعني : وعلى كل نفس " ما اكتسبت " ، ما عملت من شر .

قال أبو جعفر : فتأويل الآية إذًا : لا يكلف الله نفسًا إلا ما يسعها فلا يجهدها ، ولا يضيق عليها في أمر دينها ، فيؤاخذها بهَمْةٍ إن همَّت ، ولا بوسوسة إن عرضت لها ، ولا بخطرة إن خطرت بقلبها .

القول في تأويل قوله تعالى : (رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا)

قال أبو جعفر : وهذا تعليم من الله عز وجل عباده المؤمنين دعاءه كيف يدعونه ، وما يقولونه في دعائهم إياه .

ومعناه : قولوا : "ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا " شيئا فَرضت علينا عمله فلم نعمله ، " أو أخطأنا " في فعل شيء نهيتنا عن فعله ففعلناه ، على غير قصد منا إلى معصيتك ، ولكن على جهالة منا به وخطأ .

قال أبو جعفر : إن قال لنا قائل : وهل يجوز أن يؤاخذ الله عز وجل عباده بما نسوا أو أخطأوا ، فيسألوه أن لا يؤاخذهم بذلك ؟

قيل : إن " النسيان " على وجهين : أحدهما على وجه التضييع من العبد والتفريط ، والآخر على وجه عجز الناسي عن حفظ ما استحفظ ووكل به ، وضعف عقله عن احتماله .

فأما الذي يكون من العبد على وجه التضييع منه والتفريط ، فهو ترك منه لما أمر بفعله . فذلك الذي يرغب العبد إلى الله عز وجل في تركه مؤاخذته به ، وهو " النسيان " الذي عاقب الله عز وجل به آدم صلوات الله عليه فأخرجه من الجنة ، فقال في ذلك : (وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا) (طه / ١١٥) ، وهو " النسيان " الذي قال جل ثناؤه : (فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا) (الأعراف / ٥١) . فرغبة العبد إلى الله عز وجل بقوله : " ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا " ، فيما كان من نسيان منه لما أمر بفعله على هذا الوجه الذي وصفنا ، ما لم يكن تركه ما ترك من ذلك تفريطًا منه فيه وتضييعًا ، كفرًا بالله عز وجل . فإن ذلك إذا كان كفرًا بالله ، فإن الرغبة إلى الله في تركه المؤاخذة به غير جائزة ، لأن الله عز وجل قد أخبر عباده أنه لا يغفر لهم الشرك به ، فمسألته فعل ما قد أعلمهم أنه لا يفعله ، خطأ . وإنما تكون مسألته المغفرة ، فيما كان من مثل نسيانه القرآن بعد حفظه بتشاغله عنه وعن قراءته ، ومثل نسيانه صلاة أو صيامًا ، باشتغاله عنهما بغيرهما حتى ضيعهما .

وأما الذي العبد به غير مؤاخذ ، لعجز بنيته عن حفظه ، وقلة احتمال عقله ما وكل بمراعاته ، فإن ذلك من العبد غير معصية ، وهو به غير آثم ، فذلك الذي لا وجه لمسألة العبد ربه أن يغفره له ، لأنه مسألة منه له أن يغفر له ما ليس له بذنب ، وذلك مثل الأمر يغلب عليه وهو حريص على تذكره وحفظه ، كالرجل يحرص على حفظ القرآن بجد منه فيقرأه ، ثم ينساه بغير تشاغل منه بغيره عنه ، ولكن بعجز بنيته عن حفظه ، وقلة احتمال عقله ذكر ما أودع قلبه منه ، وما أشبه ذلك من النسيان ، فإن ذلك مما لا تجوز مسألة الرب مغفرته ، لأنه لا ذنب للعبد فيه فيغفر له باكتسابه .

وكذلك " الخطأ " وجهان :

أحدهما : من وجه ما نهي عنه العبد فيأتيه بقصد منه وإرادة ، فذلك خطأ منه ، وهو به مأخوذ . يقال منه : " خطئ فلان وأخطأ " فيما أتى من الفعل ، و" أثم " ، إذا أتى ما يأثم فيه وركبه ، ومنه قول الشاعر عبيد بن الأبرص الأسدي :

الناس يلحون الأمير إذا هم ... خطئوا الصواب ولا يلام المرشد

يعني : أخطأوا الصواب وهذا الوجه الذي يرغب العبد إلى ربه في صفح ما كان منه من إثم عنه ، إلا ما كان من ذلك كفرا والآخر منهما : ما كان عنه على وجه الجهل به ، والظن منه بأن له فعله ، كالذي يأكل في شهر رمضان ليلا وهو يحسب أن الفجر لم يطلع ، أو يؤخر صلاة في يوم غيم وهو ينتظر بتأخيره إياها دخول وقتها ، فيخرج وقتها وهو يرى أن وقتها لم يدخل . فإن ذلك من الخطأ الموضوع عن العبد ، الذي وضع الله عز وجل عن عباده الإثم فيه ، فلا وجه لمسألة العبد ربه أن لا يؤاخذه به .

وقد زعم قوم أن مسألة العبد ربه أن لا يؤاخذه بما نسي أو أخطأ ، إنما هو فعل منه لما أمره به ربه تبارك وتعالى ، أو لما ندبه إليه من التذلل له والخضوع بالمسألة ، فأما على وجه مسألته الصفح ، فما لا وجه له عندهم .

القول في تأويل قوله تعالى : (رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا)

قال أبو جعفر : ويعني بذلك جل ثناؤه : قولوا : " ربنا ولا تحمل علينا إصرا " ، يعني بـ " الإصر " العهد ، كما قال جل ثناؤه : (قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي) (آل عمران / ٨١) . وإنما عنى بقوله : (وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا) ولا تحمل علينا عهدا فنعجز عن القيام به ولا نستطيعه "كما حملته على الذين من قبلنا " ، يعني : على اليهود والنصارى الذين كلفوا أعمالا وأخذت عهودهم ومواثيقهم على القيام بها ، فلم يقوموا بها فعوجلوا بالعقوبة . فعلَّم الله عز وجل

أمة محمد صلى الله عليه وسلم – الرغبة إليه بمسألته أن لا يحملهم من عهوده ومواثيقه على أعمال – إن ضيعوها أو أخطأوا فيها أو نسوها ، مثل الذي حمل من قبلهم ، فيحل بهم بخطئهم فيه وتضييعهم إياه ، مثل الذي أحل بمن قبلهم .

القول في تأويل قوله : (رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ)

قال أبو جعفر : يعني بذلك جل ثناؤه : وقولوا أيضًا : ربنا لا تكلفنا من الأعمال ما لا نطيق القيام به ، لِثقَل حمله علينا. وكذلك كانت جماعة أهل التأويل يتأولونه .

القول في تأويل قوله : (وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا)

قال أبو جعفر : وفي هذا أيضًا ، من قول الله عز وجل ، خبرًا عن المؤمنين من مسألتهم إياه ذلك الدلالةُ الواضحة أنهم سألوه تيسير فرائضه عليهم بقوله : " ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به " ، لأنهم عقبوا ذلك بقولهم : " واعف عنا " ، مسألةً منهم ربَّهم أن يعفوَ لهم عن تقصير إن كان منهم في بعض ما أمرهم به من فرائضه ، فيصفح لهم عنه ولا يعاقبهم عليه . وإن خفّ ما كلفهم من فرائضه على أبدانهم .

القول في تأويل قوله : (وَارْحَمْنَا)

قال أبو جعفر : يعني بذلك جل ثناؤه : تغمدنا منك برحمة تنجينا بها من عقابك ، فإنه ليس بناج من عقابك أحد إلا برحمتك إياه دُون عمله ، وليست أعمالنا منجيتنا إن أنت لم ترحمنا ، فوفقنا لما يرضيك عنا .

القول في تأويل قوله : (أَنْتَ مَوْلانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٨٦))

قال أبو جعفر : يعني بقوله جل ثناؤه : " أنت مَوْلانا " ، أنت وَلِيُّنا بنصرك ، دون من عَاداك وكفر بك ، لأنا مؤمنون بك ، ومطيعوك فيما أمرتنا ونهيتنا ، فأنت وليّ من أطاعك ، وعدوّ من كفر بك فعصاك ، " فانصرنا " ، لأنا حزْبك " على القوم الكافرين " ، الذين جحدوا وحدانيتك ، وعبدوا الآلهة والأندادَ دونك ، وأطاعوا في معصيتك الشيطان .

س : ما تعريف الرسول لغةً واصطلاحًا أو شرعًا ؟

ج : تعريف الرسول لغةً : للرسول في اللغة ثلاثة تعريفات :

١– أنه مشتق من الإرسال بمعنى التوجيه ، فالرسول هو المرسَل من الله إلى البشر . انظر " لسان العرب " ، " معجم مقاييس اللغة " .

٢– أنه بمعنى ذو رسول ، أي : ذو رسالة ، كما في " الصحاح " للجوهري .

٣– أن معناه المتابع للأخبار التي بعثه الله بها .

فخلاصة تعريف الرسول :

أنه المرسَل من عند الله برسالة إلى البشر .

وأما اصطلاحًا : فهو عبدٌ اصطفاه الله بالوحي إليه وإرساله إلى قوم كافرين .

الرسول في الشرع : هو الذي يُنبئه الله ثم يأمره أن يبلغ رسالته إلى مَنْ خالف أمره أي إلى قوم كافرين .

قلت : (والقائل / عماد) : فائدة في الإيمان بالله

س : الإيمان بالله ماذا يشمل ؟

ج : يشمل أربعة أمور : ١ – بوجوده . ٢ – بربوبيته . ٣ – بألوهيته . ٤ – بأسمائه وصفاته .

س : ما معنى الإيمان بربوبيته ؟

ج : قال العلامة ابن عثيمين – يرحمه الله – في (شرحه / ٨٠) : (أي بأنه وحده الرب لا شريك له ولا معين) .

والرب : من له الخلق والملك ، والأمر ، فلا خالق إلا الله ، ولا مالك إلا هو ، ولا أمر إلا له ، قال تعالى :

(أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ) (الأعراف / ٥٤) وقال : (ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ) (فاطر / ١٣) . ولم يُعلم أن أحدًا من الخلق أنكر ربوبية الله سبحانه ، إلا أن يكون مكابرًا غير معتقد بما يقول ، كما حصل من – فرعون – حين قال لقومه : (أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى) (النازعات / ٢٤) وقال : (يَا أَيُّهَا الْمَلأ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي) (القصص / ٣٨) لكن ذلك ليس عن عقيدة ، قال الله تعالى : (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا) (النمل / ١٤) وقال موسى لفرعون فيما حكى الله عنه : (لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاء إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يَا فِرْعَونُ مَثْبُورًا) (الإسراء / ١٠٢) .

ولهذا كان المشركون يقرُّون بربوبية الله تعالى ، مع إشراكهم به في الألوهية ، قال الله تعالى :

(قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ) (المؤمنون / ٨٤ – ٨٩) .

وقال الله تعالى : (وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ) (الزخرف / ٩) وقال : (وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ) (الزخرف / ٨٧) .

وأَمْر الرب سبحانه شامل للأمر الكوني والشرعي فكما أنه مدبر الكون القاضي فيه بما يريد حسب ما تقتضيه حكمته ، فهو كذلك الحاكم فيه بشرع العبادت وأحكام المعاملات حسبما تقتضيه حكمته ، فمن اتخذ مع الله تعالى مشرعًا في العبادات أو حاكمًا في المعاملات فقد أشرك به ولم يحقق الإيمان .

س : ما معنى الإيمان بألوهيته ؟

ج : قال العلامة ابن عثيمين في (شرحه / ٨٢) : (أي (بأنه وحده الإله الحق لا شريك له) و " الإله " بمعنى المألوه " أي " المعبود حبًا وتعظيمًا ، وقال الله تعالى : (وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ) (البقرة / ١٦٣) وقال تعالى : (شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (آل عمران / ١٨) . وكل ما اتخذ إلها مع الله يعبد من دونه فألوهيته باطلة ، قال الله تعالى : (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ) (الحج / ٦٢) وتسميتها آلهة لا يعطيها حق الألوهية قال الله تعالى في اللات والعزى ومناة : (إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ) (النجم / ٢٣) وقال عن هود أنه قال لقومه : (أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ) (الأعراف / ٧١)

وقال عن يوسف أنه قال لصاحبي السجن : (يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ) (يوسف / ٣٩ – ٤٠) ولهذا كانت الرسل عليهم الصلاة والسلام يقولون لأقوامهم (اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ) (الأعراف / ٥٩) ولكن أبى ذلك المشركون ، واتخذوا من دون الله آلهة ، يعبدونهم مع الله سبحانه وتعالى ، ويستنصرون بهم ، ويستغيثون .

وقد أبطل الله تعالى اتخاذ المشركين هذه الآلهة ببرهانين عقليين :

الأول : أنه ليس في هذه الآلهة التي اتخذوها شيء من خصائص الألوهية ، فهي مخلوقة لا تخلق ، ولا تجلب نفعًا لعابديها ، ولا تدفع عنهم ضررًا ، ولا تملك لهم حياة ولا موتًا ، ولا يملكون شيئًا من السماوات ولا يشاركون فيه .

قال الله تعالى : (وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلا حَيَاةً وَلا نُشُورًا) (الفرقان/ ٣) .

وقال تعالى : (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ (٢٢) وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ) (سبأ / ٢٢– ٢٣) .

وقال : (أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ) (الأعراف / ١٩١– ١٩٢) .

وإذا كانت هذه حال تلك الآلهة ، فإن اتخاذها آلهة من أسفه السفه ، وأبطل الباطل .

الثاني : أن هؤلاء المشركين كانوا يُقرّون بأن الله تعالى وحده الرب الخالق الذي بيده ملكوت كل شيء ، وهو يجير ولا يجار عليه ، وهذا يستلزم أن يوحدوه بالألوهية كما قال تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاء وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلا تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ) (البقرة / ٢١ – ٢٢) وقال :

(وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ) (الزخرف / ٨٧) وقال : (قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ (٣١) فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ) (يونس / ٣١ – ٣٢) .

س : ما معنى الإيمان بأسمائه وصفاته ؟

ج : قال العلامة ابن عثيمين في (شرحه / ٨٥) : أي ما أثبته الله لنفسه في كتابه ، أو سنة رسوله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – من الأسماء والصفات على الوجه اللائق به من غير تحريف ، ولا تعطيل ، ولا تكييف ، ولا تمثيل ، قال الله تعالى : (وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَآئِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ) (الأعراف / ١٨٠) وقال : (وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (الروم / ٢٧) وقال :

(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ) (الشورى / ١١) .

س : ما ثمرات الإيمان بالله تعالى ؟

ج : قال العلامة ابن عثيمين في (شرحه / ٨٦) : (الإيمان بالله تعالى على ما وصفنا يثمر للمؤمنين ثمرات جليلة منها :

الأولى : تحقيق توحيد الله تعالى بحيث لا يتعلق بغيره رجاء ، ولا خوفًا ، ولا يعبد غيره .

الثانية : كمال محبة الله تعالى ، وتعظيمه بمقتضى أسمائه الحسنى وصفاته العليا .

الثالثة : تحقيق عبادته بفعل ما أمر به ، واجتناب ما نهى عنه) .

س : مَنْ هم الملائكة ، وما معنى ملائكة ، كيف نؤمن بالملائكة ؟

ج : قلت : (والقائل / عماد) : فائدة في الملائكة :

والملك : أَصله مألك ، من الألوكة ثمَّ تصرفوا فِي لَفظه لتخفيفه فَقَالُوا ملأك ثمَّ نقلوا حَرَكَة الْهمزَة إِلَى اللَّام وحذفوا الْهمزَة فَقَالُوا ملك ، وهو مشتق من كلمة (الألوكة) التي هي الرسالة ، قَالَ اللّيثُ : سُمِّيَت الرِّسالَةُ ألوكًا ، لأنَّها تُؤْلَكُ فِي الفَمِ .

فإذًا الملائكة – معناه اللغوي – هم المُرْسَلُونَ ؛ لكن رسالة خاصّة على وجه التّعظيم لها .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية – يرحمه الله تعالى – : "والملك في اللغة : حامل الألوكة وهي الرسالة " .

والذي نستفيده من التعريف اللغوي : أن الملائكة هم سفراء الله إلى أنبيائه ورسله في تبليغ الوحي والشرائع .

أما التعريف الاصطلاحي :

فالملائكة : أجسام نورانية لطيفة أعطيت قدرة على التشكل بأشكال مختلفة ومسكنها السموات ، وهم عالم غيبي خلقهم الله من نور لحديث عَائِشَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا – قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – :

" خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ " (م / ٢٩٩٦) ، وجعلهم قائمين بطاعة الله ، خاضعين له ، لا يأكلون ، ولا يشربون ، يُسبِّحون الليل والنهار لا يفترون ، ولكلٍ أشكال وأعمال ووظائف خَصَّه الله بها مذكورة في الكتاب والسنة ، فجبريل وُكِّل بالوحي ، ومنهم مَنْ وُكِّل بقبض أرواح بني آدم وكل ذي روح وهو ملك الموت وأعوانه ، ومنهم مُوكَّل بالسحاب وهو الملك (الرعد) ؛ فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، قَالَ : أَقْبَلَتْ يَهُودُ إِلَى النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، فَقَالُوا : يَا أَبَا القَاسِمِ ، أَخْبِرْنَا عَنِ الرَّعْدِ مَا هُوَ ؟ قَالَ :

" مَلَكٌ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ مُوَكَّلٌ بِالسَّحَابِ ، مَعَهُ مَخَارِيقُ مِنْ نَارٍ يَسُوقُ بِهَا السَّحَابَ حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ " فَقَالُوا : فَمَا هَذَا الصَّوْتُ الَّذِي نَسْمَعُ ؟ قَالَ : " زَجْرَةٌ بِالسَّحَابِ إِذَا زَجَرَهُ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى حَيْثُ أُمِرَ " قَالُوا : صَدَقْتَ . فَقَالُوا : فَأَخْبِرْنَا عَمَّا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ ؟ قَالَ : اشْتَكَى عِرْقَ النَّسَا فَلَمْ يَجِدْ شَيْئًا يُلاَئِمُهُ إِلَّا لُحُومَ الإِبِلِ وَأَلْبَانَهَا فَلِذَلِكَ حَرَّمَهَا قَالُوا : صَدَقْتَ (صحيح التِّرْمِذِيّ / ٣١١٧) ، ومنهم (مالك) خازن النار (وَنادَوْا يا مالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ قالَ إِنَّكُمْ ماكِثُونَ) (الزخرف / ٧٧) ، ومنهم ميكال ، وإسرافيل وغير هؤلاء ممن علمنا أسمائهم وأعمالهم ووظائفهم ،

ويجب الإيمان بهم ، وهو أحد أركان الإيمان الستة .

– قلت : (والقائل / عماد) :

اشتُهِرَ بين الناس وجاء في معظم كتب التفاسير وكتب العقيدة أن المَلَك المُوَكَّل بالقَطْر أي المطَر ، والنبات هو (ميكائيل) وبالنفخ في الصور هو (إسرافيل) ، ولم أقف على حديث صحيح يذكر اسم المَلَك المُوَكَّل بالقَطْر ، ولا المَلَك الذي ينفخ في الصور ، وأصح ما ورد في الذي ينفخ في الصور ، حديث أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيّ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ القَرْنِ قَدِ التَقَمَ القَرْنَ وَاسْتَمَعَ الإِذْنَ مَتَى يُؤْمَرُ بِالنَّفْخِ فَيَنْفُخُ " فَكَأَنَّ ذَلِكَ ثَقُلَ عَلَى أَصْحَابِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، فَقَالَ لَهُمْ : " قُولُوا : حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا "

(صحيح التِّرْمِذِيّ / ٢٤٣١) ، فَلَمْ يُسَمِّه ، وإنما قال : " وَصَاحِبُ القَرْنِ قَدِ التَقَمَ القَرْنَ " ، ثم لو قلتم بصحة حديث – عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قَالَ : قَالَ لِي النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَلأَبِي بَكْرٍ :

" مَعَ أَحَدِكُمَا جِبْرِيلُ ، وَمَعَ الآخَرِ مِيكَائِيلُ ، وَإِسْرَافِيلُ مَلَكٌ عَظِيمٌ يَشْهَدُ الْقِتَالَ وَيَكُونُ فِي الصَّفِّ " (وقد صححه الألباني في السلسلة الصحيحة / ٣٢٤١ ، وأخرجه ابن أبي شيبة في " المصنَّف " ، وأحمد ، وابن سعد في " الطبقات " ، والبزَّار ، وأبو يَعلَى ، وابن أبي عاصم في " السُّنَّة " ، والحاكم واللفظ له) . فهنا (إِسْرَافِيلُ مَلَكٌ عَظِيمٌ يَشْهَدُ الْقِتَالَ) ؛ فهل ترك الصور الذي ينتظر الأمر بالنفخ فيه ، أم أخذه معه ، أم هناك غيره يقوم بالنفخ ؟ .

– أما الإيمان بهم فيتضمن :

١ – بوجودهم وأنهم جنس مخلوق .

٢ – بوظائفهم المعزوّة إليهم .

٣ – بأسمائهم (كجبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل) .

٤ – بصفاتهم كما رأى النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – جِبْرِيلَ لَهُ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ (م / ٤٥٠) .

س : ما ثمرات الإيمان بالملائكة ؟

ج : والإيمان بالملائكة يثمر ثمرات جليلة ، منها :

الأولى : العلم بعظمة الله تعالى ، وقوَّته ، وسلطانه ، فإن عظمة المخلوق من عظمة الخالق .

الثانية : شكر الله تعالى على عنايته ببني آدم ، حيث وكَّل من هؤلاء الملائكة من يقوم بحفظهم ، وكتابة أعمالهم ، وغير ذلك من مصالحهم .

الثالثة : محبة الملائكة على ما قاموا به من عبادة الله تعالى .

قلت : (والقائل / عماد) : فائدة في الإيمان بالكتب

س : وماذا يشمل الإيمان بالكتب ؟

ج : ١ – بكونها مُنَزَّلة من عند الله .

٢ – الإيمان بما جاء بها من أخبار .

٣ – العمل بما أُمر العبد فيها من مأمورات .

٤ – الانتهاء عما نُهِي العبد عنه فيها .

س : ما معنى الإيمان بالكتب السماوية ؟

ج : قال الشيخ ابن عثيمين في (شرحه / ٩١) : الكتب : جمع (كتاب) بمعنى (مكتوب) .

والمراد بها هنا : الكتب التي أنزلها تعالى على رسله رحمة للخلق ، وهداية لهم ، ليصلوا بها إلى سعادتهم في الدنيا والآخرة .

س : ماذا يتضمن الإيمان بالكتب ؟

ج : قال الشيخ ابن عثيمين في (شرحه / ٩١) : الإيمان بالكتب يتضمن أربعة أمور :

الأول : الإيمان بأن نزولها من عند الله حقًا .

الثاني : الإيمان بما علمنا اسمه منها باسمه كالقرآن الذي نزل على محمد – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ،

والتوراة التي أنزلت على موسى – عليه السلام – ، والإنجيل الذي أنزل على عيسى – عليه السلام – ،

والزبور الذي أوتيه داود – عليه السلام – ، وأما ما لم نعلم اسمه فنؤمن به إجمالًا .

الثالث : تصديق ما صح من أخبارها ، كأخبار القرآن ، وأخبار ما لم يبدل أو يحرف من الكتب السابقة .

الرابع : العمل بأحكام ما لم ينسخ منها ، والرضا والتسليم به سواء أفهمنا حكمته أم لم نفهمها ، وجميع الكتب السابقة منسوخة بالقرآن العظيم قال الله تعالى : (وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ) (المائدة / ٤٨) أي (حاكمًا عليه) وعلى هذا فلا يجوز العمل بأي حكم من أحكام الكتب السابقة إلا ما صح منها وأقرَّه القرآن) .

س : ما ثمرات الإيمان بالكتب ؟

ج : قال الشيخ ابن عثيمين في (شرحه / ٩٢) : والإيمان بالكتب يثمر ثمرات جليلة منها :

الأولى : العلم بعناية الله تعالى بعباده حيث أنزل لكل قوم كتابًا يهديهم به .

الثانية : العلم بحكمة الله تعالى في شرعه حيث شرع لكل قوم ما يناسب أحوالهم ، كما قال الله تعالى :

(لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا) (المائدة / ٤٨) .

الثالثة : شكر نعمة الله في ذلك .

قلت : (والقائل / عماد) : فائدة في الإيمان بالرسل

س : ما حقيقة الإيمان بالرسل ؟

ج : يشمل أربعة أمور :

١ – الإيمان بأنهم مرسلون من عند الله .

٢ – الإيمان بالأخبار التي يأتون بها تصديقًا .

٣ – الائتمار بما أَمروا به .

٤ – الانزجار عما زَجروا عنه .

س : ما معنى الإيمان بالرسل ؟

ج : قال العلامة ابن عثيمين في (شرحه / ٩٣) : الرسل : جمع رسول بمعنى (مُرسَل) أي مبعوث بإبلاغ شيء .

والمراد هنا : مَنْ أُوحى إليه من البشر بشرع وأُمر بتبليغه .

وأولهم (نوح) عليه السلام ففي صحيح البخاري عن أنس بن مالك – رضي الله عنه – في حديث الشفاعة أن النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – (ذكر أن الناس يأتون إلى آدم ليشفع لهم فيعتذر ، إليهم ويقول :

" ائْتُوا نُوحًا فَإِنَّهُ أَوَّلُ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ " (خ / ٤٤٧٦) – وذكر تمام الحديث .

وقال الله تعالى في محمد – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : (مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا) (الأحزاب / ٤٠) . ولم تخل أمة من رسول يبعثه الله تعالى بشريعة مستقلة إلى قومه ، أو نبي يوحَي إليه بشريعة مَنْ قَبَله ليجددها ، قال الله تعالى : (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُواْ اللَّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ) (النحل / ٣٦) . والرسل بشر مخلوقون ليس لهم من خصائص الربوبية والألوهية شيء ، قال الله تعالى عن نبيه محمد – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وهو سيد المرسلين وأعظمهم جاهًا عند الله : (قُل لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلا مَا شَاء اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ) (الأعراف / ١٨٨) .

وتلحقهم خصائص البشرية من المرض ، والموت ، والحاجة إلى الطعام والشراب ، وغير ذلك ، قال الله تعالى عن إبراهيم – عليه السلام – في وصفه لربه تعالى : (وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ) (الشعراء / ٧٨ – ٧٩) .

س : ما ثمرات الإيمان بالرسل ؟

ج : قال العلامة ابن عثيمين في (شرحه / ٩٦) : وللإيمان بالرسل ثمرات جليلة ، منها :

الأولى : العلم برحمة الله تعالى وعنايته بعباده حيث أرسل إليهم الرسل ليهدوهم إلى صراط الله تعالى ، ويبينوا لهم كيف يعبدون الله ، لأن العقل البشري لا يستقل بمعرفة ذلك .

الثانية : شكره تعالى على هذه النعمة الكبرى .

الثالثة : محبة الرسل عليهم الصلاة والسلام وتعظيمهم ، والثناء عليهم بما يليق بهم ، لأنهم رسل الله تعالى ، ولأنهم قاموا بعبادته ، وتبليغ رسالته ، والنصح لعباده .

وقد كذب المعاندون رسلهم زاعمين أن رسل الله تعالى لا يكونون من البشر وقد ذكر الله تعالى هذا الزعم وأبطله بقوله (وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُواْ إِذْ جَاءهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَن قَالُواْ أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا (٩٤) قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلآئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاء مَلَكًا رَّسُولًا) (الإسراء / ٩٤ – ٩٥) فأبطل الله تعالى هذا الزعم بأنه لا بدَّ أن يكون الرسول بشرًا لأنه مرسَل إلى أهل الأرض ، وهم بشر ، ولو كان أهل الأرض ملائكة لنزَّل الله عليهم من السماء ملكًا رسولًا ، ليكون مثلهم ، وهكذا حكى الله تعالى عن المكذِّبين للرسل أنهم قالوا : (إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (١٠) قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ) (إبراهيم / ١٠– ١١) .

(٢) كَفَتَاهُ : أَيْ دَفَعَتَا عَنْهُ الشِّرْكَ وَالْمَكْرُوهَ ، و(كَفَتَاهُ) : بالتخفيف أي اغنتاه عَن قيام اللَّيْل ، وَهُوَ مِنْ كَفَى يَكْفِي إِذَا دَفَعَ عَنْ أَحَدٍ شَيْئًا وَأَغْنَاهُ ، وَقِيلَ : كَفَتَاهُ عَنْ قِيَامِ اللَّيْلِ أَوْ كَفَتَاهُ عَنْ سَائِرِ الْأَوْرَادِ أَوْ أَرَادَ أَنَّهُمَا أَقَلُّ مَا يُجْزِئُ مِنَ الْقِرَاءَةِ فِي قِيَامِ اللَّيْلِ ، قَالَ ابْنُ حَجَرٍ : وَيُحْتَمَلُ وَهُوَ الظَّاهِرُ الْمُنَاسِبُ لِنَظْمِهِمَا أَنَّهُمَا كَفَتَاهُ عَنْ تَجْدِيدِ الْإِيمَانِ ، لأن من تأمل أولاهما أدنى تأمل حصل له من الرسوخ في الإيمان والإيقان مقام خطير وحظ كبير ، لاشتمالها على غاية التفويض والتسليم لأقضية الله وأوامره ونواهيه لأن من تأمل قول أولئك الكمل (سمعنا وأطعنا) حمله ذلك على التأسي بهم في هذا المقام العلي وغاية التواضع للَّه وهضم النفس باعتقاد أنها ليست على شيء ، لأن من تأمل قول أولئك الكمل ربما حمله على التأسي بهم فيه أيضًا ، وغاية ذكر الموت واستحضار البعث الحامل أولهما على تكثير العمل وتقليل الأمل ، وثانيهما على التبري من حقوق الخلق ، لأن من تأمل رجوعه إلى الله تعالى للحساب سارع فيما يبرئه ويخلصه من ورطة المناقشة في الحساب ، وَأَخَذَ البعض هَذَا الْمَعْنَى مِنْ قَوْلِهِ – تَعَالَى – (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا) (النساء / ١٣٦) أَيْ دُومُوا عَلَى الْإِيمَانِ ، وَمِنْ قَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : " جَدِّدُوا إِيمَانَكُمْ " قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ نُجَدِّدُ إِيمَانَنَا ؟ قَالَ : " أَكْثِرُوا مِنْ قَوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ " (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ) ، وَقيل : مَا يكون من الْآفَات تِلْكَ اللَّيْلَة ، وَقيل : من الشَّيْطَان وشره ، وَقيل : كفتاه من حزبه إِن كَانَ لَهُ حزب من الْقُرْآن ، وَقيل : حَسبه بهما أجرًا وفضلًا ، وَقيل : أقل مَا يَكْفِي فِي قيام اللَّيْل آيتان مَعَ أم الْقُرْآن وَقيل : أَي دفعتا عَن قاريهما شَرّ الْإِنْس وَالْجِنّ تلك الليلة بالقرآن وأجزأتا عنه من ذلك . وقيل : أجزأتا عنه عن قراءة القرآن مطلقًا ، سواء أكان داخل الصلاة أم خارجها .

وقيل : معناه كفتاه كل سوء ووقتاه من كل مكروه ، أو أجزأتاه فيما يتعلق بالاعتقاد لما اشتملا عليه من الإيمان والأعمال إجمالا ، أو وقتاه من كل سوء مكروه وكفتاه شر الشيطان أو الآفات ، وقيل : دفعتا عنه شر الثقلين الإنس والجن أو شر آفات تلك الليلة . وقيل معناه كفتاه ما حصل له بسببهما من الثواب عن طلب ثواب شي آخر وكأنهما اختصتا بذلك لما تضمنتاه من الثناء على الصحابة بجميل انقيادهم إلى الله وابتهالهم ورجوعهم إليه وما حصل لهم من الإجابة إلى مطلوبهم ، وقيل من الكفاية بمعنى الإجزاء : أي أجزأتاه ، وعن قراءة آية الكرسي المتضمنة لقارئها عند النوم الأمن على داره ، وقيل : لم ينزل خيرٌ من خير الدنيا والآخرة إلا اشتملت عليه هاتان الآيتان أما خير الآخرة فإن قوله (آمن الرسول) إلى قوله (لا نفرق بين أحد من رسله) إشارة إلى الإيمان والتصديق ، وقوله (سمعنا وأطعنا) إلى الإسلام والإنقياد والأعمال الظاهرة ، وقوله (وإليك المصير) إشارة إلى جزاء العمل في الآخرة ، وقوله (لا يكلف الله نفسًا إلا ...) إلخ إشارة إلى المنافع الدنيوية لما فيهما من الذكر والدعاء والإيمان بجميع الكتب والرسل وغير ذلك ولهذا أنزلتا من كنز تحت العرش ، أو كفتاه عما وَرَدَ من الأدعية الكثيرة لأن الدعاء بما فيهما متكفل لخير الدنيا والآخرة .

وقال الشوكاني في تحفة الذاكرين بعد ذكر بعض هذه الوجوه : ولا مانع من إرادة هذه الأمور جميعها ويؤيد ذلك ما تقرر في علم المعاني والبيان من أن حذف المتعلق مشعر بالتعميم فكأنه قال كفتاه من كل شر أو من كل ما يخاف وفضل الله واسع .

ما يستفاد من الحديث

(مَنْ قَرَأَ بِالآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ)

(مَنْ قَرَأَ)

– التشويق والتحفيز ، وهذا من براعة الاستهلال ، حتى يَهْتَم المستَمِع لما سيأتي من كلام .

(بِالآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ)

(ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٥) لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٨٦))

– فضل قراءة القرآن عمومًا ، والحثّ على هذه العبادة .

– التنصيص على تسمية هذه السورة بسورة البقرة .

– هاتان الآيتان تتضمنان :

١ – (ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ) : فضل الرسول ، وأنه مُرسَل من عند الله .

٢ – إثبات صفة العلو لله ، فالإنزال يكون من علوٍ .

٣ – رحمة الله بخلقه إذ أرسل إليهم الرسل ؛ ليرشدوهم ويذكروهم ويبلغوهم شرائع الله .

٤ – (كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ) : الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله .

٥ – (لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ) : عدم التفريق بين أحدٍ من رسل الله .

٦ – (وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا) : هذه من الكلمات الفارقة بين المؤمنين وغيرِهم ؛ فالمؤمنون يقولون لأوامر الله : (سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا) ، بخلاف غيرهم .

٧ – (غُفْرَانَكَ رَبَّنَا) : إثبات صفة المغفرة لله عز وجل .

٨ – (وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ) : الركن الخامس من أركان الإيمان ؛ فبعد أن ذكر الأركان الأربعة (بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ) ذكر (وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ) وهو الإيمان باليوم الآخر .

٩ – حكمة الله وعدله تقتضيان أن يكون هناك يوم آخر لإثابة الطائعين ، ومعاقبة العاصين .

١٠ – (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) : رحمة الله بخلقه ، وأنه لا يكلفهم إلا بما يستطيعون .

١١ – علم الله المحيط بكل شيء ، ومن ذلك علمه بما في مقدورهم .

١٢ – (لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ) : بيان أن الله أحكم الحاكمين يحكم بين عباده ، وأن لكل نفس ما اجترحت وعملت من خير ، " وعليها " ما عملت من شر .

١٣ – (رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) : هذا تعليم من الله عز وجل عباده المؤمنين دعاءه كيف يدعونه ، وما يقولونه في دعائهم إياه .

١٤ – إثبات لله أنه (عفوّ ، وغفور) .

١٥ – بيان أن الله مولى وناصر ومعين المسلمين على غيرهم .

١٦ – بيان أن يكون بين المسلمين وغيرهم الحروب والمعارك التي تتطلب استنصار الله عليهم .

١٧ – مشروعية تسمية المخالفين للمسلمين بالكافرين .

(فِي لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ)

– فضل هاتين الآيتين خاصة ، وأنهما تكفيان من كل شر أو من كل ما يُخاف ، أو تجزءان عن قيام تلك الليلة أو عن قراءة القرآن ، أو غير ذلك مما ذُكر .

ومما جاء في فضائلهما : – عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يَقُولُ : " اقْرَءُوا هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ فِي آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ ، فَإِنَّ رَبِّي أَعْطَانِيهِمَا مِنْ تَحْتِ الْعَرْشِ "

(رواهُ أحمدُ ، انظر حديث رقم : ١١٧٢ في صحيح الجامع) .

– عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – عَنِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ :

" إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ كِتَابًا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِأَلْفَيْ عَامٍ ، أَنْزَلَ مِنْهُ آيَتَيْنِ خَتَمَ بِهِمَا سُورَةَ الْبَقَرَةِ ، وَلاَ يُقْرَآنِ فِي دَارٍ ثَلاثَ لَيَالٍ فَيَقْرَبُهَا شَيْطَانٌ " (صحيح التِّرْمِذِيّ / ٢٨٨٢) .

أحاديث غير مقبولة

– أولًا : في أذكار الصباح والمساء :

١ – " مَنْ صَلَّى عَلَيَّ حين يُصبِح عَشْرًا ، وحين يُمسِي عَشْرًا ، أَدْرَكَتْهُ شفاعتي يوم القيامة "
ذكره الشيخ الألباني في صحيح الجامع (٦٣٥٧). ثم ضعفه في ضعيف الترغيب (٣٩٦)، الضعيفة (٥٧٨٨) .

٢ – عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ، قَالَ: دَخَلَ رَسُولُ صَلَّى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ الْمَسْجِدَ ، فَإِذَا هُوَ بِرَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ ، يُقَالُ لَهُ: أَبُو أُمَامَةَ ، فَقَالَ : « يَا أُمَامَةَ ، مَا لِي أَرَاكَ جَالِسًا فِي الْمَسْجِدِ فِي غَيْرِ وَقْتِ الصَّلَاةِ ؟ » ، قَالَ : هُمُومٌ لَزِمَتْنِي ، وَدُيُونٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ : « أَفَلَا أُعَلِّمُكَ كَلَامًا إِذَا أَنْتَ قُلْتَهُ أَذْهَبَ عَزَّ وَجَلَّ هَمَّكَ ، وَقَضَى عَنْكَ دَيْنَكَ ؟ » ، قَالَ : قُلْتُ : بَلَى ، يَا رَسُولَ ، قَالَ : " قُلْ إِذَا أَصْبَحْتَ ، وَإِذَا أَمْسَيْتَ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُبْنِ وَالْبُخْلِ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ غَلَبَةِ الدَّيْنِ ، وَقَهْرِ الرِّجَالِ " ، قَالَ : فَفَعَلْتُ ذَلِكَ ، فَأَذْهَبَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَمِّي ، وَقَضَى عَنِّي دَيْنِي "
(ضعيف أبي دَاوُد / ١٥٥٥) .

٣ – عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ غَنَّامٍ الْبَيَاضِيِّ ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ :
" مَنْ قَالَ حِينَ يُصْبِحُ اللَّهُمَّ مَا أَصْبَحَ بِي مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنْكَ وَحْدَكَ ، لَا شَرِيكَ لَكَ ، فَلَكَ الْحَمْدُ ، وَلَكَ الشُّكْرُ ، فَقَدْ أَدَّى شُكْرَ يَوْمِهِ ، وَمَنْ قَالَ مِثْلَ ذَلِكَ حِينَ يُمْسِي فَقَدْ أَدَّى شُكْرَ لَيْلَتِهِ "
(ضعيف أبي دَاوُد / ٥٠٧٣) .

٤ – عَن أَبِي مَالِكٍ الأشعري أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ:
" إِذَا أَصْبَحَ أَحَدُكُمْ فَلْيَقُلْ : أَصْبَحْنَا وَأَصْبَحَ الْمُلْكُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَ هَذَا الْيَوْمِ فَتْحَهُ ، وَنَصْرَهُ ، وَنُورَهُ ، وَبَرَكَتَهُ ، وَهُدَاهُ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا فِيهِ وَشَرِّ مَا بَعْدَهُ ، ثُمَّ إِذَا أَمْسَى فَلْيَقُلْ مِثْلَ ذَلِكَ "
(ضعيف أبي دَاوُد / ٥٠٨٤) .

٥ – عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ :
" مَنْ قَالَ حِينَ يُصْبِحُ أَوْ يُمْسِي : اللَّهُمَّ إِنِّي أَصْبَحْتُ أُشْهِدُكَ وَأُشْهِدُ حَمَلَةَ عَرْشِكَ وَمَلَائِكَتَكَ ، وَجَمِيعَ خَلْقِكَ أَنَّكَ أَنْتَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ أَعْتَقَ اللَّهُ رُبُعَهُ مِنَ النَّارِ ، فَمَنْ قَالَهَا مَرَّتَيْنِ أَعْتَقَ اللَّهُ نِصْفَهُ ، وَمَنْ قَالَهَا ثَلَاثًا أَعْتَقَ اللَّهُ ثَلَاثَةَ أَرْبَاعِهِ ، فَإِنْ قَالَهَا أَرْبَعًا أَعْتَقَهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ " (ضعيف أبي دَاوُد / ٥٠٦٩) .

٦ – عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رضى الله عنه قَالَ مَنْ قَالَ إِذَا أَصْبَحَ وَإِذَا أَمْسَى حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ سَبْعَ مَرَّاتٍ كَفَاهُ اللَّهُ مَا أَهَمَّهُ صَادِقًا كَانَ بِهَا أَوْ كَاذِبًا . (ضعيف أبي دَاوُد / ٥٠٨١) .

٧ – عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم – أَنَّهُ قَالَ « مَنْ قَالَ حِينَ يُصْبِحُ (فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ وَلَهُ الْحَمْدُ فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ) إِلَى (وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ) أَدْرَكَ مَا فَاتَهُ فِى يَوْمِهِ ذَلِكَ وَمَنْ قَالَهُنَّ حِينَ يُمْسِى أَدْرَكَ مَا فَاتَهُ فِى لَيْلَتِهِ » (ضعيف أبي دَاوُد / ٥٠٧٨) .

٨ – عَنْ عَبْدِ الْحَمِيدِ مَوْلَى بَنِي هَاشِمٍ حَدَّثَ أَنَّ أُمَّهُ حَدَّثَتْهُ وَكَانَتْ تَخْدِمُ بَعْضَ بَنَاتِ النَّبِيِّ – صلى الله عليه وسلم – أَنَّ بِنْتَ النَّبِيِّ – صلى الله عليه وسلم – حَدَّثَتْهَا أَنَّ النَّبِيَّ – صلى الله عليه وسلم – كَانَ يُعَلِّمُهَا فَيَقُولُ « قُولِى حِينَ تُصْبِحِينَ سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ لا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا فَإِنَّهُ مَنْ قَالَهُنَّ حِينَ يُصْبِحُ حُفِظَ حَتَّى يُمْسِىَ وَمَنْ قَالَهُنَّ حِينَ يُمْسِى حُفِظَ حَتَّى يُصْبِحَ » (ضعيف أبي دَاوُد / ٥٠٧٧)

٩ – عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ ، عَنْ أَبِيهِ ، عَنْ جَدِّهِ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : مَنْ سَبَّحَ اللَّهَ مِائَةً بِالغَدَاةِ وَمِائَةً بِالعَشِيِّ كَانَ كَمَنْ حَجَّ مِائَةَ حَجَّةٍ ، وَمَنْ حَمِدَ اللَّهَ مِائَةً بِالغَدَاةِ وَمِائَةً بِالعَشِيِّ كَانَ كَمَنْ حَمَلَ عَلَى مِائَةِ فَرَسٍ فِي سَبِيلِ اللهِ ، أَوْ قَالَ غَزَا مِائَةَ غَزْوَةٍ ، وَمَنْ هَلَّلَ اللَّهَ مِائَةً بِالغَدَاةِ وَمِائَةً بِالعَشِيِّ كَانَ كَمَنْ أَعْتَقَ مِائَةَ رَقَبَةٍ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ ، وَمَنْ كَبَّرَ اللَّهَ مِائَةً بِالغَدَاةِ وَمِائَةً بِالعَشِيِّ لَمْ يَأْتِ فِي ذَلِكَ اليَوْمِ أَحَدٌ بِأَكْثَرَ مِمَّا أَتَى إِلَّا مَنْ قَالَ مِثْلَ مَا قَالَ أَوْ زَادَ عَلَى مَا قَالَ . (ضعيف التِّرْمِذِيّ / ٣٤٧١) .

١٠ – عَنْ أَبِي العَلاءِ بْنِ الشِّخِّيرِ ، عَنْ رَجُلٍ مَنْ بَنِي حَنْظَلَةَ ، قَالَ : صَحِبْتُ شَدَّادَ بْنَ أَوْسٍ فِي سَفَرٍ ، فَقَالَ : أَلا أُعَلِّمُكَ مَا كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعَلِّمُنَا أَنْ نَقُولَ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ فِي الأَمْرِ ، وَأَسْأَلُكَ عَزِيمَةَ الرُّشْدِ ، وَأَسْأَلُكَ شُكْرَ نِعْمَتِكَ ، وَحُسْنَ عِبَادَتِكَ ، وَأَسْأَلُكَ لِسَانًا صَادِقًا ، وَقَلْبًا سَلِيمًا ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا تَعْلَمُ ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا تَعْلَمُ ، وَأَسْتَغْفِرُكَ مِمَّا تَعْلَمُ إِنَّكَ أَنْتَ عَلامُ الغُيُوبِ . قَالَ : وَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَأْخُذُ مَضْجَعَهُ ، يَقْرَأُ سُورَةً مِنْ كِتَابِ اللهِ ، إِلَّا وَكَّلَ اللَّهُ بِهِ مَلَكًا ، فَلا يَقْرَبُهُ شَيْءٌ يُؤْذِيهِ حَتَّى يَهُبَّ مَتَى هَبَّ . (ضعيف التِّرْمِذِيّ / ٣٤٠٧) .

١١ – عَنْ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ : " مَنْ قَالَ حِينَ يُصْبِحُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ : أَعُوذُ بِاللَّهِ السَّمِيعِ العَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ وَقَرَأَ ثَلَاثَ آيَاتٍ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الحَشْرِ وَكَّلَ اللَّهُ بِهِ سَبْعِينَ أَلْفَ مَلَكٍ يُصَلُّونَ عَلَيْهِ حَتَّى يُمْسِيَ ، وَإِنْ مَاتَ فِي ذَلِكَ اليَوْمِ مَاتَ شَهِيدًا ، وَمَنْ قَالَهَا حِينَ يُمْسِي كَانَ بِتِلْكَ المَنْزِلَةِ " (ضعيف التِّرْمِذِيّ / ٢٩٢٢) .

١٢ – عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :
" مَنْ قَرَأَ حم الْمُؤْمِنَ إِلَى (إِلَيْهِ الْمَصِيرُ) وَآيَةَ الكُرْسِيِّ حِينَ يُصْبِحُ حُفِظَ بِهِمَا حَتَّى يُمْسِيَ ، وَمَنْ قَرَأَهُمَا حِينَ يُمْسِي حُفِظَ بِهِمَا حَتَّى يُصْبِحَ " (ضعيف التِّرْمِذِيّ / ٢٨٧٩) .

١٣ – عَنْ عَبْدُ اللَّهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَصْبَحَ قَالَ :
« أَصْبَحْنَا وَأَصْبَحَ الْمُلْكُ لِلَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَالْكِبْرِيَاءُ وَالْعَظَمَةُ لِلَّهِ وَالْخَلْقُ وَالْأَمْرُ وَاللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَمَا سَكَنَ فِيهِمَا لِلَّهِ اللَّهُمَّ اجْعَلْ أَوَّلَ هَذَا النَّهَارِ صَلَاحًا وَأَوْسَطَهُ نَجَاحًا وَآخِرَهُ فَلَاحًا يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ »
(ابْن السُّني / السلسلة الضعيفة / ٢٠٤٨) .

١٤ – (كَانَ إِذَا أَصْبَحَ وَأَمْسَى ؛ دَعَا بِهَذِهِ الدَّعَوَاتِ : اللَّهُمَّ أَنْتَ أَحَقُّ مَنْ ذُكِرَ ، وَأَحَقُّ مَنْ عُبَدَ ، وَأَنصر مَنْ ابتُغِيَ ، وأرأف من مَلَك ، وأجود من سُئل ، وأوسع مَنْ أَعْطَى ، أَنْتَ الْمَلِكُ لا شَرِيكَ لَكَ ... أَسْأَلُكَ بنورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ ، بِكُلِّ حَقٍّ هُوَ لَكَ ، وَبِحَقِّ السَّائِلِينَ عَلَيْكَ أَنْ تَقْبَلَنِي فِي هَذِهِ الْغَدَاةِ أَوْ فِي هَذِهِ الْعَشِيَّةِ ، وَأَنْ تُجِيرَنِي مِنَ النَّارِ بِقُدْرَتِكَ) (أخرجه الطبراني في " المعجم الكبير " ، السلسلة الضعيفة / ٦٢٥٣) .

١٥ – (كان إبراهيم عليه السلام إذا أصبح قال : (سبحان الله حين تمسون ، وحين تصبحون ...) الآيات) .
أخرجه الديلمي (٤/ ١٣٦) ، السلسلة الضعيفة / ٤٠٢٦) .

١٦ – عَنْ أَنَسٍ ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَدْعُو بِهَذِهِ الدَّعَوَاتِ إِذَا أَصْبَحَ وَإِذَا أَمْسَى :
« اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ فَجْأَةِ الْخَيْرِ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فَجْأَةِ الشَّرِّ ، فَإِنَّ الْعَبْدَ لَا يَدْرِي مَا يَفْجَؤُهُ إِذَا أَصْبَحَ وَإِذَا أَمْسَى »
(أخرجه أبو يعلى ، السلسلة الضعيفة / ٤١٧٥) .

١٧ – عَنْ أَبَانَ الْمُحَارِبِيِّ ، – وَكَانَ مِنَ الْوَفْدِ الَّذِينَ وَفَدُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ عَبْدِ الْقَيْسِ – أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : " مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَقُولُ إِذَا أَصْبَحَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ ، رَبِّيَ اللهُ لَا أُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، إِلَّا ظَنَّ يُغْفَرُ لَهُ ذُنُوبُهُ حَتَّى يُمْسِيَ ، وَإِنْ قَالَهَا إِذَا أَمْسَى بَاتَ يُغْفَرُ لَهُ ذُنُوبُهُ حَتَّى يُصْبِحَ "
(ابن السني ، والطبراني في "المعجم الكبير" ، السلسلة الضعيفة / ٥١٨٢) .

١٨ – قَالَ سَمُرَةُ بْنُ جُنْدُبٍ سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :
« مَنْ قَالَ إِذَا أَصْبَحَ وَإِذَا أَمْسَى : اللَّهُمَّ أَنْتَ خَلَقْتَنِي ، وَأَنْتَ تَهْدِينِي ، وَأَنْتَ تُطْعِمُنِي ، وَأَنْتَ تَسْقِينِي ، وَأَنْتَ تُمِيتُنِي ، وَأَنْتَ تُحْيِينِي ، لَمْ يَسْأَلْ شَيْئًا إِلَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ إِيَّاهُ» (أخرجه الطبراني في "المعجم الأوسط" ، السلسلة الضعيفة / ٥٣٤٩) .

١٩ – عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :
" مَنْ قَالَ إِذَا أَصْبَحَ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَصْبَحْتُ مِنْكَ فِي نِعْمَةٍ وَعَافِيَةٍ وَسِتْرٍ ، فَأَتِمَّ عَلَيَّ نِعْمَتَكَ وَعَافِيَتَكَ وَسِتْرَكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ إِذَا أَصْبَحَ وَإِذَا أَمْسَى ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُتِمَّ عَلَيْهِ نِعْمَتَهُ "
(أخرجه ابن السني في "اليوم والليلة" ، السلسلة الضعيفة / ٦٠٧٠) .

٢٠ – عَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَصْبَحَ وَأَمْسَى دَعَا بِهَذِهِ الدَّعَوَاتِ :
« اللهُمَّ أَنْتَ أَحَقُّ مَنْ ذُكِرَ ، وَأَحَقُّ مَنْ أَعْطَى ، أَنْتَ الْمَلِكُ لَا شَرِيكَ لَكَ ، وَالْفَرْدُ لَا تَهْلِكُ ، كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَكَ لَنْ تُطَاعَ إِلَّا بِإِذْنِكَ ، وَلَمْ تُعْصَ إِلَّا بِعِلْمِكَ ، تُطَاعُ فَتَشْكُرُ ، وَتُعْصَى فَتَغْفِرُ ، أَقْرَبُ شَهِيدٍ وَأَدْنَى حَفِيظٍ حُلْتَ دُونَ الثُّغُورِ ، وَأَخَذْتَ بِالنَّوَاصِي ، وَكَتَبْتَ الْآثَارَ ، وَنَسَخْتَ الْآجَالَ ، الْقُلُوبُ لَكَ مُفْضِيَةٌ ، وَالسِّرُّ عِنْدَكَ عَلَانِيَةٌ ، وَالْحَلَالُ مَا أَحْلَلْتَ ، وَالْحَرَامُ مَا حَرَّمْتَ ، وَالدِّينُ مَا شَرَّعْتَ ، وَالْأَمْرُ مَا قَضَيْتَ ، وَالْخَلْقُ خَلْقُكَ ، وَالْعَبْدُ عَبْدُكَ ، وَأَنْتَ اللهُ الرَّءُوفُ الرَّحِيمُ ، أَسْأَلُكَ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ بِكُلِّ حَقٍّ هُوَ لَكَ ، وَبِحَقِّ السَّائِلِينَ عَلَيْكَ أَنْ تَقْبَلَنِي فِي هَذِهِ الْغَدَاةِ ، أَوْ فِي هَذِهِ الْعَشِيَّةِ ، وَأَنْ تُجِيرَنِي مِنَ النَّارِ بِقُدْرَتِكَ »
(أخرجه الطبراني في "المعجم الكبير" ، السلسلة الضعيفة / ٦٢٥٣) .

٢١ – عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :
" مَنْ قَالَ إِذَا أَصْبَحَ : سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ أَلْفَ مَرَّةٍ ، فَقَدِ اشْتَرَى نَفْسَهُ مِنَ اللَّهِ ، وَكَانَ مِنْ آخِرِ يَوْمِهِ عَتِيقًا مِنَ النَّارِ "
أخرجه الخرائطي في " مكارم الأخلاق " ، والطبراني في " الأوسط " ، السلسلة الضعيفة / ٥٢٩٦) .

٢٢ – عَنْ سَلْمَانَ ، قَالَ : " مَنْ قَالَ إِذَا أَصْبَحَ : اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا شَرِيكَ لَكَ ، أَصْبَحْنَا وَأَصْبَحَ الْمُلْكُ لِلَّهِ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَإِذَا أَمْسَى قَالَ مِثْلَ ذَلِكَ ، كَانَ كَفَّارَةً لِمَا حَدَثَ بَيْنَهُمَا "
(ابن السني في عمل اليوم والليلة) ، قال الشيخ الألباني : (ضعيف) انظر حديث رقم : ٣٨٠ في ضعيف الجامع

٢٣ – وروي عن حذيفة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :
" ليس منا من حلف بالأمانة وليس منا من خان امرأ مسلما في أهله وخادمه) ومن قال حين يمسي وحين يصبح اللهم إني أشهدك بأنك أنت الله الذي لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك وأن محمدا عبدك ورسولك أبوء بنعمتك علي وأبوء بذنبي فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب غيرك فإن قالها من يومه ذلك حين يصبح فمات من يومه ذلك قبل أن يمسي مات شهيدا وإن قالها حين يمسي فمات من ليلته مات شهيدا " (ما بين القوسين صحيح) (ضعيف الترغيب / ٣٨١) .

٢٤ – وروي عن أبي الدرداء رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا يدع رجل منكم أن يعمل لله كل يوم ألفي حسنة حين يصبح يقول سبحان الله وبحمده مائة مرة فإنها ألفا حسنة والله إن شاء الله لن يعمل في يومه من الذنوب مثل ذلك ويكون ما عمل من خير سوى ذلك وافرا (ضعيف الترغيب / ٣٨٩) .

٢٥ – عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
من قرأ الدخان كلها وأول حم غافر إلى وإليه المصير وآية الكرسي حين يمسي حفظ بها حتى يصبح
ومن قرأها حين يصبح حفظ بها حتى يمسي (ضعيف الترغيب / ٣٩٠) .

٢٦ – عَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:
« مَنْ قَالَ حِينَ يُصْبِحُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ : اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ، أَنْتَ رَبِّي ، وَأَنَا عَبْدُكَ ، آمَنْتُ بِكَ مُخْلِصًا لَكَ دِينِي ، أَصْبَحْتُ عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ ، أَتُوبُ إِلَيْكَ مِنْ شَرِّ عَمَلِي ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِذُنُوبِي الَّتِي لَا يَغْفِرُهَا إِلَّا أَنْتَ ، فَإِنْ مَاتَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ دَخَلَ الْجَنَّةَ ، وَإِنْ قَالَ حِينَ يُمْسِي ثَلَاثَ مَرَّاتٍ : اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ، أَنْتَ رَبِّي ، وَأَنَا عَبْدُكَ ، أَمْسَيْتُ عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ ، أَتُوبُ إِلَيْكَ مِنْ شَرِّ عَمَلِي ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِذُنُوبِي الَّتِي لَا يَغْفِرُهَا إِلَّا أَنْتَ ، فَمَاتَ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ دَخَلَ الْجَنَّةَ » . ثُمَّ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَحْلِفُ مَا لَا يَحْلِفُ عَلَى غَيْرِهِ ، يَقُولُ : « وَاللَّهِ مَا قَالَهَا عَبْدٌ فِي يَوْمٍ حِينَ يُصْبِحُ فَيَمُوتُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ ، وَإِنْ قَالَهَا حِينَ يُمْسِي فَتُوُفِّيَ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ دَخَلَ الْجَنَّةَ » (الطبراني في " الأوسط " ، السلسلة الضعيفة / ٥٢٩٧) .

٢٧ – وعن زيد بن ثابت رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم علمه دعاء وَأَمَرَهُ أَنْ يَتَعَاهَدُهُ وَيَتَعَاهَدَ بِهِ أَهْلَهُ كُلَّ يَوْمٍ قَالَ : " قُلْ حِينَ تُصْبِحُ: لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ ، لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ ، وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ ، وَمِنْكَ [وَبِكَ] وَإِلَيْكَ ، اللَّهُمَّ مَا قُلْتُ مِنْ قَوْلٍ ، أَوْ حَلَفْتُ مِنْ حَلِفٍ ، أَوْ نَذَرْتُ مِنْ نَذْرٍ فَمَشِيئَتُكَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، مَا شِئْتَ كَانَ ، وَمَا لَمْ تَشَأْ لَمْ يَكُنْ ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، اللَّهُمَّ مَا صَلَّيْتُ مِنْ صَلَاةٍ فَعَلَى مَنْ صَلَّيْتَ ، وَمَا لَعَنْتُ مِنْ لَعْنَةٍ فَعَلَى مَنْ لَعَنْتَ ، أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ، اللَّهُمَّ [إِنِّي] أَسْأَلُكَ الرِّضَا بَعْدَ الْقَضَاءِ ، وَبَرْدَ الْعَيْشِ بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَلَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ [الْكَرِيمِ] ، وَشَوْقًا إِلَى لِقَائِكَ مِنْ غَيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ ، وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ ، أَعُوذُ بِكَ اللَّهُمَّ أَنْ أَظْلِمَ أَوْ أُظْلَمَ ، أَوْ أَعْتَدِيَ أَوْ يُعْتَدَى عَلَيَّ ، أَوْ أَكْسِبَ خَطِيئَةً مُحِيطَةً [مُخْطِئَةً] أَوْ ذَنْبًا لَا يُغْفَرُ ، اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ، ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ، [فَإِنِّي] أَعْهَدُ إِلَيْكَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَأُشْهِدُكَ ، وَكَفَى بِكَ شَهِيدًا ، إِنِّي أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ، وَحْدَكَ لَا شَرِيكَ لَكَ ، لَكَ الْمُلْكُ ، وَلَكَ الْحَمْدُ ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ وَعْدَكَ حَقٌّ ، وَلِقَاءَكَ حَقٌّ ، وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا ، وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ، وَأَشْهَدُ أَنَّكَ إِنْ تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي تَكِلْنِي إِلَى ضَيْعَةٍ وَعَوْرَةٍ وَذَنْبٍ وَخَطِيئَةٍ ، فَإِنِّي لَا أَثِقُ إِلَّا بِرَحْمَتِكَ ، فَاغْفِرْ لِي ذَنْبِي كُلَّهُ ، إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ ، وَتُبْ عَلَيَّ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ "
(الطبراني في مسند الشاميين ، ضعيف الترغيب / ٣٩٧) .

٢٨ – روي عن عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مقاليد السموات والأرض فقال النبي صلى الله عليه وسلم ما سألني عنها أحد تفسيرها لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله وبحمده أستغفر الله لا حول ولا قوة إلا بالله الأول الآخر الظاهر الباطن بيده الخير يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير يا عثمان من قالها إذا أصبح عشر مرات أعطاه الله بها ست خصال أما واحدة فيحرس من إبليس وجنوده وأما الثانية فيعطى قنطارا في الجنة وأما الثالثة فترفع له درجة في الجنة وأما الرابعة فيزوج من الحور العين وأما الخامسة فله فيها من الأجر كمن قرأ القرآن والتوراة والإنجيل وأما السادسة [فله من الأجر كمن قرأ التوراة والإنجيل والزبوروله مع هذا] يا عثمان كمن حج واعتمر فقبل الله حجه وعمرته وإن مات من يومه ختم له بطابع الشهداء (ضعيف الترغيب / ٣٩٨) .

٢٩ – روي عن أبان المحاربي رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما من عبد مسلم يقول إذا أصبح وإذا أمسى الحمد لله الذي لا أشرك به شيئا وأشهد أن لا إله إلا الله إلا غفرت له ذنوبه حتى يمسي وإذا قالها إذا أمسى غفرت له ذنوبه حتى يصبح (ضعيف الترغيب / ٣٩٨) .

٣٠ – عن وهيب بن الورد رضي الله عنه قال خرج رجل إلى الجبانة بعد ساعة من الليل قال فسمعت حسا وأصواتا شديدة وجيء بسرير حتى وضع وجاء شيء حتى جلس عليه قال واجتمعت إليه جنوده ثم صرخ فقال
من لي بعروة بن الزبير فلم يجبه أحد حتى قال ما شاء الله من الأصوات فقال واحد أنا أكفيكه قال فتوجه نحو المدينة وأنا أنظر إليه فمكث ما شاء الله ثم أوشك الرجعة فقال لا سبيل لي إلى عروة قال ويلك لم قال وجدته يقول كلمات إذا أصبح وإذا أمسى فلا يخلص إليه معهن قال الرجل فلما أصبحت قلت لاهلي جهزوني فأتيت المدينة فسألت عنه حتى دللت عليه فإذا هو شيخ كبير فقلت شيئا تقوله إذا أصبحت وإذا أمسيت فأبى أن يخبرني فأخبرته بما رأيت وما سمعت فقال ما أدري غير أني أقول إذا أصبحت وإذا أمسيت آمنت بالله العظيم وكفرت بالجبت والطاغوت واستمسكت بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم إذا أصبحت ثلاث مرات وإذا أمسيت ثلاث مرات
(ضعيف موقوف ، ضعيف الترغيب / ٤٠٠) .

٣١ – قل إذا أصبحت : بسم الله على نفسي و أهلي و مالي فإنه لا يذهب لك شيء
(ابن السني في عمل اليوم والليلة) قال الشيخ الألباني : (ضعيف) انظر حديث رقم : ٤٠٩٦ في ضعيف الجامع .

٣٢ – " إذا أصبحت، فقل: اللهم أنت ربي لا شريك لك، أصبحت وأصبح المللك لله، لا شريك له. ثلاث مرات، وإذا أمسيت، فقل مثل ذلك، فإنهن يكفرن ما بينهن ".
(أخرجه ابن السني في "اليوم والليلة" ، السلسلة الضعيفة / ٢٣٣٤) .

٣٣ – عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:
" مَنْ قَالَ حِينَ يُصْبِحُ : أَعُوذُ بِاللَّهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ، أُجِيرَ مِنَ الشَّيْطَانِ حَتَّى يُمْسِيَ "
(أخرجه ابن السنى ، قال الألباني فيي إرواء الغليل : وهذا إسناد ضعيف) .

٣٤ – (يلتقي الخضر وإلياس عليهما السلام في كل عام في الموسم، فيحلق كل واحد منهما رأس صاحبه ، ويفترقان عن هؤلاء الكلمات : بسم الله ما شاء الله ، لا يسوق الخير الا الله ، ما شاء الله لا يصرف السوء الا الله ، ما شاء الله ، ما كان من نعمة فمن الله ؛ ما شاء الله ، لا حول ولا قوة الا بالله . من قالهن حين يصبح وحين يمسي ثلاث مرات أمنه الله من الغرق والحرق ، والسَّرَقِ . وأحسبه قال : ومن الشيطان والسلطان والحية والعقرب) .
(أخرجه العقيلي في "الضعفاء ، السلسلة الضعيفة / ٦٢٥١) .

٣٥ – جَاءَ رَجُلٌ إِلَى أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فَقَالَ : يَا أَبَا الدَّرْدَاءِ ، قَدِ احْتَرَقَ بَيْتُكَ . قَالَ : مَا احْتَرَقَ ، اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَكُنْ لِيَفْعَلَ ذَلِكَ ؛ لِكَلِمَاتٍ سَمِعْتُهُنَّ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، مَنْ قَالَهُنَّ أَوَّلَ نَهَارِهِ ، لَمْ تُصِبْهُ مُصِيبَةٌ حَتَّى يُمْسِيَ ، وَمَنْ قَالَهَا آخِرَ النَّهَارِ ، لَمْ تُصِبْهُ مُصِيبَةٌ حَتَّى يُصْبِحَ :
اللَّهُمَّ ! أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ، عَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ ، وَأَنْتَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ، مَا شَاءَ اللهُ كَانَ ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ ، أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْما ، اللَّهُمَّ ! إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي ، وَمِنْ شَرِّ كُلِّ دَابَّةٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ، إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) .
(أخرجه ابن السني في " عمل اليوم والليلة " ، السلسلة الضعيفة / ٦٤٢٠) .

٣٦ – عَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :
« مَنْ قَالَ حِينَ يُصْبِحُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ : اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ، أَنْتَ رَبِّي ، وَأَنَا عَبْدُكَ ، آمَنْتُ بِكَ مُخْلِصًا لَكَ دِينِي ، أَصْبَحْتُ عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ ، أَتُوبُ إِلَيْكَ مِنْ شَرِّ عَمَلِي ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِذُنُوبِي الَّتِي لَا يَغْفِرُهَا إِلَّا أَنْتَ ، فَإِنْ مَاتَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ دَخَلَ الْجَنَّةَ ، وَإِنْ قَالَ حِينَ يُمْسِي ثَلَاثَ مَرَّاتٍ : اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ، أَنْتَ رَبِّي ، وَأَنَا عَبْدُكَ ، أَمْسَيْتُ عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ ، أَتُوبُ إِلَيْكَ مِنْ شَرِّ عَمَلِي ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِذُنُوبِي الَّتِي لَا يَغْفِرُهَا إِلَّا أَنْتَ ، فَمَاتَ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ دَخَلَ الْجَنَّةَ » . ثُمَّ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَحْلِفُ مَا لَا يَحْلِفُ عَلَى غَيْرِهِ ، يَقُولُ : « وَاللَّهِ مَا قَالَهَا عَبْدٌ فِي يَوْمٍ حِينَ يُصْبِحُ فَيَمُوتُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ ، وَإِنْ قَالَهَا حِينَ يُمْسِي فَتُوُفِّيَ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ دَخَلَ الْجَنَّةَ »
(الطبراني في " الأوسط " ، السلسلة الضعيفة / ٦٧٣٢) .

٣٧ – عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :
" مَنْ قَالَ صَبِيحَةَ يَوْمِ الْجُمُعَةِ قَبْلَ صَلَاةِ الْغَدَاةِ : أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيَّ الْقَيُّومَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، غَفَرَ اللَّهُ ذُنُوبَهُ وَلَوْ كَانَتْ ذُنُوبُهُ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ "
(أخرجه ابن السني في "عمل اليوم والليلة"، قال الألباني في تمام المنة في التعليق على فقه السنة : ضعيف جدًا) .

٣٨ – عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم – :
« مَنْ سَبَّحَ فِي دُبُرِ صَلاَةِ الْغَدَاةِ مِائَةَ تَسْبِيحَةٍ وَهَلَّلَ مِائَةَ تَهْلِيلَةٍ غُفِرَتْ لَهُ ذُنُوبُهُ وَلَوْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ ».
(ضعيف النَّسائي / ١٣٥٤) .

استنصاح

قَالَ رسول الله – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ سِتٌّ " . وذكر منها :
" وَإِذَا اسْتَنْصَحَكَ فَانْصَحْ لَهُ " .
فأهيب بإخواني أن يبادروا بالاستجابة لأمر رسول الله – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وأن يُقدِّموا لي النصيحة ، وكذلك استرشادًا بقول رسول الله – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – :
(الدِّينُ النَّصِيحَة) ؛ فأنا أطلب من إخواني النصيحة بما يرونه أنفع وأفضل لإخراج هذا العمل في أفضل صورة وهو
(مِنْ أَسْبَابِ الوِقَايَةِ والفَلَاح شَرْحُ صَحِيحِ أَذْكَارِ المَسَاءِ والصَّبَاح) .
وأخيرًا : أسألكم بالله ألا تبخلوا عليَّ بأيّ نقدٍ بَنَّاء أو اقتراحٍ أو توجيهٍ أو نصيحةٍ فالمؤمن مرآة أخيه والمؤمنون نَصَحَة والمنافقون غَشَشَة .

وجزاكم الله خيرًا

للتواصل : موقع التواصل الاجتماعي
صفحة / عماد أبو النجا ، صفحة / عماد الدين أبو النجا
محمول : (٠١١١١٦٤٣٦٦٦ ، ٠١١١٦٧٨١٦٦٦)

الخَاتِمَةُ نَسْأَلُ اللهَ حُسْنَهَا

الحمد لله فاتحة كل خير وخاتمة كلّ نعمة ، أحمده عز وجل وأشكره على توفيقه وعونه ، وعلى جميع نعمه الظاهرة و الباطنة وبعد . فيقول العبد الضعيف أدام الله عليه عافيته ، وختم بالخير عاقبته ، هذا آخر ما يَسَّر الله لي من توضيح شرح الثلاثة الأصول في سؤال وجواب ، ومن نِعم الله – سبحانه وتعالى– على عبده أن يبدأ عملًا ما ، ثم تحوطه رعاية الله وعنايته حتى يفرغ منه ، وأهم الأعمال في هذه الحياة ما كان خالصًا لله تعالى ، يبتغي به رضى ربه ، وشكر نعمته عليه ، وأن يكون لمعة مضيئة على طريق الهداية لهؤلاء الذين تفرقت بهم السبل ، وانبهمت أمامهم المسالك ، فأهملوا شرع ربهم ، وكانوا للشيطان أولياء .

ولقد كان من توفيق الله لي أن هداني للكتابة عن (مِنْ أَسْبابِ الوِقَايَةِ والفَلَاح شَرْحُ صَحِيحِ أَذْكَارِ المَسَاءِ والصَّبَاح) .

وَهَذَا آخِرُ مَا يَسَّرَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، وَهُوَ شَيْءٌ يَسِيرٌ ، وَلَمْ يَعْرَ بِحَمْدِ اللهِ مِنْ أَثْوَابِ الْفَائِدَةِ بِتَعْرِيَتِهِ عَنِ الإِطَالَةِ وَالإِعَادَةِ ، وَمَعَ اعْتِرَافِي بِالْعَجْزِ ، جَعَلَنِي وَمَنْ نَظَرَ إِلَيْهِ بِعَيْنِ التَّغَاضِي – إِذْ مَا مِنْ أَحَدٍ غَيْرِ مَنْ عَصَمَهُ اللهُ يَسْلَمُ – مِنْ صَالِحِي أُمَّةِ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، وَاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْمَسْؤُولُ أَنْ يُوَفِّقَنَا لِكُلِّ عَمَلٍ جَمِيلٍ ، وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ، وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ .

قال أبو تمام : (فَإِنْ يَكُ ذَنْبٌ عَنَّ أو تَكُ هَفْوَةٌ ... عَلَى خَطَأٍ مِنِّي فَعُذْرِي عَلَى عَمْدِ)

ولوْ غشِيَني نورُ التّوفيقِ . ونظرْت لنفْسي نظرَ الشّفيقِ . لسَترْت عَواري الذي لمْ يزَلْ مسْتورًا . ولكِنْ كانَ ذلِكَ في الكِتابِ مسْطورًا . وأنا أسَتغْفِرُ اللهَ تعالَى ممّا أودَعْتُه منْ أباطيلِ اللّغْوِ . وأضاليلِ اللّهْوِ . وأسترْشِدُهُ إلى ما يعْصِمُ منَ السّهْوِ . ويحْظى بالعَفْوِ . إنهُ هوَ أهلُ التّقْوى وأهلُ المَغفِرَةِ . ووليُّ الخيْراتِ في الدُنْيا والآخِرَةِ

هذا ولا أدَّعي أني أتيت بما لم تستطعه الأوائل ، كما أنني لا أدَّعي لعملي هذا العصمة أو الكمال ، فهذا شأن الرسل والأنبياء ، ومن ظن أنه قد أحاط بالعلم فقد جهل نفسه (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا)(الإسراء / ٨٥)

فالعلم بحر لا شاطيء له ، قال أبو نواس :

فقلْ لمنْ يدَّعِي فِي العِلْمِ فَلْسَفَةً حَفِظْتَ شَيئًا ، وغابَتْ عنك أشياءُ

يقول الثعالبي : لا يكتب أحد كتابًا فيبيت عنده ليلة إلا أحب في غيرها أن يزيد فيه أو ينقص منه ، هذا في ليلة ، فكيف في سنين معدودة ؟

قال معمر : (لو عرض الكتاب مائة مرة ما كاد يسلم من أن يكون فيه سقط . أو قال : خطأ) . وعن المزني تلميذ الشافعي : (لو عرض كتاب سبعين مرة ، لوجد فيه خطأ ، أبى الله أن يكون كتاب صحيحًا غير كتابه)

ويقول المزني : (قرأت كتاب (الرسالة) على الإمام الشافعي ثمانين مرة ، فما من مرة إلا كان يقف على خطأ ، فقال الشافعي : هيه – أي حسبك واكْفُفْ – أَبَى الله أن يكون كتاب صحيحًا غير كتابه) .

ورحم الله ابن العماد الأصبهاني إذ يقول – والصواب أن هذا الكلام للقاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني الملقب بأستاذ البلغاء من رسالة له بعث بها إلى العماد الأصفهاني يعتذر إليه من كلام استدركه عليه – :

" إني رأيت أنه لا يكتب إنسانٌ كتابًا في يومه ، إلا قال في غده لو غُيِّرَ هذا لكان أحسن ، ولو زِيدَ كذا لكان يستحسن ، ولو قُدِّم هذا لكان أفضل ، ولو تُرِكَ هذا لكان أجمل ، وهذا من أعظم العبر ، وهو دليلٌ على استيلاء النقص على جملة البشر " فأرجو مسامحة ناظريه فهم أهلوها ، وأؤمل جميلهم فهم أحسن الناس وجوها .

قال الشاعر :

أَسِيْرُ خَلْفَ رُكَّاب النُّجُبِ ذَا عَرَجٍ مُؤَمِلاً كَشْفَ مَا لَقِيْتُ مِنْ عِوَجِ
فَإِنْ لَحِقْتُ بِهِمْ مَنْ بَعْدِ مَا سَبَقُوا فَكَمْ لِرَبِ الْوَرَى فِي ذَاكَ مِنْ فَرَجِ
وَإِنْ بَقِيْتُ بِظَهْرِ الأَرْضِ مُنْقَطِعًا فَمَا عَلَى عَرَجٍ فِي ذَاكَ مِنْ حَرَجِ

قال أبو نواس :

منحتكُم يا أهلَ مصرَ نصيحتِي ... ألا فخُذُوا من ناصحٍ بنصيبِ
فلا تَثبُوا وثْبَ السّفاهِ فتركبوا ... علَى ظهرِ صعبِ الرَّأسِ غير رَكوبِ
فإنْ يكُ باقِي إفكِ فرعونَ فيكُم ... فإنَّ عَصَا موسَى بكفِّ خَصيبِ

اللهم إنا نشهد أنك واحد فرد صمد ، وأن محمدًا عبدك ورسولك – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وأنه بلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، ونصح الأمة ، وأن الرسل حق ، وأنهم بلغوا الرسالة ، وأن الموت حق ، والقبر حق ، والميزان حق ، والصراط حق ، والجنة حق والنار حق ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث مَنْ في القبور .

اللهم توفَّنا مسلمين تائبين ، لا مُغَيِّرين ولا مُبَدِّلين آمين يا رب العالمين ،

وَلَقَدْ خَتَمْتُ بِذَا الخِتَامِ بَحْثِي ..... وَعَلَى الإِلَهِ تَوَكُّلِي وَثَنَـــــائِي
إِنْ كَانَ تَوْفِيقٌ فَمِنْ رَبِّ الوَرَى ..... وَالعَجْزُ للشَّيْطَانِ والأَهْـــوَاءِ
في حِينِها أَدْعُو الذي بِدُعَائِهِ ..... يَمْحُو الخَطَا وَيَزِيدُ فِي النَّعْمَاءِ
سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ ثُمَّ بِحَمْدِكَا ..... أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ مِـــنْ أَخْطَائِي

هذا وأسأل الله تبارك وتعالى أن ينفع بهذا الجهد ، وأن يجعله خالصًا لوجهه الكريم ، وأستغفر الله العظيم من كل ذنب وخطيئة ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وقد فرغت من جمع وترتيب هذا الكتاب يوم الخميس الموافق للخامس والعشرين من شهر ربيع الأول لعام تسعة وثلاثين وأربعمِائة وألف لهجرة الخليل المصطفى – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، الموافق للرابع عشر من شهر ديسمبر لعام سبعة عشر وألفين للميلاد

٢٥ / ١٢ / ٣ / ١٤٣٩هـ – ١٤ / ١٢ / ٢٠١٧ م .

كتبه خَجِلًا وجِلًا / أبو حمزة عماد الدين أبو النجا

بورسعيد – جمهورية مصر العربية .

صحيفة الكتاب

شكر ٣
المقدمة ٤
أحاديث ما صحَّ من أذكار المساء والصباح ٨
أذْكَار الْمَساء وَالصَّبَاح ، وأسباب الحفظ والفلاح
– آية الكرسي (اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ)
١– عَنْ أُبَيّ بنِ كَعْبٍ ... قَالَ : فَمَا يُنْجِينَا مِنْكُمْ ؟ قَالَ : هَذِهِ الآيَةُ الَّتِي فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ : (اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ) (البقرة / ٢٥٥) مَنْ قَالَهَا حِينَ يُمْسِي أُجِيرَ مِنَّا حَتَّى يُصْبِحَ ، وَمَنْ قَالَهَا حِينَ يُصْبِحُ أُجِيرَ مِنَّا حَتَّى يُمْسِيَ ، فَلَمَّا أَصْبَحَ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ
– صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ ، فَقَالَ : " صَدَقَ الْخَبِيثُ " ١٤
قلت : (والقائل / عماد) : فائدة في الشفاعة ١٦
المُعَوِّذات (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ) (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ)
٢– عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ خُبَيْبٍ قَالَ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) وَالْمُعَوِّذَتَيْنِ حِينَ تُمْسِي وَحِينَ تُصْبِحُ ثَلاثَ مَرَّاتٍ تَكْفِيكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ " ٢٣
– قلت : (والقائل / عماد) : فائدة في الفرق بين (الواحد) و (الأَحد) :..... ٢٤
– قلت : (والقائل / عماد) : فائدة في الاستعاذة : ٢٨
قلت : (والقائل / عماد) : فائدة في معانى الرب : ٢٩
– سَيِّدُ الاِسْتِغْفَارِ
٣– عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ عَنِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ : " سَيِّدُ الاِسْتِغْفَارِ أَنْ تَقُولَ : اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ، ... قَالَ ، وَمَنْ قَالَهَا مِنَ النَّهَارِ مُوقِنًا بِهَا فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُمْسِيَ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، وَمَنْ قَالَهَا مِنَ اللَّيْلِ وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ " ٣٣
– قلت : (والقائل / عماد) : – فائدة في أقسام الناس في أفعال العباد وحججهم في ذلك :
..... ٣٧
– قلت : (والقائل / عماد) : فائدة في (مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ) ٤٤
قلت : (والقائل / عماد) : فائدة في الذنب والفرق بينه وبين مثيلاته ٤٧

٤– عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – إِذَا أَمْسَى قَالَ :
" أَمْسَيْنَا وَأَمْسَى الْمُلْكُ لِلَّهِ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ ، ... وَإِذَا أَصْبَحَ قَالَ ذَلِكَ أَيْضًا :
" أَصْبَحْنَا وَأَصْبَحَ الْمُلْكُ لِلَّهِ " ٥٢
٥– عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –
: " إِذَا أَصْبَحَ أَحَدُكُمْ فَلْيَقُلْ : اللَّهُمَّ بِكَ أَصْبَحْنَا ، وَبِكَ أَمْسَيْنَا ، ... " ٥٧
– قلت : (والقائل / عماد) : تنبيه مهم في اختلاف في الروايات في تقديم وتأخير جملة
(وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ) ، (وَإِلَيْكَ النُّشُورُ) ٥٨
٦– عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –
" يَا أَبَا بَكْرٍ قُلْ : اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ .... " ٦١
– قلت : (والقائل / عماد) : تنبيه مهم : اشتهرت عبارة
(لَا مَعْبُودَ بِحَقٍ فِي الْوُجُودِ إِلَّا اللَّهُ) ٦٢
٧– عَنْ ابْنِ عُمَرَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما – قَالَ : لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –
يَدَعُ هَؤُلَاءِ الدَّعَوَاتِ حِينَ يُمْسِي ، وَحِينَ يُصْبِحُ : " اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ ... " ٦٦
– قلت : (والقائل / عماد) : فائدة لغوية في (يدع) : ٦٦
– (إشكال والردّ عليه) : " وَاحْفَظْنِي مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ ، وَمِنْ خَلْفِي ، وَعَنْ يَمِينِي ، وَعَنْ شِمَالِي "
فإن قيل : لماذا عُدِّيَ الْفِعْلُ في (مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ ، وَمِنْ خَلْفِي) بـ (مِنْ)
ثم عُدِّيَ في (وَعَنْ يَمِينِي ، وَعَنْ شِمَالِي) بـ (عَنْ) ؟ ٦٧
٨– عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لِفَاطِمَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا – :
" مَا يَمْنَعُكِ... ، أَنْ تَقُولِي إِذَا أَصْبَحْتِ وَإِذَا أَمْسَيْتِ : يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ ،
أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ ، وَلا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ " ٧١
قلت : (والقائل / عماد) : فائدة في الاستغاثة ٧٢
٩– عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ
وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، .. ، وَكُنَّ لَهُ حِرْزًا مِنَ الشَّيْطَانِ حَتَّى يُمْسِيَ ، وَمَنْ قَالَهَا حِينَ يُمْسِي ،
كَانَ لَهُ مِثْلُ ذَلِكَ ، وَكُنَّ لَهُ حِجَابًا مِنَ الشَّيْطَانِ حَتَّى يُصْبِحَ " ٧٧
– قلت : (والقائل / عماد) : فائدة في الحسنة : ٧٨

١٠- عَنْ أَبِي عَيَّاشٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم- قَالَ : " مَنْ قَالَ إِذَا أَصْبَحَ ،
لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ... حَتَّى يُمْسِيَ ، وَإِنْ قَالَهَا إِذَا أَمْسَى كَانَ لَهُ مِثْلُ ذَلِكَ حَتَّى يُصْبِحَ " ٨٨
قلت : (والقائل / عماد) : فائدة في السَّيِّئَةِ : ٨٨
أذكار تقال عِدَّة مرات
١١- عَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - :
" مَا مِنْ عَبْدٍ يَقُولُ ... : بِسْمِ اللَّهِ الَّذِي لَا يَضُرُّ مَعَ اسْمِهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ،
وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، فَيَضُرَّهُ شَيْءٌ " ٩٣
١٢- عَنْ أَبِي بَكْرَةَ أَنَّهُ قَالَ " اللَّهُمَّ عَافِنِي فِي بَدَنِي ، اللَّهُمَّ عَافِنِي فِي سَمْعِي ،
اللَّهُمَّ عَافِنِي فِي بَصَرِي ، لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ، ... فَقَالَ إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ
- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَدْعُو بِهِنَّ فَأَنَا أُحِبُّ أَنْ أَسْتَنَّ بِسُنَّتِهِ " ٩٦
(صحيح أبي داود / ٥٠٩٠ وقال حسن الإسناد ، وصحيح الأدب المفرد) .
- قلت : (والقائل / عماد) : فائدة في التفضيل بين السمع والبصر : ٩٧
١٣- عَنْ أَبِي أَيُّوبَ الأَنْصَارِيِّ عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهُ قَالَ :
" مَنْ قَالَ حِينَ يُصْبِحُ : لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ ، ١٠٣
- قلت : (والقائل / عماد) : - إشكال وجوابه :
" مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ،
هذه الجملة واحدة في عدة أحاديث ، والأجر المترتب عليها مختلف ؛ فمرة رَقَبَةٍ ، ومرة رَقَبَتَيْنِ
ومرة عَشْرِ رِقَابٍ ، فكيف نوفق بين هذه الأحاديث وهل من قال هذه الجملة له
(رَقَبَةٍ ، أم رَقَبَتَيْنِ أم عَشْرِ رِقَابٍ) ؟ ١٠٤
١٤- عَنْ أَبِي أَيُّوبَ الأَنْصَارِيِّ إِنَّ رَسُولَ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ :
" مَنْ قَالَ غُدْوَةً : لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ، ... " ١٠٧
١٥- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - :
" مَنْ قَالَ : حِينَ يُصْبِحُ وَحِينَ يُمْسِي : سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ ، مِائَةَ مَرَّةٍ ، ... " ١١١
- قلت : (والقائل / عماد) : - إشكال وجوابه : هل التَّسْبِيح أَفْضَلُ مِنْ التَّهْلِيلِ ١١٢
١٦ - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - :
" مَنْ قَالَ حِينَ يُصْبِحُ سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ ، وَبِحَمْدِهِ ، مِائَةَ مَرَّةٍ ، ... " ١١٤

١٧- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ رَسُولَ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ :
" مَنْ قَالَ : لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ، ... " ١١٧
١٨- عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - :
" مَنْ قَالَ : سُبْحَانَ اللهِ مِائَةَ مَرَّةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ... " ١٢٠
١٩- عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ :
" مَنْ قَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ، ... " ١٢٤
مُقيَّد بالصَّباح
٢٠- عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبْزَى قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إِذَا أَصْبَحَ ،
قَالَ : " أَصْبَحْنَا عَلَى فِطْرَةِ الْإِسْلَامِ ، وَكَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ ، وَدِينِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ،
وَمِلَّةِ أَبِينَا إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا مُسْلِمًا ، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ " ١٢٦
٢١- عَنْ أَبِي مُوسَى - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ :
" مَا أَصْبَحْتُ غَدَاةً قَطُّ إِلَّا اسْتَغْفَرْتُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ مِئَةَ مَرَّةٍ " ١٣٠
٢٢- عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - عَنْ جُوَيْرِيَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -
قَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : " لَقَدْ قُلْتُ بَعْدَكِ أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ،
لَوْ وُزِنَتْ بِمَا قُلْتِ مُنْذُ الْيَوْمِ لَوَزَنَتْهُنَّ : سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ ، عَدَدَ خَلْقِهِ ، وَرِضَا نَفْسِهِ ،
وَزِنَةَ عَرْشِهِ ، وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ " ١٣٣
- قلت : (والقائل / عماد) : فائدة في (الْمِيزَانِ) : ١٣٤
- قلت : (والقائل / عماد) : فائدة في (صفة الرِّضا) : ١٣٦
- قلت : (والقائل / عماد) : فائدة في صفة النَّفْس لله ، وهل هي الذات ؟. ١٤٠
- قلت : (والقائل / عماد) : فائدة في إثبات صفة الكلام لله : ١٤٥
٢٣- عَنِ الْمُنَيْذِرِ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ :
" مَنْ قَالَ إِذَا أَصْبَحَ : رَضِيتُ بِاللَّهِ رَبًّا ، وَبِالإِسْلامِ دِينًا ، وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا ،
فَأَنَا الزَّعِيمُ لآخُذَ بِيَدِهِ حَتَّى أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ " ١٦٢
٢٤ - عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ عَطَاءٍ ، قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِسَوْدَةِ :
" سَبِّحِي اللَّهَ كُلَّ غَدَاةٍ عَشْرًا ، وَكَبِّرِي عَشْرًا ، وَاحْمَدِي عَشْرًا ، وَقُولِي : اغْفِرْ لِي عَشْرًا ،
فَإِنَّهُ يَقُولُ : قَدْ فَعَلْتُ قَدْ فَعَلْتُ " ١٦٦

مُقيَّد بالمساء أو الليل
٢٥- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ قَالَ : جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَ :
يَا رَسُولَ اللهِ مَا لَقِيتُ مِنْ عَقْرَبٍ لَدَغَتْنِي الْبَارِحَةَ ، قَالَ : " أَمَا لَوْ قُلْتَ ، حِينَ أَمْسَيْتَ :
أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ، لَمْ تَضُرَّكَ " ١٧٠
- قلت : (والقائل / عماد) : فائدة في الفرق بين اللَّسْع واللَّدْغ : ١٧٠
- قلت : (والقائل / عماد) : فائدة في (لو) : ١٧٢
- فائدة في الاستعاذة : ١٧٢
- فائدة في (من شر ما خلق) - إشكال وشُبْهَة ، والردّ عليها : ١٧٣
٢٦- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ :
" مَنْ قَالَ حِينَ يُمْسِي ثَلاثَ مَرَّاتٍ : أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ،
لَمْ يَضُرَّهُ حُمَةٌ تِلْكَ اللَّيْلَةَ " ١٨٤
٢٧- عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - :
" مَنْ قَرَأَ بِالآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ " ١٨٧
تفسير الآيتين : (آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ...) ١٨٧
قلت : (والقائل / عماد) : فائدة في الإيمان بالله ١٩١
قلت : (والقائل / عماد) : فائدة في الملائكة ١٩٣
قلت : (والقائل / عماد) : فائدة في الإيمان بالكتب ١٩٤
قلت : (والقائل / عماد) : فائدة في الإيمان بالرسل ١٩٥
أذكار وأحاديث غير مقبولة ٢٠٠
استنصاح ٢٠٧
الخاتمة ٢٠٨
صحيفة الكتاب ٢١٠